محمد حسن الوزاني

مذكرات

حياة وجهاد

التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية

2

حرب الريف



مؤسسة محمد حسن الوزاني

مذكرات

حياة وجهاد

التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية



محمد حسن الوزاني

مذكرات

حياة وجهاد

التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية

2

حرب الريف

الناشر

مؤسسة محمد حسن الوزاني

الإهْداء

إلى أرواح جميع شهداء المقاومة المسلحة والحركة الوطنية التحريرية في المغرب، وإلى جميع الأجيال المغربية: لكي تعلم وتتذكر، عسى تنفع الذكرى المؤمنين.

المؤلف

الفصل الأول

بطل الريف الأول محمد أمزيان

ثار الريف على التدخل الأسباني بمجرد ما ظهر خطره على البلاد، وكانت الثورة الأولى مدبرة من المجاهدين من القبائل المهددة بخطر الأسبان، وكان أشهر قواد الجهاد في ذلك العهد البطل محمد أمزيان الذي أبلى البلاء الحسن في محاربة الفتان بوحمارة الذي استولى على شرق الريف، ثم انصرف بعد هذا الى الجهاد ضد الأعداء الأسبانيين المحتلين، وكان ظهور المجاهد أمزيان في 1325 هـ (1905 م) حيث كانت الحرب مع بوحمارة، وفي 1909 حشد الاسبان جيوشهم في ناحية مليلية للعدوان على الريف، فكان هذا سبب انطلاق حركة الجهاد ضد المعتدين، وفي هذه الحركة برز المجاهد محمد أمزيان كقائد عنيد على رأس جموع المجاهدين الشجعان، ودامت المعارك سنتين تجشم فيها الأسبان أعظم الخسائر وأفظع الهزائم، ويقال إنهم خسروا فيها عشرة آلاف قتيل ومن طليعتهم قواد عسكريون كبار كالجنرال بينتو. والجنرال فيك ريو، وكانت قبيلة قلعية إحدى القبائل التي جاهدت ضد العدو جهاد الأبطال.

ومن الأسباب التي عرضت الريف للمطامع الأجنبية ما كان يشاع إذ ذاك من كثرة الثروات المعدنية التي جلبت الى أرضه جميع المهتمين بها من الأجانب الأوربيين، ومن أشهرهم الأسبان والألمان، فكان المنقبون يجولون في الريف خفية متنكرين ومتجسسين لفائدة دولهم والشركات المعنية بأوربا، ولم يكن هذا الجانب من التدخل الأجنبي ليخلو من الأخطار في الحال والمآل على البلاد وأهلها وعمرانها، فاعتبر طليعة للاحتلال، وتمهيداً للاستعمار،

صفحة بخط المرحوم الأستاذ محمد حسن الوزاني من مسودة هذه المذكرات

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل الأوّل

بطل الريف الأول محمد أمزيان

ثار الريف على التدخل الاسباني بمجرد ما ظهر خطره على البلاد، وكانت الثورة الأولى مدبرة من المجاهدين في القبائل المهددة بخطر الإسبان، وكان أشهر قواد الجهاد في ذلك العهد البطل محمد امزيان الذي أبلى البلاء الحسن في محاربة الفتان بوحمارة الذي استولى على شرق الريف، ثم انصرف بعد هذا إلى الجهاد ضد الأعداء الإسبانيين المحتلين، وكان ظهور المجاهد امزيان في 1325 هـ (1905)، حيث كانت الحرب سجالاً مع بوحمارة، وفي 1909 حشد الإسبان جيوشهم في ناحية مليلية للعدوان على الريف، فكان هذا سبب انطلاق حركة الجهاد ضد المعتدين، وفي هذه الحركة برز المجاهد محمد امزيان كقائد صنديد على رأس جموع المجاهدين الشجعان، ودامت المعارك سنتين تجشم فيها الإسبان أعظم الخسائر، وأفظع الهزائم، ويقال إنهم خسروا فيها عشرة آلاف قتيل وفي طليعتهم قواد عسكريون كبار كالجنرال بينتو والجنرال فيكاريو، وكانت قبيلة قلعية إحدى القبائل التي جاهدت ضد العدو جهاد الأبطال.

ومن الأسباب التي عرضت الريف للمطامع الأجنبية ما كان

يشاع عنه إذاك من كثرة الثروات المعدنية التي جلبت إلى أرضه جميع المهتمين بها من الأجانب الأوروبيين، ومن أشهرهم الإسبان والألمان، فكان المُنَقِّبون يتجولون في الريف خفية متنكرين ومتجسسين لفائدة دولهم والشركات المعنية بالأمر فيها، ولم يكن هذا الجانب من التدخل الأجنبي ليخلو من الأخطار في الحال والمئال على البلاد، وأهلها، وخيراتها، فاعتبر طليعة للاحتلال، وتمهيداً للاستعمار، وهكذا واجه الريفيون حرب الإسبان، وخطر التهافت على ثروة الأرض من شتى الطامعين الأوروبيين المنسلين من كل حدب وصوب، والمندسين للبحث والاكتشاف. وفي عهد بوحمارة المسيطر على شرق الريف وقبائله الاثنتي عشرة تم الاتفاق معه على استغلال معدنين في قبيلة بني بويفرور في جبل وكسان، وجبل احرشاون وذلك لفائدة شركتين اسبانية وفرنسية في 1907، وكان استثمار المعدنين تحت حراسة قوية من أتباع الفتان، ولنقل المعدن المستخرج منها بُدىء في وضع سكة حديدية ممتدة إلى مليلية، وكان هذا برهاناً على عملية الاستيلاء على الثروات ونهبها كهدف للتدخل الأجنبي بالحرب والسلم معاً، ويقال إن عبد الحفيظ احتج على هذا لدى الدول المعنية بالأمر، ولما أراد الإسبانيون إغراء سكان القبيلة بالفوائد التي يمكنهم الحصول عليها، واتجهوا خاصة للمجاهد امزيان لإقناعه بالأمر امتنع ورد عليهم بأن للمغرب سلطاناً يتعين الاتصال به في هذا الشأن، وتم الاتصال به من جهة القبيلة بواسطة وفد لها، فأكرمت وفادته، ثم أمره السلطان بالعودة للريف للمشاركة في الحرب ضد الإسبان، فكان هذا هو الجواب على عروض ومطامع الأعداء.

ويتضح من هذا أن المجاهدين الريفيين بقيادة امزيان خاضوا المعركة كذلك ضد الاستيلاء الأجنبي على ثروات البلاد رافضين ما عرض عليهم من فوائد وأموال، وبيع ضمائرهم وخيراتهم، ومفضلين الجهاد والتضحية، ولما فشل الإسبان في خطتهم مع أهل الريف ـ إغراء بالنفع، تارة وتهديداً بالقوة، تارة أخرى ـ صمموا على العدوان بالجيوش حتى يتمكنوا من الأرض وأهلها وثرواتها، فتجدد القتال على أشده، وتحققت بعض الاحتلالات.

وفي هذه الفترة أخذ محمد امزيان يتصل بالقبائل ويستحثها على الجهاد، ومما استعمل للاستنفار إشعال النار فوق قمم الجبال، فكلما رأتها قبيلة أوقدت بدورها النار، فتعالمت القبائل الخطر الداهم، واستعدت لخوض غمار الجهاد، وبهذه الوسيلة احتشدت الجموع الوافدة من شتى القبائل والتفَّت حول القائد امزيان، وكان هذا في 18 يوليوز 1909، وقدرت قوات المجاهدين إذاك بعشرة آلاف من الشجعان الذين باعوا نفوسهم لله وللوطن، ثم تحصنوا في مراكزهم بجبلي سيدي احمد الحاج وتازوطا المشرفين على مليلية، وكان المجاهدون ينزلون ليلاً ليعترضوا قوافل العدو، ويقتتلوا معه في معارك ضارية، وهاجم المجاهدون المراكز الإسبانية بسيدي موسى حيث تكبد الأعداء الخسائر، وكان لها أسوأ الأثر في إسبانية، فعزمت حكومتها على الانتقام، وأرسلت الجنرال بنتو لقيادة جيشها المحارب وذلك في يوليوز 1909، ولما سمع المجاهدون بهذا استعدوا أكثر لصد هجوم العدو، ونشبت المعركة حامية الوطيس بوادي قرب مليلية، وبدأ التضعضع في جيش العدو،

واستعمل كذلك القتال بالسكاكين ممن لم يكن معهم سلاح من المجاهدين، وقتل الجنرال بنتو في المعركة التي كان يحرض فيها جنوده، وبقتل قائد الإسبان تكبد جيشهم الهزيمة ولاذ بالفرار، والمجاهدون يلاحقونه بالقتل حتى دخلت أشلاؤه لمليلية، وكان قائد المجاهدين هو البطل امزيان، وكانت المعركة من أشد وأشهر ما خاضه الريفيون، واستشهد منهم عدد غير قليل.

ولما لم يتحمل الإسبان وقع هزيمتهم بوادي الذيب جيشوا جيوشاً بقيادة ضباط كبار، واستأنفوا العدوان، فالتحم الفريقان حتى تقهقر الجيش الإسباني متكبداً أعظم الخسائر، وجرح بعض الكبار من قواده وبالرغم من هذا، والت قيادة مليلية نداءات النجدة والإمداد، فلبتها حكومة إسبانيا حتى بلغت قوة جيشها نحو الخمسين ألفاً، ومع هذا التجأت تلك القيادة إلى إغراء بعض القبائل بالمال، فاستطاعت شراء الضمائر حتى ظهر التقاعس في مواقف المجاهدين، وتجلى هذا في قبيلة قلعية عامة، وبني شكر ومزوجة خاصة، فكان الغدر والخذلان آخر الأمر حيث التحق سكان سيدي محمد بفرخانة وبني شكر بالإسبان، ودخل رجال قلعية في خدمة الأعداء، وكان لحركة الغدر والخذلان أسوأ الآثار في نفوس المجاهدين من القبائل الأخرى، فانفضوا من حول البطل امزيان الذي لم يصمد معه إلا الصابرون الثابتون، وأدى ذلك الخذلان إلى تقدم الإسبان واستيلائهم على بعض المراكز والقرى، وغادر المجاهدون مراكزهم بسوق جمعة مزوجة، واتخذوا لهم مركزاً جديداً يسمى لمشتكة من فخضة جزولة بقبيلة بني بويفرور، قبيلة البطل محمد امزيان.

وفي أكتوبر 1909 هجم الإسبان من الناضور بجيش عرمرم بلغ 17000 مقاتل، ولما تأكد الأعداء من ضعف المجاهدين تقدموا نحو سلوان فاحتلوها، ثم ساروا متجهين نحو جبل وكسان حيث المعادن، ونشبت المعركة مع المجاهدين بقيادة محمد امزيان، وكانت الهزيمة فيها للأعداء الذين أحاطت بهم قوات المجاهدين من كل جانب، وفر الجنرالان الفاو وطوبار من ميدان القتال، وبالرغم من هذه الهزيمة تمكن الإسبان من احتلال المرتفعات بجبال سيدي أحمد الحاج وتازوطا، ومنها كانوا يقنبلون بمدافعهم للسكان الذين لجأوا إلى الفرار، وتوالت الاستيلاءات حتى وصلت إلى وادي كرت في نوفمبر 1909 فانسحب امزيان مع المجاهدين من قلعية إلى قبيلة مطالسة، بينما اشتغل الإسبان بتنظيم احتلالهم في الأراضي التي استولوا عليها، وعاث الأعداء فساداً فيها بواسطة الخونة الـذين سلطوا على السكان.

وفي هذه الأثناء توجه القائد محمد امزيان إلى قبائل بني ورياغل، وتمسمان، وبني سعيد، وبني أوليشـك، وبني توزين وغيرها، وصار يستنصر رجالها وذلك في بحر 1910، وكان الأعداء على علم من تحركات امزيان بواسطة خونة بعض القبائل، وكانت بني ورياغل تحرص على مسالمة الإسبان لمواصلة التعامل معهم في حجرة النكور.

وبعدما أيقن الإسبان من تكتل القبائل استعداداً للحرب قرروا استعمال الأسطول ضد بني وريـاغل، فـواجهت قبائـل الشاطىء في أكتوبر 1911 جيوش العدوان حتى تراجعت يأساً من

احتلال الساحل وجباله الوعرة، واتخذ المجاهدون مركزاً جديداً هو اجنادة في بني سعيد، ووصل إليه، في ديسمبر 1911 نحو اثني عشر ألف مجاهد، من قبائل بني ورياغل، واجزناية، وبقيوة، وبني يطفت، وبني بوفراح، وبني عمارت، وتمسمان، وبني توزين، واتجهت هذه القوات بقيادة امزيان إلى بازرورا بقبيلة بني بوغافر، فنشبت المعارك مع العدو لما هاجم المجاهدين من مختلف الجهات، واشترك الأسطول في المعركة التي كانت ممتدة على مسافة خمسة عشر كيلومتراً، وأخذ التقهقر يبدو في صفوف الأعداء، وانتهت معركة ازرورا بانتصار المجاهدين، ثم كانت معركة مع الإسبان بقيادة الكولونيل بريمودي ريفيرا، وهاجم المجاهدون مركزي ازحافا، وأمعروفا بقيادة امزيان، وقتل الجنرال سلفادور، وذاع الخبر إذاك بأن المجاهدين بقيادة بطلهم آخذون في الاستعداد للاستيلاء على مليلية.

وفي يناير 1912، احتل الإسبان جبل العروي بقبيلة بني بويحيى وكانت المعارك على مسافة مائة كيلومتر. وفي مايو 1912 سار القائد امزيان على رأس سبعمائة من المجاهدين متوجهاً بهم إلى بني سيدال، وفي مسيرته خلف وراءه عدة مراكز عدوة، وكان الإسبان يتجسسون على سير المجاهدين، وذات ليلة نام القائد امزيان في مسجد ومعه بعض المجاهدين، فعلم الإسبان بالخبر بواسطة جواسيسهم من القبليين، واتجهت القوات الإسبانية إلى مكان المسجد فطوقته: فلما شعر القائد بالخطر طلب من أصحابه الذين يريدون السلامة، أن يغادروا المكان تحت الظلام، فانسحب

أكثرهم، وبعد صلاة الفجر غادر امزيان ومن معه المسجد وأخذوا يهاجمون الأعداء، وفي هذه المعركة استشهد القائد امزيان في 15 مايو 1912 بقبيلة بني سيدال، فخلد جهاده وبطولته في التاريخ، وأخذ العدو جثته إلى مليلية حيث عرضوها في المستشفى، ثم سلموها لعائلته، ودفن بمقبرة سيدي أحمد بن عبد السلام بضاحية ازغنغان.

الحاج العربي الورياشي

الكشف والبيان

عن سيرة بطل الريف الأول

استشهد في 15 ماي
سنة 1912



بقبيلة
بني سيدال

سيدي محمد أمزيان

وأخبار مقاومته هو وإخوانه الريفيين لأبي حمارة، ثم الإسبان

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الفصل الثاني

الثورة الريفية
حركة وطنية تحريرية

لا نريد أن نكتب هنا تاريخ الحرب الريفية بتفصيل وتدقيق، فهذا عمل يتطلب مجهوداً كبيراً، ووقتاً طويلاً للبحث والاطلاع، والتحقيق والتمحيص اعتماداً على مصادر صحيحة وهي نادرة، إن لم تكن مفقودة، ونعني المصادر الجدية التي تسجل الوقائع وتروي الأخبار بصدق ونزاهة، وبكل أسف لا نعلم شيئاً عنها إن كانت موجودة. أما المصادر الأجنبية، وخاصة منها الفرنسية والإسبانية، فهي أكثر من أن تحصى كتباً، وجرائد ومجلات، كلها مشحونة بالتحريف والتشويه، وباعتبارها مصادر عدوة فهي مغرضة وناقصة، وأما ما طبع ونشر بالعربية فهو على قلّته مترجم أو متأثر بالكتابات الأجنبية التي يلتبس فيها الحق بالباطل.

وإذا كان بعض المغاربة المطلعين قد كتبوا شيئاً في الموضوع فإنهم لم ينشروه لأسباب تخصهم، وبهذه المناسبة أذكر أن بطل الحرب الريفية كتب مذكراته، ولكنه امتنع من إخراجها للوجود على قيد حياته، وبما أني كنت على اتصال وثيق ومستمر به وبشقيقه في القاهرة طيلة سنوات فقد حاولت أن أقنع الأمير بضرورة نشر مذكراته لأنه أولى من يتحدث عن الثورة التحريرية بالريف، ولأنه

بهذا يمكن من دحض ما في المؤلفات الأجنبية من ترهات وأباطيل حولها، ولأن في ذلك خدمة لتاريخ المغرب الحديث وحركته الوطنية التحريرية، ومع اقتناعه بهذا فقد كان يعتذر، ومرة كنت أتحدث مع عبد الرحمان عزام باشا، الأمين العام لجامعة الدول العربية في موضوع الحرب الريفية ومذكرات بطلها، فألحَّ عليَّ، نظراً لما كان يعلمه من حُظوتي عنده، في أن أقنعه بطبعها، والتزم لي عزام باشا بأن تتولى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية الطبع بالعربية والترجمة مع الطبع بالأنجليزية، والفرنسية، والإسبانية على نفقتها الخاصة، وأضاف عزام أنه مستعد ليعطيني التزامه كتابة، فنقلت هذا للأمير محمد، ولكنه أصرَّ على رأيه، وهو أن الوقت لم يحن بعد لإخراج مذكراته إلى الوجود، وكنت أنتهز كل فرصة لإعادة الكرة حتى فزت آخر الأمر بموافقته، وهو أن أتولى مراجعة المذكرات مع شقيقه الأمير محمد في بيته بالدقي، وأن نفرغها في صيغتها النهائية مع الرجوع إليه كلما دعت الحاجة، والتزمت بأن أضيف إليها التعليقات والإيضاحات المناسبة، وكذلك كل ما تحتاج إليه من فهارس ونقد أهم ما في الكتب الأجنبية والعربية من تحريف وزيف، وتزيينها بالصور التاريخية التي أملكها. وفعلاً شرعت في العمل مع الأمير محمد ثم انقطعت عنه لما توجهت لحضور دورة هيئة الأمم المتحدة، وبعدها أقمت بلوزان في سويسرة لما أخذت القضية المغربية تتطور، والأزمة المغربية الفرنسية تسير بسرعة نحو حلها المنشود.

ثم حدث لقاء (ايكس ليبان) التاريخي، وكنت في لوزان على

مقربة من مكانه للاتصال والتشاور مع وفد حزب الشورى والاستقلال في ذلك اللقاء، وبعد هذا تتابعت الأحداث والتطورات، فكانت عودة الملك المنفي لفرنسا، والمحادثات المغربية الفرنسية، وكل هذا جعلني أنقطع عن عملي في المذكرات بالقاهرة، وأنا جد آسف.

وقد توفي البطلان الأميران محمد ومَحمد ـ رضوان الله عليهما ـ دون أن تتحقق الأمنية العزيزة على قلوب جميع المخلصين، وعسى أن يوفق الله خلفهما لإخراج المذكرات كخير وأصح مصدر لتاريخ الحرب الريفية التحريرية، وهذا أقل واجب نحو المجاهدين، والوطن، وتاريخه، والأجيال المغربية. وبهذه المناسبة أذكر خبراً مزعجاً أرجو أن يكون شائعة، وهو أن أحد الورثة لا حاجة لذكر اسمه قبض مبلغاً مهمًا من المال ممن سعوا للاستيلاء على المذكرات. لإتلافها أو إخفائها من الوجود، لأنه لا مصلحة لهم في نشرها وللتعريف بالتاريخ الصحيح لحرب الريف التحريرية، فإذا صح الخبر المذكور ـ لا قدَّر الله ـ فإنه يكون عاراً بل خيانة للأمانة التي تركها السلف للخلف. وإذا كان الخبر شائعة باطل فلماذا لم يسعد الحظ المذكرات لتخرج من الظلمات إلى النور خدمة للوطن وتاريخه وذلك بعد ما مضت الأعوام على وفاة بطلي الثورة والتحرير في الريف؟ سؤال يضعه تاريخ المغرب على عقبهما، وفي نفس الوقت يضع المعنيين بالأمر أمام مسؤولياتهم العائلية والوطنية، والتاريخية، فهل سيقدرونه ويهبُّون لنشر المذكرات إن كانوا يملكونها؟

هذا، وطالما راودني التفكير في كتابة ذلك التاريخ مستعملاً ما عندي من وثائق، وما أظفر به من مصادر، مع تحري الصدق والأمانة، وكثير ممن علموا هذا ألحوا عليَّ في إنجاز المشروع، وأنا كوطني مغربي، وكرجل وَفِيٍّ لأبطال بلادي الذين جمعتني بهم المودة والثقة أعد ذلك ديناً في عنقي، وكل أملي أن أوفَّق لأدائه على الوجه المطلوب، وريثما يتاح لي هذا أعرض فيما يلي خلاصة لحرب الريف اعتماداً على مصادر موثوقة، ووثائق صحيحة، وبذلك أعطي نظرة عامة عنها مقتصراً على أشهر الأحداث، والوقائع، والرجال، ومبرزاً دور البطلين الريفيين الذين ملئا الأسماع، والأبصار، والأفئدة بما بوَّأهما مقعداً رفيعاً بين الخالدين من العظماء.

لقد سئل الأمير محَمد عن نشأته فأجاب: «ليس في نشأتي وسالف أيامي ما يختلف كثيراً عن نشأة أخي محُمد، تلقينا دروسنا الأولى عن والدي، ثم ذهبت إلى تطوان ومليلية، ولما أخذت الشهادة الابتدائية انتخَبت أنا وبعض الرفقاء لإتمام تعليمنا على نفقة الحكومة إذ كنا من النابهين في الامتحانات، ولما انتهيت، بعد سنتين، من الدراسة الابتدائية عينت معلمًا، ولما رجعت لمليلية اجتمعت بأحد الألمانيين، وحضرت المحادثات التي جرت بينه وبين شقيقي والتي كانت نتيجتها الفشل. ولما عدت إلى اجدير علمت باعتقال شقيقي، فرحت أعمل مع والدي في سبيل استقلال الريف وتحريره، ثم رجعت إلى مليلية استعداداً لتقديم امتحانات البكالوريا، وبعدما نجحت ذهبت إلى مدريد لإكمال دراستي على نفقة الحكومة، وما كدت أدخل إلى مدرسة المعادن فيها حتى أبرق

لي والدي بالقدوم نظراً لتوتر العلاقات بين الريف والإسبان.

«وقد اغتنمت فرصة وجودي في مدريد للتحدث مع بعض السياسيين الإسبان في شأن الموقف بالمغرب عامة، والريف خاصة، وقد استقبلني الملك بعد ذلك، وسألني أن أعمل لمساعدة إسبانيا فيما تعتزمه من نشر الاطمئنان والرفاهية في المغرب، ولا أزال أحفظ ذكرى جميلة لزيارتي لمدريد وقد استقبلت فيها، وعوملت بمنتهى الود والصداقة، ولكني علمت بعد ذلك أن الأغراض السياسية الإسبانية لا تتفق وأغراض والدي الذي كان يرغب في استقلال الريف وتحريره».

ويتضح من هذا أن المتحدث تربي مع شقيقه في بيئة السياسة والجهاد قبل ثورة التحرير الكبرى في الريف بسنوات غير قليلة، أي إبان تمرد الفتان بوحمارة على الحكومة المغربية بإيعاز وإسناد بعض الدول الأجنبية التي حاولت أن تمتد إلى المغرب بالدس والمؤامرة، والفتنة بغية التمهيد للغزو، والاحتلال، والاستعمار. ومن المعلوم أن بوحمارة، بعد أن أشاع الفتنة والاضطراب بتازة وناحيتها وسخر فيها بغيه وباطله لمن حرضوه وأثاروه من أجل ما بيتوه من شر وعدوان، توجه إلى قبائل الـريف فتمكن من إخضاع بعضها لنفوذه وسلطته، ولكن لما وصل إلى قبيلتـه بني ورياغل وجد أمامه من أوقفه عند حده، وهو عبد الكريم الخطابي الذي كان على جانب كبير من العلم والسياسة، كما كان يعد بحق رجل القبيلة وصنديدها، ولهذا استطاع، أمام الخطر، أن يؤلف بين جميع رجال القبيلة بالرغم عما كانوا عليه من خلاف وفوضى،

ويجعل منهم صفاً واحداً، وقوة قادرة على دفع الخطر الذي داهمهم مع زحف بوحمارة.

وبعد أن تم لعبد الكريم الخطابي ما أراد من توحيد القبيلة وإعدادها لقتال بوحمارة دبَّر خطة حربية ناجحة، وهي أنه فتح الطريق في وجه الفتان إلى أن توغل بجميع قواته في أرض بني ورياغل، فتكبد فيها شر هزيمة في معركة تسمى بمعركة بوسلامة، ثم فر بنفسه تاركاً وراءه جميع الذخائر والأسلحة، والمؤن، وبعدما فرضت الحماية الأجنبية على المغرب، واحتل الإسبان بعض شماله أخذ عبد الكريم يفكر في عاقبة الأمور، فرأى أن لا بد له من أحد الأمرين: إما أن يعمل لتحرير وطنه الصغير الريف؛ وإما أن يموت موت العزة والشهادة.

وحينما أدرك أن خطر الاستعمار الإسباني قد أخذ ينتقل من ناحيتي مليلية وتطوان إلى أن أصبح قابَ قوسين أو أدنى من قبيلة بني ورياغل أيقن أن الوقت قد حان للعمل، فاستدعى ولده محمداً الذي كان بفاس في مهمتين هما طلب العلم بالقرويين، والاتصال بأوساط «المخزن» بقصد الاستطلاع وإطلاع والده، على ما يروج من أخبار فيها، خصوصاً وقد كان البلاط السلطاني هدفاً للمناورات، والمحاولات، والضغوط، والإغراءات الديبلوماسية الأوروبية بغية الوصول إلى أغراض السياسة الاستعمارية الخفية لكل الدول الطامعة والمتنافسة.



الأمير محمد عبد الكريم الخطابي مع والده



الفصل الثالث

الوضع الداخلي الإسباني

في نهاية الحرب العالمية الأولى كانت الوضعية الداخلية في إسبانيا متدهورة، وكان النظام الملكي في أمسّ الحاجة إلى ما يسنده من أعمال ناجحة في الداخل والخارج، وكان الملك ألفونسو أمام أمرين: الرضوخ للحكومة ذات الشعبية المكينة، أو اللجوء إلى الحكم القوي الذي كان انتهى بدستور 1876. وإذا كانت إسبانيا قد استفادت اقتصادياً من الحرب، فإن اختفاءها أسلمها إلى المشاكل من انخفاض في الإنتاج، وتكاثر البطالة، وانتشار الفقر، وهذا أصبح من عوامل ذيوع الأفكار الاشتراكية، والميل إلى الجمهورية خصوصاً وأن نجاح الثورة في روسيا ساعد على الدعوة إلى التيارات اليسارية. ومع هذا فقد ظلت إسبانيا دولة إقطاع تسودها طبقة الاريستوقراطية والكهنوت، وهكذا شعر الملك بطامة الاقتصاد في 1920، فوجد نفسه بين اختيارين: تطبيق الدستور أو إقامة الدكتاتورية. ولما كان سيىء السمعة في البلاد لم يكن أهلاً لأخذ السلطة بيده، فكان في حاجة إلى اكتشاف رجل يتولى الحكم بدلاً منه، وكان قواد الجيش سيِّئي السمعة مثله لما تسببوا فيه من كوارث وانهزامات في المغرب.

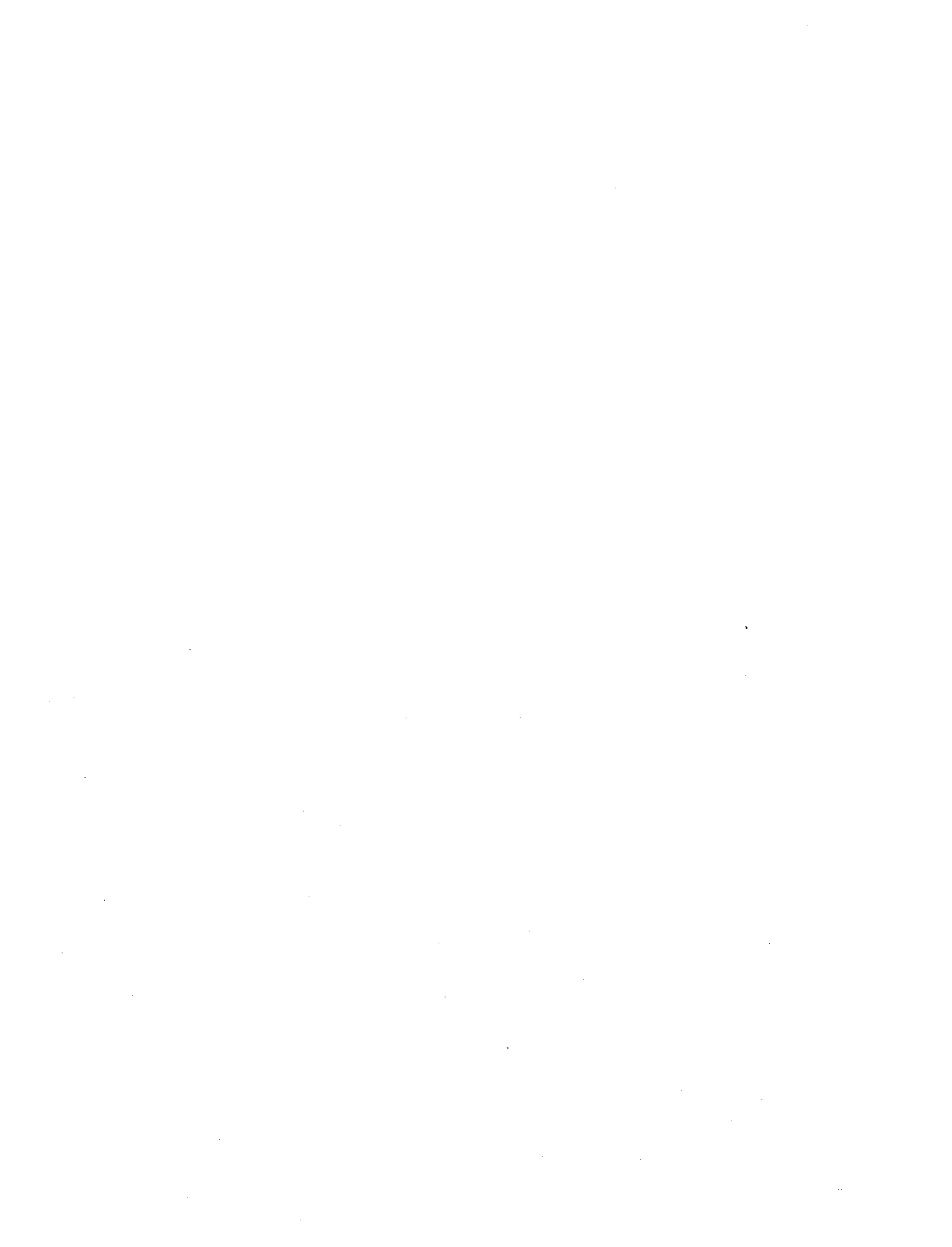
وكان الجيش يبلغ مائة ألف رجل، و 1200 ضابطاً، منهم 690 جنرالاً، و 2000 كولونيل. ومن سؤ حظ ألفونسو أنه اختار أسوأ رجل لتنفيذ مخططه.

وفي المغرب كان الإسبان متمركزين في مليلية وما حولها شرقاً، وفي تطوان كان الجنرال بيرانجير مندوباً سامياً وقائداً أعلى للجيش، وقد خطر له أن يتوجه إلى الرباط للتشاور مع ليوطي الذي أشار عليه بسلوك سياسة «التوغل العسكري البطيء» بعد التمهيد له سياسياً، فاقتنع الإسباني بهذا، وأصبح يعلن أنه لا داعي لإراقة المزيد من الدماء، فاتجه إلى جلب القبائل بتطبيق تلك السياسة، فكان الاصطدام مع الريسوني الذي كان غيوراً على مركزه في القبائل الغربية.

ولما نشب القتال هاج الرأي العام في مدريد حيث شنت الصحف ذات النزعة الجمهورية حملاتها قائلة: إن مواصلة الحرب في المغرب منافية لوعود الحكومة، وأن المغاربة قتلوا كثيراً من الجنود الإسبانيين، ومع هذا فالحرب مستمرة، وأن الناس لا يريدون التوجه إلى المغرب، كما أنهم لا يريدون أن يصرف فلس آخر عليه، وقد سئمت إسبانيا التضحية بأبنائها لاحتلال بلاد لا تجني منها إلا المصاعب والمشاكل، باستثناء أنصار الملكية والاريستوقراطية.

وهكذا عبرت الصحافة اليسارية عن استياء الجماهير من قادة الجيش، والحكومة، والملك صاحب المخططات الحربية.

ومما زاد الوضع تأزماً أن الملك عين الجنرال «سيلفيستر» قائداً للجيش بالمغرب بدل الجنرال «بيرانجير» ثم نقل «سيلفيستر» إلى مليلية كقائد للجيش بها، وفي 1920 جاء اللفيف الأجنبي الإسباني المدعو «تيرسيو» وهو على نسق سميِّه الفرنسي (لاليجيون)، وكان قائد التيرسيو «ميلان أستري» ومساعده (فرانسيسكوفرانكو) الذي صار دكتاتوراً فيها بعد الحرب المدنية في 1936.



الفصل الرّابع

محمد بن عبد الكريم الخطابي وسعيه في توحيد الصفوف

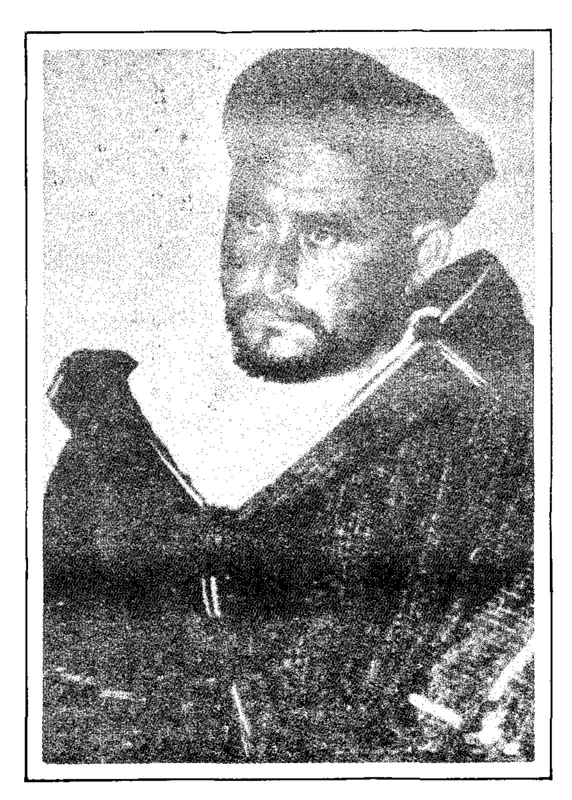
ولد محمد عبد الكريم الخطابي بأجدير سنة 1882، وكان الولد البكر، وقضى السنوات الأولى من طفولته في مسقط رأسه، وكان أبوه عبد الكريم قاضياً بأجدير حيث كان يتمتع بالاحترام والتقدير نظراً لشخصيته، ومنصبه وسلوكه، وثـرائه المنـاسب. ولما بلغ الولد البكر الخامسة أدخل للكتاب القرآني (المسيد) إلى أن أدرك العاشرة.

وفي 1892 تورطت الأسرة في قضية ثأر، وبما أن عبد الكريم كان شديد الكراهة للأخذ بالثأر كما كانت العادة الشنيعة في الريف التي كان يصفها «بلعنة الريف»، فقد رحل مع أسرته إلى تطوان فراراً من الوسط القبلي الشديد التمسك وقتئذٍ بتلك العادة المنكرة التي جعلت من القبائل وفـروعها وأسـرها أعـداء تفرق بينهم الضغائن، والانتقامات، والدماء، والأرواح. وفي تطوان انكبَّ الولد محمد على تعلم العربية والدين، وعاش في جو جديد مع الطلبة، وفي مدينة أكثر حضارة، وتفتحاً على العالم.

وفي عام 1899، عادت الأسرة إلى أجدير بعد أن أيقن عبد الكريم الأب أن العادة المكروهة المثيرة للأحقاد وإراقة الدماء

قد اختفت أو كادت أن تضمحل، وكان محمد قد بلغ السابعة عشرة، وتم تقرير اتجاهه في الحياة من السير على نهج والده وأجداده، وهو القضاء، ولهذا توجه سنة 1905 إلى فاس حيث دخل جامع القرويين، وفي فاس اتسع أفق الطالب الريفي علماً، وتهذيباً، وتربية، ومعرفة بالناس من مختلف الطبقات والحيثيات، وأثناء مقامِهِ بفاس، كان له اتصال بأوساط القصر السلطاني عملاً بوصية أبيه الذي كان حريصاً على تتبُّع ما يروج فيها من أخبار، والاطلاع على التطورات السياسية في ذلك العهد، عهد الأزمات والمشاكل مع الدول الطامعة في احتلال المغرب واقتسامه بينها. ولهذا كان الطالب يُعنى بكل ما يجري في فاس عامة، وفي دار المخزن خاصة، ويوافي والده بكل ما يحصل عليه من معلومات أثناء اتصالاته برجال المخزن والمقربين وغيرهم.

وذات يوم توصَّل برسالة من أبيه تخبره بزيارته له، وأثناء اجتماعهما تحدثا في الاتفاق المبرم بين فرنسا وإسبانيا لاقتسام المغرب، ويظهر حسبما يرويه مصدر أجنبي أنه لم يكن أول الأمر معارضاً لذلك الاتفاق الذي ظن أنه ربما يكون «نقمة في طيها نعمة» بالنسبة للريف خاصة، ولكنه أيقن بعد ذلك أن إسبانيا سيئة النوايا، فهي تريد الاستيلاء والسيطرة قصد الاستعمار، والاستغلال، والاستعباد وتسخير سكان البلاد وثرواتها الطبيعية والمعدنية، وازداد تأكداً من هذا، لما علم الإسبان بمعارضته للاتفاق فأرسلوا من قلعة الجزيرة المواجهة لشاطىء الحسيمة فرقة عسكرية لإحراق داره، كل هذا جعل عبد الكريم وولده يدركان ما كان يهدد الريف من خطر إسباني أكيد.



الأمير محمد عبد الكريم الخطابي

وفي عام 1909 رجع مُحمد الطالب إلى أجدير بعدما أنهى دراسته في فاس، وفي هذا الوقت كان التحالف قد تحقق بين قبائل الريف على يد عبد الكريم الخطابي الذي بذل كل جهد للوصول إلى إقامته ضد عدوان الثائر الفتان بوحمارة الطامع في الاستيلاء على الريف مدفوعاً من جهة فرنسية. وبعدما شاهد محمد المعركة وجهه أبوه إلى مليلية فتمكن من العيش في الوسط الإسباني والاطلاع على

أسرار السياسة الإسبانية في الريف، ثم مارس التعليم في مدرسة محلية، وتخلى عنه سنة ليتولى تحرير الصفحة العربية من جريدة (برقية الريف)، كما عمل كاتباً في إدارة الشؤون المحلية. وعين في عام 1913، مستشاراً بمحكمة الجنايات، وبعد سنتين عين رئيساً قاضياً في الجنائي والمدني للمغاربة المسلمين بمليلية، وقد عرض عليه الإسبان منصب حاكم للريف بعدما يتمكنون ــ في ظنهم ــ من احتلاله، ولكنه رفض مع إظهار كل استعداد للتعاون معهم إذا استطاعوا إقناعه بحسن نواياهم في الريف، وكان يعلم أن العكس هو الصحيح. وفي مختلف المناصب التي شغلها استطاع أن يزداد خبرة وتجربة ووقوفاً على حقيقة النوايا الإسبانية، ودفع هذا بمحمد بن عبد الكريم إلى محاولة الاستفادة من الألمان لمصلحة الريف وأهله خاصة.

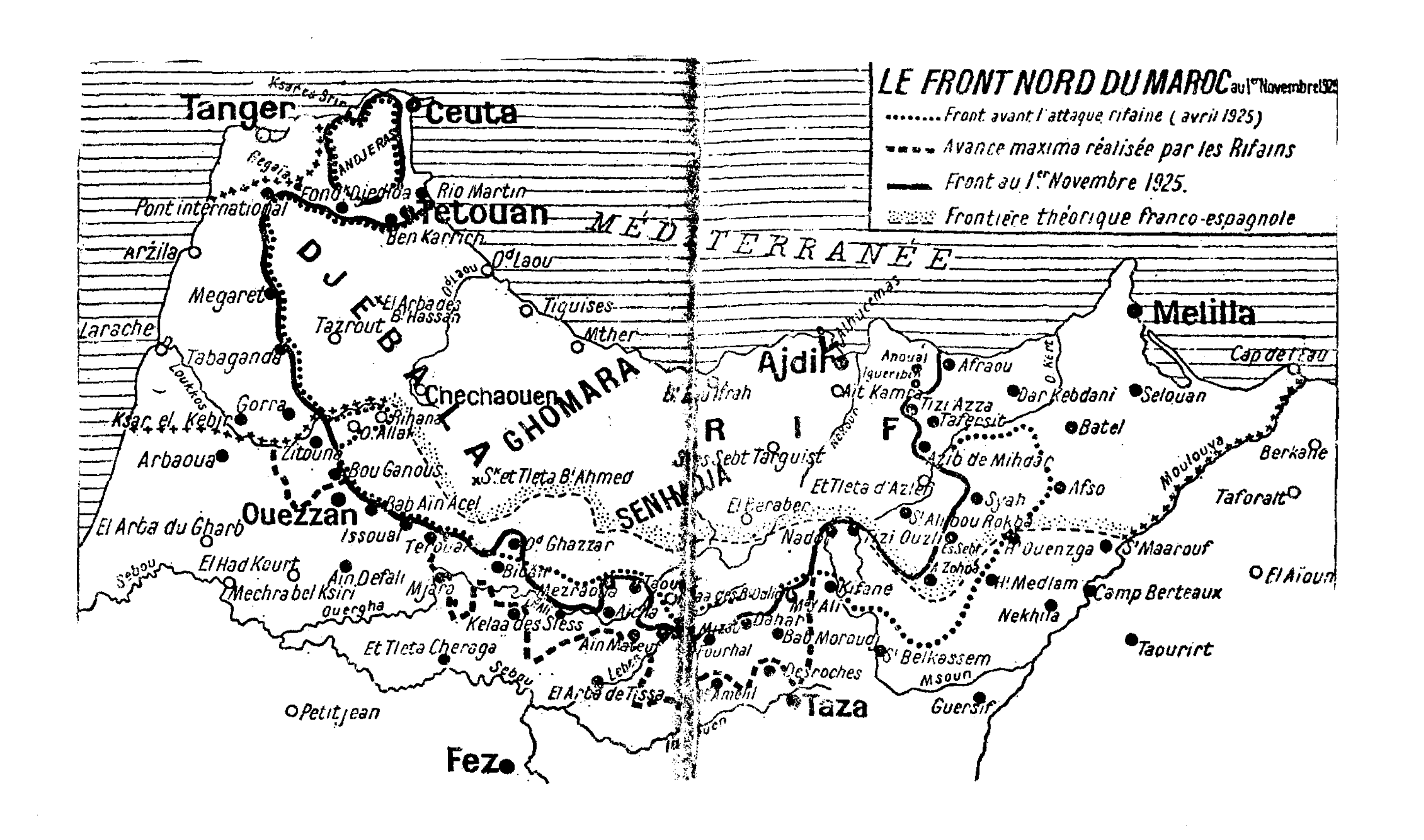
وفي مليلية اتصل بالجنرال (سيلفستر) أثناء زيارته لها، وأدى الحوار بينهما إلى خصام، وبتهمة السياسة المناوئة لإسبانيا اعتقل محمد بن عبد الكريم، ويقال إن مما سبب له الاعتقال تحريض الفرنسيين الإسبان عليه لاتهامهم إياه بمناصرة الأتراك حلفاء الألمان وأعداء فرنسا وقتئذٍ.

ولما كان محمد بن عبد الكريم سجيناً بمليلية بتهمة الاشتغال بالسياسة وهو في منصب القضاء بها، دبر خطة الفرار وكانت محاولة الفرار كما يلي: لما تمكن بعض أصدقائه من إدخال حبل إلى سجن البرج الذي كان فيه تدلى به ليلاً من نافذة الزنزانة، وأثناء نزوله علقت عمامته بمصراع النافذة أثناء وجوده في الفضاء مثقلاً بالحوائج

التي ارتداها احتياطاً، وتخفيفاً لألم السقوط، وسعياً في سلامته إن وقع على الأرض، وفعلاً سقط فتكسرت ساقه، ولما عثر عليه السجانون نقل إلى المستشفى، وأريد قطع رجله فرفض. ولما شفي بقي عطب برجله جعله يمشي مشية غير عادية، وبوشرت محاولة الفرار ولم يكن قد مضى عليه في الاعتقال غير عشرة أشهر، فحاكمه الإسبان، ودافع عن نفسه حتى خرج بريئاً، فأفرج عنه، وتوجه لأجدير حيث بقي سنتين، ثم رجع لمليلية فرد إلى منصب القضاء بها وبناحيتها. وحينما تلقى الاستدعاء من أبيه امتنع الإسبان من مساعدته، ولم يوافقوه إلا بعد أن يترك في بنك جميع ماله الذي كان يقدر بستين ألف ريال إسبانية، ففعل هذا من غير تردد، والتحق بأبيه، كما استدعى في نفس الوقت شقيقه محَمد الذي كان بمدرسة المعادن في مدريد، وكان محَمد الابن الثاني لعبد الكريم الخطابي ولد سنة 1892، وقد نشأ كما نشأ شقيقه الأكبر، وقد أسلفنا ما تحدث به عن نشأته.



الجنرال سيلفيستر


LE FRONT NORD DU MAROC au 1er Novembre 1925
Front avant l'attaque rifaine (avril 1925)
Avance maxima réalisée par les Rifains
Front au 1er Novembre 1925.
Frontière théorique franco-espagnole
MÉDITERRANÉE
Tanger
Ceuta
Tetouan
Rio Martin
Ben Karrich
Pont international
Arzila
Larache
Megaret
Tabaganda
Loukkos
Gorra
Ksar el Kebir
Arbaoua
Zitouna
Bou Ganous
Ouezzan
Bab Ain Acel
El Arba du Gharb
El Had Kourt
Mechra bel Ksiri
Issoual
Ain Defali
Ouergha
Et Tleta Cheraga
Sebou
Petitjean
Fez
DJEBALA
GHOMARA
SENHADJA
RIF
ANDJERAS
Tazrout
Chechaouen
Od Laou
Tiguises
Mther
Kelaa des Sless
Ain Maaouf
El Arba de Tissa
Taza
Desroches
Bab Moroud
Dahar
Kifane
Nador
Tizi Ouzli
Et Tleta d'Aziez
Ajdir
Anoual
Ait Kamara
Tizi Azza
Tafersit
Afraou
Dar Kebdani
Selouan
Batel
Melilla
Cap de l'Eau
Azib de Midhar
Afso
Syah
Moulouya
Berkane
Taforalt
S't Maarouf
Camp Berteaux
El Aïoun
Taourirt
Hassi Medlam
Nekhila
S't Belkassem
Msoun
Guersif

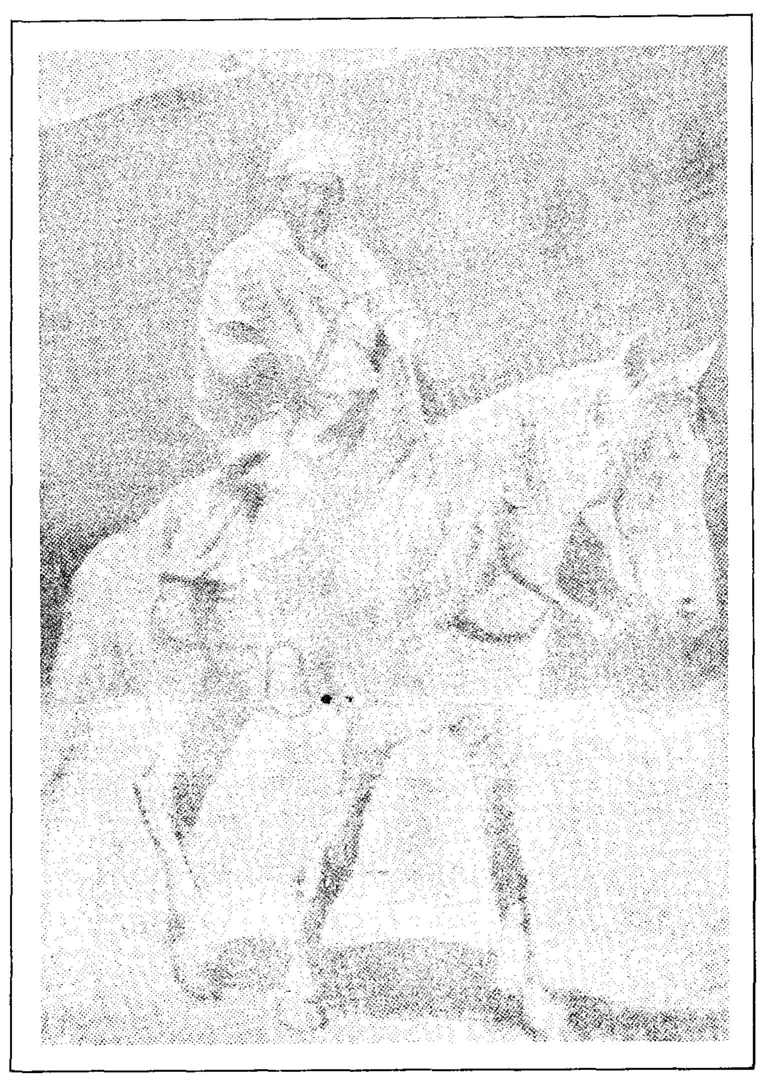
وهنا بدأ تحول كبير وحاسم في حياة آل الخطابي خاصة، وفي قبيلة بني ورياغل والريف عامة، ذلك أنه بمجرد ما التأم الجمع بين الأب وولديه، تدبروا الخطر الإسباني الذي أخذ يحدث بالقبيلة وبالبلاد، فأجمع رأيهم على محاربة الإسبان. وإثر هذا، أخذ عبد الكريم الخطابي الأب يؤلف من جديد القبيلة كما فعل من قبل لرد عدوان ابو حمارة، فأسس مراكز ستراتيجية، وأنشأ خطوطاً حربية مقابلة لخطوط الإسبان، ولم يمض شهران على هذا العمل التنظيمي المحكم حتى توفي في سنة 1920، ويغلب على الظن أنه مات مسموماً، ويقال إن ريفياً عميلاً للإسبانيين هو الذي سممه تنفيذاً لما قرروه من اغتيال جميع الشخصيات المناوئة لهم، ويدعى عبد السلام التفرسيتي، وذلك بعد أن أدركوا خطر عبد الكريم عليهم حيث كان يتجول في الريف ليوحد سكان قبائله ويقنعهم بسوء نية إسبانيا وبما بيَّتته من خطط لاحتلال الريف، فيهيب بهم إلى تكوين جيش للدفاع عن وطنهم، ولما رجع لأجدير صرح بأنه أكل سمًا في طعام، ولزم فراش المرض، ثم استدعى ولديه وكان أصغرهما بمدريد، فأوصاهما بالجهاد في سبيل استقلال الريف، وتوفي في شتنبر سنة 1920، وخلفه ابنه الأكبر في منصب القضاء باجدير ولم تمض أسابيع حتى أقنع رجال الريف بعقد مجلس للتشاور والتحالف، ولكن فشلت المحاولة، فلم يكن هذا ليفت في عضد محمد بن عبد الركيم، بل ظل يتجول ويدعو إلى الاتحاد ضد الإسبان، وكان يهتم ببني ورياغل باعتبار أنهم العدة في اتحاد قبائل الريف، وفي حركة الجهاد المقدس ضد الإسبان الغزاة باسم النصرانية والاستعمار.

وهكذا استطاع الابن الأكبر، بعد قليل من وفاة أبيه، أن يفهم القبيلة ضرورة الإقدام على حرب منظمة عصرية، فتعاهد رجال القبيلة على المصحف الكريم بأن يجاهدوا ويموتوا في سبيل الله والحرية، ودفاعاً عن الحق والشرف متمسكين بالكتاب والسنة، وبعد محمد بن عبد الكريم الخطابي كان أول من تقدم من رجال القبيلة فأقسم على المصحف الكريم هو الفقيه محمد بن علي المدعو بُولَحية، ثم لم تمض ستة أشهر على ذلك حتى تألفت قوى القبيلة وانتظمت أمورها استعداداً للحرب، وكان المجاهدون فيها يقدرون بنحو خمسة آلاف، ولم يكن عمل التكتيك، والتوحيد، والإعداد بالسهل، وذلك لما قامت في وجهه من عراقيل وصعوبات نتيجة الدسائس والمؤامرات الأجنبية التي كانت تحاك في القبيلة، وكذلك بسبب الأموال والإغراءات التي كانت ترمي إلى شراء ضمائر بعض الأعيان والوجهاء، والتي كان يصرفها الأجانب بسخاء. وممن وقفوا في وجه محمد بن عبد الكريم شخصية منافسة استمالها الإسبان، وهو بورجيلة الذي كان رئيس عائلة باجدير تنافس عائلة الخطابي، ويقال إنه هدد محمد بن عبد الكريم بالقتل.

وذات يوم التقى الرجلان في السوق ومع كل واحد منهما عصبيته المسلحة، وتوقع الناس الاصطدام الدموي. ولما أدرك محمد بن عبد الكريم الخطر على الوحدة التي كان عاملاً من أجلها اقترح أن يمتنع الجانبان من ارتياد السوق، وهو ما رفضه بورجيلة، وذات يوم دخل مع عصبيته المسلحة سوق القبيلة، وجلسوا يشربون الشاي، فقابلهم الناس بالصياح والصفير إظهاراً للاستنكار

فأحسوا بالخطر، وحاولوا الفرار، ولكن الناس رجموهم حتى قتلوهم جزاء الغدر والخروج عن الجماعة.

وقد اختط محمد بن عبد الكريم استراتيجية لمواجهة جيش عصري منظم، وهي حرب العصابات التي تليق بالمجاهدين وبطبيعة الأرض، وهي أقدر على الفتك بالعدو من أية حرب أخرى غير متيسرة أول الأمر لعدم توفر الأنظمة، والأجهزة، والأسلحة، التي يتوفر عليها جيش عصري منظم كجيش الأعداء.



أسد المغرب الهصور محمد بن عبد الكريم الخطابي، وقد امتطى صهوة جواده، ومضى يرتاد جبال الريف، ويسرح بين سهوله أيام كان ينظم خطط المقاومة

الفصل الخامس

إعلان جمهورية الريف
وتجدد المعارك

كان من الطبيعي، بل من الضروري، اثر الانتصارات على الجيوش الإسبانية، أن يفكر محمد بن عبد الكريم في تنظيم الثورة، ولهذا أمر القبائل المنضوية تحت لواء الجهاد بأن تنتخب كل واحدة منها ولياً يتولى أمرها، وفي مدة قصيرة تقدم إليه ولاة الأمر المنتخبون في قبائلهم، فأفهمهم أن الحرب ستطول، وأن النصر لا يأتي إلا بالنظام، وفعلاً تم تكوين «حكومة جمهورية» الريف في يوليوز 1921، أي في شهر الانتصارات الكبرى.

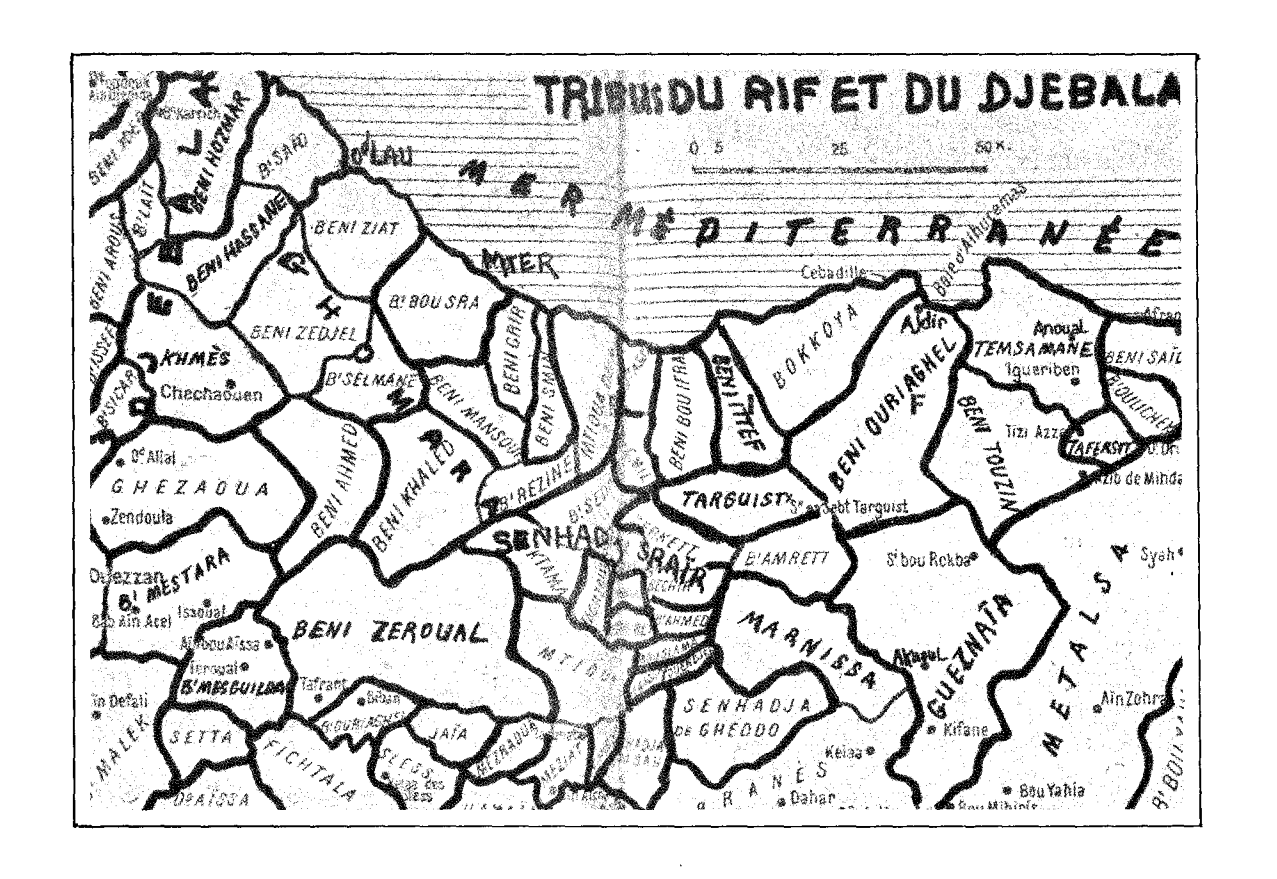
كما أمرهم بتسجيل جميع القادرين على القتال، وبدفع خمس الغنائم التي غنموها من الإسبان لصالح الجهاد، أما الأسلحة على اختلاف أنواعها فسلمت إلى جيش التحرير.

وبعد ذلك وردت على قيادة التحرير وفود من القبائل الجبلية بنواحي تطوان تطلب النجدة لتحرير أرضها من احتلال الإسبان، فتعين محمد (فتحا) الخطابي ليتوجه إلى قبيلة غمارة، غير أنه لم يتأت له أن يقوم بالعمل في ذلك الوقت نظراً لفصل الشتاء، وتراكم الثلوج، وتعذر المواصلات، فرجع إلى مقره في انتظار وقت العمل.

وأما الإسبان فإن ما حل بهم في الريف من هزائم وخسائر متوالية في كل مكان جعل فريقاً منهم يدعو إلى ترك الريف وشأنه، ولكن الفريق الاستعماري المتعصب كان يرى الاستمرار في تنفيذ خطط الاستيلاء مهما كلف تنفيذها من جهود وتضحيات، وهذا ما كان، فأعدوا قوة عظيمة جاءت من إسبانيا إلى مليلية، وللقضاء على هذه القوة دبر محمد مع شقيقه الكبير خطة حربية موفقة، وذلك أنهما أصدرا الأمر إلى المجاهدين بالتراجع شيئاً فشيئاً حتى إذا توغلت القوات الإسبانية في البلاد أنزلوا بها ضربة قاضية، وفعلاً تراجع المجاهدون تدريجياً من عدة قبائل هي قلعية، وبني سعيد، وبني أوليشك، ومطالسة، وطال هذا سنة كاملة. وكانت قيادة المجاهدين في واجهة القتال بيد عبد السلام بن الحاج محمد الورياغلي، وكانت القوات الإسبانية متمركزة على حدود قبيلتي تمسمان وبني توزين نحو أربعة أشهر. ولما نشبت المعارك بين الفريقين انهزم الإسبان، ثم افتدى الإسبان بعد ذلك أساراهم وفيهم الجنرال «ابرو»، بدفع أربعة ملايين بسيطة، وبإطلاق سراح من كانوا عندهم من المجاهدين الأساري.

1 ـ معركة جزيرة النكور:

وهذه الجزيرة مساحتها نحو أربعة كيلومترات مربعة في البحر الأبيض المتوسط تبعد عن الشاطىء المغربي بما يقارب ثلاثة كيلوميترات، ويسكنها الإسبان من عهد واقعة الأندلس، وكانت هي صلة الوصل بين بني ورياغل وإسبانيا من حيث المخابرات،


TRIBUS DU RIF ET DU DJEBALA
0 5 25 50 K.
MER MÉDITERRANÉE
Baie d'Alhucemas
Cebadille
BENI HOZMAR
BENI HASSANE
BENI ZIAT
BENI ZEDJEL
KHMÈS
Chechaouen
B' BOU SRA
B' SELMANE
BENI GRIR
BENI SMIH
BENI MANSOUR
BENI AHMED
BENI KHALED
GHEZAOUA
Zendoula
B' MESTARA
Isaoual
BENI ZEROUAL
B' MESGUILDA
Tafrant
SETTA
FICHTALA
JAÏA
KTAMA
SENHADJA SRAÏR
TARGUIST
Sebt Targuist
BENI BOU IFRAH
BENI ITTEF
BOKKOYA
Adir
BENI OURIAGHEL
TEMSAMANE
Anoual
Iqueriben
BENI SAÏD
BENI TOUZIN
Tizi Azza
TAFERSIT
B' AMRETT
S' bou Rekba
MARNISSA
GUEZNAÏA
Kifane
SENHADJA DE GHEDDO
Keiaa
Dahar
METALSA
Syah
Aïn Zohra
Bou Yahia

وتبادل البضائع قبل قيام الحرب في 1921، ولما اشتعلت نار الحرب كتب رئيس الشؤون السياسية فيها إلى سكان تلك القبيلة يطلب أن تبقى الجزيرة مفتوحة للمخابرات بين الريف وإسبانيا، فأجابه رئيس القبيلة محمد بن عبد الكريم بما يلي:

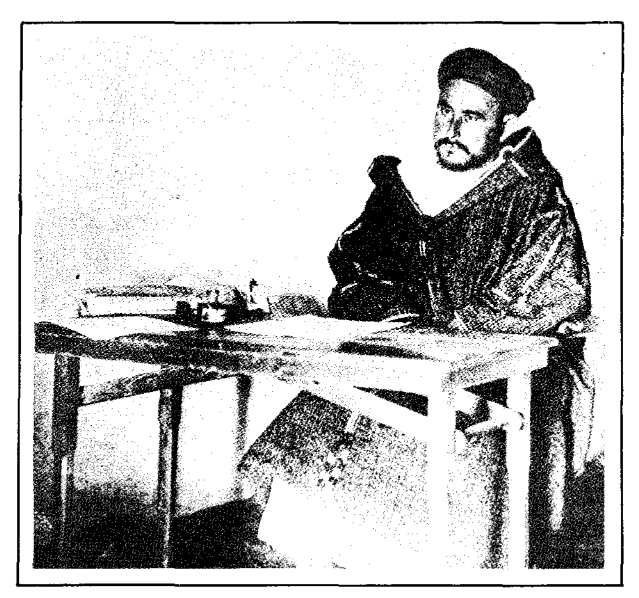
إلى رئيس الأمور السياسية بجزيرة النكور:

«تحية واحتراماً، وبعد، فقد قرَّ رأي أعيان قبيلة بني ورياغل والقبائل المجاورة لها على المحافظة على حسن علائق الجوار ما دمت محافظاً عليها أنت، أما المسألة فالواجب يقضي علينا بأن ندافع عن شعبنا ووطننا الشريف، والسلام».

وفعلاً تقرر بين الطرفين استمرار الهدنة هناك، وقصد الإسبان أن تظل المواصلات آمنة لبواخرهم الحاملة للمؤن إلى الجزيرة، بينما كان قصد بني ورياغل متابعة أعمالهم الفلاحية، واجتماعهم بالأسواق وغير هذا من المصالح، وذلك أن القبيلة توجد قبالة الجزيرة ومعرضة لمدافعها لقرب المسافة.

ولكن الهدنة لم تدم لما طرأ من سوء على العلاقة بين الطرفين بسبب تصرف قائد الجزيرة الإسباني، وهو أنه اتفق مع شخص من بني ورياغل على تدبير مؤامرة للزعيم ابن عبد الكريم، وهو محمد بن الحاج الفقير الورياغلي الأجديري، فدفع له مالاً كبيراً، ومكَّنه من مادة سامة، وقد طلب الشخص من الإسباني أن يبعث له من الجزيرة مركباً بحرياً صغيراً لمكان معين بالليل ليفر إلى الجزيرة بعد تنفيذ المؤامرة، غير أن هذا الرجل كان مخلصاً، فلم يكن منه ذلك إلا خدعة، وبعد أن تسلم المال والسم سارع إلى إطلاع الزعيم ابن عبد الكريم على الخطة المدبرة فوجه بعض رجاله

رفقة الشخص المذكور فقبضوا على من كانوا في المركب من الإسبانيين وهم أربعة، وفي الصباح أخبر الزعيم قائد الجزيرة الإسباني بما جرى، واحتج عليه بنقض الهدنة ومعاهدتها، وأعطاه إنذاراً بأن لا تأتي البواخر إلى الجزيرة حتى لا تتعرض للمدافع التي صدر إليها الأمر بإطلاق النار على كل باخرة ترى قرب الجزيرة، فلم يعتبر الإنذار، ولما اقتربت البواخر أطلق عليها المجاهدون النار، وتبودلت طلقات المدافع، وأغرقت باخرة تجارية، وتضرر سكان الجزيرة من الإسبان. وبعد أيام وقعت معركة بين الأسطول الإسباني وبين مدافع المجاهدين المنصوبة في الشاطىء، واسترسل تبادل النار بين الفريقين مدة شهرين، وفي النهاية طلب الإسبان الهدنة، فأبرمت اتفاقيتها على النسق الذي كان من قبل.



الأمير محمد عبد الكريم الخطابي

2 ــ معركة تافرسيت بني توزين:

وفي سنة 1922 دبَّر المجاهدون خطة حربية لتحطيم قوات الاستعمار الإسباني مثلما وقع لها في معركة أنوال الشهيرة، فاحتشدت قوات المجاهدين بمكان يعرف بتافرسيت بني توزين، وحينما أدرك الأعداء الخطر المحدق بهم أيقنوا أنهم معرضون لهزيمة نكراء لا تقل عن هزيمتهم بأنوال، فاستنجدوا إسبانيا كما جمعوا القوات من كل مكان، ثم بدأوا بالهجوم على المجاهدين المتمركزين بمواقعهم الحربية، واستمر القتال أياماً دون أن يتمكن العدو من اختراق خطوط المجاهدين، وآخر الأمر استعمل الإسبان الغازات السامة، وكل هذا لم يفت في عضد المجاهدين فأراد الإسبان أن يهادنوا، فأرسلوا من جزيرة النكور ادريس بن سعيد السلاوي للمخابرة في شروط الصلح، ويظهر أن هذا كان مكيدة من الإسبان ليتمكنوا من إيصال المؤونة إلى مراكزهم المحاصرة، وقد غدروا كذلك بادريس بن سعيد فقتلوه رمياً بالرصاص وهو يقطع الغابة آتياً من تافرسيت التي تكبد في معركتها الإسبان من الهزائم والخسائر ما ذكر بمعركة انوال.

3 ــ محاولة الصلح:

وبعد معركة تافرسيت، في سنة 1922، أظهر الإسبان الرغبة في الهدنة، فطلبوا من قيادة المجاهدين العليا إيفاد من يتخابر في هذا، فكان الوفد برئاسة عبد الكريم بن الحاج علي الذي توجه إلى تطوان، وكانت النتيجة هي الإخفاق حيث أن الإسبان كانوا



المجاهدون في معركة تافرسيت

يقترحون بسط الحماية على الريف، وفي الرسالة التي وجهتها القيادة العليا بالريف إلى الإسبانيين بتاريخ سابع ذي الحجة 1341 هـ نقرأ هذه العبارات «إن الوفد الذي عيناه يمثل أفكار الشعب الريفي الذي هو عبارة عن أكثر من مليون نسمة، ويزيد عدد المقاتلين فيه عن مئتي ألف»، كما نقرأ هذه العبارة:

«أرى من واجبي وشواعري الإنسانية أن أصرح لكم بما يأتي: إن الحكومة الريفية التي أسست على قواعد عصرية، وقوانين مدنية، تعتبر نفسها مستقلة سياسياً واقتصادياً آملة أن تعيش حرة كما عاشت قروناً وكما تعيش جميع الشعوب، وترى لنفسها أحقية امتلاك ترابها، وتعد الجانب الاستعماري الإسباني متعدياً غاصباً لا حق له فيما يزعمه من نشر الحماية على حكومة الريف، والحالة أن الريف لم يعترف بها، ولن يعترف بها، ويرفضها رفضاً، ويلتزم بأن يحكم نفسه بنفسه، ويسعى في نيل حقوقه الشرعية التي لا نزاع فيها، ويدافع عن الاستقلال التام بكل الوسائل الطبيعية، ويحتج أمام الأمة الإسبانية وعقلائها الذين يعتقد أنهم يعترفون بأحقية مطالبنا المعقولة الشرعية... وتحتج الحكومة الريفية على كل عمل عدائي يصدر من الحزب الاستعماري الإسباني أمام العالم المتمدن، وأمام الإنسانية، وتتبرأ من كل مسؤولية وعهدة فيما عسى أن يقع من الإتلاف للأموال والأرواح.

«هذا وأننا نتعجب أيضاً كيف أنكم تجاهلتم أن من مصالح اسبانيا نفسها مسالمة الريف، والاعتراف بحقوقه واستقلاله،

والمحافظة على علائق الجوار، وتمتين عرى الاتحاد مع الشعب الريفي عوضاً عن التعدي عليه، وإهانته، وهضم حقوقه الإنسانية والشرعية طبقاً لنا موس العمران، ووفقاً لمعاهدة فرساي الواقعة بعد الحرب العالمية، تلك الحرب التي تعلم الإنسان منها نتائج التعدي والغصب، وعلم العالم أنه لا سبيل إلى إهانة الإنسان، وأنه من الواجب العقلي والطبيعي ترك كل أمة وشأنها لتدبر أمرها بنفسها، وأن الجبروت والقوة يصيران كَلَا شيء أمام الحق... ورغمًا عن أن الساسة يقولون إن المعاهدات حبر على ورق، وأن الحق للسيف فالواقع أنه لا بد من إعادة الحق إلى صاحبه...».

ومما نقتطفه أيضاً من الرسالة هذه العبارة: «لا يسعني إلا أن أصرح لكم تصريحاً نهائياً، وهو أن الريف لا يعدل ولا يغير خطته التي سار عليها الوفد، وهو أنه لا يفتح المخابرة في الصلح إلا على أساس اعتراف إسبانيا باستقلال الريف». هذا، وقد أخفقت محاولة الصلح لتعارض مطالب الفريقين الوطني المغربي والاستعماري الإسباني.

وفي الوقت الذي انتهى فيه مؤتمر تطوان بالفشل كان محمد (فتحاً) الخطابي غائباً مدة سنة حيث إنه ذهب خفية رفقة محمادي الحيتمي إلى أوروبا، كما قصد عصبة الأمم بجنيف، وذلك لتقديم وثائق وعرائض إلى الهيئة الدولية بقصد التعريف بمطالب الريف، والمطالبة بتأييدها، باسم الحق، والعدالة، والإنصاف وكانت المساعي تتلخص في رفع الانتداب الإسباني عن الريف بعد أن

المغاربة، وكان هدف الإسبان الاستيلاء على الحسيمة بمعونة قلعة الجزيرة المقابلة لها في البحر، وفكر «سيلفيستر» في الخطة، وتدبر الطريق المؤدي إلى النصر الذي سيمكنه من نيل رتبة النبالة من طرف الملك، ووزع الجنرال جيشه ليعبر به مسالك الجبال والأودية، وكان أمره له: إلى الأمام! وكان الاتجاه قبيلة تمسمان، وتمركز الجنرال مع فرقته بسيدي ادريس على الشاطىء، بينما أخذ فريقان آخران، يتسلقان الجبال، فلم يعترضهما أحد حتى ظنا أنهما في مأمن من كل خطر، وكانت قبيلة تمسمان قد رفضت الحلف المقترح من محمد بن عبد الكريم لكنها وعدته بإقامة الحراسة والمراقبة على رؤوس الجبال، وفعلاً برَّت تمسمان بوعدها.

ولما علم القائد في اجدير بأمر الهجوم الإسباني بعث الرسل إلى بني ورياغل، فأجيب بأن 125 رجلاً فحسب هم الذين استجابوا له، ولما جاؤوه إلى اجدير أيقن أنهم من أصلح الرجال، وزودهم بـ1600 رصاصة زيادة على ما كان عندهم وهو عشر رصاصات لكل واحد، ولكنه أخذ عليهم عهداً بأن يقاتلوا ما داموا على قيد الحياة، وكان مع القائد شقيقه الأصغر، وبإيمان يهز الرواسي، وبعزيمة تفتت الصخور تحركت كتيبة المجاهدين لتقاتل ببنادقها الجيش العرمرم بأسلحته وأعتدته، فخرجت ليلاً من اجدير، وقضت اليوم في تسلق جبل ابران والتمركز فيه، وكان محمد بن عبد الكريم يعتقد أن السيطرة على جبل ابران حاسمة في الاستيلاء على وادي اقرموس، وكان أخوه يعتقد أن الأمر سهل في القول، ولكنه عسير المنال، ولما نزلا من أعلى الجبل جمعا مجلساً

الفصل السادس

بدء المعارك في الريف

1 ــ معركة جبل ابران:

كان الجنرال سيلفيستر هو الذي اختاره الملك الفونسو ليتولى الحرب ضد الريف، فأعطاه رسالة سرية تفوض له الأمر ضد سياسة المندوب السامي الجنرال (بيرانجير) الذي أعيدت إليه القيادة العليا للجيش. وفحوى الرسالة الملكية السرية: «اعمل ما آمرك به، ولا تبال بوزير الحربية الذي هو رجل مجنون». والحقيقة أن «سيلفستر»، كان سريع الاندفاع ومتهوراً بشكل جنوني بحيث لم يكن في حاجة إلى تحريض الملك، ولكن هذا ضاعف ما جبل عليه من اندفاع وتهور. وكان الفونسو شديد الوثوق بأنه ظفر بالرجل القادر على إراحة إسبانيا من مشاكل ومتاعب المغرب، وكان «سيلفيستر» بدوره يعتقد هذا في نفسه، ويضيف إليه أنه كان طليق اليد في أمر الحرب بالريف، وهكذا كان هذا الجنرال يحلم بالانتصار السهل، ويمني نفسه بتحقيق المهمة التي انتدبه لها الملك الفونسو بوثيقة سرية صريحة في موضوعها، وهي القضاء على محمد بن عبد الكريم ومن معه، وزاده غروراً أنه كان يتوفر على عشرين ألف جندي إسباني وأربعة آلاف من المرتزقة

العسكرية، فأخبرت تطوان بدورها مدريد بالهزيمة، وانتقل الجنرال «بيرانجير»، المندوب السامي والقائد الأعلى من سبتة بحراً إلى سيدي ادريس ليتشاور مع الجنرال «سيلفستر» الذي اتهم بمخالفة أوامر القيادة، فأدلى «سيلفيستر» بالرسالة الملكية السرية، وكان الخصام بينهما شديداً، ويقال إن «سيلفستر» احتد حتى أمسك بحنجرة «بيرانجير» وأنهما سقطا على الأرض أثناء الصراع، ثم تراجع الإسبان عن جبل ابران بعد الانكسار، وعادوا إلى انوال، وكانت معركة ابران في مايو 1921، وقتل 4 مجاهدين بينما قتل نحو ألف من الإسبان.

2 ــ معركة انوال:

بعد الانتصار المباغت والساحق على القلعة الإسبانية فوق جبل ابران المشرف على السهول والأدوية المجاورة في قبيلة تمسمان أصبح الريفيون أكثر قوة وعزيمة، وأقدر على مواصلة الزحف والانتصار على العدو المحتل، وهذا ما سيتجلى في تحقيق كارثة الجيش الإسباني بانوال.

ذلك أنه عقب نصر ابران جمع القائد محمد بن عبد الكريم مجلساً أعلن فيه أنه يتحتم مواصلة الحرب والظفر، وطلب أن يبدأ العمل باستنصار قبيلة تمسمان حتى تنضم إلى حركة الجهاد برجالها ووسائلها وإن كان الأمر على جانب من الصعوبة نظراً لاحتلال العدو فيها، وكانت اقتراحات المجلس ترمي إلى جعل المسألة مسألة حرمة وعار بالنسبة للقبيلة، ولكن ابن عبد الكريم آثر وسيلة

استشارياً للتداول مع المجاهدين، وتم الزحف على القلعة الواقعة فوق الجبل فسقطت في أيدي المجاهدين، وأنجز كل هذا مفاجأة قبل أن يتمكن الإسبان من إرسال النجدة من الأسفل، وكان القائد ابن عبد الكريم من ضمن المقاتلين، وكذلك أخوه محَمد، وفي انتظار الفجر ليصدر الأمر بالهجوم قال لمن معه: إني أقبض بندقيتي بيد، وأضع رجلي في القبر. ولما دنا المجاهدون من القلعة شعر حراسها، فطمأنهم محَمد (فتحا) بن عبد الكريم قائلاً لهم: إسبانيون إسبانيون، بلغة سليمة لا تثير الشك، وكان الهجوم ساحقاً ماحقاً وأصوات المجاهدين تتصاعد مرددة: لا إله إلاَّ الله! واندفعت الكتيبة المجاهدة من كل جانب البنادق في إياد، والسكاكين في أخرى. وكان استعمال السكين يوفر الذخيرة التي كانت قليلة جداً، واشتبك قائد القلعة بالأيدي المسلحة مع أحد المجاهدين، وظلا في صراع جسدي إلى أن سقطا في الفضاء وتحطما على الصخور، ولم تطل المعركة أكثر من نصف ساعة، فانهزم الإسبان، وغنم المجاهدون 500 بندقية، ومدفعين اثنين، واربع رشاشات، ومدفعاً جبلياً، وصدق وعد الله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وتحققت بهذا النصر المبين أمنية محمد بن عبد الكريم، وهي امتلاك القلعة الجبلية للسيطرة على ما تحت وحول جبل ابران. ثم قام الإسبان بهجوم مضاد، ولكن سرعان ما ارتدوا متقهقرين، فتمت السيطرة في النهاية لجند الله على الجبل الشامخ، وبلغ الخبر للجنرال «سيلفستر» في سيدي ادريس، ثم تولى هو إخبار تطوان بالكارثة

المتحالفون عليها واحداً بعد آخر في ظرف أسابيع (يونيو وأوائل يوليوز 1921)، وهكذا هزمت كتيبة مجاهدة من 500 مقاتل جيشاً عصرياً يبلغ 14000 جندي، وتمركز في حصون محمية منيعة، وهذا ما تحدى الإدراك، كما قال كاتب انكليزي. بل قرر المجاهدون أن لا يبقوا معتصمين في مواقعهم الجبلية بعد انتصاراتهم الباهرة، لأن الهدف هزم الإسبان في كل مكان، وتحرير الأرض من دنس الاحتلال، ولهذا أنزلوا من أعالي الجبال ليطلبوا القتال مع جيوش العدو في السهول والأودية. وفعلاً كان الأمر كما أرادوا، ففي نفس شهر يوليوز اتخذ القرار في تجمع قبائلي كبير تم على مرأى من الأعداء، ولم تكن قوة الجهاد تتجاوز 600 رجل من أشد المقاتلين.

أما جيش الأعداء فكان على رأسه (سيلفستر) الذي جعل هدفه احتلال الحسيمة، والقضاء على حركة التحرير بقيادة ابن عبد الكريم، ويقال إن الجنرال «بيرانجير» حاول أن يصرفه عن الاندفاع إلى هذا العمل الخطير، فأجابه: «سأشرب الشاي في دار ابن عبد الكريم باجدير أراد هذا أو لم يرد»، وكان قد تقرر في اجتماع يوم 5 يونيو، أن يبقى جيش مليلية في وادي اقرموس، ولكن (سيلفستر) كان قوياً برسالة الفونسو السرية التي فوض له فيها أن يتصرف بحرية ضد كل قرار مخالف، ولما منعه «بيرانجير» التقدم في الريف رد بقوله: «إن جنودي هم أيضاً شداد»، وشاءت الظروف أن يبقى في سيدي ادريس في انتظار ما يرد عليه من الملك، وكانت مهلة مكنت ابن عبد الكريم من تنظيم صفوفه وإعدادها للمرحلة القادمة، وتمركز المجاهدون في هضبة بسيدي

أخرى رآها أحسن وأجدى، فبما أن بني ورياغل فقراء في الماشية والدواجن فهم لا يستطيعون التضحية بشيء، وبدلاً من هذا فقد توجه ابن عبد الكريم ليـلاً إلى مدشـر قريب، وبعث منـه من يستدعي له مجلس قبيلة تمسمان، وكانت لا تملك قائداً يتزعمها وينطق باسمها. ولما التأم الجمع خاطب ابن عبد الكريم الحاضرين بقوله: «لا أملك ذبيحة أقدمها لكم لأحملكم على التحالف معي، ولقد ظفرنا بنصر كبير، ونحن في حاجة إلى مؤازرتكم، فإن قبيلتي بني ورياغل وتمسمان تقدران على هزم الإسبان».

وكان هذا كافياً لاقتناع المجلس، وتلبية طلب ابن عبـد الكريم، ولقد كان النصر في ابران أقوى برهان، وأقنع حجة، وأقدر عامل على كسب الحلف المنشود، وكيف لا وتمسمان كانت ضحية الاحتلال، ومهانة الحرمة والشرف، وهي قبيلة رجال أشداء شـرفاء، وإنمـا كان يعـوزها القـائد الكفـء، وقـد وجدتـه في ابن عبد الكريم الظافر بقلة من رجاله على جيش دولة الاحتلال، فانقادت تمسمان على لسان مجلسها للتحالف مع حركة الجهاد والتحرير، وبوشرت التعبئة فوراً.

وفي نفس الليلة أخرجت 500 بندقية من مخابئهـا وتسلق حاملوها شتى الأماكن من الجبال، واستقدم ابن عبد الكريم نصف رجاله من جبل ابران، وتم الجمع المشترك في مغـارة كبرى، فتحدث فيه ابن عبد الكريم عن الخطة الحربية المزمع تنفيذها، وهي الاستيلاء على جميع حصون العدو المنتصبة فوق الهضاب المشرفة على الوادي، وهذا ما تحقق حيث استـولى المجاهـدون

أعظم، وكان مؤمناً به نظراً لعوامل شتى، وفي 21 يوليوز كان هجوم العدو الذي تدفقت جيوشه من انوال كأنها النمل وكان رمضان، والمجاهدون صائمون، ولهذا كانوا يتناوبون على الجهاد والعبادة، وقد تقدم الإسبان بشجاعة نحو المواقع الريفية تنبعث النيران والقنابل بغزارة وسرعة من صفوفهم دون أن يرد عليهم المجاهدون، حتى إذا اقتربوا كان الرد قوياً ومذهلاً، فتقهقر الإسبان مولين الأدبار تجاه انوال، وتاركين الأسلحة وغيرها عندما لاذوا بالفرار، وكان النصر حليف المجاهدين كما أمله قائدهم، وجاء بمثابة المعجزة كما قال محمد بن عبد الكريم للكاتب الذي تحدث معه في القاهرة سنة 1953.

وكان «سيلفستر» يشهد الهزيمة من أعلى موقعة بانوال، وغنم المجاهدون في ميدان المعركة كثيراً من الأسلحة، ثم قام ابن عبد الكريم مع رجاله بتطويق انوال بينما تمركز أخوه ومن معه في الجبال المطلة على الطريق، وأرسلت فرقة من المجاهدين لتندس بين سكان القرية ليلاً، لقتل الإسبان بالسكاكين والحراب، وخلق هذا رعباً وذعراً في وسطهم، ثم أعطى «سيلفستر» الأمر بالتراجع، فولى الجيش الأدبار وهو يلاحق بالضرب والقتل، وتحول التراجع إلى فرار جماعي، وكان الفناء يعمل عمله باستمرار في فلوله المنكسرة، وعثر على جثة «سيلفستر» بين القتلى، فلم يتحقق حلمه بشرب الشاي في دار ابن عبد الكريم باجدير، وتلك نهاية الطغاة المغرورين، والحمقى أمثاله، وكانت كارثة انوال، كما سماها الإسبان، وتخلدت في التاريخ تحت هذا الاسم، وبلغ الجيش

ابراهيم بينما احتل العدو اغربين، وهي هضبة بجنوب انوال، وهذا ما كان يتوقعه، بل يتمناه ابن عبد الكريم، ولما تأكد من الموقع الجديد للعدو أقام قواته بين اغربين وانوال حيث كان يتوقع الهجوم من العدو.

وفي مواجهة موقع الأعداء حفر المجاهدون الخنادق والشقق، وكان المخبرون من رجال القبيلة يوافونه بالأخبار عن حركات الجيش الإسباني. وفي 17 يوليوز 1921 تم نصب «الفخ» الحربي الذي دبره ابن عبد الكريم، وفي اليوم التالي أخبرت حامية اغربين حامية انوال بأنها في حاجة إلى الماء، وفي الليل تسلل ريفي من انوال ليخبر باستعداد الإسبان للتحرك، فطاف ابن عبد الكريم وأخوه بصفوف المجاهد للتأكد من موقع الدفاع ولتثبيت الرجال على الخطة المقررة، ثم نشبت المعركة، وتقهقر الإسبان، وقتل منهم 132، وطلب «سيلفستر» النجدة من تطوان دون أن تتمكن من إرسالها له، وصدر الأمر إليه بلزوم موقع الدفاع وحاولت حامية اغريبن الوصول إلى الماء بمعونة فرقة من انوال، ولكنها فشلت واضطر الجنود إلى شرب الدماء.

وبعث ابن عبد الكريم إلى «سيلفستر» يطلب منه الاستسلام، فرد عليه قائد الحامية بأنها أقسمت أن لا تستسلم لغير الموت، وكان المجاهدون لا يتوفر الواحد منهم على أكثر من خمس وعشرين رصاصة وكانوا متعبين بعدما خاضوه من معارك، وظهر فيهم ميل إلى العودة لبيوتهم بعد أن انتصروا وكانوا مجرد متطوعين، ولكن ابن عبد الكريم طلب منهم أن يبقوا يوماً آخر سعياً في نصر

فقدوا 18000 جندي، واستولى المجاهـدون على 19504 بنـدقية، و 352 رشاشاً، و 129 مدفعاً، كـما أسروا 1100 جنـدي، ومهما اختلفت الاحصائيات بعض الشيء فإنها تصور كلهـا جسامـة الكارثة العسكرية الإسبانية في انوال.

وكانت وفرة الأسلحة الثقيلة والخفيفة التي ربحها المجاهدون في مختلف المعارك التي انتصروا فيها، من جهة، وانضمام القبائل إلى حركة الجهاد والتحرير، وكثرة المقاتلين الذين التحقـوا بها باستمرار، من جهة أخرى، باعثين عظيمين على توجيه حركة التحرير نحو مليلية التي كانت معرضة لفتح المجاهدين وطردالعدو المحتل لها منذ أمد بعيد.

وفي 9 غشت، حرر المجاهدون الناضور، فبعث هذا الرعب في نفوس الإسبان سكان مليلية الذين التجأوا إلى السفن والمراكب الراسية في الميناء فراراً بأنفسهم، ومن لم تسعهم المراكب والسفن ازدحموا على رصيف الميناء أملاً في النجدة حتى إن زوجة الجنرال (نافارو) الأسير اقترحت إعدامهم بالرصاص حتى لا يسقطوا في أيـدي المحررين المغـاربة. وهكـذا حوصـرت مليلية، والتحق ابن عبد الكريم بخطوط الجهاد بعد أن مكث أياماً بانوال يشرف على جمع الأسلحة، وتقرير مصير الأسرى، ودفن الموتى، وانعقد مجلس من القادة تضاربت فيه الآراء، وبعد الاستماع إليها أصدر أمره دون اعتراض من أحد، وهو عدم الدخول للمدينة التي اعتبرها رهن إشارته إذ ليست فيها قوة قادرة على حمايتها والدفاع عنها، ولعله خشي أن يفتك جيشه بمن كانوا فيها من السكان

الإسباني المنهزم أربعين ألف جندي بينما كان عدد المجاهدين نحو الألفين فقط، ولم يكونوا متوفرين على مثل سلاح عدوهم البري والجوي، ودامت المعارك يومين، وكان الانهزام الأكبر يوم 22 يوليوز 1921، وقد غنم المجاهدون 300 مدفعاً، وطائرتين، وكثيراً من الأسلحة الأوتوماتيكية، وآلاف البنـادق، وكميات ضخمـة من الذخيرة الحربية، واستسلم عدد من الجنود والضباط ممن لم يقتلوا وفيهم الجنرال «أبار»، وبمركز اعرويت، قرب مليلية، وعلى طول طريق الفرار الإسباني، كانت صفوف المجاهدين تتكاثر بمن كان ينضم إليهم من رجال القبائل، وكان القتل يشتد ويستفحل في صفوف العدو الفار بقيادة الجنرال (نافارو) الذي تولى الانسحاب بمن نجا من الجيش بعد الهزيمة الكبرى، وكانت حاميات الحصون التي يمر بها الفارون تنضم إليهم تاركة مواقعها وأسلحتها، وطالبة السلامة بنفسها، واستولى المجاهدون على حصن سيدي ادريس، مركز قيادة «سيلفستر»، وحصن افران، والذين نجوا من الجنود الفارين لجأوا إلى مركبين حربيين. أما القطار الذي حمله (نافارو) بالجرحى فقد حوله المجاهدون عن سكنة ونسفوه نسفاً، وفقد ابن ديكتاتور إسبانيا الجنرال (بريمودي ريفيرا) ذراعه اليسرى أثناء الحصار، وتعفن حتى مات، ومثله 169 من الجرحى. وفي 2 غشت استسلم (نافارو)، ولم يبق من الفارين معه سوى 400 جندي من 3000 كان قد فر بهم، وكانت السهول والسفوح والممرات مليئة بالجثث النتنة.

ويقال إن الإسبان، منذ هزيمتهم في ابران، في 31 مايو،

جميعاً في المغرب، واكتفى بأن أعلن أن الحرب التي يخوضها إنما كانت تحريرية هدفها السيادة والاستقلال.

وإن ما أخَّر محمد ابن عبد الكريم عن إصدار الإشارة باحتلال المدينة إدراكه أن رجاله كانوا نشوى بالانتصار، وأنهم غير قادرين على ضبط أنفسهم حتى لا يبطشوا بالسكان المدنيين، وأن الثورة كانت في حاجة إلى المحافظة على حسن السمعة، وإلى كسب تأييد الرأي العام العالمي، وخاصة بعض الدول كإنكلترا، والولايات المتحدة، ولكن عدم دخول مليلية ترك للعدو مركزاً وميناء أمكن استعمالها كقاعدة عسكرية انطلقت منها جيوش الإسبان إلى داخل الريف، وهذا ما تحقق فيما بعد: وأظهر أن التأخر عن تحرير مليلية كان غلطة حربية، وسياسية، ووطنية، ارتكبتها قيادة الثورة عن حسن نية.

وفي آخر غشت تجمع بمليلية 36000 جندي، وفي منتصف شتنبر استرجعت الناضور، وفي بداية اكتوبر سارت قوات العدو نحو طريق جبل مرويت بقيادة (فرانكو).

الإسبان، فتكون المذابح التي تثير العالم ضد الثورة التحريرية، وتسيىء إلى سمعتها التي أسدت إليها الانتصارات المتوالية أجلّ الخدمات في نفوس الأمم كلها.

ومهما يكن، فإن الأمر بعدم تحرير المدينة، مع تجنب المذابح، لم يكن مسلمًا وإن أطاعه القادة مرغمين، ولقد ذهب ابن عبد الكريم إلى أنه لم يندم عليه أبداً، لأنه اتخذه عن روية وبدافع مصلحة الثورة، غير أنه اعترف بعد ذلك بأن أمره ربما كان السبب في خسران حرب الريف وفي تطوان أمر الجنرال «بيرانجير» اللفيف الأجنبي (تيرسيو) بالتوجه إلى سبتة ومنها إلى مليلية ولكن قادته أعلنوا أن المدينة لا تقدر على الدفاع.

وفي إسبانيا كان وقع الكارثة العسكرية مثار سخط عام، وهياج شعبي، واتهم الملك بالاشتراك في الكارثة، بل الجريمة، كما قيل، وتجدر الإشارة إلى أن الملك الفونسو زار البابا زيارة رسمية سنة 1923، وطلب منه أن يعلن حرباً صلبية جديدة على من سماه (بالكافر) وهو محمد بن عبد الكريم الذي ترجم خطاب الملك الإسباني ونشره في كل الريف حتى يقف سكانه على حقيقة الغزو الإسباني في نظر رئيس دولة إسبانيا ومن هو على شاكلته من العسكريين كالجنرال (سيلفستر) الذي أطلق له حرية التصرف في الحرب برسالة سرية اكتشفت مع أوراقه بعد قتله في معركة انوال.

ومع ذلك فقد امتنع محمد بن عبد الكريم من أن يرد على الملك الفونسو بالمثل، فيعلن الجهاد كحرب مقدسة ضد الإسبانيين

فرقة الجيش في برشلونة فقتلت ضباطها، وباختصار عم الغضب، والحنق، والاستياء في إسبانيا كلها شعباً، وحكومة، وجيشاً، فأخذ الجميع يطلبون الخلاص من الورطة في المغرب، وأصبحت البلاد مهددة بالفوضى.

ومما جعل المسؤولين يدركون أكثر فداحة المصيبة أن الجنرال «بيكاسو» وضع تقريراً سرياً عن هزائم الجيش ومشاركة الملك الفونسو في كارثة انوال على يد جنراله المغرور المشهور «سيلفستر». ولما اطلع البرلمان على التقرير ثارت ثائرته، وتعينت لجنة برلمانية لدراسة التقرير، ولولا توسط الجيش لعصفت الثورة الشعبية بنظام الحكم والملك الفونسو. وكان أولى نتائج هذا أن خضع الملك، ثم عطل الدستور بحدوث الانقلاب على يد الجنرال (بريمودي ريفيرا) الذي أصبح ديكتاتور إسبانيا، وكان وهو حاكم عام لمقاطعة كاطالونيا ينادي بالانسحاب من المغرب حتى تسبب له هذا في فقد منصبه، وكان صعوده إلى رئاسة الحكم، في 13 شتنبر 1923، كما كان يتمتع بشعبية في الجيش والجمهور، وكان أول ما قرره وضع حد للتضحية بالأرواح والأموال في المغرب، وعلى هذا الأساس قرر التخلي عن كل ما يمكن الاستغناء عنه دون ذلة ومهانة. وأقيل الجنرال (بيرانجير) المندوب السامي بتطوان والقائد الأعلى للقوات الإسبانية بالشمال المغربي، وكان في هذا وسيلة لمحاولة ستر تورط الملك في هزيمة انوال، لأنه اعتبر مسؤولاً مباشراً عنها، والحقيقة أنه كان ينصح دائماً الجنرال «سيلفستر» حليف الملك ورجل ثقته، بعدم الاندفاع، وبالبقاء في المواقع الدفاعية قرب مليلية.

الفصل السابع

انعكاس الهزائم
على الوضع السياسي في إسبانيا

تــأثر الوضع السياسي في إسبانيا بالهزائم المتواليـة التي تكبدها الجيش الإسباني في الريف أشد وأقصى تأثر، ولم يطق الحكم ولا الشعب تحمل الكوارث الدموية التي منيت بها القوات الإسبانية على كثرتها ومع ما توفرت عليه من سلاح وعتاد، ولم تحل سنة 1923 حتى انفجرت الأزمات في أوساط الجيش والحكومة، والرأي العام مُمثلاً في الصحافة والأحزاب، فساد الاعتقاد بأن المغرب ليس إلا مقبرة للشباب الإسباني، وبئراً بدون قعر تبتلع باستمرار الأموال والثروات الإسبانية، لأن الحرب في الريف كانت ترهق الميزانية الإسبانية التي بلغ ما تصرفه سنوياً عشرين مليوناً ليرة استرلينية، وكانت جميع التضحيات البشرية، والماديـة، والماليـة تذهب أدراج الرياح.

وبقدر ما كانت اسبانيا تخسر كانت الثورة الـريفية تحقق الأرباح والمكاسب عسكرياً، ومادياً، ومـالياً، بفـداء الأسرى، ومعنوياً، وكان من نتائج هذا كله أن القوات الإسبانية كانت لا تتحرك من تطوان أو مليلية إلا لتلقى الاندحار والانكسار حتى صار الشعب الإسباني يعلن معارضته للبقاء بالمغرب، ومرة تمردت



وكـان الجنرال (دي ريفيـرا) يحمل لقب (مـدير) تغـطية لديكتاتوريته العامة المطلقة، وبهـذه الصفة زار المغـرب ليتولى شخصياً مسؤولية الحملة، فأمر الجيش بأن ينسحب من المواقع الأمامية إلى أخرى أسلم وأضمن جنوب تطوان ومليلية، كما أعلن التخلي عن احتلال المنطقة الشمالية من المغرب فثارت ثائرة الجيش لأن هذا يحرمه من أخذ الثأر والانتقام لغسل عار الهزائم والكوارث العسكرية، ولكن (دي ريفيرا) كان مصمماً على خطته التي أعلنها لمراسلي الصحف مبيناً أسماء المواقع وتواريخ الانسحاب منها إلى التي أعدت حول تطوان ومليلية. ويقال إن ليوطي حينما علم هذا، صاح: «يا إلاهي! إن الجيش لا ينحسب إلا عند الاضطرار ولكن من غير أن يعلن هذا سابقاً لعدوه»، واعتبر قرار (دي ريفيرا) خاتمة ما سمي «بمغامرة إسبانيا في المغرب».

وإذا كان (دي ريفيرا) قد ناصر وحقق الانسحاب من المواقع المتقدمة فإنه كان يفكر في نفس الوقت في حشد القوات والإمدادات في المراكز الساحلية مع محاولـة الاستيلاء عـلى داخل الأراضي بواسطة الطيران الذي ضاعف عدده من 50 إلى 150، ومع هذا ظل يعتقد أن على إسبانيا إما أن تتقدم، وإما أن تتخلى عن المغرب.

شخصيات انكليزية، «نيابة» كانت تنطق باسمها، وتتولى المخابرة على لسانها، وتقوم بتوجيه كتابات الحكومة الريفية إلى هيئة الأمم لمحاولة عرض قضية العدوان الإسباني على نظر المنظمة الدولية. ومما ألجأ حكومة الثورة إلى هذا انشغال قادتها ورجالها بالحرب ضد العدو، وصعوبة خروج المندوبين بسبب العراقيل والموانع المنصوبة في طريقهم، والمكونة لحصار مضروب دائم، ورغمًا عنه كان يمكن الاتصال بالخارج عن طريق طنجة التي كانت الثورة تتوفر فيها على جهاز للمخابرات، وضرورة الاستعانة بالعاطفين والمؤيدين من الأوروبيين الذين يستطيعون القيام بنشاطهم السياسي والديبلوماسي دون أن يتعرضوا في بلادهم للموانع الرسمية. ومثال هذا لجنة الريف (ريف كوميطي) المنشأة في لندرة بواسطة كوردون كانينغ الذي اشتهر إذاك بنشاطه في سبيل تحقيق مطالب الثورة التحريرية، وأدى لها خدمات مهمة غير خفية، وكان يتردد بكثرة على الريف ويتمتع بثقة قادة الثورة، الأمر الذي مكنه من القيام بمهامه، وفتح له أبواب المخابرة مع الحكومات المعنية بالأمر علمًا منها بأنه كان ذا صلاحية لينوب عن قيادة الريف، وينطق باسمها كوسيط على الأقل. وتجدر الإشارة إلى أن حكومة الثورة كانت تتخذ بعض الانكليز لمساعدتها فتعطيهم صفات ديبلوماسية مثل جوهن ارنول الذي كان يحمل لقب وزير مفوض، وكان مكلفاً كوكيل عام لحكومة الريف في لندرة.

(Agent Général du gouvernement du Rif)

وفيما يخص موقف هيئة الأمم، فلم يطرأ عليه أي تغيير لصالح الثورة الريفية بالرغم عن كل الاتصالات بها بواسطة

الفصل الثامن

ثورة التحرير ومساعيها الدولية

كانت ثورة الريف التحريرية تخوض معركتين، إحداهما في الداخل ضد المحتلين مع الإسبانيين، والأخرى في الخارج ضدهم كذلك، ولكن بوسائل سلمية، أي بالسياسة والدبلوماسية في بعض العواصم الأوروبية كباريس ولندرة، وفي الأوساط الدولية بجنيف مقر هيئة الأمم، وكانت الحركة الخارجية للثورة التحريرية تعتمد على الدعاية في الصحف لصالحها، وعلى الاستعانة بالشخصيات العاطفة، وعلى التعريف بالمطالب الثورية في مذكرات وبيانات موجهة إلى الرأي العام العالمي، وإلى هيئة الأمم في جنيف؛ كما اهتمت حكومة الثورة بإيفاد ممثليها لإجراء الاتصالات والمخابرات مع رجال السيادة ورؤساء الأحزاب، وأعضاء المجالس النيابية، وأرباب الصحف على اختلاف اتجاهها. وكانت الحركة الخارجية ناطقة بلسان حزب التحرير الدائرة ضد الاحتلال الاسباني، فأهلها بالتعريف بحقيقتها التي حاول الأعداء تشويهها للتضليل ما استطاعوا إلى هذا سبيلاً، كما اهتمت بعرض وجهة نظر قيادة الثورة، وإعلان مطالبها ومطامحها حتى تكون واضحة ومفهومة.

ومن أجل هذا أنشأت حكومة الثورة في لندرة بمساعدة

المقهورة، في وثبة التحرر من العبودية كما كانت تعانيها تحت سيطرة الاحتلال، وسياسة الاستعمار. ولم تكن هذه التجربة المرة القاسية التي جربتها تلك الشعوب بعديمة الجدوى حيث أقنعتها بالتخلي عن الخيالات والأوهام، والاعتماد على واقع الأمور وعلى نفسها لنيل حقها في الحياة الحرة الشريفة، وهذا ما كان بالنسبة لثورة الريف التي ما انفكت تحارب العدو بالسلاح، وترمي إلى إجلائه بالقوة عن أرض الوطن.

ويتضح من الوثائق السياسية والديبلوماسية التي كانت تصدر عن حكومة الثورة أنها كانت لا تخرج عن موضوع المطالبة بالتخلي الإسباني عن خطته العدوانية وإقرار السلم في شمال المغرب، واحترام إرادة الشعب الثائر في التمتع بحق تقرير المصير القومي، وحكم نفسه بنفسه كسائر الشعوب الحرة، والاعتراف بهذا رسمياً من الدول، والارتباط معها بعلائق ديبلوماسية منظمة، وإبرام اتفاقات بين الطرفين للتعاون الاقتصادي والفني في صالح الجميع، هذا هو فحوى مطالب الثورة مهما اختلفت صيغ التعبير عنها في مستنداتها الرسمية الموجهة إلى الحكومات أو هيئة الأمم، ونثبت ما عثرنا عليه في السجلات هي بعض من كل، وهي مكتوبة بالانكليزية وموجهة من (وفد الريف) (ريف دبليكيشن) بلندرة، وضمن تلك الوثائق لائحة مطالب بتوقيع عبد الكريم بن الحاج علي البقيوى، ومحمد بن محمد بوجيبار الورياغلي، وأرفقت اللائحة برسالة مؤرخة في 6 شتنبر 1922 بإمضاء جوهن ارنول الانكليزي، وهي ـ حسب الرسالة ـ نداء من محمد عبد الكريم الرئيس والقائد الأعلى، وهذا نص اللائحة معرباً عن الانكليزية:

المذكرات، والبيانات الموجهة إليها باستمرار من حكومة الثورة أو باسمها ونيابة عنها، وكانت كتابتها العامة تكتفي بتسجيل الوثائق الواردة بأمانة إدارية لا أقل ولا أكثر، ويستفاد من مراسلات المسؤولين عن قسميها السياسي والقانوني مع ممثلي الثورة من الانكليز أن الهيئة لم يكن في استطاعتها أن تتولى النظر في قضية الحرب مع إسبانيا في الريف إلا إذا تبنتها وفود دول أعضاء أو أحدها، وقد جرت فعلاً محاولة مع وفد فارس (ايران) بدون جدوى. وكان ممثل فرنسا لدى هيئة الأمم من أكبر المعارضين لإدراج القضية في جدول الأعمال للبحث والتداول، تَضَامُناً مع إسبانيا، وخوفاً من عواقب اندثار الاحتلال الإسباني على الوجود الاستعماري الفرنسي في المغرب.

وبصفة عامة كانت الدول المسيطرة داخل الهيئة الدولية هي دول الاستعمار التي جعلت منها أداة طيعة ومسخرة لها، وهي فرنسا، وانكلترا، وإسبانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولاندة، فاستحال مع وجودها إسماع صوت الشعوب المعتدى عليها بالاحتلال والاستعباد، وإنالتها حقوقها في الحرية والاستقلال، وقد أيقنت الشعوب المحرومة بأنه لا سبيل إلى نيل أمانيها إلا بالكفاح والتضحية لا بالاعتماد على أنصاف الأعداء، والمطالبة بتطبيق المبادىء المعلنة في صك هيئة الأمم الخاضعة لهم، والسائرة وفق مشيئتهم لصالح سياستهم الاستعمارية المشتركة، وقد كان هذا من أقوى البواعث على فشل الهيئة الأمية التي برهنت على أنها لم تكن هيئة إنسانية عالمية تحق الحق وتبطل الباطل، وتنجد الشعوب

8 ــ نحن نضمن حياة أرواح الجاليات الأجنبية، كما أنه بوسعنا أن نؤمن لها حمايتنا الكاملة.

9 ــ نحن على استعداد لتوفير الأدلة والضمانات على أننا نستطيع أن نحكم البلاد تمشياً مع مصالح السلم والتجارة الدولية.

10 ــ نطلب إليكم النظر في هذا الطلب في إطار الاجتماع الحالي.

12 ــ نرجو توجيه الدعوة إلى إسبانيا، من خلال عصبة الأمم، للسماح لممثلينا بالدخول الحر لبلادهم عن طريق البحر.

توقيع:
عبد الكريم بن الحاج علي البقيوي
محمد بن محمد بوجيبار الورياغلي

الوثيقة رقم (1)

لندن، في 2 شتنبر 1922

المجلس العام لعصبة الأمم

نحن، الممثلين المعتمدين لحكومة الريف الحالية، بالمغرب، نود إبلاغكم بأنه لدينا حكومة تمثيلية منتخبة حسب الأصـول المرعية، وتتكون من نواب عن 41 قبيلة من قبائل الريف وغمارة، بالمغرب.

1 ـ تحدونا الرغبة في إجراء ترتيب مع إسبانيا من أجل إرساء السلام.

2 ـ نعتزم الموافقة على تعيين حدود جغرافية بيننا وبين إسبانيا.

3 ـ يحكم بلادنا مجلس تمثيلي منتخب حسب الأصول، وذلك مع المراعاة الكاملة لمبادىء (عصبة الأمم).

4 ـ تم انتخاب برلماننا لمدة ثلاث سنوات متجددة.

5 ـ يتم تعيين أعضاء الحكومة من بين الممثلين المنتخبين ومن قبلهم.

6 ـ نعتزم فتح بلادنا للتبادل التجاري مع جميع الأمم.

7 ـ نحن عـلى استعداد لضمـان حقوق جميـع الأمم في جميع المجالات المتصلة بالتجـارة، ولن نفرض، **بـأي حال من الأحوال**، رسوماً أعلى من تلك التي تفرضها على المقاطعات الأخرى في المغرب.

الوثيقة رقم (2)

وتوجد كذلك «رسالة مفتوحة»، إلى الأمم المتحضرة من الأمير ابن عبد الكريم، بتاريخ 6 شتنبر 1922، بواسطة وفد الريف بلندرة، وأرفقت الرسالة المفتوحة برسالة تقديم بتوقيع الناطق باسمه الانكليزي جوهن ارنول، والكل موجه إلى الكاتب العام للهيئة الدولية، ويطلب المتحدث باسم الوفد عرض الرسالة المفتوحة على الجمعية العامة للهيئة وهي تتطلب الرغبة في السلم والاعتراف مؤكداً أنه مطلع على الإقليم الذي تعد حكومته الحكومة الوحيدة المستقرة والقادرة على ضمان حقوق الأجانب في كل مجاله، وأنه لا توجد فيه أقليات باستثناء خمسين أسرة يهودية تعيش منذ قرون كثيرة في سلم وطمأنينة، وهذا نص الرسالة المفتوحة معرباً عن الانكليزية:

رسالة إلى الأمم المتحضرة

إن النص التالي هو عبارة عن ترجمة لرسالة مفتوحة موجهة إلى (الأمم المتحضرة) من طرف الأمير محمد عبد الكريم أمير الريف، بالمغرب:

«لقد سبق لنا الاتصال بسفراء بعض الأمم القوية في طنجة لإبلاغهم بشكوانا من إسبانيا، ولسنا ندري ما إذا بلغتكم رسائلنا.

«ونحن اليوم، نناشدكم من جديد لمساعدة الإنسانية، ونطلب إليكم بذل ما وسعكم الجهد من أجل رفاهية البشرية جمعاء بغض النظر عن الدين أو العقيدة.

international commerce.

10. We ask you to receive a fully accredited and regular demand signed by the chiefs of every tribe and their deputies.

11. We ask that this demand is considered at the present reunion.

12. We ask that through the League, Spain be asked to allow our representatives free access by the sea to their country.

M. Ben M. Buyibar

Abd El Karim ben Hadj alis

صورة عن الجزء الأخير من الوثيقة، مع التواقيع

«إن ثورة الريف جاءت نتيجة لأعمال الاضطهاد والتعدي التي اقترفها الشبان الإسبانيون الذين نصبوا على السلطة هناك، ولقد امتد سلطانهم حتى تطاول على كبار الأئمة المسلمين والموظفين المدنيين والجيش المحلي إلى حد أنهم قد شرعوا في اغتصاب الأرض وامتهان الشعب ــ وهي سمة من سمات أيام الجاهلية ــ وهم إن فعلوا ذلك فإنما يفعلونه بكل بساطة باسم الأوروبيين والتمدن، وما هم في واقع الأمر، بالمصلحين أو بالحامين، إذ أنهم ليسوا سوى غاصبين لا يبصرون.

«لقد عاش الريف حتى الآن حياة حرة، وهو اليوم يضحي بأرواح رجاله دفاعاً عن حريته ودينه.

«فالريف، لا يبدي أي اعتراض إزاء الحضارة الحديثة أو أي نفور من مشاريع الإصلاح، كما أنه لن يرفض أبداً إقامة علاقات تجارية متبادلة مع أوروبا، فالريف إنما يستهدف إنشاء حكومة محلية تعتبر أمراً أساسياً لحماية حقوقها الخاصة بها وحقوق الرعايا الأجانب طبقاً لأحكام الاتفاقات التجارية التي تربط الدول الأوروبية القوية بدول غرب أفريقيا، غير أن الريف يأبى أن يرى مقاليد الحكم موكولة لأشخاص ترشوهم جهات أجنبية ذهباً ثمناً لسلطانهم ووطنيتهم.

«أشخاص لا يتورعون عن رهن وطنهم وشعبهم لمن يعرض عليهم حفنة من المال، ولا يراعون سوى مصالحهم الشخصية، أشخاص أصبحوا الآن، رغم ما يرفلون فيه من حلل مثقلة

«ولقد أصبح اليوم لزاماً على أوروبا التي طالما نادت في غضون هذا القرن العشرين بأنها تقف لإعلاء مستوى الحضارة والنهوض بالإنسانية، أصبح لزاماً عليها بأن تضطلع بنقل هذا المبدأ النبيل من المجال النظري إلى المجال العملي، وأن تقف لحماية المظلوم من بغي المعتدي، والتصدي للقوي لصيانة حقوق الضعيف، الذي قد يؤدي به شعوره التقليدي بالشرف والشهامة، إن لم يقدم له العون، إلى خاتمة حتمية لا تحمد عقباها ـ ألا وهي الإبادة الذاتية.

«ففي هذه الأيام، تحول الريف إلى ساحة حرب، حرب ليس لها في واقع الأمر ما يبررها أمام مولانا العلي القدير، حيث إنها سوف تجلب دماراً لا طائلة منه على العديد من الإسبانيين والريفيين.

«ويعتقد الإسبانيون أن أوروبا قد عهدت إليهم بمهمة الإصلاح والتمدين في الريف، إلا أن أهل الريف يتساءلون: «هل الإصلاح يعني تدمير المنازل باستخدام أسلحة محظور استعمالها أم التدخل في الشؤون الدينية أو اغتصاب حقوق الآخرين؟ أو هو عبارة تطلق على عملية ضم أرض الآخرين تستراً باسم الحماية؟ فالغرض من الحماية هو الحفاظ على حقوق الرعايا المعنيين بالأمر وحمايتهم، وفي إمكان أوروبا الآن أن ترى أننا في حاجة إلى من يحمينا مما تمارسه هذه السلطة من عدوان على حرياتنا واستقلالنا، وشرفنا، وحرمة نسائنا.

اتفاق يتم التوصل إليه، فسيكون من الواضح أن أوروبا لا تستهدف سوى محاربة العالم المحمدي بأسره، بصرف النظر عن الأسلحة المستخدمة أو الطرق المتبعة.

«إلا أننا لا نعتقد أن الممسكين بزمام الشؤون السياسية، رؤساء كانوا أو أمراء، سيكونون مرتاحي الضمير وقد شوشت صفاءه مثل هذه البصمة السوداء، ونحن بذلك، إنما نقصد تلك البلدان التي تشدها إلى العالم الإسلامي روابط قوية، والزمن وحده هو الكفيل بتحقق آمالنا أو بهدمها، والرأي السديد هو الذي سيقدر آمالنا في الوقت المناسب حق قدرها.

«والسؤال المطروح يتعلق بطبيعة الهدف الذي تنشده أوروبا من وراء عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء (Algésiras)، هل كانت تقصد بذلك إعلاء كلمة القانون والنظام، وزيادة الثروة العامة وضمان أرباح اقتصادية؟ فإذا كان الدافع ذا نوايا حسنة وشريفة وخلوا من أي طمع في النفوذ السياسي أو العسكري (ونحن على يقين من أنه كذلك)، فإن ذلك هو عين ما يطمح إليه الريف، كما أنه لا يبدي أي اعتراض كان إزاء هذه الشروط، فكل ما يبتغيه هو التخفيف من عبء الاضطهاد الإسباني والعدوان العسكري وإقامة حكومة محلية خاصة به، يشرف على إدارتها بنفسه.

«ترى، أتجد أوروبا في ذلك أي شيء من شأنه الإضرار بمصالحها أو المساس بحقوق رعاياها؟ أفي ذلك أي تحيز عنصري أو قومي يجعلها توصد أبواب أوساطها السياسية في وجه أولئك الذين يعانون من وطأة الإسبان؟

بمختلف ما أغدق عليهم من ألقاب ونياشين، مجرد بيادق في خدمة مصالح الإسبان متجاهلين تماماً تعاليم الشريعة الإسلامية والعادات والتقاليد الوطنية.

«إن شغل الريف الشاغل هو إقامة نظام حكم خاص به يعتمد على إرادته الذاتية لا غير، كما أنه يتطلع إلى سن قوانينه، وإبرام معاهداته التجارية حتى يتمكن بذلك من حماية حقوقه الداخلية والخارجية على حد سواء، ولا يسع أوروبا أن ترفض مثل هذا النظام طالما أنه لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع الحقوق، والإصلاحات، والحضارة الأوروبية.

«وتصل أوروبا أنباء تنسب السلطة في الريف إلى خليفة مزعوم تحت رعاية (حماية إسبانية) و (حامين إسبانيين)، وقد تظن أنهم قد نصبوا على الحكم وبصورة دستورية، وأنهم يحكمون بالعدل، ولكن في الواقع ليس هناك أي شيء من هذا القبيل.

«ولقد سبق للريف أن طلب المساندة والتأييد ممن يحركه شعور بالعدالة في أوروبا، كما وجه رسالة لممثلي الدول العظمى علناً، وأنه لا يزال شاهراً سلاحه لإجلاء الغاصبين من أراضيه في انتظار رد الأمم المتحضرة، فإذا تدخلت هذه الأمم وفضت المشكلة بصورة ترضي الريف وتحمي حقوق الطرفين، فإن الريف سيتحقق عندئذٍ من أن دعواها بالعمل لما فيه خير البشرية والحضارة صادقة لا خداع فيها، أما إذا ولت المشكلة ظهرها ولم تدع لعقد مؤتمر يحضره كذلك زعماء الريف لإثبات أقوالهم والتعهد بالوفاء بأي

الوثيقة رقم (3)

وبالرغم من عدم جدوى كل المحاولات والمساعي في المجال الدولي لصالح الثورة فإن قادتها واصلوا بذل الجهود للاتصال بأهم الساسة الأوروبيين وعرض مطالبهم، والتعريف بمواقفهم، والعمل للحصول سلمياً ورسمياً على الإصغاء لشكواهم عن عدوان الإسبان على أرضهم نتيجة اقتسام مناطق النفوذ بين الدول المستعمرة في أفريقيا عامة، وفي المغرب خاصة، كما كانت تتوارد عبثاً على هيئة الأمم كثير من الكتابات والبرقيات لتأييد ثورة الريف التحريرية من منظمات ومؤتمرات في أوروبا وأمريكا الجنوبية، وفيما يلي بيان آخر لحكومة الريف معرباً عن الانكليزية:

حكومة جمهورية الريف

بيان حكومي وإعلان لجميع الأمم

«إن حكومة جمهورية الريف التي أعيد تنظيمها وتم تأسيسها منذ العاشر منذ يونيه 1920، تشعر جميع الدول بالبيان التالي:

«**1 ـ الريف قبل قرار الجزيرة الخضراء**. قبل عام 1906، كان يحد الريف البحر الأبيض المتوسط شمالاً، والمحيط الأطلسي غرباً، ومنطقة المغرب الفرنسية جنوباً وشرقاً، وتقدر مساحته بحوالي 50,000 كلم مربع، ويبلغ عدد سكانه مليوني نسمة يعيشون في رحاب تجمع من القبائل تقيم فيما بينها علاقات حسن الجوار بفضل ما يؤلف بينها من قرابة لغوية وعرقية، كانت هذه القبائل تحيى حياة حرة ووحدت صفوفها لصد أي محتل كان، فبتلك

«فإذا كانت أوروبا غير مستعدة لسماع دعـاوى الريف، وتعتبرها بعيدة كل البعد عن الحقيقة، فذرها إذن تستشف الحقيقة من الإسبان ذاتهم ــ أي من الأعضاء في المجلس النيابي، الذين أمروا بضرورة الانسحاب، نظراً لما باءت إليه مساعيهم من إخفاق ولما اقترفه الجيش وغير الجيش من انتهاكات واعتداءات، مما جعل من المستعصي التخفيف من حدة حنق الريف وغضبه.

«هي ذي شكـوانا نـوجهها إليكم علنـاً، يا أمم أوروبـا المتحضرة، والسلام عليكم».

توقيع :
محمد عبد الكريم

ولم نعثر على غير النص الانكليزي الذي يظهر أنه هو النص الرسمي الموقع باسم قائد الثـورة، لا بتوقيعـه الخطي الخـاص ولا ندري هل النص الانكليزي أصل أو ترجمة، ولو وجد نص خطي للأمير ابن عبد الكريم لاعتبر هو الأصل، ولكنه مفقود في السجلات التي اطلعنا عليها، ولم ترد له إشارة في أوراق التسجيل المرفقة بالسجلات المشتملة على مختلفة الملفات المحفوظة.

العاملين في الحقل الصناعي والتجاري، حتى ذوي الجنسية الإسبانية منهم، والذين يرغبون في العمل في البلد بدون نية عدائية.

«ويتطلع الريف إلى التعايش الودي مع كل الأمم ـ الصغيرة منها والكبيرة، ولقد سبق له في عام 1921 الإخطار بإعلان الجمهورية لكل من سفير انكلترا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا المعتمدين في طنجة، ويشعر من جديد وزراء خارجية جميع الأمم بهذا البيان، ويسأل جميع البلدان إقامة مصالح قنصلية ودبلوماسية (باجدير) عاصمة الريف، حيث يتسنى للمثلين الأجانب الحصول على جميع التسهيلات اللازمة للوفاء بمهامه».

باسم حكومة الريف وبالنيابة عن رئيس جمهورية الريف:

الرئيس عبد الكريم الخطابي

رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية والداخلية:

الوزير عبد السلام محمد الخطابي

وزير العدل:

الوزير محمد الشمس

وزير الحربية:

الوزير محمد بن عمر

وزير الشؤون الخارجية:

(توقيع) **محمد عبد الكريم الخطابي**

اجدير، في غرة يوليه 1923 م

الطريقة تم التوصل إلى صد جيوش سلطان المغرب خارج القطر خلال حملة دامت قرابة سبع سنوات، منذ عام 1898 إلى عام 1905، والواقع أن ملك المغرب كان يعتبر دوماً في الريف بمثابة الزعيم الروحي، وكان نفوذه الديني يعد جزءاً من سلطانه الشخصي.

«وهكذا، فإن موقف الريف من هذا الحاكم، كان قبل عام 1906 موقفاً مستقلاً تقريباً.

«2 ـ **الريف بعد اعتماد قرار الجزيرة الخضراء**: يعلن قرار الجزيرة الخضراء السلامة الاقليمية للمغرب على مدى انتشاره، ولحكومة الريف الحق في القول بأن هذا الاتفاق الدولي قد تم تأجيله طويلاً، لأنه تم في إطار الاتفاقات الدولية الأخيرة تقسيم المغرب إلى منطقتين: إحداهما خاضعة للحماية الفرنسية، وتم اعتبار الثانية، تغاضياً عن كل حق، وعن رغبة الريف الموحدة، خاضعة للسيطرة الإسبانية، وكان الريف يحيى دائماً حياة مستقلة، وأسس منذ العاشر من يونيه 1920، حكومة جمهورية حديثة، كانت إسبانيا تتعامل معها معاملة الند للند (مثل مسألة أسرى الحرب، عام 1921)، ولطالما تطلعت هذه الحكومة بدون جدوى للتفاوض حول السلام، ويشعر الريف رسمياً جميع الدول بأنه ينوي الاحتفاظ باستقلاله السياسي المطلق وبأنه سيواصل كفاحه من أجل الحصول على اعتراف رسمي بلا لأي ولا توان حسبما تقتضيه الضرورة.

«وفضلاً عن ذلك، لكي يضمن الريف استغلالاً رشيداً لثرواته الهائلة، ففي نيته إقامة مبدأ الدخول الحر لجميع الأجانب

مغاربة البتة، كما أن الانكليز لا يمكن أن يعتبروا أنفسهم ألماناً، ولعل هذا المزيج العرقي هو الذي يجعلنا أشبه ما نكون بالانكليز في إرادتنا المطلقة في الاستقلال، وفي رغبتنا في أن نكون على اتصال مع أمم الأرض جميعاً.

«إننا ندعو بهذا البيان جميع الشعوب في أية جهة من العالم ومن أية أمة كانت للمجيىء إلينا، واستكشاف مناطقنا المجهولة بواسطة العلماء، والجيولوجيين، والكيماويين، والمهندسين، بدوافع تجارية، ومن دون أي قصد حربي. إننا ندافع عن أراضينا ضد غزو القوات الإسبانية التي تفرض علينا الحرب متذرعة بمعاهدة الجزيرة، إن هذه المعاهدة تعلن استقلال سلطان المغرب، وسلامة أراضيه، والاستقلال الاقتصادي من دون أي تفاوت، وإذ نوافق على المبدأين الأولين فيما يتعلق بأراضي السلطان، فإننا نادي بالشيء نفسه من أجل ريفنا الذي لم يدفع قط حتى الآن الضرائب والجزيات للمغرب، كما لم يتلق المعونة أو المخصصات من أجل تطوره، وإننا لراغبون في إقامة الحرية الاقتصادية دون تفاوت في جمهوريتنا ولهذا فقد سمينا ممثلاً تجارياً من أجل تطوير الثروات الكبيرة لبلادنا بواسطة دعوة أصحاب الأعمال من جميع الأمم بحيث يسود حكم من النظام، والسلم، والرخاء.

«ولقد أشعرنا في يوليوز 1921 سفراء انكلترا، وامريكا، وفرنسا، وايطاليا في طنجة بأننا نعلن جمهورية الريف، ونحن لا نبرح نخوض بنجاح حرباً مشروعة ضد إسبانيا دفاعاً عن استقلالنا، وسوف نثابر على ذلك حتى نحصل على السلام،

الوثيقة رقم (4)

وفي يناير 1923 أعلن محمد بن عبد الكريم استقلال دولة الريف ببيان هو في نفس الوقت نداء إلى العالم، ونثبته هنا نقلاً عن مصدر انكليزي، وليس هو النص الأصلي الذي لا يعرف بأية لغة كتب، ويغلب على الظن أنه كتب بلغة أوروبية قد تكون هي الانكليزية، وربما كتب بالعربية وترجم إلى لغة أجنبية. ومهما يكن فالنص الذي نورده بالعربية إنما هو ترجمة عن الانكليزية، وهو كما يلي:

حكومة جمهورية الريف

بيان من الدولة ونداء إلى جميع الأمم

«نحن حكومة جمهورية الريف، المؤسسة في يوليوز 1921، نعلن ونشعر الدول المشتركة في معاهدة الجزيرة سنة 1906 بأن المطامح العليا التي أدت إلى المعاهدة لا يمكن أن تتحقق قط، الأمر الذي أثبته تاريخ الأيام الماضية، وذلك بسبب الخطأ الأصلي القائل أن بلادنا ــ الريف ــ تشكل جزءاً من المغرب. إن بلادنا تشكل جغرافياً جزءاً من أفريقيا، ومع ذلك فهي منفصلة بصورة واضحة عن الداخل، وبالتالي فقد شكلت جنسياً عرقاً منفصلاً عن سائر العروق الافريقية التي اختلطت بالأوروبيين والفينيقيين قبل مئات السنين بفضل الهجرة، كذلك تختلف لغتنا بصورة بينة عن اللغات الأخرى المغربية أو الافريقية أو غيرها. فنحن، الريفيين، لسنا

المحيط، ومن البحر المتوسط إلى ما سماه خطأ (بحدود المغرب) التي كانت حدوداً مصطنعة ومؤقتة بين منطقتي النفوذين الاستعماريين الإسباني والفرنسي إنما هو ادعاء لا يقوم على أساس ولا يسلمه أحد أبداً، لأنه لا يطابق الواقع الجغرافي، والتاريخي، والقومي، كما يتعارض مع إرادة سكان الشطر الغربي من شمال البلاد الذين هم جبالة وليسوا ريفيين.

أضف إلى هذا، أن الريف وحده لا يمكن أن يقوم وطناً منفصلاً عن بقية المغرب من حيث التجارة والاقتصاد، والصناعة، فهو فقير من حيث العمران، والموارد الطبيعية، كان هذا شأنه قبل الاحتلال وبعده، ولم يتمكن من وسائل التطور والتقدم إلا منذ تحقق الاستقلال سنة 1956، وعودة الشمال إلى الوطن كوحدة متراصة، وكأمة متماسكة، وهذا ما يشهد به الواقع، والخاص والعام.

وخلاصة القول، أن ذلك البيان بنى ادعاءاته على غير أساس، وأخضع هذه الادعاءات إلى اعتبار واحد هو محاولة تبرير استقلال الريف سياسياً عن بقية المغرب بعد أن فرضت عليه السيطرة الأجنبية باسم نظام الحماية المزعومة، ومن أجل ذلك صدم البيان كل الحقائق القائمة الفارضة نفسها منذ كان المغرب إلى اليوم، فكان في ذلك متجاهلاً، لا جاهلاً لها لسبب سياسي لا غير، على أنه كان من حق الثورة التحريرية الرافضة لكل تدخل أجنبي أن تحارب هذا التدخل، ولا تعترف بأية معاهدة تتعلق به، ولا تدخر جهداً لحماية الريف من الاحتلال، ولتحرير الأراضي

والحرية، والاعتراف باستقلالنا ضمن أراضي جمهوريتنا الكاملة من خط الحدود مع المغرب حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن ملويه حتى المحيط.

«وإننا لندعو هنا جميع البلدان إلى إقامة الخدمات القنصلية والدبلوماسية في مركز حكومتنا الحالية باجدير حيث ستمنح لهم جميع التسهيلات، وحيث سيحظون بكل ترحاب».

التوقيع:
عبد الكريم

ونبدي على هذا البيان ما يثيره من استغراب واعتراض لما ورد فيه من تصريحات منافية للوحدة المغربية التاريخية، والجنسية، والجغرافية، والسياسية. فالمغرب منذ أقدم العصور كان وحدة متماسكة لا فرق بين شماله وجنوبه، وشرقه وغربه، وقيام حركة ثورية في أية جهة منه، عبر تاريخه، ضد الحكومة المركزية لا يعني مطلقاً أن الجهة الخارجة عن السلطة المركزية تعتبر قطراً منفصلاً عن المغرب كوطن وأمة، كما ادعته تصريحات اليان السالف الذكر. فالريف كان دائماً جزءاً لا يتجزأ من المغرب أرضاً، وجنساً وحضارة وقومية، كما أن الريف يتكون من شرق شمال المغرب دون غربه الذي يسمى بجبالة والذي لا يتكلم باللهجة الريفية التي هي إحدى اللهجات المغربية مثل اللهجتين البربرية والشلحة، وكلها لهجات قومية مغربية معترف بها مع وجود العربية كلغة عامة مشتركة. فادعاء البيان أن الريف يمتد شمال المغرب من ملوية إلى

الريف، فقصد بوجيبار لندرة، بينما اتجه الآخران إلى باريس. وفي لندرة اتصل المبعوث الريفي باللورد سيسيل محاولاً الحصول على المساعدة لعرض تلك القضية على عصبة الأمم بجنيف، وفي باريس كان اتصال المبعوثين بالاشتراكيين، في حين رفض الوزراء مقابلتهما، وتمت تلك المساعي دون جدوى لأن الاستعمار كان متواطئاً نتيجة اتفاقات تبادل مناطق النفوذ، واقتسام المغرب بين دوله الأوروبية، وتجلى إذاك بصورة واضحة أن الريف كان في عزلة لا نصير له سوى الله، والمغاربة، والأحرار.

وبالإضافة إلى تلك الجهود في جنيف قامت البعثة الريفية بمساع كبيرة، وبذلت جهوداً متواصلة للتعريف بقضية تحرير الريف، فكانت كثير من الاتصالات بالشخصيات الدولية، وبمراسلي الصحافة العالمية، غير أن هذا كله لم يأت كذلك بالنتائج المرجوة، فبقيت العرائض والوثائق الرسمية الريفية مكدسة في سجلات هيئة الأمم التي كانت تحت سيطرة الدول الاستعمارية، والتي سجلت على نفسها ما أدانها في نظر العالم، وحكم التاريخ كعصبة الأقوياء ضد ضحاياهم من الشعوب المغلوبة على أمرها.

التي أصيبت به في الشمال، وهذا ما عملت له الثورة بالسلاح بعد أن حاولته بالتي هي أحسن، كما حاولت ــ بحق ــ الامتداد إلى جهات أخرى جنوباً حتى أوشكت أن تقترب من فاس، وتازة، ووزان في حربها مع الفرنسيين، وهذا عمل يتناقض تماماً وادعاءات البيان أن الريف ليس جزءاً من المغرب، وأن الريفيين ليسوا مغاربة بأية صفة، وإنما هم افريقيون كأن المغرب نفسه ليس هو كذلك من افريقيا، وأن الإنسان لَيحارُ في نسبة ذلك البيان إلى قادة الثورة أمثال أميري الجهاد محمد ومحمدِ بن عبد الكريم الخطابي الذين كانا بطلي التحرير الوطني المغربي، ومن أشد النـاس إيمانـاً وتمسكاً بالحقيقة القومية التي جعلت دائماً من المغرب وطناً لجميع المغاربة على اختلاف اللهجات المحلية التي هي نفسها جزء من التراث الأصيل المغربي إلى يومنا هذا، ولذلك لا نجد تعليلاً لدعاوى البيان سوى الاعتبار السياسي الوقتي لمحاولة إفلات الريف كأرض مغربية صميمة من نير الاحتلال والاستعمار، وإن كان التعليل نفسه لا يصح مطلقاً أن يتخذ مبرراً لدعوى الانفصال عن الوطن الذي هو بالجميع وللجميع ماضياً، وحاضراً، واستقبالاً.

هـذا، وقد كـان من المتوقـع أن ترفض اسبـانيـا طلب ابن عبد الكريم اعتبار الريفيين محاربين ــ لا عصاة ــ طبقاً للقانون الدولي.

وفي نفس السنة التي صدر فيها ذلك البيان باسم حكومة الجمهورية الريفية إلى كافة الأمم توجه محمد الخطابي، وبوجيبار، وازرقان إلى انكلترا، وفرنسا بقصد جلب تأييدهما لقضية تحرير

«إننا جميعاً سيئو التسلح بالنسبة للاسبانيين، ولكن قوتنا المعنوية تعدل الفارق بيننا في السلاح، ومهما يكن، فإننا لا نريد الحرب، وقد أبلغت الحكومة الإسبانية، منذ سنتين، بـواسطة الجنرال (كاسترو خيرون) في مليلية أنه إذا اعترفت اسبانيا باستقلال الريف فإننا سنوافق على إعطائها المركز الاقتصادي الأفضل في استثمار موارد بلادنا الغنية، وقد رفضت إسبانيا هذا العرض، ومنذ ذلك الوقت أخذ وضعنا العسكري يتحسن ويتقوى شيئاً فشيئاً.

«وكيفما كان الأمر، فإننا لا نزال على استعداد للتفاهم مع إسبانيا، على أننا لم نطلب الجلاء عن البلاد كلها وإذا ما انتهى الأمر، كما نتمنى، إلى تعيين الحدود الاقليمية فسيتضح أنه لا توجد صعوبات تعترض هذا الاتفاق، وأن هذه الجبال كانت، منـذ الأزمنة العريقة في القدم، ملكاً لأسلافنا، فسندافع عنها حتى آخر قطرة من دمائنا.

«إذا كانت إسبانيا راغبة في حرب دائمة في الريف فيمكن أن تكون لها هذه الحرب، إن قرارنا في هذا قرار حاسم، وقد اتحدت البلاد تحت حكمي كما لم تتحد من قبل قط.

«وحتى وقتما لا تكون عمليات حربية فإن مئة أو مئة وخمسين جندياً إسبانياً يموتون كل أسبوع في الجبهة في حين أن الجيش الإسباني لا يلحق بنا إلا خسارة ضئيلة جداً، ما عدا ما يتسبب فيه قصف طيرانه لمداشرنا من قتل السكان نساء، وأطفالاً، وشيوخاً.

الفصل التاسع

قائد الثورة
يتحدث إلى العالم

وفي 1924 أتيحت أول فرصة لقائد الثورة الأمير محمد بن عبد الكريم ليتحدث إلى العالم عن حقيقة حركة الجهاد وأهدافها أملاً في أن يدرك الرأي العام الدولي أكثر دوافع الحرب العدوانية لاسبانية في المغرب وما تجره عليه من خراب ودمار، وعلى نفسها كذلك من خسران ووبال.

وهكذا تمكن مراسل أكبر صحيفة انكليزية (دايلي ميـل) اللندنية من زيارة محمد بن عبد الكريم، والتحدث معه في قضايا الحرب والسلم بالمغـرب، ونقلت صحيفة (هيـرالد) الأميـركية مراسلات زميلتها الانكليزية بتاريخ 24 و 25 أبريل 1924.

ومما صرح به ابن عبد الكريم للمراسـل الصحفي (وارد برايس) حسب بعض المصادر قوله:

«إن عرب الريف الذين اختاروني أميراً عليهم يدافعون عن استقلال أراضيهم ضد السيطرة الأجنبية التي تحاول فرض نفسها عليهم، ولن يرضوا بها أبداً.

«ولعل بعض الدول الكبيرة غير مستاءة من مشاهدة إسبانيا وقد أضعفتها حربها في الريف بكيفية مزمنة».

وقد حمل ابن عبد الكريم الصحفي الانجليزي رسالة إلى رئيس الحكومة بالعربية تولى طالب عربي ترجمتها له، وهي:

«إلى وزير الخارجية المحترم في الحكومة البريطانية:

«سيادة الوزير المبجل،

«إن حكومة الريف تبذل في الوقت الحاضر كل جهودها للدفاع عن استقلالها في الحرب الدائرة بينها وبين إسبانيا، وإن هذه الدولة لتمزق في هذه الحملة حقوق الإنسان.

«إني أتوجه إليك باسم الإنسانية لكي تدعو إسبانيا ليوضع حد لهذه الحرب الوحشية التي أودت بكثير من الأرواح حتى الآن، وأقدم إليك أني الأمير المعترف به لدولة الريف، وإني مستعد لإرسال السفراء لمناقشة شروط الصلح بشرط ألا تسيىء إلى شرف بلادي أو تؤثر في استقلالها، وإلا فإن السيف هو الذي سيبت في هذه القضية، وسوف يكون النصر بيد الله يمنحه لمن يشاء».

محمد بن عبد الكريم
كان الله في عونه

ومما أكـده ابن عبد الكريم للصحفي الانجليزي أنه يملك رهن إشارة الجهاد 120000 مقاتل غير أن الإسبان ادعوا أنه لا يملك أكثر من 40000 مسلح، وكانوا يباهون بأن لديهم 60000 جندي

«ويظهر لي أن القادة الإسبانيين يفكرون على أساس مصالحهم الشخصية أكثر مما يفكرون في المصالح القومية. . .

«إن مصالح العالم بأسره تخدم بتسوية سلمية، ومن الكذب الادعاء ــ كما يقول الإسبان ــ بأن الشعب الريفي يعادي جميع الأجانب، بحيث إذا ضمن استقلالنا فإننا سنفتح بلادنا للتعاون الأجنبي، إن لدينا معادن من النحاس والرصاص، والفحم، تنتظر استثمارها بواسطة الرأسمال الأجنبي.

«فسوف نرحب بالمساعدة الأوروبية في تطوير بلادنا، وتجديد الحياة فيها، وستتحسن أحوال الناس أذا ما استتب السلم، ولهذا أرسلت سنة 1922 إلى لندرة مبعوثين أحدهما بوجيبار لأحث وزارة الخارجية الانكليزية على إقناع الحكومة الإسبانية بمحاسن ومنافع التسوية، وقد مكث المبعوثان هناك خمسة أشهر دون أن يستقبلهما اللورد كورزون (وزير خارجية حكومة المحافظين)، وهكذا لم تؤد مهمتهما إلى أية نتيجة، وإن لديكم اليوم حكومة جديدة (الحكومة العمالية الأولى برئاسة رامس ماكدونالد)، ويشغل رئيسها منصب وزارة الخارجية في بلاد ذات مثل عليا سلمية، وسأطلب منك أن تحمل باسمي نفس الاقتراح إليها، فلتعطنا أوروبا الاستقلال الذي هو حقنا الموروث بلا منازع، وسوف يحل السلام، وتتوفر الفرصة لجميع الناس في الريف، لكنه إذا ثابرت إسبانيا على محاولاتها العقيمة في إخضاعنا فإن حربها ستستمر بلا انقطاع».

وختم ابن عبد الكريم حديثه بقوله:

فوجدوا الخائن عبد المالك الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر، وعينوه قائداً على قوة من الجنود، ووجهوه إلى مليلية، ودعا ابن عبد الكريم إلى اجتماع بغية التخلص منه بخديعة فطن لها، فلبى الدعوة، وحضر الاجتماع محاطاً بجماعة مسلحة، فعرض عليه ابن عبد الكريم قيادة في الريف دون أن يرد عليه، ثم خرج صامتاً، وقد اختفى فيما بعد، إما لأنه قتل في المعركة ضد الريفيين، وإما لأنه اغتيل من طرف الإسبانيين، وكان يعتبره ابن عبد الكريم خائناً، ويتهمه بتحريض الإسبان على سجنه في مليلية سنة 1925.

وحاول كذلك الإسبان أن يغتالوا ابن عبد الكريم بواسطة أحد المرتزقة بعدما سلحوه ببندقية، وقنبلة يدوية، وكمية من السم، ولكن الرجل أطلع ابن عبد الكريم على المؤامرة، فجرب السم في كلب، ولما مات كافأ ابن عبد الكريم الرجل بما يستحق وهكذا فشلت كل وسائل الإسبان في القضاء على خصمهم بالقتال أو بالاغتيال.

وفي أوائل 1925 تحدث الأمير ابن عبد الكريم في مقر قيادته بآيت قمرة مع مراسلين صحفيين أميركيين أحدهما يمثل (شيكاكوتريبون) والثاني ينوب عن (الدايلي نيوز) فأجاب على أسئلتهما:

«إن الحركة الإسلامية لا وجود لها، والحديث عن الحركة الإسلامية الشاملة ليس له غير هدف واحد هو إخافة الفرنسيين

وأثناء مرور الصحفي بمدريد اجتمع بالجنرال بريمودي ريفيرا، ووزير الخارجية، وتحادث معهما في رسالة ابن عبد الكريم لرئيس الحكومة البريطانية، فكان جواب الديكتاتور الإسباني: «إن السلام كما يقترحه ابن عبد الكريم مستحيل، إن هذه الرسالة تدعو الحكومة البريطانية إلى دفع إسبانيا إلى إنهاء النزاع المسلح في الريف، لكن هذا يتوقف على ابن عبد الكريم، لأنه هو الذي يهاجم باستمرار، ونحن نقاتل لرد الهجوم فقط، إننا لا نطلب أكثر من إقامة (حمايتنا) في الريف بالوسائل السلمية». وهذا منطق المستعمر المعتدي على أرض غيره، وعلى شعب رافض لسيطرته، وواقف موقف الدفاع المشروع، والتحرير ولو بحد السيف، وصرح الطاغية الإسباني كذلك بقوله: «إن الاستقلال، كما يطالب به ابن عبد الكريم، لا يملك أي وجود قانوني. لقد كان الريفيون دائماً رعايا اسميين لسلطان المغرب الذي أناب على سلطته إسبانيا، فوضعهم القانوني إذن هو وضع (العصاة) وليس وضع أمة مستقلة، إن إسبانيا تنجز في المغرب مهمة دولية، إذ اعترفت الدول الكبرى بحمايتها على شمال المغرب، وإذا كان ابن عبد الكريم يطلب الاستقلال فيستطيع أن يحصل عليه تحت حمايتنا، فإذا استسلم فإن اسبانيا ستكون مستعدة لأن تسند إليه قدراً كبيراً من السلطة المحلية كما فعلنا مع الريسولي».

وهكذا اتضح أكثر أن الموقفين متعارضان تماماً، وأنه لا مفر من الحرب حتى يكون القول الفصل في ميدانها للسيف.

وللخلاص من ابن عبد الكريم بحث الإسبان عن عملاء،

مدى قسوته، وعدم صلاحيته لشعبنا، وأنه لا يحمل إليه سوى الخراب.

وعن الشكل النهائي للحكومة أجاب ابن عبد الكريم: «أنه ينوي الاستمرار في الحكم وفق مبادىء الملكية المطلقة التي ظهر أنها أفضل نظام يتناسب مع معتقدات الشعب الريفي، ويمكن تطويرها مع الزمان إلى أسس أكثر حرية».

وعن الموقف من الفرنسيين، أجاب:

«إن موقفنا من فرنسا موقف ودي إلى درجة قصوى، فنحن لم نرغب قط سوى في علاقات سلمية معها، وليس في نيتنا مهاجمة منطقة نفوذها بالمغرب، وأن الحرب مع فرنسا ــ في نظري ــ أبعد من أن أتصورها ما لم تهاجمنا فرنسا نفسها، فإذا ما كنا ضحية هجوم، فسوف ندافع عن أنفسنا، لكن هذه الإمكانية بعيدة جداً بحيث لا يمكن التفكير فيها، فمما لا ريب فيه أنه ليس من مصلحة فرنسا أن تهاجمنا ونحن نَمُدُّ إلى فرنسا يداً ودية، ونأمل بإخلاص أن تقبل فرنسا صداقتنا، ومهما يكن من أمر، فلا بد من إنجاز بعض الشروط الأولية قبل أن تدخل هذه الصداقة في مرحلة الممارسة الفعلية، فمصاعب الحدود، لا يمكن تجنبها في الظروف الراهنة، ولكنني أؤكد أننا لم نهاجم مطلقاً أية دورية فرنسة أو قبيلة صديقة، وأن أي جندي نظامي ريفي لم يجتز الخطوط الفرنسية التي تحددها المواقع الفرنسية الأمامية، وأنه ليمكن اجتناب مناوشات الحدود بطريقة وحيدة هي تخطيطها بشكل نظامي، وهي حدود قومية

والانكليز لإرغامهم على معارضة حكومة الريف في صراعها مع إسبانيا، وليس ثمة أية صلة بيننا وبين أية حركة أخرى في المغرب أو الجزائر أو تونس أو مصر، وليس لدينا أية نية في خلق مثل هذه الصلات، إن نضالنا قومي محض، وعدونا الوحيد هو إسبانيا، وهذا العداء ناتج عن إرادة الإسبانيين أنفسهم، وليس مسبباً عنا إطلاقاً، وليس ثمة ما يناسب أكثر من السلم مع الإسبانيين والعالم أجمع».

وعن شروط الصلح أجاب: «إننا نطلب أولاً وقبل كل شيء السلام وحرية العمل، ونتمنى لإسبانيا قبل أمة أخرى أن يعم السلام بيننا وبينها، وأن تتصرف معنا ـ إذا أمكن ـ تصرف الصديق والحليف، ولكن لنا بعض المطالب اللازمة كشروط أولها وأهمها وجوب انسحاب جميع الجنود الإسبانيين في المغرب من المحيط الأطلسي إلى التخوم الشرقية، وإلى مليلية، وسبتة، أو إسبانيا رأساً، ولن يرضينا شيء أقل من استسلام (الحماية) الإسبانية المطلق، ونحن نطلب ذلك باسم الأمة المغربية بأسرها، لأن (الحماية) الإسبانية حملت إلينا، ولن يعود في ميسورها أن تحمل إلى شعبنا غير الشقاء والخراب، و (الحماية) لا تحمي شيئاً حتى الجنود الإسبانيين أنفسهم، فإذا ما تنازلت إسبانيا عن مناداتها بهذه (الحماية) الزائفة غير الشرعية فإننا على استعداد للدخول في مفاوضات السلام وفق الأسس التالية، وهي: الاعتراف باستقلال الريف وسيادته القومية من مليلية إلى سبتة وطنجة، ولن نقبل أبداً (الحماية) على جزء آخر من المغرب، فلقد أثبت الحكم الإسباني

سبيل استقلاله، وهو على أتم استعداد لبذل كل تضحية ممكنة، لأن كل من سار على الدرب وصل إلى الهدف الذي رسمه لنفسه وسعى إليه. أيها الشعب الأميركي، إنني أنتهز الفرصة التي أتاحتها زيارة أحد صحفييكم ــ هذا الذي بَدَا في عيني رمزاً لعظمة الروح والحرية مثلما بدا في عيني رمزاً للمروءة والسخاء ــ لأبعث إليكم بتحياتي مع أخلص ودي».

وروى نفس المراسل أنه رأى في اليوم التالي حركة غير عادية، وعلى شاطىء الحسيمة نزل ابن عبد الكريم مع وزرائه يحميهم نحو مئة مسلح من فوق خيولهم، ودخلوا خيمة بيضاء، ثم نزل من مركب يرفع علمًا أبيض مفوض إسباني مع عدد من الضباط جاؤا يطلبون السلم، وعلق المراسل على هذا بقوله:

«كانت العزة الإسبانية تتمرغ في غبار سيد الريف»، وعاد ابن عبد الكريم بعد فشل المفاوضات ليجد وفداً من بني زروال يطلب العون لطرد الفرنسيين من أرضهم، فلما استمع إلى الوفد التفت إلى رجاله قائلاً: «سأرتكب حماقة، ولكن لا بد لي من ارتكابها».

وبهذا عبر عن اضطراره إلى تلبية طلب الوافدين، وإلى تحدي الفرنسيين في نفس الوقت، وهذا ما طالما حرص على اجتنابه حتى لا يدخل في حرب معهم تضاف إلى حربه مع الإسبانيين، ومن شأن هذا أن يحمله على فتح واجهة أخرى، ويجعله يحارب دولتين في آن واحد، وهو ما عدَّه حماقة رأى نفسه مضطراً إلى

وعملية تخططها الأنهار والجبال، وفي هذه الحالة لن تكون صعوبات مع فرنسا من جديد».

ويظهر أن ابن عبد الكريم كان يُعبِّر عن موقف وسط بين تيارين أحدهما متطرف يناصر الحرب، والثاني معتدل يريد السلام لضمان وحدة الريف الداخلية.

وختم بقوله: «إن مستقبل بلادنا غير محدد، وإن لنا كامل الثقة في قدرتنا الصناعية وفي مدى قابليتنا لمفاضلة أنفسنا في السلم والحرب، ونسأل العالم الخارجي باسم العدالة أن يتيح لنا هذه الفرصة، وإذا لم يعطنا الالم السلم الذي نبحث عنه في الوقت الذي أعددنا العدة له فسوف نخوض غمار القتال إلى أن ندركه بسيوفنا وبمشيئة الله».

وتلبية لطلب المراسل وجه ابن عبد الكريم رسالة إلى الشعب الأميركي: «من الأمير ابن عبد الكريم إلى الشعب في أميركا الشمالية.

«أحييكم، أيها الشعب الغربي، باسم الشعب الريفي، هذا الشعب الذي لا يفتأ يعاني ويلات الحروب في سبيل الحرية، وإن الشعب الريفي ليأمل أن يحرز على ما أحرزتم عليه أنتم، وهو النجاح الذي حصلتم عليه بتكاتفكم وتضحياتكم التي استدعاها طموحكم في زمن كنتم فيه مثل أبناء الريف الآن في سن الشباب، إن شعبي ليستوحي مبادئكم المقدسة، ويناضل منذ سنوات، في



ارتكابها حتى لا يرد طلب بني زروال، فيخسرهم ويخسر كذلك السمعة والنفوذ في القبائل المنضوية تحت لواء الجهاد أو التي يمكن أن تنضم إلى الصف اقتداء ببني زروال، وقد كانت الحماقة المرتكبة كرهاً لا طوعاً بداية حرب كانت نهايتها هزيمة الثورة لصالح فرنسا وإسبانيا المتحالفتين ضدها حتى النصر العسكري بالقوة، والحديد والنار.

إلا بأعجوبة، وعاد إلى تطوان وهو يعتقد أن إسبانيا في مأزق لا يطاق.

وحاصر المجاهدون تطوان بقيادة اخريرو، وكذلك حوصرت شفشاون، وكثر الجرحى حتى نقلوا إلى سبتة، وقصف الطيران الإسباني (تسع عشرة طائرة) المداشر حول تطوان، فقتل النساء والأطفال في مجزرة وحشية انتقامية لا تقدر، وزيد في قوات العدو حتى بلغت مئة ألف في الجبهة الغربية، واضطر «بريمودي ريفيرا» إلى سحب الحاميات من مراكز اللوكس إلى الشاطىء وعددها خمسة وعشرون، ونقلت بالمراكب التي أغرق المجاهدون أحدها، ووزع الإسبان بالطائرة مناشير عربية تهدد وتتوعد المجاهدين بأقسى العقوبات، وكان الأمير محمد (فتحاً) والقائد اخريرو يخططان عرقلة الانسحاب الإسباني من شفشاون، وأوفد ابن عبد الكريم القائد بحوت، فتفقد الجبهة وأشار بقطع الطريق على المنسحبين الذين كانوا 40000 رجل بقيادة الجنرال «إيزبورو»، وكان من القادة الجنرالات «ريكلم»، «وكيبودي ليانو»، «وكاستروخيرونا»، «وسيرانو»، «وفريد يريكو بيرنجير»، «والكولونيل اوفيلو»، ووصلت القوات إلى سوق الأربعاء بين تطوان وشفشاون، وتركها المجاهدون حتى وصلت إلى شفشاون في 30 شتنبر، و 2 اكتوبر 1924، ثم خرجت القوات الإسبانية من شفشاون تحقيقاً لخطة الانسحاب الستراتيجي في 13 نوفمبر والأعداء يظنون أنهم يتحركون في سر وكتمان، ولم يهجم المجاهدون على الإسبان داخل شفشاون احتراماً للمدينة، وأتى الأمير ابن عبد الكريم ليدخل

الفصل العاشر

فتح الجبهة الغربية
بعد خيبة المساعي الديبلوماسية والدولية

لما يئس المبعوثون الريفيون من تدخل الهيئة الدولية خاصة ازدادوا يقيناً بأن حق الريف لا يمكن أن ينتصر إلا بحد السيف، فرجعوا بعد أن تكبدوا مشقة كبيرة لاختراق الحدود الفرنسية، ولما وصلوا إلى الريف وجدوا أن ابن عبد الكريم قد نظم صفوف المجاهدين أكثر مما تركوها، فارتاحوا لهذا، ولم تمض مدة قصيرة حتى تولى شقيقه محَمد القيادة بنفسه، وأخذ يتجول في مختلف ربوع الريف ليختار أصلح مكان لإنزال الضربة القاضية بقوات الاستعمار، فاختار الجهة الغربية بناحية تطوان، فهجم المجاهدون على المواقع الإسبانية على طول نهر اللوكس في مايو 1924، وفي يونيو تولى فرانكو مع اللفيف الأجنبي الإشراف على الانسحاب المنظم من تلك الجهة، وقد رأى رجال حامية أحد المواقع يشربون الخل، لأنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى الماء الذي كانت قوة المجاهدين تمنعهم منه، ومرة وجد فرانكو في موقع أتى لإغاثته كل شيء قد احترق بإمرة قائده: الرجال، والخيام، والأسلحة، والأعتدة عند الاضطرار إلى الاستسلام، وجاء «بريمودي ريفيرا» ليتولى شخصياً الإشراف على الانسحاب، فلم يفلت مع الجنرال سيرانو من الموت

وهكذا كانت كارثة انسحاب الإسبان من شفشاون شبيهة بكارثتهم في انوال، واعترف «بريمودي ريفيرا» قائلاً: لقد هزمنا ابن عبد الكريم، إنه يملك تفوقاً هائلاً من حيث الأرض والأنصار المتعصبون، أما جنودنا فقد سئموا الحرب وهم يخوضونها منذ سنوات، وهم لا يرون سبباً يدعوهم إلى القتال والموت من أجل هذا الشريط من الأرض العديمة القيمة، إني أنسحب إلى هذا الخط (وأشار إليه)، ولن أتمسك إلا بهذا الطرف من الأرض، وأنا شخصياً أؤيد الانسحاب الكلي من افريقيا (المغرب) وتركها لابن عبد الكريم، لقد صرفنا ملايين لا حصر لها من البسيطة في هذا المشروع، ولم نكسب فلساً واحداً منه، ولقد فقدنا عشرات الآلاف من الرجال القتلى من أجل أرض لا تساوي هذا الثمن، ثم أخرج حفنة من الرصاص أزيلت من جثث القتلى، فقال: «إنها من صنع فرنسي». وزاد قائلاً: «سجل كلماتي، فحين ينتهي ابن عبد الكريم منا سيهاجم الفرنسيين مستعملاً ذخيرتهم الخاصة ضدهم».

وبعد هذا تمردت قبائل الأنجزة بين تطوان وطنجة على الإسبان، الأمر الذي أجبرهم على إقامة خطوط لحماية الطريق والسكة الحديدية من جهة سبتة، وإلى وضع جيش من 10000 جندي لحماية مؤخرتهم.

واستولى اخريرو على مركز الريسولي الذي أخذ أسيراً إلى الريف حتى توفي، وغنم المجاهدون في مركز الريسولي 408

المدينة حافي القدمين، عاري الرأس حتى حل بالمسجد. وتوقفت القوات العدوة بعد الانسحاب، فنزل المجاهدون من الهضاب، وزحفوا عليها، فتحول الانسحاب إلى هزيمة، وقتل الجنرال «سيرانو»، مع ألف من الجنود، كما جرح الجنرال «بيرانجير»، وقتل الضابط الذي خلف «سيرانو»، وكانت طريق الانسحاب مليئة بالجثث حتى إن صحفياً عد 600 جثة في ساحة لا تزيد عن مساحة مقر وزارة الحربية بمدريد، وكانت الطيور والكلاب تأكلها، وكان الفضاء مليئاً بالروائح الكريهة، ولم يصل الفارون من الجند إلى تطوان إلا في 13 ديسمبر، وكانت الخسائر من القتلى: جنرال واحد، والكولونيلات 6، والكمندارات 8، والضباط الآخرون 175، والجرحى 600 ضابط، والقتلى 17000. ونشرت (النشرة الرسمية لوزارة الحربية الإسبانية) إحصائيات غير كاملة، وهي:

1 ـ الضباط العامون ـ السامون وغيرهم ـ الذين قتلوا من يونيو إلى دسمبر 1924 بلغ عددهم 190، يضاف إليهم المفقودون المقدرون بـ60، والجرحى 700.

2 ـ الجنود القتلى 3800.

3 ـ الجنود الجرحى 14000.

4 ـ الجنود المساجين أو المفقودون 2500.

5 ـ مجموع الخسائر 21250.

الانكليزية نفس الدور الذي قامت به ماضياً ضد الفرنسيين لمنع فرض سيطرتهم على المغرب، فاليوطي كان يريد الاستفادة من أسطول انكلترا لا غير، ومن شأن هذا أن يفسد علاقتها مع المغاربة خاصة.

مسدسات اوتوماتيكية، و 24 رشاشاً، وكمية عظيمة من القنابل اليدوية، و 800 بندقية من طراز موزر، و 300000 رصاصة، و 500 حصان، و 300 دابة، و 20 مليوناً من البسيطة الذهبية، وكنز عظيم من المجوهرات القديمة، والأحجار الثمينة، والزرابي الجميلة، ويضاف إلى غنائم الحرب 41 امرأة، و 32 من الخصيان، و 84 عبداً أسود، و 300 مقاتلين، وعدد من الأبناء والأقارب.

بعد ذلك أصبح الأمير محمد بن عبد الكريم صاحب الأمر في جميع الأراضي المحررة شرقاً وغرباً من شمال المغرب «ريفه» و «جبالته»، وهذا ما أقض مضجع الفرنسيين الذين باتوا يحسبون ألف حساب لنصر الثورة التحريرية تحت قيادة ابن عبد الكريم الذي أصبح السيد المطاع في الشمال، وكتب ليوطي لباريس «لا يمكن أن يكون هناك شيء أسوأ لنظامنا من إقامة دولة إسلامية مستقلة حديثة على قرب من فاس، دولة تجعل من ابن عبد الكريم مركز اجتذاب لا بالنسبة للمنشقين عنا فحسب، بل بالنسبة كذلك لجميع تلك العناصر المغربية، وخاصة الشبان منهم الذين اتسعت نظرتهم بسبب الأحداث الجديدة في الشرق، والذين نشأت في أذهانهم مطامح بغض الأجنبي».

ولما استشير ليوطي من لدن حكومته أشار بحركة حربية ثلاثية تشترك فيها: فرنسا، وإسبانيا، وانكلترا لا بجيشها ولكن بأسطولها البحري فقط، لأن ليوطي كان يتخوف من دخول الفرق البريطانية إلى المغرب خشية أن تمتنع بعد من مغادرته، وأن تلعب فيه السياسة

من هو الريسوني؟

«ولد مولاي أحمد الريسوني بالزينات (قبيلة بني مصـور) حوالي 1870م وهو ينتمي لعـائلة من الأشراف تنتسب لمـولاي عبد السلام بن مشيش، ولي جبل العلم (قبيلة بني عروس) وأحد أقطاب الإسلام المشهورين.

«درس في صغره العلوم الدينية والشرعية مبدياً ذكاء وشغفاً بالدرس مكناه من أن يحرز في ظرف وجيز على معلومات متينة. وقد حدا به حبه للعدالة إلى محاولة تطبيقها بالقوة، فخرج إلى الطرقات يقطع السبيل. وبتأثير من الوسط، والشغف بالحرب، تكون منه ذلك النمط من الرجل الذي يجمع بين قاطع الطريق، والسيد الإقطاعي في بلد تشمله الفوضى وتعمه (السيبة). وحيث تتطلب السلطة أن تكون مهابة الجانب بواسطة العنف، قبل أن تكون محترمة بموجب العدالة، وحيث تعتبر العقوبات القوية الطريقة الوحيدة ذات الأثر الفعال.

«لقد اعتبر أذاه بمثابة تهديد حقيقي للمخزن، وبواسطة الحيلة، استطاع حاكم مدينة طنجة استقدامه لمنزله، وإلقاء القبض عليه، وبعثه أسيراً إلى مدينة الصويرة حيث قضى مثقلاً بالسلاسل والأغلال مدة أربع سنوات. وعندما انتهى القرن التاسع عشر واسترجع حريته، كانت شهرته قد استحكمت.

«لم تتأثر روحه كثيراً بهذا الأسر. فقد ازداد شغفه بالحكم،

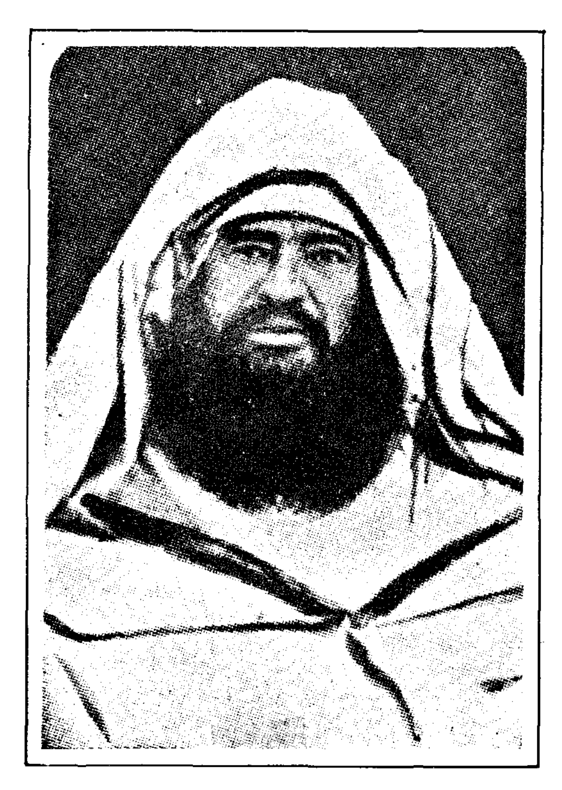
الفصل الحادي عشر

من هو الريسوني؟

إن من يطالع الكتب الأجنبية التي تحدثت عن الريسوني يخرج منها بفكرة هي أنه كان رجل فتنة وشغب، ولا ثقة فيه، ولا عهد له ولا ذمة، وأن كل ما كان يهواه هو المال، ومن أجله جعل من نفسه «قاطع الطرق»، للسطو على الناس وسلبهم ما عندهم بالقوة، وقد قاده هذا إلى اختطاف بعض الأجانب طمعاً في افتدائهم بالأموال، فكان بهذا يشيع الفوضى وعدم الأمن في البلاد، ويعرضها كذلك للمشاكل مع الدول، وبالإضافة إلى هذا كان فظاً غليظاً، ومستبداً، وجباراً، وغير هذا مما وصفه به الكتاب الأجانب.

وبما أن الريسوني لعب دوراً بارزاً في أحداث وقته خصوصاً بشمال المغرب، فهو جدير هنا بالتعريف حتى يكون أوضح حقيقة في الأذهان، وبما أن الإسبانيين كانوا من أعرف الناس به فقد آثرنا أن نترك الحديث عنه لأحد المسؤولين منهم الذين خبروه فاطلعوا على جلية أمره، وترجموا له بما أعطى عنه فكرة أقرب إلى الواقع من التي رسمها عنه بعض الكتاب الأجانب، وفيما يلي نبذة عن الريسوني معربة عن الإسبانية ولصاحبها كامل المسؤولية فيما كتبه عن هذا الرجل.

كرفط ـ الساحل، وبني ليت، وقائمًا في نفس الوقت باشا على مدينة أصيلة التي كانت مقر إقامته، وبطبيعة الحال، فقد كان تعيينه على الكثير من هذه القبائل اسمياً فقط، وذلك لقيام العديد من الثوار كحسن تاكزارت على الخصوص ضد سلطة السلطان الشرعية أو من يمثلها.



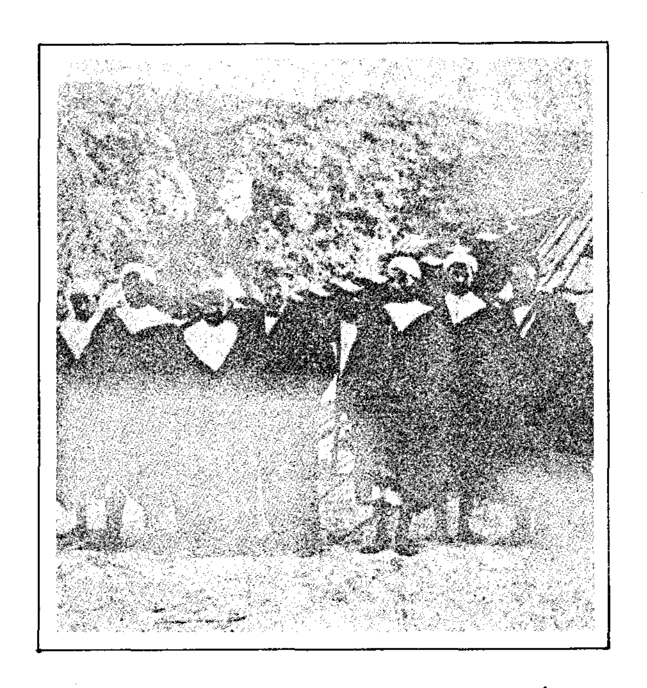
أحمد الريسوني

وترسبت أفكاره نتيجة العزلة وقد كان دائمًا يقول: «في السجن يموت الكثير من الشعراء، ويولد الكثير من الساسة».

وقد أقام بعد ذلك في الزينات مسقط رأسه، يذكي في قلبه نار الانتقام من باشا مدينة طنجة الذي لم يغفر له قط خطيئته الكبرى في خيانته واجب الضيافة عندما استدرجه إلى بيته بواسطة الخديعة، وأسره داخله، دون مرؤة ولا مراعاة لأصول الشهامة.

«لم يلبث أن أخذت أصداء بطولاته تنتشر، وكان أهم أعماله في هذه الحقبة، اختطاف الانجليزي (Harris) واليوناني ذي الجنسية الأميركية (Perdicaris) والاسكوتلاندي (Mac Lean) مدرب (محلات) السلطان، وعندما أرغم حكومتي انجلترا والولايات المتحدة على التدخل لافتداء المختطفين وأداء مقدار كبير من المال، تمكنت شهرته أكثر. وهذا ما جعل السلطان مولاي عبد العزيز الذي سبق أن بعث بمحلة له إلى الزينات لمحاصرته وقتاله ولم يفلح في ذلك، فبادر إلى إعطائه حكم احواز مدينة طنجة.

«مكث في هذه الوظيفة يفرض سلطته الشخصية، وعندما خرج المولى عبد الحفيظ على أخيه، انحاز الريسوني إلى جانب السلطان الثائر، وعندما اعتلى العرش، عينه ــ وفاء لخدماته ــ حاكمًا عاماً للمنطقة التي تضم قبائل: انجرة ــ وادراس ــ بني حزمار ــ بني يسف ــ بني يدر ــ جبل حبيب ــ بني عروس ــ الغربية ــ سوماته ــ بني مصور ــ أهل سريف ــ الخلوط ــ بني



الأمير محمد ابن عبد الكريم صحبه السيد ايشفاريبطا

«كان الريسوني صاحب ذكاء يقظ، وسياسياً خارقاً للعادة، عليمًا بأحوال قومه، مالكاً لجميع الصفات والخصائص التي يجب أن تتوفر في الحاكم الناجح.

«كانت له نظرة جد واضحة حيال السياسة الدولية، وأحوال العالم الإسلامي. ومن وجهة النظر المغربية، فقد كان يتطلع إلى مغرب حر مستقل، مما جعله يتوصل إلى أن وضعية المغرب تفرض عليه أن يقع تحت هذه الوصاية، وكان يفضل ـ كأخف الضررين ـ أن تقوم بها إسبانيا؛ لأن ضعف حكوماتها كان يستبعد أي فكرة للسيطرة الأمبريالية، التي كانت مزدهرة في فرنسا، وفي غيرها من الدول الاستعمارية.

«وفي أعماقه، كان يحب بلاده، ويتمنى استقلالها وتحررها من ربقة (مخزن) هرم عاجز يقودها نحو الفوضى والانحلال وكان يقول لبعض جلسائه:

(كذبة واحدة مني، خير من جهادكم ستين سنة)».

1 ـ تمنح إسبانيا للريف استقلاله التام.

2 ـ تدفع إسبانيا غرامة قدرها عشرون مليون بسيطة.

3 ـ تحتفظ إسبانيا بمركزين في المغرب لا غيرهما سبتة ومليلية لأنها احتلتهما بعد الاستيلاء على الأندلس.

4 ـ تترك جميع الجيوش الإسبانية في غير سبتة ومليلية كل ما عندها من السلاح، والعتاد، والمؤونة، وبعد هذا يسمح لها بالانسحاب في حالة مجردة من أي سلاح.

5 ـ تجتمع تلك الجيوش بثغر النكور ببني ورياغل، ومن هناك يتم نقلها عن طريق البحر إلى إسبانيا.

6 ـ يأخذ الإسبان جميع الأسلحة العتيقة وغير الصالحة التي يقدمها لهم المجاهدون، ويعوضونها بأسلحة جديدة صالحة، الثقيلة منها والخفيفة.

7 ـ يدفع الإسبان بعض البواخر التجارية لفداء الأساري الذين كانوا في معتقلات المجاهدين بالريف.

ولما تم تحرير هذه الشروط كلها سافر الوفد الإسباني إلى مدريد لأجل التوقيع عليها، ولكن لما وصل إلى العاصمة وجد الموقف قد تغير لتدخل فرنسا وحملها إسبانيا على عدم القبول، وعلى الاستعداد للحرب على أساس التعاون بين الدولتين صاحبتي الاحتلال بالمغرب، وهكذا تمت بينهما اتفاقات سرية لإحباط مفاوضات الصلح مع المجاهدين بالريف، ثم رجع رئيس الوفد الإسباني من مدريد حاملاً رسالة توضح أن مطالب وشروط الريف

الفصل الثاني عشر

طلب إسبانيا المفاوضة من أجل الصلح

في الوقت الذي أيقن فيه الإسبان بعجز قوتهم أمام قوة المجاهدين قرر حاكم إسبانيا الجنرال (بريمودي ريفيرا) الذي كان كذلك وزير الحربية، كما كانت بيده القيادة العليا بتطوان، الانسحاب من جميع المراكز، كما قرر فتح المخابرة من أجل الصلح، ولكن الإسبان لم يستطيعوا تنفيذ خطة الانسحاب لتصدي المجاهدين لهم من كل جانب، فاضطروا إلى الاستسلام دون قيد ولا شرط، إلا ما كان من بعض المراكز الغربية من جهة تطوان التي هرب المقاتلون منها تاركين كل شيء وراءهم من سلاح، وعتاد، ومؤونة.

ولم تمض ثمانية أيام على هذه الوقائع التي انتصر فيها المجاهدون بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي حتى أوفد الجنرال (بريمودي ريفيرا) مبعوثاً لمخابرة حكومة الريف في الصلح (ايشفاربيطا)، فانعقد مؤتمر بثغر بقيوة حضره محمد بصفته رئيساً لوفد الريف كما حضره عمه المجاهد البطل الأمير عبد السلام الخطابي وغيره من أعضاء الحكومة، وقواد المراكز الحربية، وبعد المداولات تم الاتفاق على ما يلي:

المراكز قرب تطوان بنحو عشرة كيلومترات فأصبحت تطوان معرضة لنيران المجاهدين، ولكن نظراً لكثرة سكانها من المواطنين كان المجاهدون لا يرمون بالمدافع إلا منازل الإسبان البعيدة من أحياء المسلمين.

لا تتفق مع مصلحة إسبانيا، وقد تسلم الرسالة الأمير محَمد (فتحاً)، فاستأنف عمله، ورجع إلى شفشاون ليواصل تنظيم القبائل، فلما وصل وجد الإسبان قد دفعوا مالاً وأسلحة لبعض رؤساء القبائل الجبلية الذين أصبحوا يخشون على نفوذهم، فاتفقت مصلحتهم مع مصلحة الأجانب ضد حركة التحرير الوطني، ومن نتائج تلك التدخلات، والتحريضات، والإغراءات الأجنبية أن بعض القبائل تمردت على الحركة الوطنية كما فعلت قبيلة الأخماس، ولكن الأمير محمد الذي كان قائد الجبهة الغربية استطاع سياسياً وحربياً أن يتغلب على القبائل المتمردة بإيعاز من الإسبان ومساعدتهم المادية والعسكرية، وهكذا لم تمض سبعة أيام حتى وصل القائد إلى قبيلة بني عروس فبعث بكتاب إلى من يهمه الأمر في القبيلة، وعرض الدعوة إلى الاتحاد، والانضمام إلى صفوف الجهاد والتحرير، وأوضح الكتاب كذلك أن حركة التحرير لا ترمي إلى فرض رئاسة أصحابها على أحد، وإنما هو الواجب يقضي بالدفاع عن الوطن وأهله، ولكن هذه الدعوة إلى الاتحاد لم تلق أية استجابة، ثم تكررت الدعوة كتابة بدون جدوى، بل كان الجواب عليها بإطلاق النار على المجاهدين. وأمام هذا جاء الأمر ــ فوراً ــ من القائد الأعلى إلى شقيقه باستعمال القوة، ومقابلة الحرب بمثلها، وطالت المعركة يومين تمكن المجاهدون فيها بقيادته من الاستيلاء على قبيلة بني عروس، والوصول إلى تازروت، مقر رئيس التمرد فيها.

وبعد هذا تم تنظيم جميع القبائل الجبلية، وأسس المجاهدون





خريطة المغرب

ميادين العمليات الحربية التي كانت تتعرض للطيران

وكان هذا في أوائل سنة 1925، فتم هذا الاستيلاء بعد ما فرّ من كانوا فيها إلى فاس، ثم شنت القوات الفرنسية الهجوم.

وفي أيام قلائل تمكن المجاهدون من اختراق جميع المراكز الفرنسية، ومن الاستيلاء على القبائل التي كان يقدر عددها بـ25 قبيلة تمتد من بني مستارة بناحية وزان إلى قرب وجدة، ونتيجة لهذا الغزو الوطني استسلمت جميع المراكز الفرنسية التي كانت بتلك القبائل، ويقدر عدد هذه المراكز بخمسمائة مركز غنم المجاهدون كل ما فيها من سلاح، وعتاد، ومؤونة، كما اعتقلوا ألوف الأسرى، ومما أخذه المجاهدون خمسمائة مدفع، وأكثر من ألفي رشاش، وعشرون ألف بندقية، ومئات الألوف من الذخيرة والقنابل، وكثير من الأدوات التلفونية، والمواد الطبية وغيرها مما كانت تستعمله أو تدخره القيادة الفرنسية لصالح جيوشها، وكانت هيئة أركان الحرب من المجاهدين تميل إذاك إلى الرأي القائل بغزو المدن المغربية كفاس، وتازة، ووزان.

وفعلاً، وصل ألف من المجاهدين يوم 27 أبريل 1925 إلى ناحية فاس حيث احتلوا جسراً يبعد عنها بنحو 30 كيلومتراً، غير أن القائد الأعلى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي كان يرى أن لا مصلحة في مواصلة التقدم بالجيوش، فأصدر الأمر إلى أخيه بأن يتوقف عن الهجوم، وينظم خطاً دفاعياً من ناحية وزان إلى ناحية وجدة، وهكذا أخذ ينظم القبائل والمراكز فيها، ويوجه الوفر من الأسلحة والذخائر إلى الريف لتوزع على المراكز فيها بشواطىء

الفصل الثالث عشر

الجبهة الجنوبية:
الحرب مع فرنسا

رجع الأمير محمد (فتحا) إلى شرق الريف بعد ما ترك القبائل كلها منظمة تحت قيادة أحمد بودرة، ولم يكد يصل إلى هناك حتى كانت الأحوال قد تطورت على الحدود الفرنسية، ذلك أن الفرنسيين الذين اشتد خوفهم من انتصارات المجاهدين على الاسبان لجأوا إلى إثارة بعض الأعيان ومشايخ الطرق في إحدى القبائل، وهي بني زروال.

ورغبة في تلافي الحرب مع الجانب الفرنسي ــ بالإضافة إلى الحرب مع الأسبان ــ جرت عدة محاولات استهدفت تطمين السلطات الفرنسية، ووضع حد لتعكير جو العلاقات بينها وبين حكومة الريف، ومن أجل ذلك وجهت عدة كتب مع مبعوث إلى فاس، كما وجهت كتب أخرى إلى أولئك الأعيان والمشايخ حتى يكفوا عن التواطىء مع الفرنسيين ضد المجاهدين، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، وإذاك توجه الأمير محمد على رأس رجاله لناحية بني زروال، فلما وصل إليها بدأ بفتح المخابرة مع السلطة الفرنسية التي أجابت بإطلاق النار، فما كان من القائد إلا أن ردّ عليها بالمثل، كما أمر جيوشه بأن تستولي على زاوية بني زروال،

خالد، وكانت مؤلفة من 800 غمارى من بني رزين، وبني خالد، ومتيوة تحت إمرة قائد بني رزين اليزيد بن صالح.

«ودخلت فرقة أخرى مؤلفة من 700 غمارى من بني سلمان، وبني زجل تحت رئاسة قائد بني سلمان محمد محراش من وجهة خط عولاي في الشمال.

«وهجمت (حركة) أخرى مؤلفة من 1500 رجل من بني أحمد، وغزواة، وبني خالد، والأخماس من جهة الشمال الغربي على خط أوضور، في اتجاه زاوية آمجوط المقر الديني الرئيسي للطريقة الدرقاوية ببني زروال، تحت قيادة محمد المصلوحي من بني أحمد.

«وأخيراً، فإن القائد المستاري من بني مستارة، هاجم القبيلة من جهة الغرب بفرقة من قبيلته في اتجاه زاوية آمجوط كذلك.

«وفي ظرف ثلاثة أيام، احتلت قبيلة بني زروال جميعاً، بحيث وصلت القوات الريفية إلى مواجهة المراكز الفرنسية، ولم يحاول أحد المقاومة غير الدرقاوي وجماعته داخل الزاوية، ولكن، بعد صراع قصير، أخذت زاوية أمجوط يوم 16 أبريل وأحرقت.

«أما الدرقاوي فقد لجأ إلى فاس، وقد أدت قبيلة بني زروال كغرامة نصف مليون بسيطة، ثم جردت من السلاح.

«إن هذه الجهود جميعاً، لم تستطع تفادي وقوع مركز البيبان في حوزة المجاهدين أخيراً يوم 7 يونيو وقد كان تحت قيادة السرجان بيرني.

البحر الأبيض المتوسط، وبمجرد ما تمت التنظيمات رجع الأمير محمد إلى مقره بالريف في انتظار ما يصدر من فرنسا.

«في شهر مارس سنة 1925، وبعد أن اطلعت القيادة الفرنسية على الأعمال السياسية التي يقوم بها وكلاء ابن عبد الكريم في بني زروال، حاولت إبطالها لعرقلة ارتداد هذه القبيلة التي يعد تأييدها وطاعتها لعبد الرحمن الدرقاوي بمثابة ستار يغطي خط مراكز ورغة، وبهذا القصد بعث إلى أجدير عبد العزيز الحلو من طرف الكومندان (شاستاني) من إدارة الشؤون الأهلية بفاس.

«وخلال هذه الفترة فإن ابن عبد الكريم، كان يهيىء لهجومه على بني زروال، وفي يوم 12 أبريل سنة 1925، وبدون سابق إعلام، صب جام غضبه بصفة نهائية على الفرنسيين، حين قام باكتساح القبيلة فجأة من خمس نقط.

«ودخلت (حركة) قوية مكونة من 3.000 رجل إلى بني زروال من الناحية الشرقية، وكانت مؤلفة من الجيش النظامي بقيادة: شعيب بن الفلاح، ومحمد بن عمرو، ومن جنود الطوارىء للريف الأوسط وصنهاجة تحت قيادة محمد ولد عبد الكريم، ومعه القواد: أحمد بودرة (وزير الحربية)، والفقيه بولحية (وزير الداخلية)، وعمر وعلوش (كبير المحلة)، والهادي بن عزوز (رئيس الجيوش النظامية الريفية)، ومحمد الخطمي.

«وهاجمت (حركة) أخرى من الشمال الشرقي آتية من بني

«وخلال شهري يونيو ويوليوز، فإن ضغط الريفين يستمر قوياً بحيث إن الفصائل الفرنسية اقتصرت، في سبيل الاحتفاظ بمراكزها، على الدفاع، ومضاعفة الجهود من أجل تموين وتدعيم المراكز التي كانت لا تزال تقاوم.

«وفي ناحية وزان، التحقت قبيلة بني مزكلدة بالثورات، ولم تستطع فرق الكولونيلين «دوفرير» و«نييجر» الضعيفة إنقاذ وزان، إلا بمجهودات كبيرة، ولكنها لم تستطع إعاقة العدو من أن يطوف حول المدينة من الشمال والجنوب، مسرعاً نحو سهول الغرب الغنية، ومغيراً على بعض الاستثمارات الفلاحية، إلى أن وصل جبل صرصر على بعد 5 كيلومترات من القصر الكبير، وكيلومترين فقط من مركز الديوانة الفرنسية بعرباوة على الطريق الواصلة ما بين الرباط وطنجة.

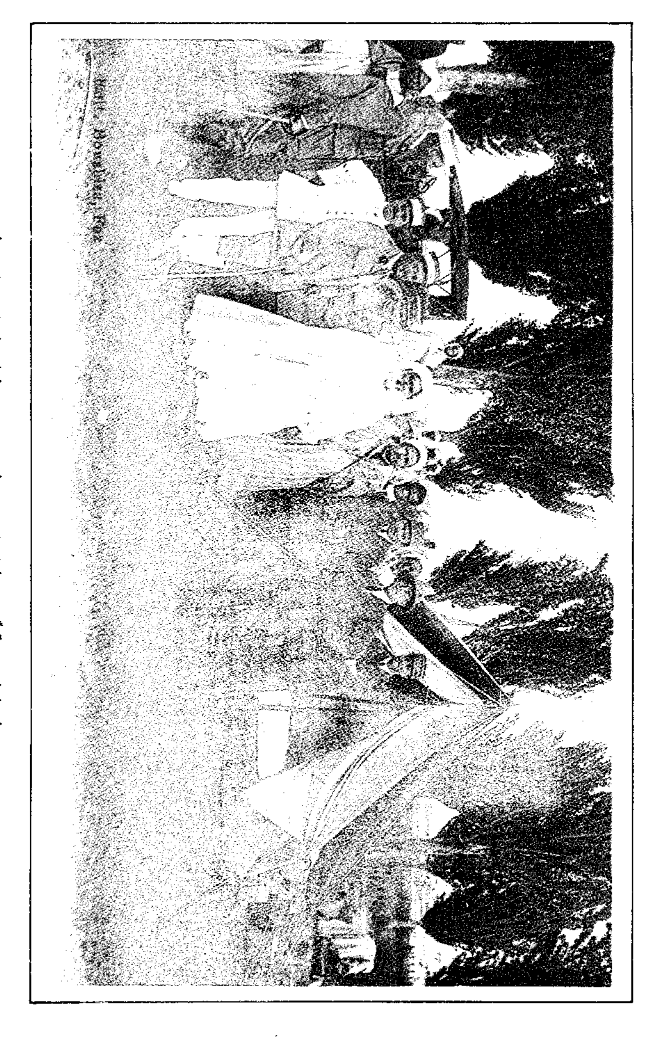
«وفي الوسط، اضطر الكولونيل (نوكيس) من مركزه بأربعاء تيسة، إلى أن يقاتل ليرفع الحصار عن عين عيشة يوم 18 يوليوز، وإلى أن يقوم يوم 20 منه بتموين مركز عين معطوف، وتاونات، وإلى أن يجلو عن مركز ديادار يوم 26 منه:

«وفي الشرق، فإن خط المقاومة الفرنسية يتراجع إلى أن يصل قرب الطريق الواصلة ما بين فاس وتازة، ما عدا أعالي مسون حيث استمر مركز (الكيفان) يقاوم بفضل إخلاص قبيلة أجزناية تحت رئاسة القائد المذبوح.

«لقد خلفت ردة قبيلتي البرانس وتسول في ناحية تازة وضعية جد صعبة بحيث استطاع رجال الريف أن يصلوا، خلال شهر

«أما فرقة كامباي فقد بقيت شمال تازة تذود عن مرتفع (الكيفان) الذي كانت تتركز فيه قوات الريف في هذا القطاع، ابتداء من يوم 19 إلى 21 يونيو، تذهب لتعزيز كتيبة فريد أنبر في أعالي ورغة، بحيث لم يبق في جبهة تازة إلا فصيلة صغيرة تحت قيادة ليوطنان كولونيل (جيرو) الذي استطاع بمجهود عجيب تفادي سقوط (الكيفان)، إلا أن ابن عبد الكريم ضاعف من مجهوده من أجل الوصول إلى فاس وتازة، ففي أواسط ورغة حقق، كما سبق ذكره، الاستيلاء على (البيبان)، وبمنعه المرور من النهر ما بين فاس البالي وقلعة سلاس اكتسح قبيلة فشتالة التي التحقت بصفوف الثورة، ووصل إلى أمركو على بعد 15 كيلومتراً جنوب ورغة، و 40 كيلومتراً من فاس، قاطعاً بذلك الطريق ما بين فاس ووزان، ولم تتحمل هذا الهجوم غير نقاط تروال، وتفرانت، وفاس البالي، وقلعة سلاس، وعين عيشة التي بقيت تكون نقط ارتكاز للدفاع الفرنسي.

«وخلال ذلك فإن (حركة) من رجال الريف بقيادة أحمد جدى تهاجم (الكيفان)، ويدخل القائد بوحوت معززاً بـ 400 رجل من جنود الريف تحت رئاسة القائدين: بوكلد، وحد وموح أمزيان، قبيلة البرانس، ويهزم (حركة) الموالين للفرنسيين من هذه القبيلة بزعامة الخليفة الركُوكُو، فتلتحق القبيلة كلها بصفوف الثورة، تاركة المراكز الفرنسية معزولة، وبعد أن يحارب بوحوت فصيلة (كامبادى) التي رجعت إلى تازة أمام الخطر المهدد يدخل إلى قبيلة تسول التي تنضاف هي بدورها إلى صفوف الثورة.



فاس – السلطات تحيّي الباشا ابن البغدادي، ليلة ذهابه إلى الجبهة

قبيلة عين عيشة ـ محل المراقبة

الآن باسم الاستقلال، أن فرنسا واسبانيا مستعدتان لأن تترك للريفيين أمر إدارة أنفسهم، واستثمار ثرواتهم الطبيعية كما يطيب لهم تحت سلطة زعيم يختارونه بأنفسهم».

وتعهد (كانينغ) بأن يوضح كل هذا، كما يفهمه الفرنسيون والاسبان، لقادة الريف الذين سيحاول إقناعهم بأنه ليس وراء ذلك أي خداع ديبلوماسي، وسأل (كانينغ): هل يرضي الحكومة الفرنسية اعتراف ابن عبد الكريم بالسلطة الروحية دون الزمنية لسلطان المغرب، فرد المقيم العام: نعم سيكون هذا كافياً، وأضاف أنه سيأمر فوراً بالهدنة بعد رجوع (كانينغ) من الريف بموافقة ابن عبد الكريم، وكان (كانينغ) يعتبر أن الشروط معقولة وشريفة، وواضحة، ولما حل بتاركيست اجتمع بالأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي أطلعه على أن أخاه فوض إليه الأمر لمناقشة كل ما هو ضروري لتحقيق الهدنة، وأكد له أنه يتمتع بثقة الريف نظراً لما بذله من أجلهم.

وأوضح (كانينغ) مهمته التي تنحصر في عرض الحكم الذاتي كأشبه ما يكون بالاستقلال دون الاستقلال التام كما يفهمه قادة الريف، ومع ما يحتوي عليه «الحكم الذاتي» من غموض في مدلوله فإن (كانينغ) كان مطمئناً إلى نوايا الحكومة الفرنسية، وإن لم يستبعد أن يكون في التطبيق بعض الآفات والصعوبات، وبما أن الفرنسيين في باريس والرباط قبلوا أن يبقى لقب الأمير لابن عبد الكريم فقد رغب (كانينغ) من قيادة الريف قبول العرض الفرنسي الاسباني،

القبائل أمثال الكلاوي والعيادي، وعسكرت بوادي فاس، وتوجهت بعد برئاسة محمد بن البغدادي، باشا فاس، إلى خطوط القتال لإنقاذ الموقف العسكري الفرنسي، وإمداد الجيش النظامي الذي تقهقر على طول الجبهة، وتحركت المحلة من فاس في يوليوز، وقد تمكنت من تطهير جنوب ورغة من الريفيين مستولية في يوم 9 غشت على جبل أمركو.

«أما من الشرق، فإن الجنرال (بواشو) آتياً من الجزائر على رأس تعزيزات مهمة مؤلفة من الهيأة 19 من جيش المشاة يشرع في القيام بعملية هجوم من الطراز الأعلى لاحتلال قبيلتي تسول والبرانس.

«وفي نهاية شهر يوليوز، فإن ابن عبد الكريم، علماً منه بمقدار التعزيزات الفرنسية القادمة إلى المغرب، واطلاعاً منه على المحادثات التي شرع فيها بمدريد للوصول إلى اتفاق حول التعاون ما بين فرنسا واسبانيا، رأى أن موقفه أصبح صعباً، وأخذ يشعر بالقلق، فعقد اجتماعاً لمجلس التاج في أجدير، حضره عمه عبد السلام وأخوه محمد، وجميع وزراء (المخزن)، وبعض الوجهاء، وبعض المستشارين من الأجانب الذين كانوا يحيطون به، ومن بين أنصار البدء في المفاوضات من أجل الوصول إلى سلم مربح، وأنصار مواصلة الحرب إلى النهاية مهما كلفت من ثمن، تغلب أنصار الرأي الثاني، فلم يجد ابن عبد الكريم بداً من خوض هذه المغامرة بعين مغمضة، مغامرة حرب دولتين أوروبيتين في نفس الوقت، وعلى ثلاث جبهات.

6 ـ أن رئيس دولة الريف سيحصل على لقب أمير.

7 ـ تكون تطوان عاصمة هذه الدولة.

8 ـ تتكون المنطقة (الاسبانية) من مليلية، وسبتة، والعرائش، مع مناطق تتراوح بين 20 و 25 كيلو ميتراً عمقاً، وتقترح حكومة الريف أن تشكل الانجرا شطراً من المنطقة الدولية.

ولما توجه (كانينغ) لمقر قيادة ابن عبد الكريم لأخذ موافقته اطلع على ما يثبت استعمال الاسبان للغازات السامة، وأوضح له قائد الريف أنه متفق مع أخيه فيما ورد في المذكرة، ثم اجتمع بالأمير محمد الخطابي الذي سلمه خطاباً ممضي من الأمير محمد بن عبد الكريم ليحمله إلى باريس، وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم
«له الحمد والشكر

«إني أعلم الحكومتين الفرنسية والاسبانية بهذه الرسالة بأننا نخول البريطاني السيد (كوردون كانينغ) «أن يستلم، باسم حكومة الريف، شروط الصلح التي عرضتها فرنسا واسبانيا في شهر يوليوز 1925، هذه «الشروط التي يمكن أن تعمل أساسياً في مفاوضات الصلح وذلك كما نطلع على هذه الشروط، وندرسها، «ونقرر ما إذا كنا نستطيع قبولها أو رفضها، والسلام.

الإمضاء:

في 16 جمادي 1344 محمد بن عبد الكريم الخطابي

الفصل الرابع عشر

مؤتمر وجدة
ومفاوضات السلام

وفي شتاء 1925 وربيع 1926 تولى ضابط سام انكليزي سابقاً كان رئيس لجنة الريف المؤسسة بلندرة في يوليوز 1925 بالاشتراك مع لجنة أميركية برئاسة هربرت مايون الوساطة بين المتحاربين من أجل السلام، ويدعى ذلك الضابط (كوردون كانينغ) جاء إلى الريف في 1924 ممثلاً لجمعية الهلال الأحمر للمساعدة الطبية، فتمتنت أواصر الصداقة بينه وبين أهل الريف وقادتهم.

وبعد ما أعلن رئيس الحكومة الفرنسية (بانلوفي) في 3 في بيان رسمي أنه يعرض على الريف نظام حكم ذاتي متحرر بقدر الإمكان اتصل به (كانينغ) فأكد له الرئيس أن الحكم الذاتي الذي تفكر فيه الحكومتان الفرنسية والاسبانية يشبه الاستقلال مع قيود قليلة، كما أكد له (أريستيد بريان)، وزير الخارجية، نفس الشيء كشروط فرنسية اسبانية للصلح، وكلف (كانينغ) بإبلاغ هذا إلى الأمير ابن عبد الكريم، وفي الرباط اتصل بالمقيم العام الجديد (ستيغ) الذي أوضح له المقصود من الحكم الذاتي بقوله: «إذا ما فهم ابن عبد الكريم معنى هذه العبارة الحقيقي فسيكتشف أنه ستكون في حوزته سائر السلطات لإدارة بلاده الخاصة، وهي التي يطالب بها

يمدها مرة أخرى، وأضاف أنه لم يتلق شروط الصلح حتى يرفضها، كما قيل، ولما سئل عن الشروط التي يرى أن يكون الصلح على أساسها أجاب:

«إن الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن نتنازل عنه أبداً هو حقنا في الاهتمام بأنفسنا، وإني لا أعني بالمظهر الشكلي للأمر، وأسمي ذلك حكماً ذاتياً أو استقلالاً. وأما علاقتنا بالأمم الأخرى فإننا على استعداد لأن نعمل ما يقال لنا، وكذلك لن أكون متعصباً في مسألة الحدود».

وسئل: «هل تصر على تطوان وأجدير»؟ فقال:

«على أجدير، نعم، فلماذا يجب أن تبقى اسبانيا بعد الصلح في مكان عديم النفع، وفي جوف أرضنا؟ لكن لن أصر على تطوان إذا كان السلام يتوقف على هذه النقطة، وفي رأيي أن من واجب جميع المغاربة أن يطردوا فرنسا واسبانيا من المغرب كله، وأن يخلقوا منه امبراطورية شريفة، لكنه لما كان هذا الأمر مستحيلاً، فيما يظهر، أو يتطلب وقتاً طويلاً، فإننا على استعداد للتخلي عن هذا الواجب بحيث نتمكن، نحن أهل الريف، من العمل في سلام، ونجعل من بلدنا أمة متحضرة، إننا شعب صغير تحاربه أمتان كبيرتان، ومهما كانت قوتهما فلن تستطيعا حكم أحد منا، ولن نستسلم أبداً، ولن يكون أعداؤنا في أمان هنا حتى يعطونا صلحاً معقولاً أو يقتلوا إلى آخر رجل، إننا راغبون بقوة في السلم، فإذا هم أرادوا السلم فنحن متهيئون، وإذا هم أرادوا القتال فنحن متهيئون كذلك».

وطال النقاش بين المبعوث والأمير محمد، وانتهى بتحرير مذكرة تعرض وجهة النظر الريفية، وهي:

1 ـ توافق حكومة الريف على الحكم الذاتي، وتتخلى عن المطالبة بالاستقلال التام مع ضمان امتيازات للأمة الريفية تحت الحكم الذاتي.

2 ـ توافق حكومة الريف على الاعتراف بالسيادة الروحية لسلطان المغرب، ولا يحق لأي من الحكومتين الفرنسية والاسبانية أن تستعمل هذا الاعتراف للقيام بدعاية مضادة بين قبائل الريف عن طريق مشايخ الطرق والزوايا.

3 ـ أن حكومة الريف على استعداد للاعتراف بمبدأ الباب المفتوح في التجارة، وبقبول التعريفات الجمركية الحالية كما هي مقررة في المغرب، مع استثناء أي منتوج ريفي خاص إذا ما أجحفت به هذه التعريفات.

4 ـ ستطالب حكومة الريف بالحق في إنشاء قوة للشرطة تحت قادتها الخاصين، وستراعي في هذه القوة نفس النسبة التي للقوات الفرنسية في منطقة الحماية الفرنسية، وسيباع خارج البلاد أو سيحطم السلاح الزائد على ما هو لازم لتسليح تلك القوة الشرطية.

5 ـ توافق حكومة الريف على عدم الدخول في أية معاهدات مع الدول الأجنبية، وعلى أن تمثل فرنسا واسبانيا مصالح الريف في الشؤون الدولية.

بصورة علنية»، ثم انسحب الريفيون إلى تاوريرت، وعادوا لوجدة في 26 أبريل برفض ابن عبد الكريم لبحث المطالب التي ألغيت لتبقى المفاوضات مستمرة، وسرعان ما أدى المؤتمر إلى مأزق حول تعريف الحكم الذاتي، وأريد من الريف، باعتباره جزءاً من المغرب، أن يعترف بالمعاهدة الفرنسية الاسبانية لسنة 1904 التي قسمت البلاد إلى مناطق نفوذ، وهذا ما رفضه مبعوثو الريف، فعادوا إلى تاركيست حيث أعلن ابن عبد الكريم رفض الشروط المعروضة في مؤتمر وجدة الذي انتهى في 6 مايو، وكانت الحرب من طرف الريف ضد الاسبانيين بصورة أشد وأقوى، وكان ابن عبد الكريم يعرف المصير، لكنه صمم هو ورجاله على أن يدافعوا عن كل شبر من أرضهم مهما كلف هذا من تضحية ومهما كانت العواقب.

ولما حل (كانينغ) بباريس في 30 ديسنبر توصل برسالة المقيم العام (ستيغ) يهنئه فيها بنجاح مهمته، غير أنه لما كان في المغرب طرأ تغيير على الوضع السياسي في فرنسا، فقد حل (بريان) محل (بانلوفي) في رئاسة الحكومة، وتقوى التيار المناصر للحرب الذي عبرت عنه احتجاجات الضباط الحريصين على القتال وإخضاع ابن عبد الكريم، ولهذا امتنع (بريان) من مقابلة (كانينغ)، وفي خطاب بمجلس النواب اتهمه بالفضول، والتطفل، والمغامرة كـأجنبي، والعمالة لصالح مصلحة أنكلترا، ولكي تتستر وتغطي على تقلبها الطارىء اتهمت الحكومة الفرنسية (كانينغ) بأنه طالب بمصالح ومنافع شخصية، بل بدوافع غير شريفة جرياً على المثل الفرنسي: «من أراد إغراق كلبه اتهمه بالسعار» والحقيقة كانت مناقضة لكل ذلك.

ولما فشلت مهمة (كانينغ) بسبب تقلبات موقف وسياسة الحكومة الفرنسية أوضح الأمير ابن عبد الكريم وجهة نظره الصريحة في خطابين وجه أحدهما إلى (كانينغ) نفسه، والثاني إلى رئيس تحرير (التايمز) في 27 يناير 1926، ونشرت الرسالة الثانية في 17 مارس، وخلاصتها إظهار النوايا الطيبة للريف ورغبته في صلح شريف، وإذا ما رفض هذا فإن الريف سيواصل الحرب.

وقام مبعوث (مانشيستر كـارديان) بتجـول واستطلاع في الريف من ديسمبر 1925 إلى فبراير 1926، وتحدث ثلاث ساعات مع ابن عبد الكريم الذي قال له إنه مد يده مرة فلم تقبل، ولن

و 1926 كل ما عرضته إسبانيا وفرنسا من شروط غير الاستقلال التام.

وأمام ما جد من تطورات وجه الأمير محَمد رسالة إلى مجلس النواب الفرنسي بسط فيها الجهود والمحاولات التي بذلتها قيادة الريف للمحافظة على حسن العلاقة مع السلطات الفرنسية، وفي الرسالة شكوى صريحة بالمريشال ليوطي الذي عمل لإفساد تلك العلائق بسياسته المتطرفة، وفي الرسالة نفي ما روجته الصحف الفرنسية الاستعمارية زوراً وباطلاً عن حركة التحرير، وتذكر الرسالة بالمخابرات التي كان أجراها الأمير محَمد بن عبد الكريم سنة 1923 بباريس مع الرؤساء البرلمانيين، والسياسيين، ورجال الصحافة، وتقول الرسالة في هذا «إننا كاتبنا أولئك الرؤساء مراراً، وشافهناهم حتى في الكلام مثل المسيو (بانلوفي)، رئيس الوزرات الحالي. كما سبق لنا الكلام مع المسيو (بوانكاري) بالواسطة، وأعربنا للكل عما تنطوي عليه ضمائرنا من الوداد نحو فرنسا التي كنا نظن فيها أنها تكون أول مساعدة على تأييد مطالبنا، والاعتراف بحقوقنا الطبيعية التي لا يمكن لنا أن نعيش بدونها، وكم راسلنا المريشال ليوطي أيضاً بالمكاتب المتوالية، وخاطبناه بواسطة الرسل مراراً، كل ذلك حرصاً على الموافقة، وطمعاً في في الحصول على حسن التفاهم».

ويوضح الكتاب أن ليوطي كان لا يعتبر ذلك، وكان يعمل للتحرش بالريف، وتبييت العدوان على أطرافه تنفيذاً لبرنامجه الاستعماري المتطرف.

مؤتمر وجدة:

بالرغم عما صادفه (كانينغ) من إعراض واتهام فقد تمكن المقيم العام ستيغ الراغب في وضع حد للنزاع المسلح من أخذ موافقة حكومته والحكومة الاسبانية لمحاولة أخرى في ذلك السبيل، وفي أوائل أبريل 1926 قبل ابن عبد الكريم اقتراح الحكومتين عقد مؤتمر بوجدة للتفاوض في شروط الصلح، وهي:

1 ــ الاعتراف بسلطان المغرب.
2 ــ نزع سلاح القبائل.
3 ــ إطلاق الأسرى.
4 ــ إبعاد ابن عبد الكريم عن البلاد.

وفي مقابل هذا يسمح لقبائل الريف بنوع من الحكم الذاتي يتلاءم مع المعاهدات القائمة، وأعلنت هدنة، وائتمر المبعوثون في 15 أبريل، ومثل الريف وزير الخارجية أزرقان، كرئيس للوفد، وعضوية أحمد شدي، وحدو الأكحل، وكان رئيس الوفد الفرنسي الجنرال موجان، واقترح الفرنسيون والاسبان احتلالهم لبعض المواقع كتمهيد للمؤتمر، وهذا ما أثار استياء الريفيين الذين فهموا أنه جيء بهم خدعة، وسحب أصحاب الاقتراح اقتراحهم بعد أن كان له أسوأ أثر، وأثار الشكوك، وأبى ممثلو الريف أن يكتموا الاقتراح الذي أعلنوا عنه لممثلي الصحف فضحاً لأصحابه، وصرحوا بأنهم يريدون أن يعرضوا قضيتهم على العالم أجمع، فقال أزرقان: «ليست لدينا أسرار، وفي نيتنا أن نعرض الأمور جميعاً

وطيرانه، إذ حشدت فرنسا وإسبانيا قوات عسكرية مشتركة تخوض المعارك براً، وجواً، وبحراً، وبلغ عدد الجيوش الفرنسية ابتداء من شتنبر 1925، 325000 رجل، تضاف إليها قوات احتياطية مقاتلة بلغت 400000 ساعد الكلاوي على تجنيدها، وكانت القيادة الفرنسية تتكون من 60 جنرالاً وعلى رأسهم المريشال بيتان، و 32 فرقة عسكرية، وعشرات الآلاف من القوات المساعدة، وخمسون دبابة، و 44 سرباً من الطائرات كلها كانت في وجهة القتال، أما المجاهدون فكانوا عشرين ألف مقاتل فقط.

وتعززت تلك القوات بجيش إسباني بلغ أكثر من مئة ألف، وقدم طيارون متطوعون من بلجيكا، وآخرون من الولايات المتحدة تحت اسم (سرب لافاييت)، الجنرال الفرنسي الذي قاتل في صف الثوار الأميركيين للاستقلال عن انكلترا، وبما أنهم لم ينخرطوا في اللفيف الأجنبي الفرنسي فقد سجلوا في القوات الجوية المزعومة التابعة للسلطان، وهي في الحقيقة القوات الفرنسية، وكان على رأس السرب الأميركي الكولونيل (تشارلز سفييني)، وقاتلوا باسم فرنسا وإسبانيا معاً، وقصفوا بوحشية فظيعة كثيراً من القرى، ومدينة شفشاون التي لم يكن فيها سوى النساء، والأطفال والشيوخ، حتى إن (التايمس) الانكليزية نشرت برقية لمراسلها تندد بذلك العمل الوحشي ضد مدينة مقدسة مفتوحة، كما قصف الطيارون الأميركيون أسواقاً خاصة بالنساء في الريف إلى درجة أن وزارة الخارجية الأميركية التي أنذرها (والتر هاريس)، الصحفي الانكليزي، قامت بإشعارهم رسمياً بأن الولايات المتحدة ليست في

الفصل الخامس عشر

التحالف الفرنسي الإسباني للقضاء على الثورة

في 17 يونيو 1925 انعقد مؤتمر فرنسي إسباني بمدريد لتوحيد الخطط الحربية بين الجانبين في المغرب وطالت المداولات نحو الشهر أسفرت عن معاهدة التحالف والتعاون بين الدولتين، وتم الاتفاق المشترك على شروط الصلح لتقديمها إلى ابن عبد الكريم، وهي :

1 ــ تبادل الأسرى.

2 ــ العفو المتبادل التام من يناير 1921.

3 ــ تحديد نظام الحكم الذاتي.

4 ــ تحديد الأراضي التي يطبق فيها هذا النظام.

5 ــ تحديد قوة الشرطة لضمان القانون والنظام في هذه الأراضي.

6 ــ الاعتراف بالحرية التجارية وضمانها في هذه الأراضي على أساس المعاهدات الدولية وخاصة ما يتعلق فيها بالجمارك.

7 ــ منع المتاجرة بالأسلحة والذخائر الحربية.

8 ــ تحديد قطاع من الساحل تحتلُّه إسبانيا سلمياً بعد إنهاء الحرب، وقد رفض ابن عبد الكريم في سنتي 1925

أنه كاتب المقيم العام ستيغ يطلب إعادة فتح المفاوضة، كما أمل عبثاً تدخل بريطانيا.

ولما فشل كل هذا، عالج الموقف بواقعيته المعهودة فقرر، ارتكاباً لأخف الضررين، اللجوء إلى الفرنسيين حتى لا يتمكن منه الإسبان الذين كان أعرف الناس بهم عداوة، ونقمة وبطشاً، ثم توجه سيدي حميدو إلى تاركيست لبحث شروط الاستسلام مع القيادة الفرنسية ومعه رسالة ابن عبد الكريم في الموضوع، ورجع سيدي حميدو إلى إسنادة برسالة تطمئن قائد الريف على نفسه وأسرته، وطلب منه الإفراج عن الأسرى، وكان برفقة الشريف الوزاني ضابطان فرنسيان هما (سوفران) (ومونتاني) ليتصلا شخصياً بابن عبد الكريم، ومدنيان أحدهما طبيب للعناية بالأسرى. ووصلت البعثة يوم 24 مايو 1926، ولما استقبلها ابن عبد الكريم كان ثابتاً غير مضطرب ولا متأثر، بل لقيها بابتسامة، ومما تحدث به إليها: «لست وحيداً، وسيهدم استسلامي كل ما بنيته، ورجالي يثقون بي وهناك قبائل كاملة تريد مواصلة القتال، وواجبي هو أن أبقى معهم إلى النهاية، فإذا ذهبت ماذا سيحل بهم؟ ومن يقود ويدافع عنهم ضد الإسبانيين على الأخص؟».

وتناقش الحاضرون ساعتين، ثم طلب مهلة تفكير، فانعزل في غرفة، وفي منتصف الليل رجع ليعلن للبعثة الفرنسية: «لقد قررت أن أستسلم»، فكتب رسالة إلى القائد الفرنسي بتاركسيت لضمان حماية الأسرة، فأجيب طلبه. ولما حل وقت الذهاب إلى

ولما أيقنت القيادة الريفية بعدم جدوى كل مخابرة مع السلطات الفرنسية أخذت تعد العدة لخوض الحرب دفاعاً وزحفاً، وكانت خطط المجاهدين لا تتغير، لأنهم جربوها بنجاح في المعارك السالفة، وخاصة في انوال، وتافرسيت والشاون وغيرها، ثم صدر الأمر إلى الأمير محَمد بجمع قواته للتوجه بها إلى ناحية طنجة بغية الاستيلاء عليها، وكان في نية القيادة العليا الوطنية أن تتوجه، بعد الاستيلاء على طنجة، إلى العمل من جديد لدى عصبة الأمم، وهكذا التحق الأمير محمد على رأس المجاهدين ببني مصور، فحاصر بعض المراكز الإسبانية حتى استسلم بعضها.

ولما قدم المريشال بيتان الذي عين في 16-7-1925، ليتولى قيادة الجيوش الفرنسية في 17-8-1925 عدل عن الخطة الحربيةالتقليدية، وهي الاعتماد على المراكز الحربية الممتدة على حدود الريف لمواجهة قوات المجاهدين، فقرر الهجوم على قلب بني ورياغل التي كانت إذاك قاعدة الحركة الوطنية التحريرية، وفعلاً تم الهجوم المدبر بواسطة الأسطول المشترك بين فرنسا وإسبانيا على مرسى النكور في 7-9-1925، لإنزال الجيوش بالشاطىء، ولكن هذا الهجوم أخفق، فانسحب المهاجمون لجهة تمسمان حيث دارت المعارك بمرسى سيدي ادريس، فكان الإخفاق كذلك حليف هذا الهجوم الثاني، فأدى إلى انسحاب المعتدين الذين توجهوا إلى ميناء صغير جداً بقبيلة بقيوة، وكانت حراسة المجاهدين فيه قليلة نظراً لعدم توقع الهجوم عليه ولقلة أهميته، وبالرغم عن النجدات التي أرسلت من بني ورياغل كان السلاح قليلاً وغير متكافىء مع سلاح العدو، وأسطوله،

حالة حرب مع الريف، فكانت نتيجة هذا التوبيخ أنهم عادوا إلى بلادهم.

وتوالت المعارك بين الفريقين، وكان الهجوم على أشده، من طرف المستعمرين المتحالفين ابتداء من السابع مايو 1926 وأدى الأمر بانسحاب المجاهدين إلى خطوط الدفاع حتى وصلوا إلى حدود قبيلة بني ورياغل، وسحقت القوات الفرنسية آخر جماعة كانت تخوض المعركة اليائسة بعد تسعة أشهر من الصمود والقتال بكل شجاعة وبطولة، وكان جيش العدو يجهد نفسه للتمكن من القبض على ابن عبد الكريم الذي استطاع الإفلات، فتوجه الأمير ابن عبد الكريم على فرسه إلى إسنادة وليس معه سوى اثنين وعشرين فارساً الذين بقوا أحياء من الجماعة المقاتلة، وهناك وقف بباب دار سيدي حميدو الوزاني، وطلب حمايته، لأنه كان لا يجرأ أحد على انتهاك حرمة داره كل من دخلها فهو آمن، كما طلب منه أن يعطيه 350 بغلاً لنقل أسرته، وأمتعته، ومُدَخَّراته من الأسلحة إلى مكان بعيد وحصين في غرب الريف ليواصل المقاومة، ولو مع قلة من الرجال، ولفترة محدودة، لكن سيدي حميدو حذره بأن القافلة قد تتعرض للهجوم والسلب من طرف من يعيثون في الأرض فساداً، فيضيع كل شيء: الأهل، والأموال، والأسلحة، كما بصره في موقف القبائل المستاءة التي قد تسلمه إلى الإسبانيين ألدّ أعدائه التقليديين الذين لا رحمة ولا شفقة فيهم عليه وعلى ذويه، ونصحه بأن يتدبر العواقب، ويختار الإفلات من سوء المنقلب والمصير، وفي إسنادة، حاول ابن عبد الكريم محاولة يائسة، وهي

بـادس) (Cuatro Torres de Alcala). ولم تظهـر فكرة النـزول بشواطىء الحسيمة في وقت معين، بل راحت تتبلور، وتتحدد كل مرة أكثر، ابتداء من الوقت الذي تكشف لنا من خلال عملنا الحربي في معارك 1909 ومن خلال معرفتنا للأرض والعدو، أن المحارب الأشد قوة والأكثر مهارة والأوفى خطورة، وهو ريفي بني ورياغل، هذه القبيلة التي كانت دائمًا تحتضن التمرد، وتقدم كتائب ذات قيمة قتالية نادرة».

«وقد ظهرت هذه الفكرة سنة 1911 أيضاً، وكانت توصي بأن يعهد بالقيام بها لفرقة صغيرة مكونة من خمس كتائب من الجند الأهالي، وكتيبتين من جنود شبه الجزيرة، تقوم بمساندتها عندما تنزل إلى البرفرقة من رجال القبائل الذين قدر عددهم إذ ذاك بنحو 800 كانوا يؤلفون (حزب الأنصار) الذي كان أفراده يتقاضون مرتباتهم من إدارة شؤون الأهالي بجزيرة النكور (جزيرة الحسيمة) وقد عين شاطىء السواني كنقطة هبوط، وهو سهل يقع ما بين مصب نهري (غيس)، و(النكور). كانت هذه الخطة ــ كما هو واضح من قلة القوات والوسائل العسكرية التي كان يفكر بواسطتها في التصدي لهذه المهمة ــ تقوم على العمل السياسي أكثر من قيامها على العمل الحربي.

«وفي سنة 1913 وقعت زيادة تفصيل في هذه الخطة من طرف القيادة العامة لمليلية بتعيين قوات أكثر أهمية لتنفيذها. تلك القوات التي أصبحت تضم مجموعة الجيوش النظامية لمليلية (Régulares de Melila) واختيار نقطة الهبوط في شاطىء (الصفيحة)، وهو شاطىء

تاركيست تركت شخصيته، وكرامته، وعظمته، ارتسامات عميقة في أعضاء البعثة الفرنسية. وحينما كان يسير على جواده اندفع أتباعه نحوه، وأخذوا يقبلون ركابه وثيابه، ويلقون بأنفسهم في طريقه، واستقبله كبار ضباط القيادة بكل احترام، فقال لهم: «إني أسلم شخصي وأملاكي إلى فرنسا، ولي أعلى ثقة من كرمها»، فرد عليه القائد: «إني أشكرك على تضحيتك بنفسك في سبيل السلام بين شعبينا، وستكون فرنسا شاكرة لك»، وتلك كانت نهاية الحرب في 27 مايو 1926.

وفور الاستسلام كتب الأمير محمد بن عبد الكريم إلى شقيقه يأمره بصفته القائد الأعلى بأن ينتقل بقواته إلى تاركيست، ولما حل بها وجد الأمير قد نقله الفرنسيون إلى تازة، وبعد ثلاثة أيام قضاها بتاركيست التحق بأخيه الأكبر في تازة، ورفض ابن عبد الكريم توجيه النداء كما طلب منه إلى المجاهدين لإيقاف القتال والاستسلام، بل ترك لهم كامل الحرية والمسؤولية ليواصلوا المعركة ما داموا قادرين عليها بأية وسيلة، وكان الكولونيل كوراب الموجود بتاركيست مركز القيادة الفرنسية هو الذي طلب منه النداء ليلقي بالطائرات على قبائل المجاهدين عامة، ومواقعهم الحربية خاصة، وهكذا ترك لهم فرصة مواصلة الدفاع حتى ينهوه باختيارهم دون أن تكون له فيه أدنى مسؤولية تاريخية.

«بعد الانسحاب من شفشاون وجبالة خريف 1924 وما صاحب ذلك من مناقشات وأحداث ومماحكات وخسائر فإن الحالة المعنوية للوطن والجيش والقيادة العامة بالمغرب، عانت بدون شك انهياراً خطيراً، يضاف إلى ذلك عدم جدوى المحاولات التي أجريت للوصول إلى اتفاق مع ابن عبد الكريم. كان ذلك كله جماع فكرة النزول، لتوجيه ضربة إلى العدو، ولاسترجاع المكانة المعنوية. وكيفما كانت طريقة التفكير في النزول بالحسيمة، فإنه بدون أدنى شك ــ ومن الإنصاف الاعتراف به ــ أن إرادة التنفيذ كانت كلها للجنرال (Prima de Rivera) الذي كان إذ ذاك رئيس الحكومة وقائداً عاماً للجيوش الإسبانية بالمغرب».

. . . .

«كانت الاتفاقية الفرنسية الإسبانية للتعاون، أقوى مساندة للتصميم على النزول، وأخيراً، راجت بتطوان في المعسكر العام وبتاريخ أوائل شهر شتنبر، أوامر ببدء العمليات».

. . . .

«ولكن على الصعيد العملي وقعت تغييرات هامة كما سنرى، نتيجة الهجوم على (كدية الطهر) بناحية تطوان، ذلك الهجوم الذي أوجب صرف قوات لإيقافه».

. . . .

«نظراً لأهمية الأمر الحربي الآتي بيانه، نرى لزاماً الاطلاع عليه، لأخذ فكرة عن الصليبية التي كان الاستعمار على وشك القيام بها.

الفصل السادس عشر

مصدر إسباني يتحدث عن النزول بخليج الحسيمة سنة 1925

«إن الخطة المتفق عليها بين الحكومتين الفرنسية والإسبانية لسنة 1925، وبين القيادتين الحربيتين للجيشين كنتيجة للاتفاقية الفرنسية الإسبانية المبرمة بتاريخ 25 يوليو 1925، كانت تتضمن نزول القوات الإسبانية بخليج الحسيمة بمساعدة فرقة من البحرية الفرنسية، وعملية هجوم فرنسية أيضاً تشمل جميع الجبهة الفرنسية الشمالية، وتكون منطقة تازة مركزاً للجاذبية في اتجاه واديي (كرت) و (النكور)، مع احتمال أن تتعاون معها القوات الإسبانية بجبهة (مليلية) رابطة مسيرتها بالميمنة الفرنسية.

ومن جهة أخرى، فإن القيادتين السياسيتين والبحريتين للمنطقتين، تتعاونان للحيلولة دون عملية تهريب مواد المعيشة والمواد الحربية، التي يجب أن يحرم منها الريفيون بواسطة حصار ضيق».

«إن حيازة إسبانيا (لحجرة بادس)، كانت تمثل منذ قرون فكرة النزول بشواطىء المغرب، والتسرب منها إلى الداخل. ولقد تعددت الدراسات التي أجريت منذ القدم من طرف تقنيين مختصين حول إمكانية النزول بشواطىء الحسيمة، و (بادس) (وقلاع

ستصاحب هذه الفرقة قوات من البحرية، باستثناء قوارب منها تبقى لقصف (واد لاو).

ولإعطاء العدو إنطباعاً بأن الأسطول الذي يحمل الجيوش لا يزال بصحبتها، تبقى هناك (أي في واد لاو) **الزوارق (Juan II) و (Escolano) و (Lulio) و (Ménorquin)**.

فرقة (Fernandez Perez) ـ تركب في البواخر في الوقت المناسب لتكون على الساعة الخامسة مساء قبالة (سيدي ادريس)، وتتصرف هناك كتصرف فرقة (Saro) قبالة (واد لاو)، وستكون مصحوبة بالأسطول الفرنسي للأميرال (Hallier) الذي سيساهم بنيرانه في الهجوم التمويهي على هذه الواجهة.

☐ **يوم 7 : فرقة (Saro):** على الساعة الرابعة صباحاً، تشرع في النزول المفاجىء بشاطىء (اجداين) وإذا تمكنت من ذلك، ستحاول الإحاطة باستحكامات العدو الكائنة في (Morro Nuevo)، مقيمة بذلك جبهة دفاعية على أوسع مدى ممكن. أن القوات البحرية الأفريقية والطيران، يجب أن يبقيا مستعدين لهذا التاريخ، دون التدخل إلا عند اللزوم. وإن الأمر بتدخل هذه العناصر، سيتلقاه الأسطول مباشرة من قيادتي، كما سيتلقاه الطيران الذي عليه أن يكون على أهبة الاستعداد في قواعده بواسطة الراديو، راجياً من سيادتكم ضرورة إبقاء راديو مليلية، وكذلك جميع محطات الاتصال التليفوني بالقواعد الجوية، منتبهة يقظة ابتداء من الساعة الرابعة صباحاً.

منخفض رملي يقع إلى الغرب من نهر (غيس) ولكن هذه الخطة نفسها كانت سياسية أكثر منها عسكرية، لأنها كانت تقوم بكيفية رئيسية على مساندة وتعاون (حزب الأنصار) ذلك التعاون المشكوك فيه، والذي أثبتته الوقائع فيما بعد. لقد كانت هذه الخطة على وشك التنفيذ، بحيث رتبت جميع الاستعدادات ووزعت المناشير، إلا أنها بقيت بدون مفعول لاندلاع حوادث تطوان و (اللوزيين) صيف 1913.

مرت السنون، وأخذت خطط النزول هذه تنضج وتتكامل بحيث أصبحت تكون كابوساً مسلطاً على الذين تعاقبوا على تسيير الأمر في القيادة بمليلية.

«وعند إنهاء حملة الاسترداد بمليلية سنة 1921، عينت الحكومة لجنة من القيادة العامة المركزية لدراسة الحالة في جبهة القتال واقتراح ما يمكن أن يتخذ بصفة نهائية. وقد توصلت هذه اللجنة إلى استنتاج أنه يجب تعيين جبهات الاتصال بمنطقتي سبتة ومليلية، وإعطاء ضربة قاضية للقرى في قبيلة بني ورياغل، وذلك بواسطة الهبوط في خليج الحسيمة.

«هذه الخطة، يمكن اعتبارها الخطة العسكرية الحقيقية الجامعة، وذلك لتكامل العمل السياسي والعسكري بها، ولتوافر الوسائل التي يمكن طرحها للعمل التكتيكي، والعمليات التموينية بالمناطق الأخرى، وللتعاون المنتظر من جانب البحرية الحربية. أما المكان المقترح للهبوط، فقد كان أيضاً شاطىء (السواني).

. . . .

الشاطئيين، وتقترب مباشرة من أهدافها، أما إذا كان العكس، بحيث لا يليق أن تتصرف بهذا الشكل، فستذهب للالتحاق بفرقة (Saro)، نازلة إما بقلعة (Quemado) أو بقلعـة (Bonita)، أو بشاطىء (اجداين) حسب الظروف.

وسيتابع الأسطول الفرنسي للأميرال (Hallier) مساندة هذه الفرقة.

أما أسطول التدريب، فإنه يبقى في الاحتياط لملء الأهداف التي ستعين له.

وفيما بين يومي 7 و 8، ينبغي أن يقع إنزال جميع فرقة (Saro)، والجزء السابق ذكره من فرقة (Fernandez Perez) بحيث يمكث ما تبقى من هذه الفرقة في المراكب كاحتياطي للإغاثة، فيما لو حدث طارىء غير متوقع.

تستقر القوى النازلة استقراراً محكمًا، وبالأخص فرقة الجنرال (Saro)، وتقيم لأول وهلة قاعدة محصنة بشكل منيع في شبه جزيرة (Morro Nuevo) التي تعتبر استحكاماً منيعاً للمقاومة، بحيث يمكن تجميع أكبر عدد ممكن به من المواد على اختلافها بشكل مباشر. وفي يوم 11 أو 12، يجب تشكيل فرقتين للهجوم على (اجدير) مزودتين بجميع المواد الضرورية للقيام بهجوم قوي على هاته النقطة التي يجب أن تهاجم من الجانب والظهر ــ وهذه قاعدة عامة لاحتلال جميع المواقع ــ وفي هذه المسيرة، فإن الجانب الأيمن من القوات سيكون محمياً بكل فعالية ممكنة بواسطة نيران المدفعية النازلة من

أمر من القائد الأعلى العام لمنطقة مليلية
رئيس فرقة النزول

«إن هناك أسباباً عدة ذات طبيعة سياسية وعسكرية غنية عن التعداد، جعلت الحكومة تهيىء لعملية الحسيمة التي سيشرع فيها ابتداء من يوم 5 من الشهر الحالي، بتنسيق مع الجيش الفرنسي، إذا كانت الحالة تسمح بذلك.

«ورغمًا على الموافقة الحاصلة على تاريخ العملية، فإنه سيصادق عليها في الوقت المناسب.

شرح العملية:

□ **يوم 5: فرقة (Saro)**: عند الصباح، يبتدىء صعود القوات إلى المراكب في سبتة، لإمكانية الإقلاع من هناك ليلاً في اتجاه (واد لاو).

فرقة (Fernandez Perez): تبتدىء التعبئة في مليلية.

□ **يوم 6: فرقة (Saro)**: تكون عند الفجر قبالة (واد لاو) محمية ومصحوبة بقوات البحرية الأفريقية، ومهمتها في هذا اليوم، هي: استدراج العدو إلى (واد لاو)، وقصفه دون تبذير في العتاد. وسيتعاون طيران تطوان في هذا القصف دون استهلاك للذخيرة.

وعند الثانية زوالاً، وعلى مرمى البصر من العدو، ولكن بعيداً عن نيرانه، تنتقل قوات من الزوارق، (K) وتناور كما لو كانت تحاول النزول، وعند الرابعة، تتابع مسيرتها بمحاذاة الشاطىء لتكون حوالي الرابعة من صباح يوم 7 قبالة (اجداين).

احتفاظ القائد الأعلى بقيادة المجموع وقيادة المنطقة؛ ويركب هذا الأخير صحبة أميرال أسطول التدريب في (Jaime II) مصحوباً بزورق (طوربيد) تحت تصرفه للنقل من نقطة إلى أخرى.

ويصحب الأميرال (Hallier) ضابط من القيادة العليا بمليلية، وآخر من أسطول التدريبات.

ويكون رفقة أميرال أسطول التدريبات ضابط من البحرية الفرنسية وآخر من القيادة العليا لمعسكري العام.

ويصحب قائد القوات البحرية الأفريقية قائد من القيادة العليا لمعسكري العام، ضابط من هذه القيادة أيضاً صحبة رئيس القوافل البحرية.

تعاون الطيران:

إن على هذه القوى أن تتضاعف، لأنه زيادة على الاعتناء بفرق النزول، فإن عليها ألا تهمل منطقتي تطوان والعرائش اللتين ينبغي مراقبتهما بكامل الاحتياط مساندة لحاميتيهما.

وكما سبق بيانه، فإنه لا ينبغي لهذه القوى أن تستهلك بشكل مفرط عتادها في الأيام الأولى للنزول وذلك بقصد الإبقاء على الآليات والذخيرة للحظات العصيبة المتوقع تطورها بعد النزول بيومين أو ثلاثة، حيث يتعين فيها التغلب على الصعوبات التي يضعها العدو، والإيقاع به بكل ضراوة. وفي الصراع ضد القوات، تستعمل قنابل (التريليت) (Trilita) مع الاحتفاظ بقنابل C.5

وبتحقيق النزول، ستشدد قوات البحرية والطيران نيرانهما، وسيبقى أسطول التدريب على مرأى العين، مستعداً للتدخل لتدعيم جبهة (السواني).

وسيقفل الجنرال (Saro) راجعاً بعد النزول، إلى المراكب التجارية بحثاً عن المواد...

□ **يوم 8: فرقة (Saro)**: ستقوم بتصفية المواقع المحتلة في اليوم السابق إذا كان ذلك لازماً، ثم تنكب على الخصوص، على تحصين القاعدة، وجمع المواد الغذائية والحربية.

وستقوم الأساطيل والطيران بضرب مدافع العدو واستحكاماته، كمساندة لهذه الفرقة.

فرقة (Fernandez Perez): تستمر محافظة على موقفها التمويهي قبالة (سيدي ادريس) إلا إذا تلقت أمراً معاكساً، وذلك طيلة اليوم، تحت حماية الأسطول الفرنسي للأميرال (Hallier) وستقوم الزوارق (K) بنقل أربعة آلاف رجل من المراكب التجارية، منتظرة أوامري الواضحة بمتابعة إبحارها بغرض الالتحاق بفرقة (Saro).

إن الغرض المباشر لهذه الفرقة، سيكون الاستيلاء على (Adrar Seddun) و (Rocosa) (مع أفضلية هذه الأخيرة)، ولهذا الغرض يمكنها أن تتصرف كالآتي:

إذا كانت مقاومة العدو بشاطىء (الصفيحة) و (Espalmadero) لا تكون عوائق جدية، فإن فرقة تنزل بأحد

ـ 9 محطات للإبصار (اثنتان على ظهر الخيل).
ـ فصيلة واحدة لعمال الهندسة.
ـ 3 محطات راديو تليغرافية (واحدة شبه قارة، واثنتان جبليتان).
ـ فصيلة واحدة للسَّبْر.
ـ فصيلة واحدة للإمدادات والتموين لخدمة مستودعات الأطعمة.
ـ كتيبة واحدة للنقل على الظهور مزودة بـ125 وسقا.
ـ مخبزة حربية واحدة.
ـ فصيلة واحدة للامدادات والتموين 100 رجل لاستعمالهم كشغالة أثناء النزول.
ـ سيارة إسعاف جبلية ذات 36 مقعداً.
ـ مستشفى حربي يحتوي على 300 سرير (تتبعه فصيلة من البلطجية).
ـ فصيلة واحدة للخدمات الصحية.
ـ فصيلة كاملة جاهزة من كتيبة (بحر مليلية)، مع 30 رجلاً من كتيبة العرائش للمساعدة على النزول.

□ **فرقة (Saro):** وتتألف من القوات الآتية التي تنتمي كلها لمنطقة سبتة:

ـ 10 عربات للهجوم السريع.
ـ لواء من اللفيف الأجنبي.
ـ ثلاثة (طوابير) للمشاة (Régulares de Tetuan).

قبل، وببطاريات جزيرة الحسيمة والطيران البحري.

وفي يوم 20 يجب أن يكون الهدف النهائي المتوخى من هذه العملية معززاً. وفي نفس الوقت، يجب أن تنزل المواد الغذائية والحربية توقعاً لعزلة مدتها ثلاثة أشهر، وكذلك أكبر عدد من العنابر (البرارك).

وينبغي إبقاء بعض القطع الحربية مقابلة لشاطىء: (واد لاو) و(سيدي ادريس) لتشتيت انتباه العدو.

ويتعين على المدفعية وعلى الطيران، أن يبذلا مجهوداً أكبر، بعد يومين أو ثلاثة من الهبوط، في الهجوم على (أجدير)، وبالتالي يجدر الوصول إلى هذا التاريخ بذخيرة حربية كافية، وذلك بفضل اقتصاد حكيم في اللحظات الأولى. وهذا ليس معناه أبداً أن يكون تدخلهما أقل فعالية وقوة إذا تطلبت الظروف ذلك. ويجب الاحتزاز من الوقوع في أخطاء ما، عند تعيين الأهداف وضربها.

وإن الإشارات والاتصالات كيفما كانت، يجب أن تكون واضحة ومتوفرة، وعلى الرغم من اطلاع الجميع على هذه الخطة العامة، فإن مبادرة أي كان، يجب أن تنوب عن أي نقص في الأوامر.

القيادات:

يتولى أميرال أسطول التدريب قيادة جميع القوى البحرية؛ ويتولى قائد الموقع العسكري بمليلية قيادة جميع القوى البرية، مع

ـ فصيلة للخدمات الصحية.
ـ فصيلة كاملة برجالها الجاهزين من كتيبة (بحر سبتة) (100 رجل) للمساعدة في عملية النزول.

أما وحدة الجسور العائمة، فتبقى رهن إشارتكم لاستعمالها في الوقت الذي ترونه مناسباً.

ومن البحرية:

ستتصرفون لغاية تاريخه في القطاعات الآتية:

□ **فصيلة التدريبات المدرعتان:** (Jaime I, Alfonso XIII) والمدمرتان (Alsedo), (Velasco) والطرادتان (Blasdelezo), (Mendez Nunez).

□ **القوات البحرية لشمال أفريقيا:** الطرادتان: (Extreluadura), (Victoria Eugenia) وثلاث بوارج نوع: (Canovas)، وثلاث بوارج أخرى نوع (Récaldi)، وأحد عشر زورقاً لخفر السواحل نوع (Uads)، وستة من زوارق (الطوربيد)، وسبع من زوارق خفر الصيد.

□ **ومن الأسطول الفرنسي تتعاون:** مدرعة واحدة، وطرادتان، وزورقان للطوربيد، ومدرعة صغيرة (Moniteur)، وسفينة جرارة مع منطاد تابع.

لقنبلة الأماكن الواقعة بمؤخرة العدو. وينبغي أن يكون الاحتزاز كاملاً في حالة ما إذا ظهرت في الجو أي طائرة للعدو والتي يجب اصطيادها في الحين.

قوات الجيش التي يجب أن تشارك:

☐ فرقة **(Fernandez Perez)**: تتألف من القوات الآتية التي تنتسب كلها لمنطقة مليلية:

ـ كتيبة من المشاة البحرية.
ـ لواء من اللفيف الأجنبي.
ـ ثلاثة (طوابير) من المشاة النظاميين لمليلية (Regulares de Melilla).
ـ (حركة) من 600 رجل.
ـ 600 رجل من (محلة مليلية).
ـ الكتيبة 16 لقناصة أفريقيا (Cazadores de Africa).
ـ اللواء الثاني لأفريقيا.
ـ اللواء الأول لمليلية.
ـ بطارية واحدة لقذائف (الهوتزر) عيار 10.5.
ـ بطاريتان جبليتان عيار 7.
ـ مخزن متنقل، مع كوكبة من المدفعية واثنتين للمشاة.
ـ طاقم من ثلاث كتائب للبلطجية (الجنود الحفارة).
ـ فصيلة واحدة للإضاءة.
ـ فصيلة واحدة للمد التليفوني مزودة بعشرين من الأجهزة.

(Jorge Juin) .... 800 رجل

(كتيبة)

(Florinda).................................. 600 رجل

(حركة)

(Romeu) .... 1.500 رجل

(ثلاث كتائب لرجال الهندسة وثلاث بطاريات ورجال الاتصال)

الارسالية رقم 3 (Roger de Flor) .... 400 رأس من الماشية

(Villarreal) مركب مستشفى سعته 330 جريحاً

(Cublera) . . . . لنقل الاحتياطي

(مركب ذو حوض سعته 100 طن)

وإن نطاق الشحن هذا، يمكن أن يتغير عند الاضطرار من أجل تنظيم أحسن للقوات التي ستنزل بادىء الأمر.

فرقة (Saro)

الارسالية رقم 4 (Castilla) .... 1.000 رجل

(طابوران ولواء)

(Cabañal) .... 1100 رجل

(رجال التموين والصحة)

(A. Cola)................................. 800 رجل

(كتيبة)

ـ (حركة) مؤلفة من 900 رجل.
ـ 600 رجل من (محلة) تطوان، والعرائش.
ـ الكتائب: 3 و 5 و 8 لقناصة أفريقيا (Tarifa, Segovia, Arapiles).
ـ بطارية واحدة لقذائف (الهوتزر) عيار 10,5.
ـ بطاريتان جبليتان عيار 7.
ـ مخزن متنقل، مع كتيبة للمشاة وأخرى للمدفعية.
ـ طاقم من أربع فصائل للبلطجية.
ـ فصيلة للإضاءة.
ـ فصيلة للمد التليفوني مزودة بعشرين جهازاً.
ـ 8 محطات للإبصار (واحدة على ظهر الخيل).
ـ فصيلة من عمال الهندسة.
ـ ثلاث محطات راديو ـ تليغرافية (واحدة شبه قارة، واثنتان جبليتان).
ـ كتيبة للنقل على الظهور مزودة بـ 125 وسقا.
ـ مخبزة حربية.
ـ فصيلة للإمداد والتموين لخدمة مستودعات الأطعمة.
ـ فصيلة للشغالة من رجال التموين مؤلفة من 100 رجل للمساعدة في عملية النزول.
ـ سيارة إسعاف جبلية ذات 36 مقعداً.
ـ فصيلة من 100 رجل حاملي النقالات.
ـ مستشفى حربي يحتوي على 300 سرير (تصحبه فصيلة من البلطجية).

أما وحدة قيادة المناطيد، فستكون على ظهر المدرعة (Jaime I)، وستكون الباخرة ــ المستشفى (Andalucia) زيادة على مهمتها الأساسية التي هي مصاحبة فرقة (Saro) إلى مكان العمليات، رهن الاحتياط للمساعدة في عملية النقل.

الاحتياطات:

يتألف في كل من منطقتي سبتة ومليلية، احتياطي مكون من 1.500 رجل تقريباً، مشكلين في سبتة من طابور واحد من (Régulares de Ceuta)، وطابور آخر (Régulares de larach) وكتيبة من لواء (Serrallo)؛ وفي مليلية من طابور (Régulares de Alhucima)، ومن الكتائب التي يمكنكم تعيينها.

أما في شبه الجزيرة (أي في اسبانيا)، فسيكون هناك احتياطي جاهز مؤلف من عشر كتائب، وثلاثة أطقم لبطاريات (الهوتزر) عيار 10,5، وطاقم بطاريات عيار 7,5، وطاقم آخر لبطاريات (الهوتزر) عيار 15,5، يضاف إلى هذه القوى كتيبة للحمل على الأظهر، وسيارة إسعاف جبلية.

تحذير عام:

إن المهمة التي ستصل بها البحرية والجيش إلى الذروة، لهي ذات أهمية فائقة، بل يمكن القول إنها حاسمة منظوراً إليها من زاوية عملنا في المغرب، وذلك دون اعتبار لما تكتسيه من الأهمية الدولية.

□ **وسائل النقل من البحرية الحربية**: ستة وعشرون زورقاً نوع (K)، والجـــرارات: (Cartagenero), (Gaditano), (Ferrolano), (Ciclope)، وسفينة ذات حوض سعته 300 طن، وأخرى سعة حوضها 100 طن.

أسطول النقل:

إن نقل الفرق إلى مسرح العمليات، يتم على الشكل الآتي:

فرقة (Fernandez Perez)

الارسالية رقم 1 (Lazaro).................................. 1000 رجل
(طابوران ولواء)
(Aragon).................................. 1000 رجل
(رجال التموين والصحة)
(Navarra).................................. 800 رجل
(كتيبة)
(Saguinto).................................. 600 رجل
(محلة)

الارسالية رقم 2 (Alhambra).................................. i.100 رجل
(طابور ولواء)
(Menorca).................................. 800 رجل
(كتيبة)

«إن الفرقتين معاً: فرقة سبتة، وفرقة مليلية، كانتا تتشابهان تقريباً في التكوين والقوى، حوالي 9.000 رجل في كل فرقة، بحيث يرتقي مجموع هيأة النزول إلى أكثر من 18.000 رجل تحت قيادة الجنرال (Sanjurjo) الذي كان إذ ذاك قائداً عاماً لموقع مليلية».

«وإن القوات البحرية التي كان عليها أن تساعد في إنجاح العملية، كانت تتكون من السرية الفرنسية للأميرال (Hallier) التي كان عليها أن ترافق وتحمى إرساليات النقل لفرقة مليلية، ومن وحدات بحريتنا المكونة من القوات البحرية لشمال أفريقيا، والتي خصصت لمرافقة ونقل فرقة سبتة؛ ومن سرية التدريب التي كانت تمثل دوراً احتياطياً استراتيجياً تحت تصرف القيادة.

كانت السرية الفرنسية مكونة من المدرعة (Paris) والطرادتين: (Metz) و (Strasbourg) وزورقي الطوربيد (Tonquinoise) و (Anamite) ومدرعتي التدريب (Amiens) و (Reims)، ومن سفينة جرارة مع منطاد تابع».

. . . .

«وإن الطاقة الضاربة لجميع هذه الوحدات البحرية تبلغ 190 قطعة مدفعية: ثلاثون منها من العيار الثقيل، يضاف إليها مدفعية جزيرة الحسيمة معززة بحوالي سبع بطاريات، وبآليات (الهوتزر) عيار 15,5، ومدافع عيار 7,5 أي ما مجموعه 24 قطعة مضافاً إليها قطع البحرية، فيبلغ عدد الجميع 214 فوهة نارية لتعزيز النزول، مستقلة تماماً عن المدفعية المتنقلة للكتائب».

. . . .

إنها ليست مهمة يسيرة، ولكنها لا تعرض صعوبات كثيرة أمام وسائل التدمير التي نملكها، وكفاءة جيوشنا. وإن تعاون البحرية والطيران الفرنسيين ــ زيادة على كونه مساعدة لنا ــ يمثل شرفاً لجيوشنا البحرية والبرية والجوية، الأمر الذي يجعلنا نتطرف في الحماسة، ونسهر على تثبيت المفهوم العالي الذي نستحقه كمحاربين.

وينتظر أن يتطور كل شيء في حالة طبيعية إذا كانت كل خطوة متبوعة بدعم الخطوات السالفة، وتثبيت الجوانب، لأنه يتوخى السير الحسن أكثر من السير السريع.

إن الشكوك التي تعترض خلال تطور العملية، يمكنك أن تستشيرني بصددها حالاً، عارضاً التفاصيل ووقائع التنفيذ حسبما تمليه عليك غيرتك ومعرفتك للتفكير السائد.

أوصيك بضرورة بعث بيان بأسماء الخسائر في الأرواح كل يوم قبل الساعة التاسعة ليلاً: القواد والضباط، وبيان آخر بعدد الجيوش مع فصل الأوروبيين عن الأهالي.

ويوم أن تصعد جميع الجيوش إلى البواخر إذ ذاك يجب توضيح هذه العملية للقواد والضباط والجنود، وتوزيع الأهداف المختارة، وبيان كيفية الوصول إليها، مع إشباع حماسة الجميع بضمان النصر، وإقناعهم بالحيرة المسيطرة على العدو، الذي لا قبل له بحركتنا البحرية والجوية المكتسحة (انتهى أمر القائد الأعلى).

. . . .

وجرأة من طرف بحارتها، بحيث كانت تسير على مسافة قريبة جداً من الأرض. وتحت حماية نيرانها، أخذت مراكب النقل وزوارق الهبوط كما لو كانت تحاول إنزال القوات على الأرض. وقد نشرت هذه (الطوربيدات) وهي سائرة بسرعة فائقة، ستاراً كثيفاً واسعاً من الدخان كما لو كانت تحاول إخفاء حركة مراكب النقل عن العدو. وتحت هذا الستار اتجهت جميع الزوارق وباقي الأسطول نحو الحسيمة. وعلى الساعة 7 والنصف مساء، كانت قد أنهت التظاهرة، وكان خداع العدو كاملاً، بحيث باتت مئات المشاعل تضيء طيلة الليل في أعالي جبال بني سعيد وتمسمان المحدقة بشاطىء (سيدي ادريس)، داعية من غير شك رجال القبائل لصد النزول المظنون، وبعثت من بني ورياغل فرق للطوارىء، كان عليها أن ترجع في اليوم التالي من تمسمان إلى اجدير عندما تجلت لها حقيقة النزول الواقع في شبه جزيرة (Morro Nuevo).

وعند الساعة الثالثة والنصف من سحر يوم 8 وصلت قافلة فيالق مليلية قبالة (Morro Nuevo) منضمة بذلك إلى مراكب فرقة سبتة.

. . . .

كُدَيَة الطّهَرْ:

«ان ابن عبد الكريم الذي يعرف نياتنا في القيام بالنزول ولكن من غير أن يعرف بالضبط نقطة وقوعه، كان يعلم أنه ستخرج لهذا الغرض من مرفأ سبتة قوات مهمة، فأمر أخاه محمد

بعد أن ذكر المؤلف الأمرين العسكريين لقائدي الفرقتين: (Saro) و (Perez) الموجهين إلى قواتهما، وأوامر العمليات الملتحقة بهما، انتقل إلى الحديث عن مرحلة تطبيق هذه الأوامر.

«نقلت فيالق سبتة جميع المواد من هذا المرفأ إلى البواخر، وذلك ابتداء من يوم 1 إلى 4 شتنبر وفي اليوم 5 ركبت جميع الوحدات من الأسطول شارعة في المسير، محمية بالبوارج الحربية لقوات أفريقيا البحرية ليلاً، وصلت عند فجر اليوم 6 قبالة (واد لاو) حيث تظاهرت كأنها تستعد للنزول، وفي ليلة 6 اتجهت صوب الحسيمة وعند الصباح من يوم 7 كانت قبالة (Morro Nuevo)، إلا أن المسيرة الليلية بالأضواء المطفأة والتيار الشرقي القوي جعلا القافلة تتشتت، ورغم المجهودات المبذولة، لم يمكن تجميع القطع إلا بعد تقدم النهار الأمر الذي عاق إنجاز الهبوط يوم 7 كما كان مقرراً، فأجل لليوم التالي طبقاً لأمر القائد الأعلى الذي أُملي على الساعة 12 من صباح يوم 7.

أما فيالق مليلية، فقد ركبت يوم 5 في هذا المرفأ مقلعة صبيحة يوم 6 على الساعة 11، وقد قامت بالتظاهرة المقررة قبالة شاطىء (سيدي ادريس) تلك التظاهرة التي كانت أعجوبة تقنية للتنفيذ من طرف مراكب السرية الفرنسية، لقد بدأت التظاهرة على الساعة الثالثة والنصف ظهراً باصطفاف المدرعة (Paris) وطرادتين قبالة الشاطىء، لاجتذاب نيران بطاريات العدو، واكتشافها وضربها بكل ضراوة كما لو كانت فعلاً تريد تعطيلها من أجل الهبوط. وقد أظهرت (الطوربيدات) براعة ومعرفة بالشاطىء،

الصبر نيران مدفعية العدو ومدافع الهاون، بحيث انقلب الموقع إلى جحيم حقيقي».

. . . .

«وخلال ذلك وفي (كدية الطهر) بالذات، وقد نفد الماء، فإن الحامية البطلة، تابعت مقاومتها بين أنقاض الموقع دون أن تفكر ولو لحظة في الاستسلام، واستعدت للموت انتحاراً كما أعرب عن ذلك في لهجة (أسبيرطية) في تلغرافه الموجز رئيسها الشجاع القبطان (Zracibar) الذي وفى بوعده في اليوم التالي حيث لقي مصرعه الماجد على رأس تلك الحفنة من الأبطال».

. . . .

«على الساعة الثامنة والنصف من يوم 11 بدأ الزحف، كان التقدم جد بطيء نظراً لوعورة الميدان، ونظراً أيضاً لضرورة معرفة جميع البساتين والغابات والقرى. ومر اليوم كله دون أن يحقق الزحف غاياته.

«وعند الصباح من يوم 12، استؤنفت المسيرة على الترتيب السابق، وهكذا احتلت قرية (ظهر الحلقة) والربوات التي تهيمن على (دار الغازي)، وعند الرابعة مساء، أعطى الكولونيل (Balmes) أمراً بالهجوم على هذه القرية الأخيرة. كان الالتحام متجاوزاً حد القساوة. وقد احتلت جيوشنا بمساندة نيران الفرق الجانبية ونيران المدفعية القرية والغابة، وقد كان القتال شرساً بالسلاح الأبيض والقنابل.

أن يقوم بهجوم في العمق بقطاع تطوان. وقد اختار امحمد ولد عبد الكريم كنقطة للهجوم: النتوء الخارج بخط دفاعنا (بكدية الطهر)، وأوصى بأن يرأس هذا الهجوم القائد اخريرو الذي كان متمركزاً بربوة (دار الراعي)، وهي نقطة المرور بالنسبة لجميع الطرق الآتية من جبال بني حسان وبني حزمار، والهابطة لوادي نهر مرتين وتطوان».

. . . .

«بدأ العدو هجومه يوم 3 شتنبر على خط مواز لخطنا. في الوقت الذي كان سكان قريتي (دار الغازي) و(أسدان) الذين انضم إليهم الريف المتسللون من خلال مواقعنا يهجمون على مؤخرتنا، وذلك من أجل فصل هذه المواقع عن قواعدها، ومنع وصول قوافل التعزيزات إليها.

كان الهجوم على (كدية الطهر) عنيفاً جداً من أول وهلة استعمل فيه العدو عدة قطع من المدفعية ومدافع الهاون والأسلحة الأتوماتيكية، وبعد نصف ساعة كانت (كدية الطهر) كلها تشتعل».

. . . .

«وقد حاول مدفعيو (كدية الطهر) إطلاق نيران مدافعهم ببطولة حقيقية مكشوفين تقريباً، ولكنهم جميعهم صحبة ضابطهم أصبحوا خارج القتال في اليوم الأول. إن جنود المشاة وقد أصبحوا محرومين من مساندة مدفعيتهم، كان عليهم أن يقاوموا بكامل

«إن ميزة هذا الهجوم المشاهدة لأول مرة من طرف المؤلف في حملات المغرب هذه كانت هي: طريقة التوجيه القيادي الموحد والخبير الذي ساق به العدو المعركة: بدء الهجمات إشارات ضوئية ظاهرة للعيان بوضوح، إيقاف النيران في آن واحد على طول الخط عند توقف الهجوم، التأهب المدفعي المضبوط حتى في عز الليل، هجمات قياس القوى، الأهداف المعينة بكامل الأحكام، هذه الجزئيات تعطي انطباعاً عن قتال جيش نظامي خاضع لقيادة موحدة ومقتدرة. وقد لوحظت هذه الخواص الجديدة في طريقة قتال رجال الريف عند تطور الأحداث فيما بعد في حملات سنة 1926 و 1927، يضاف إلى ذلك كله الاستعمال المركز للاستحكام والأسلحة الأتوماتيكية المُنَصَّبة في كهوف مغطات، مما أعطى لهذه الحملات طعم حرب أوروبية.

«إن النقص الحاصل في وسائل الإنزال، وسوء أحوال البحر الذي أرغم البواخر على الابتعاد عن الشاطىء، أخلى المكان لمرحلة من الاستقرار الخطير الذي امتد لغاية يوم 23 بحيث مرت الجيوش بلحظات من الكرب والخطر الحقيقيين نظراً لعجزها عن التقدم، ولندرة المواد الغذائية والماء والذخيرة ووسائل النقل، بحيث اضطرت إلى أن تتجمع في حزام ضيق من الأرض لا يتجاوز 6 كيلومترات مربعة، وأن تخضع لقصف متتابع دائري منصب من قطع العدو المدفعية على طول الجبهة وبعدد يفوق القطع التي كانت في حوزة هيأة النزول. هذه الخصائص لم يستطع العدو الإفادة منها لحسن الحظ في توجيه هجماته في العمق، وذلك لكثرة الخسائر التي

«بعد هذه العملية الباهرة، فإن الوصول إلى (كدية الطهر) لم يكلف كثيراً، بحيث احتلت صبيحة يوم 13 من فرقة (Balmes)».

. . . .

«وقد أصبح العدو محطماً، فإنه لم يكد يظهر يوم 13، وأن جثته التي جمعت (أكثر من 200 جثة) تمثل الدليل الواضح على القتال الرهيب الذي مر، والذي لعب فيه الطيران دوراً حاسماً».

. . . .

(بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الحديث عن عمليات النزول بالحسيمة في الجبهة الشرقية).

«على الساعة 12 من يوم 7، أملى القائد الأعلى الأمر العسكري الآتي:

«إن تجربة البارحة بخصوص القذف المتواضع لمدفعية العدو ورشاشاته وبنادقه من على مسافة 3250 متراً على هذا المركب، يجعلني أقر أكثر من ذي قبل المزية المطلقة للقيام بهذه العملية ليلاً».

(ويتابع القائد الأعلى تعليماته في الأمر العسكري قائلاً):

«**تعديل في الخطة للعلم به من طرف القيادات ـ** تحقيق النزول على شاطىء (اجداين) قبل الصباح وذلك بخداع الأهداف ومفاجأة الحراسة بغرض احتلال وتحصين شبه جزيرة (Morros)، ولإقامة قاعدة العمليات فوق بني ورياغل، ثم التوجه إلى (اجدير) كهدف أول مباشر. القائد الأعلى: (Primo de Révira).

. . . .

«كانت خسائر فرقة الجنرال (Goded)، سبعة من الضباط، و218 من الجند، ومثلها تكبدته فرقة (Saro)».

. . . .

«وقد كتب الطيران (بتحليقه الجسور) حسب عبارة الجنرال (Sanjurjo) في هذا اليوم، وكالأيام العديدة، صحائف مجيدة في كل المهام التي عهد بها إليه، تلك المهام التي تعاونت معه في تنفيذها بكل فعالية كذلك، الطائرات نوع (Goliath) من الجيش الفرنسي».

. . . .

البندقية والمصحف:

«لقد استمرت المعركة في الكهوف والخنادق لإنهاء المقاومة المتصلبة للعدو إلى الفجر. وكدليل على الانهيار الذي أصاب العدو، يمكن الإشارة إلى أنه ترك في الميدان حوالي 200 جثة. ومن بين الجثث التي عثرنا عليها في خنادق الجزر، كانت جثة أحد القواد: رجل قوي في تمام عمره، وبجانبه بندقيته الجديدة (الموزر) معتنى بها أشد العناية، وما سورتها (جعبتها) لا تزال دافئة، بكسبه الجانبي (الشكارة المغربية) نسخة من القرآن، عليها إشارة في الصفحة التي كانت آياتها على الأرجح هي آخر ما قرأ في الليلة الماضية. أخذت هذين الرمزين معاً: البندقية والمصحف اللذين احتفظ بهما من بين ما احتفظ به من ذكرياتي حول الحملة في الغرفة العربية التي تؤلف متحفي الحربي الصغير، وعملت على دفن الجثة

لحقت به، ولانهيار معنوياته خلال هجماته الفاشلة في الأيام 11 و 12 و 13 و 19».

. . . .

«وبعد تموين الجيوش خلال اليوم 22 بفضل تحسن حالة البحر، أعطيت الأوامر لبدء الزحف بكامل الحزم يوم 23».

. . . .

«أصبحت مبادرة تكوين فرق النزول، والتفكير التكتيكي لتطويره، في يد الجنرال (Sanjurjo) رئيس فرقة النزول».

. . . .

«على الساعة السابعة والنصف (من يوم 23) بدأ الزحف. وكان خط العدو المزود بخنادق جاهزة والمسيطر على حقل ممتاز للرماية، كان مسبوقاً بفرجات ملغمة عند المداخل الرئيسية، وقد تكاملت مجموعة التحصينات بكهوف عميقة في الشقوق الحجرية (Malmusi) الأعلى، وقلعة الجزر (Cala de Los Islotes) و (Morro Viejo) حيث كان العدو يملك مخابىء عصية على المدفعية والطيران».

. . . .

وفي نفس اليوم: 23 شتنبر 1925 أسرت فرقة الجنرال (Goded) 33 جندياً، واستولت على 163 بندقية وحقائب جانبية (شكارات)، وحمائل للجند، وأدوات للتحصين، وكمية وافرة من العتاد الحربي، وأمتعة، وعدة قوارب، وحاملة للبترول كان يملكها العدو في قلعة الجزر (Cala de Los Islotes)».

. . . .

الكومندان (Varela) بأن جيوشه اصطدمت على مقربة من القمة (الرابية 7) بتجمع للعدو يبلغ 300 رجل كانوا يدافعون بكل إصرار عن مدفع لم يستطيعوا سحبه، ويحاولون الحيلولة دون الاستيلاء على القمة، وأنه من أجل الهجوم عليهم يستعد لتركيز (حركته). أجبته بأن ينتظر قدومي، لأنني كنت أرغب في حضور هذا الهجوم. ولتسهيل مهمة (حركته) أمرت بأن تستبدل قواته بقوات من اللفيف الأجنبي (Tercio) على طرفه الأيمن، وبالآي من فيلق مليلية على يساره بالاتصال مع (المحلة). كان الحدث فائقاً حد العظمة: العدو الكثيف المركز في أعلى قمة الرابية 7 كان يحمي بنار البنادق والقنابل اليدوية المدفع والمدفعيون الموثوقون إلى عجلات ذلك المدفع والعاجزون عن الهرب، كانوا يخدمون القطعة التي لم تنقطع عن القصف على مقربة 500 متر من مواقفنا بكل ضراوة، وهذا قائد طويل القامة، قوي، عجوز، ذو لحية عظيمة بيضاء، واقف من غير أن يستتر ولا أن يبحث عن حماية، وبعصا ضخمة بيده، كان يشجع الجند ويوقف بضرباتها المترددين منهم. وتأثراً مني بشهامة ذلك الشيخ طلبت من (Varela) ومن ضباط (الحركة) قبل الانطلاق في الهجوم أن يحاولوا القبض على ذلك الرئيس الباسل حياً، وكنت أنوي تعيينه قائداً (لحركتنا) في ذلك اليوم، إلا أنني لم أستطع تنفيذ رغبتي.

«فقد انقضّ الكومندان (Varela) محاطاً بضباطه الأشاوس، قاذفاً بنفسه القنابل اليدوية في اندفاع أعمى، وفي لحظات وجيزة، أصبحت جهود العدو البطولية مقضياً عليها، وأصبح المدفع ومنظار

وأنا أحس بتأثر عميق واحترام إزاء استشهاد ذلك المؤمن المحارب، المدعم بعقيدته الدينية. كيفما كانت ديانة الرجل، فإن اعتقاده فيها، هو أقدر قوة. إن المؤمن بالله، والمحارب الذي يستعد للمعركة وهو لا يفكر إلا في الله ويصطحب معه إلى الخنادق كتابه المقدس، لهو سائر بقوة وبقدرة لا تشبهها إلا تلك القوة التي تمنحها فكرة الوطن».

. . . .

على الساعة السابعة وثلاثين دقيقة (من يوم 30 غشت) بدأت الزحف في آن واحد جميع القوات: فرقة (Franco) على الميمنة متجهة صوب (Monte Palomas) لغاية الرابية 8، وفرقة (Goded) في الوسط، وكهدفين معينين لها: الرابية 7، والجبل المخروطي (Monte Conico)؛ وكان فرقة (Verra) على المسيرة هادفة (Tara Mara) و (بوجيبار).

كانت فرقة (Franco) هي التي لاقت في مبدأ الأمر مقاومة أكثر، وذلك لوعورة أرض (Monte Palomas) ولوفرة العدو المحصن به، وفي هذه المعركة سقط جريحاً الليوتنان كولونيل (Munoz grande) الشجاع الذي كان يقود (حركة سبتة)، وهو أحد الضباط الايجابيين البارزين من جيوشنا في المغرب».

. . . .

مثال نادر بين البطولة:

«على الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة (من صباح اليوم التالي) أخبرني بواسطة الهاتف الضابط المكلل بأعلى الأوسمة

البطارية والعديد من القذائف والبنادق في حوزتنا، وسقط عدد هائل من الجثث، ومن بينها جثة ذلك القائد الذي انكب على ظهره ووجهه إلى الأرض بعصاه الغليظة في يمينه ولحيته البيضاء المعفرة بالدم، وبعينيه المفتحتين وكأنه ما يزال يكهرب بنظراتها الشرسة المحاربين الشجعان من جنده الذين دافعوا بجلد حائلين دون الصعود إلى قمة الرابية 7».

. . . .

«أحدث النصر العنيف لهذا اليوم انهياراً معنوياً في صفوف العدو. ومن الجانب المادي قدم حلاً لمشكلة التزويد بالماء الذي عثر عليه بكمية وافرة بوادي (بوجيبار)».

الهجوم على اجدير:

«على الساعة العاشرة والنصف (من يوم 1 أكتوبر) وبعد عبور (Isly)، فإن القوات الاسبانية، وطئت لأول مرة تراب بني ورياغل القبيلة المخيفة التي لا تقبل الهوان، قلب التمرد، والتي لم تلجأ قط إلى القتال للدفاع عن ترابها هي».

. . . .

«على الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة... وبعد طرد العدو في هجوم عنيف عن الدور التي كان يحتلها، احتلت الأهداف المعينة، وقامت (الحركة) بالاستيلاء على رشاشتين كان يقوم على خدمة إحداهما ثلاثة من الأهالي القادمين من أحد الفيالق الفرنسية للقناصة الجزائريين، الذين واصلوا القصف من أحد

منازل (اجدير) حتى بعد أن تجاوزتهم الموجة الأولى من غارة (الحركة) التي كنا نسير في مؤخرتها الكومندان (Varela) وأنا صحبة بعض الضباط. وقد استعملت لإخضاع هذه الرشاشة وأسر عمالها، كوكبة كاملة من (الحركة) وفي غرفتي العربية التي تكون متحفي الصغير عن ذكريات المعركة، تظهر هذه الآلة وتحتها العبارة التالية: «من حركة مليلية» إلى الكونيل (Goded) بحيث إن من لم يعش الحادث لا يخطر بباله الحنق البالغ الذي حاول به خدم تلك الآلة أن يعدمونا من على مسافة أمتار قليلة، قبل إخراسهم إلى الأبد».

. . . .

«وعند الساعات الأولى من صباح يوم 2 أكتوبر، وبعد استطلاع للميدان الواقع بمؤخرة المواقع المحتلة في اليوم السابق، علم أن الخلية الرئيسة لقوات العدو قد انسحبت بحيث لم تترك غير حرس قليل».

. . . .

احتلال اجدير:

«أصبحت (اجدير) تحت أقدامنا بغوطتها الغنية، وقد كانت عرين ابن عبد الكريم لسنوات عدة، وقلب الثورة الذي نظمت به كل الضربات والهجمات التي تسببت في الكثير من القلق والدماء لإسبانيا، كما كانت مكان الأسر والتعذيب لأسرانا التعساء.

«لم يستطع الرئيس ولا أفراد القوة كلها أن يقاوموا إغراء جعل العدو يشعر بانتصارنا وقوتنا، فانطلقنا ندوس بأقدامنا ونغير على القرية التي كان اسمها يذكر مقروناً بالألم والحقد من طرف سائر جيوش المغرب واسبانيا، وبالأخص منزل ابن عبد الكريم الذي كان يقف متحدياً بشكله وحجمه الذي يعلو على بقية الدور والمنازل في هذه القرية. وإدراكاً مني بأن إنهاك معنويات العدو يقدم الغنيمة سهلة، ولو أن ذلك لم يكن يدخل في نطاق المهمة والتعليمات المعطاة لفرقتي، أردت أن أقدم لجيوش المغرب واسبانيا تلك المرضاة.

كان بفرقتي بعض الضباط الذين ذاقوا مرارة الأسر بأجدير، من بينهم الليوتنان (Civantos) من قلم المراقبة بمليلية؛ شاب قوي، بسيط، لم ينقطع طيلة عمليات النزول عن الإعراب عن رغبته الشديدة في أن تدخل فرقتنا هي الأولى إلى اجدير.

وقد كاد قلبه يطير شوقاً عند رؤية المنزل الذي كان أسيراً به وهو يريني إياه من على قمة (Rocosa).

وإبقاء للوحدات منظمة على الخط الذي يمثل حد الجبهة المرسوم للفرقة، سمحت بأن تتفرد منها دوريات من عشرة إلى اثني عشر رجلاً صحبة ضباط وضباط صف للإغارة على اجدير. وقد استمرت الغارة طيلة اليوم رأت بعده جميع الفرقة بفرحة مشروعة، منزل الثائر الصارم البغيض وهو يحترق كمشعل هائل لانتصارنا. وقد جمعنا منه: خمسة مدافع، وعدداً هائلاً من البنادق، والذخائر

والأمتعة من جميع الأصناف، حتى (فونوغرافا) وكمية وافرة من المواد الغذائية بحيث أصبحت الفرقة في غنى عن التموين لعدة أيام.

مصير مكتبة الأمير امحمد:

«وقد سقطت في أيدينا، ونقلت بكامل العناية إلى مليلية، المكتبة العربية الجديرة بالذكر، التي استطاع أن يجمعها أخو ابن عبد الكريم والتي قامت جماعة من الصحافيين (بغارة صغيرة) عليها في اليوم التالي لمعرفة كتبها التي جمعت بمركز قيادتي في إحدى (دور اجدير)».

. . . .

(إن العدو قد أصبح منهار القوى، فر للّجوء إلى الأماكن الوعرة من جبل الحمام، ولم يبق إلا بعض المتعصبين يضايقون قواتنا التي أصبحت تتفسح بكامل الحرية في نواحي اجدير وجميع غوطة السواني».

. . . .

«انتهت عمليات الحسيمة باحتلال جبل (زفزافن) يوم 13 من أكتوبر، وذلك مما أدى إلى ربط (Larocasa) بأمقران، وأعطى الإشارة للبدء منذ ذلك التاريخ لمرحلة صعبة من الاستقرار فيما أصبح يُدعى (بمنطقة اجدير)، تلك المرحلة التي استمرت لغاية فصل الربيع المقبل عندما بدأت قوات الجنرال (Sanjurjo) الذي

أصبح مقيماً عاماً وقائداً أعلى للجيوش، الحملة الفعالة التي أدت إلى سقوط الزعيم الريفي، وذلك بتعاون عسكري ودي مع القوات الفرنسية».

الحملة الربيعية ضد ابن عبد الكريم (سنة1926) :

«بتراجع الخط العسكري للعدو أكثر إلى الوراء، ونقل المعسكر العام لابن عبد الكريم من (اجدير) إلى (تماسنت)، فإن النظام العسكري والسياسي الثائر، أصبح سالماً، وبقيت القبائل المتمردة خاضعة لابن عبد الكريم، واستمرت القوات المتمردة ــ وإن كانت قد فقدت أكثر من ألف من خيرة رجالها ــ تتألف من 60000 مقاتل منظمين تمام التنظيم. ولم يستسلم أي واحد من الرؤساء المتمردين ولا أية قبيلة، لأن النزول بالحسيمة لم يسمح إلا باحتلال جزء صغير من قبيلة (بقوية) يمثل ازيد بقليل خمسة كيلومترات مربعة، والمساحة الصغيرة من الأرض التي تضم جبال (امقران) و (Rocosa) و (Adrar seddun) التي احتلت أثناء عمليات يومي 1 و 2 اكتوبر 1925 من قبيلة بني ورياغل.

«ومن 66 قبيلة التي تشكل منطقة حمايتنا، لا تزال 40 قبيلة متمردة، وعشر لم يستسلم غير جزء بسيط منها: وهذا يعني أن أكثر من ثلثي المنطقة لا يزال ثائراً».

. . . .

«في حملات 1926 و 1927، ووجه في الحقيقة حل المشكل، وهو جم في العمق، جميع التنظيم الثوري الواسع، القوي، الذي أسسه ابن عبد الكريم. وإذا لم يقع الإحساس الأليم في إسبانيا كما وقع في عصر سابق، بمفعول هذه العمليات لسنتي 1926 و 1927 التي تكون في الحقيقة حملة واحدة بهدف واحد هو (الاحتلال النهائي للمنطقة) فلأنه ابتداء من يوليوز 1926 أصبح يقوم بالنشاط الحاسم في المعارك، قوات الأهالي والفيلق الأجنبي دائمًا، وبالأحرى، القوات الخليفية و (حركة بني ورياغل) التي وقع على كاهلها الجزء الأكبر من العمليات الدموية لسنة 1927 في (جباله)، الأمر الذي وفر علينا ببخل حقيقي دماء الجنود الإسبانيين الواردين من التجنيد الإجباري، بحيث لم تستعمل وحدات شبه الجزيرة تقريباً، إلا في حاميات المدن والمعسكرات والمراكز الأقل خطراً، مما جعل الخسائر في الأرواح لهذه القوات قليلة».

. . . .

«في دسمبر 1925، وقعت محاولة ابن عبد الكريم بواسطة القبطان (Gordon Caning) للفوز بتطلعاته في سلام يضمن له السيطرة الفعلية على الريف، مستغلاً الملل الحاصل لكل من فرنسا وإسبانيا في القتال، وذلك تحت ستار إعطائه حكمًا ذاتياً ظاهرياً، أو على الأقل بهدف ربح الوقت والتأثير على الرأي العام في كل من القطرين اللذين يرغبان في تجنب تضحيات جديدة. كان العرض المقدم من ابن عبد الكريم للوصول إلى السلام يتضمن النقط الجوهرية الآتية:

1 ــ إنشاء دولة مستقلة في الريف تحت طاعة سلطان المغرب.

2 ــ تعيين حدود هذه الدولة.

3 ــ السماح للأجانب باستثمار مناجم الريف، مع تسديد ضريبة 12 % لحكومة الريف.

هذه الاقتراحات الغير مقبولة والمتعارضة مع الأوفاق الدولية القائمة حول المغرب، كان مصيرها الرفض من طرف الحكومتين معاً.

«واقتناعاً من حكومتي فرنسا وإسبانيا في النهاية بالضرورة لاستيناف العمليات العسكرية سنة 1926 لإمكانية حل مشكل أصبح يثقل بصفة مستمرة وقلقة كاهل القطريين معاً، بدأت محادثات جديدة بهدف الوصول إلى تعاون عسكري حقيقي. وفي فبراير 1926 قدم الماريشال (بيتان) بكامل السلط إلى (مدريد) حيث أسفرت نتيجة السفر عن الاتفاقية الفرنسية ــ الإسبانية بتاريخ 6 فبراير من نفس السنة، والتي ننقل فيما يلي نقطها الجوهرية:

«الاتفاقية المتعلقة بتعاون إسبانيا وفرنسا في شمال المغرب سنة1926 »

اعتبارات عامة:

إن العمليات العكسرية الموحدة للقوات الإسبانية والقوات الفرنسية خلال صيف وخريف سنة 1925 في منطقة اجدير، وعلى

الروابي المؤدية إلى الريف، سمحت بتأسيس قواعد جديدة مورست منها حركة سياسية شديدة على القبائل المتاخمة. . .

إلا أن هذه الحركة لم تتسع بصفة مطلقة. إنها مرتبطة بالضرورة بقاعدة من المصلحة أن تبقى قريبة ما أمكن. وفعلاً فإن الحماس القتالي للقبائل الخاضعة، يتطلب لتدعيمه ألا يلقى بالأنصار منها بعيداً عن المراكز التي يجدون فيها تأييداً محتملاً من القوات النظامية. ومن جهة أخرى، فإن القبائل المتمردة، لا يمكن إبقاؤها تحت رهبة أسلحتنا إذا انمحت لديها ذكريات عمليات القوة التي كشف بواسطتها عن الطاقة المادية للقطرين معاً.

يستنتج إذن أنه من الحكمة الاحتياط والإعداد من الآن لعمليات عسكرية بحيث إذا جرت في اللحظة المواتية فإنها تسمح بتوطيد النتائج المكتسبة، وتأسيس قواعد أكثر تقدماً لفائدة حركة سياسية لاحقة.

صفة العمليات العسكرية التي سيشرع فيها سنة 1926:

إن العمليات التي ستحقق نتيجة لذلك، يجب أن تستهدف بذل مجهود محسوس من طرف القوات الإسبانية والفرنسية، للوصول إلى أراضي بين ورياغل الحصن الحصين لقوة ابن عبد الكريم.

تتضمن من الجانب الإسباني:

1 ــ هجوماً منطلقاً من (اجدير) محاذياً للخط المائي الفاصل بين (غيس) و (النكور)، ويكون هدفه احتلال المنطقة

الأقرب من المنحدر الشمالي لجبل (الحمام)، شاملاً نحو الغرب، الضفة اليسارية لنهر (غيس) في اتجاه (ترجيست).

2 ــ هجوماً آخر يستهدف بصفة رئيسية إخضاع (بني توزين)، وتوحيد الجهود في بعد مع القوات العاملة في (بني ورياغل) وفقاً للبند الأول. ويكون هذا الهجوم مسبوقاً بعمل تحضيري ينطلق من (عزيب ميذار) ويتجه نحو (سوق ثلاثاء ازلف) للاستيلاء على خط (كرت) كقاعدة للانطلاق.

3 ــ هجوماً ينطلق من مليلية ويتجه نحو بلاد (تمسمان).

ومن الجانب الفرنسي:

1 ــ حركة اتصال تنطلق من (باب السلطان) لغاية المرتفعات الواقعة في الجنوب الشرقي من (سوق اربعاء النكور) (اربعاء توريرب)، وذلك بقصد تسهيل تقدم الهجوم الإسباني على (بني توزين)، وستمتد هذه الحركة لاحقاً على الضفة اليسرى لنهر (النكور) حتى تصل إلى مرتفعات (Timerzga).

2 ــ هجوماً مركزياً ينطلق من روابي الناضور إلى أن يصل سوق النكور الأعلى متجهاً فيما بعد نحو الناحية الجنوبية من (جبل الحمام).

3 ــ وفي الجناح الأيسر لهذا الجهاز، يقع التقدم نحو منطقة (ترجيست) بهدف القيام بمحاصرة أراضي (بني ورياغل) من الجنوب الغربي.

. . . .

القيـــادة:

يهيىء كل من الضباط العامين قواد القوات الإسبانية والفرنسية في المغرب جدولاً للعمل في إطار هذه الاتفاقية، ويتفقون فيما بينهم على ضمان تحقيقه.

الجيوش:

يصل عدد القوات التي ستوضع رهن إشارة هذه العمليات في كل من الجيشين حوالي 25000 رجل (بما في ذلك عربات الهجوم، والمدفعية، والطيران. . . الخ.).

المواعيــد:

يمكن أن تبتدىء هذه العمليات في يوم 15 ابريل من جانب القوات الفرنسية وفي فاتح ماي من جانب القوات الإسبانية».

. . . .

قنبلة تطوان:

كان من اللازم حل المشكل الذي كان مطروحاً بشكل معنوي حاد، والذي كان يتمثل في قنبلة عاصمة المحمية بواسطة مدفع أقامه العدو في جبل (بوزيتون) (مرتفع في جبال بني حزمار)

ولذلك قرر (الجنرال سانخورخو) القيام بعملية لاحتلال هـذه المرتفعات والتمكن من ذلك المدفع. كان هذا المشكل معضلة هندسية. وحسب رأينا، فإنه إذ لم يطرح في الدوائر المناسبة في تاريخ ملائم، فإن هذه القطع الموضوعة في إحدى مغارات قمة جبل (بوزيتون) على مسافة تزيد عن ثمانية كيلومترات، لا يمكن أن تهزم نظراً لقصر مدى المتابعة من طرف مدافع الميدان، ولمحاولة القصاء على هذه القطع، أقيمت بضواحي مدينة تطوان بطارية من مدافع (الأوبوز) عيار 15,5، وبواسطة هذه القطع أمكن الوصول إلى المدى المطلوب؛ ولكن حيث إن هذه القطع كانت من سلاح (الأوبوز) فإن انطلاقها المنحني وحِدَّة زاوية هبوط قنابلها، لم تمكن من دخول القذائف في فوهة المغارة، كما لم يكن في الإمكان ضرب المغارة بواسطة الطيران نظراً لأمر العمودي للطائرات... ولكن بعد مرور خمسة أشهر وتفاقم الحالة لدرجة جعلت الأهالي المسلمين يطلبون السماح لهم بإقامة الصلوات من أجل التخلص من هذا الخطر الموتر للأعصاب، فإنه في شهر فبراير لم تعد هناك حاجة للجوء إلى حل هندسي للمعضلة، وأصبح الأمر يتطلب ـ كحل وحيد ـ الصعود إلى الجبل والاستيلاء على هذا المدفع، وهكذا وقع حل المشكل من جانب (سانخورخو).

. . . .

«بدأت العملية في فجر يوم 4 مارس 1926».

. . . .

«وقد انتهت بكل الروعة يوم 6 باحتلال جبل (بوزيتون) من طرف فرقة (Orgaz).

«وعند استسلام قبيلة (بني حزمار) فيما بعد ذلك نتيجة العمليات الشتوية من سنة 26-1927، فرض كشرط من شروط الاستسلام من طرف المفتشية العامة للمراقبات، أن تقوم القبيلة نفسها بنقل ذلك المدفع من الأعالي التي كان مقاماً بها إلى مدينة تطوان حيث أطلق عليه جنودنا إسم (El Felipe) وقد بقي معروضاً في ساحة إسبانيا (الفدان)، أو ساحة الحسن الثاني الآن بتطوان.

مؤتمر وزان: 17 مارس 1926 :

«لإتمام برنامج العمل المعد لمعركة فصل الربيع في الريف طبقاً لفقرة: «**القيادة**» من الاتفاقية الفرنسية ـ الإسبانية بتاريخ 6 فبراير 1926، وقعت في وزان (المنطقة الفرنسية) بتاريخ 17 مارس، محادثات بين القيادات العليا للجيشين. وقد حضر هذه المحادثات:

من الجانب الفرنسي:

الجنرال (Boichut) القائد الأعلى للقوات الفرنسية.

والجنرال (Georges) رئيس القيادة العليا للماريشال (Petain) للشؤون المغربية.

والجنرال (Héllé) رئيس القيادة العليا للجنرال (Boichut).

والجنرالان (Freydemberg) و (Dosse).

والكومندان (Civout) من فرقة العمليات بالقيادة العليا بالرباط.

ومن الجانب الإسباني:

الجنرال (Sanjurjo).

والجنرال (Goded).

والكولونيل (Orgaz).

والليوتنان كولونيل (Aranda) من فرقة العمليات بالقيادة العليا بتطوان.

والدبلوماسي السيد (Aristegui) من النيابة العامة للإقامة.

. . . .

مفاوضات وجدة:

«بينما كانت هذه الاستعدادات للهجوم الفرنسي ـ الإسباني الكبير قيد الدرس، فإن ابن عبد الكريم، أراد أن يوقف الضربة بإحداث الفرقة بين البلدين، وذلك بعرضه السلام على فرنسا على وجه الخصوص، ذلك العرض الذي نتجت عنه مفاوضات وجدة.

«إن معرفة هذه المحاولة رسمياً، وقعت بواسطة رسالة موجهة من طرف المقيم العام الفرنسي السيد (Steeg) إلى حكومته كشف فيها على أن القائد حدو الكحل تقدم في (توريت) للمراقب المدني السيد (Gabrielli) معرباً عن رغبة ابن عبد الكريم في الوصول إلى سلام مع فرنسا، ثم استئناف المساعي فيما بعد مع فرنسا وإسبانيا معاً.

وبعد تباحث الحكومتين ــ مع اقتناعهما المسبق والمؤكد بعدم جدوى هذه المباحثات، وخوفاً من تمكن ابن عبد الكريم من ربح الوقت لا غير ــ قبلتا البدء في المباحثات بهدف عدم إضاعة أية إمكانية للحيلولة دون إراقة الدم، ولإطلاع الرأي العام في البلدين على أنه لا يلجأ إلى العمليات الحربية إلا في آخر المطاف.

بتاريخ 9 ابريل، قبل عرض مباحثات السلام بصفة رسمية من طرف الحكومتين الفرنسية والإسبانية، واتفق على أن تجرى في وجدة (المنطقة الفرنسية)، وقد عين مندوبين عن **فرنسا**: الجنرال (Simon)، والسيد (Ponsot) نائب مدير الشؤون الافريقية بوزارة الشؤون الخارجية، والسيد (Duclos) مدير الشؤون الأهلية في الإقامة العامة بالرباط، وعن **إسبانيا**: السيد (Lopeza Olivan) رئيس قسم بالمديرية العامة للمغرب، والكومندان (Aguilar) من المفتشية العامة للمراقبات بتطوان، والقبطان (De Miguel) أحد قوادنا اللامعين بمصلحة المراقبات، **وعن ابن عبد الكريم**: السيد محمد ازرقان (El Pajarito) المعين كوزير للشؤون الخارجية لحكومة الريف، والقائد حدو الكحل، والسيد أحمد الشدي.

وقد حددت الحكومتان الفرنسية والإسبانية باتفاق بينهما كشروط مسبقة للمباحثات:

أولاً: طاعة السلطان.
ثانياً: إبعاد ابن عبد الكريم.
ثالثاً: تجريد القبائل من السلاح.
رابعاً: تبادل الأسرى.

خامساً: وقف الاعتداءات، مع تمكين القوات الإسبانية والفرنسية من تحقيق اتصالها عند (كرت).

لقد قبل شرط إيقاف الاعتداءات، ونفذ بنظام قل نظيره من جانب الريفيين، ولم يقبل شرط السماح لقواتنا بالاتصال فيما بينها عند (كرت)، ذلك الشرط الذي لم يقع الالحاح عليه لإعطاء دليل آخر على روح المصالحة.

جرت المفاوضات ابتداء من 18 ابريل في (Camp Berteaux)، والعيون، ووجدة على التوالي متقطعة عدة مرات بدعوى استشارة المندوبين الريف مع ابن عبد الكريم، إلى أن أعلن الجنرال (Simon) بتاريخ 7 ماي من اعتبار المفاوضات منهية، وقطع الهدنة نتيجة رفض المندوبين الريف بصفة نهائية للشروط الأساسية للخضوع للسلطان وإبعاد ابن عبد الكريم، وحصر تسليم الأسرى في الوعد بتسليم الجرحى والمرضى والنساء والأطفال لا غير.

لقد قبل قطع المحادثات من طرف المندوبين الريف على ما يظهر برضى ظاهر، وقد فاه السيد محمد أزرقان عندما ابلغه الجنرال «سيمون» أن المحادثات أصبحت متوقفة، وأن الهجومات يمكن أن تستأنف ابتداء من يوم 7، بجملته المعروفة: «نقبل قطع المفاوضات بفرح وسرور».

. . . .

«يشرح ابن عبد الكريم في مذكراته التي نشرها (Roger Mathieu) فشل مفاوضات وجدة بالعبارات الآتية: «في وجدة

أمليت علينا، وعلى غير انتظار، مطالب جد صارمة لم يسبق التحدث عنها من قبل. كان علي أن أغادر الريف، وأن أنفى من المغرب، لم يعرف مندوبونا هذه المطالب إلا بعد وصولهم إلى (تاوريرت) لم نكن نرى أنها من وحي فرنسا. كنا على اقتناع دائم بأن فرنسا لم تكن مرتبطة في سيرها مع إسبانيا، هذا ما قيل لنا دائمًا، وأعيد قوله. . .».

. . . .

«في يوم 6 من ماي، قد أوشكت مفاوضات وجدة على الفشل، أملي من طرف القيادة العامة بتطوان الأمر العام الآتي لبدء العمليات في الوقت الذي سيعين. . .».

الأمر العام الآتي لبدء العمليات في الوقت الذي سيعين. . . ». .

«1 ــ **موضوع وأهمية العملية**: تهدف العملية إلى كسر جبهة (ايبرلوقين) «Iberloken» واحتلال هضبة (أزغار)، و(رابية الأولياء) أو (كدية الصالحين) Loma de Los Morabos.

. . . .

«اكتسبت جبهة (ايبرلوقن) التي حصَّنها الريفيون بعد استقرار قواتنا بأجدير في شهر اكتوبر 1925، نظاماً وقوة شبيهين بالجبهات الدفاعية للحرب العظمى.

كانت تتكون من خط متواصل من الخنادق التي كانت تنبسط ابتداء من (الجبل المخروطي) Monte Conico في الغرب عند منابع (ايبرلوقن)، على الروابي جنوب هذا النهر، موازية للمسلك

المعروف بـ(مسلك الأسْاري) من (اجدير) إلى (آيت قمرة) ومستندة في وسطها على (ملجأ الأساري) Casamata De Prisioneros، وفي ميمنتها، على البحر في مقابل (قلعةٌ المجاهدين) عند مصب (ايبرلوقن)، كان خط الخنادق هذا يحتوي على مستقرات محفوظة من الرشاشات، وأقبية المدفعية والطيران. وكان هناك خط ثان للمقاومة حيث توجد مستقرات المدفعية، يستند إلى (رابية الأولياء) و(رابية الخنادق)، وهضبة (ايرخوطن) و(أزغار)، وهذه المجموعة من المرتفعات هي الحد الفاصل بين (ايبرلوقن) و(دفيس)، وتكون الحاجز الحصين الذي يدافع عن (تماسنت) حيث أقيم المعسكر العام لابن عبد الكريم».

. . . .

معركة (كدية الصالحين):

«على الساعة السادسة من صباح يوم 8 ماي، بدأت فرقتا (فيكسر) Fixer و(ضولا) Dolla هجومها انطلاقاً من منطقتي La Rocosa, Calvet على التوالي، وقد لقيت فرقة Fixer مقاومة شديدة، وهوجمت ميمنتها بكل شراسة، الأمر الذي دعاها لأن تنشر على هذا الجانب جزءاً من قواتها التي تجشمت الكثير، وبالأخص كتيبة القناصة الأفارقة رقم 8 التي قاومت بكل شجاعة هجوم العدو على هذا الجانب، بالرغم من الخسائر التي منيت بها، من بينها قائدها الكولونيل الذي جرح جروحاً بليغة».

. . . .

«كان ميزان الخسائر في هذه الحملة: 30 ضابطاً، و510 من الجنود، بينما لم تتقدم الجيوش أكثر من 3 كيلومترات في العمق. وقد أثبتت هذه النتائج الضئيلة المحرز عليها بالمقارنة مع المجهود المبذول والخسائر المترتبة في الأرواح، متانة الخط المحصن للعدو، وعزمه الأكيد على الدفاع.

«وعلى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم 9 ماي، بدأت الفرقتان هجومهما من جديد».

. . . .

«كانت مقاومة العدو أكثر عناداً من اليوم السابق».

. . . .

«على الساعة الثانية والنصف، فهم الجنرال «سانخورخو» بأن هذا الهجوم لا يمكن أن يتم بإعداد مدفعي كاف نظراً لقلة الوقت من جهة، وصعوبة تحقيقه من طرف حشد Varela الذي كان عليه أن يعمل تحت شروط قاسية من سعة الميدان وانكشافه لمدفع العدو من جهة ثانية، فأمر بإيقاف العملية.

وعند غروب اليوم 9 ماي، كان توازن القوى أقل إرضاء. لم يقع في هذا اليوم، غير أن وطئت قواتنا تراب (كدية الصالحين) ورغم وقوع الكثير من الخسائر في جحافل اجدير: 51 ضابطاً، 761 جندياً، فإنه لم يتوصل فيما بين يومي 8 و9 من كسر الخط»

. . . .

«وعند الشروق من صباح يوم 10 بدأ حشد Varela من فرقة Balmes الهجوم على مراكز (كدية الخنادق) بعد إعداد مكثف

للمدفعية والطيران. وفي نفس الوقت قامت (حركة تطوان)، و Regulares de Melillay بهجوم على (كدية المدفع)، وعلى الساعة 9 وخمس وأربعين دقيقة، كان الهدفان معاً في حوزتنا».

. . . .

«وقد كلفت هذه العملية جحافل اجدير: 25 ضابطاً، و352 جندياً، إلا أن النتيجة كانت حاسمة فقد وقع خرق جبهة (ابرلوقن)».

. . . .

«وقد سمي مجموع هذه الأيام الثلاثة: 8 و9 و10 من ماي من طرف المراسلين الحربيين الأجانب، وفي الأعمال المنشورة في المجلات المختصة (بمعركة رابية الأولياء)».

. . . .

«وقد كلفت معركة كسر هذه الجبهة: 36 ضابطاً، و1113 جندياً».

. . . .

«لقد وقعت الواقعة، حسب قولة (نابليون)».

. . . .

«ابتداء من ليلة 7 إلى 8 من شهر ماي، بدأ الهجوم على الجبهة الفرنسية باستيلاء الفرقة الثالثة على جبل Rokbaba (ركبابة) حيث اتصلت بالجيوش الاسبانية، وفي الأيام من 9 إلى 11، قامت الفرقة الثالثة بزحف عام استولت فيه على جبل Tahurt الحد الفاصل بين (كرت) و(النكور)، كما استولت الكتيبة المغربية على جبل Izkritin. إن هذا الهجوم من طرف فصيلة الهجوم التابعة

للكتيبة المغربية تحت قيادة الكولونيل Kieffer، يمثل أحد الفصول الرائعة والدامية في هذه المعركة بالنسبة للجيش الفرنسي بالمغرب. لأن هذا المرتفع الجبلي بارتفاعه الذي يبلغ 2000 متر، يغطي من جهة الجنوب الوادي الأعلى للذكور، ويكون الحارس المتقدم لأراضي (بني ورياغل) جنوباً، والذي أمر ابن عبد الكريم بتحصينه كأقوى ما يكون التحصين، والدفاع عنه مهما كلف الأمر. وقد تحمل كل من (كوم) القبطان Schmidt والمشايعين الجزنائيين للقائد المذبوح، واللفيف الأجنبي للواء الأول، صراعاً قاسياً لتحقيق الاستيلاء على هذا المعقل، لأن الريفيين بعد مقاومة عنيدة، انقضوا عدة مرات في هجومات مضادة جسمًا لجسم. وإن اسم جبل Izkritin سيبقى يرن ابتداء من يوم 9 ماي 1926 في آذان الفرنسيين بتأثر.

وصلت الفرقة الأولى (Vernois) في يوم 10 إلى المرتكزات الجنوبية من جبل (Rokdi) وفي الجانب الغربي، وصلت حشود فاس يوم 11 صحبة الفرقة الرابعة والفرقة 128 إلى قلعة (Bukorra) (وزاوية مولاي عمران) في بلاد (مستارة). وتقدمت الفرقة الثانية في (بني ورياكل) و(فناسة)، رابطة اتصالها بالفرقة الأولى من حشود تازة عند (تفراوت))».

. . . .

«وفي يوم 15 ماي، قامت حشود اجدير بتجديد هجومها».

. . . .

في انتظار رجوعنا:

وقد استولى فرسان Ponte في زحف سريع على (سوق اثنين بني بوعياش)، وقد أظهر العـدو بعض المقاومـة خصوصـاً إزاء الفرسان. وقد كلفت العملية: 5 من الضباط، و50 جندياً.

وعند استيلاء قواتنا على ضريح (سيدي يـوسف) ـ وهو ضريح مقدس في قبيلة بني ورياغل ـ وجدت به كل الـزرابي، و(الحياطي)، وأدوات العبادة لدى المسلمين، دون التمكن من سحبها، كما وجدت لافتة مكتوبة بالعربية معلقة على الباب فيها:

(الـرجاء من المسيحيـين ألا يحدثـوا ضـرراً، في انتـظار رجوعنا).

كانت هذه الجزئية علامة على الحالة المعنوية المنهارة لقوى رجال القبائل الذين لم يعد من وجود لغير ظل ابن عبد الكريم بينهم، ودالة من جهة ثانية على ما لقواتنا من مفهوم في نفوس المغاربة حول احترام معتقداتهم وعاداتهم. لقد احترم هذا المطلب البسيط، والمعروض في أصالة ونبل، بكامل الدقة، وذلك بوضع حارس من الأهالي عند باب الضريح».

. . . .

«في نفس اليوم، قامت فرقة Pozar (مجموعة تمسمان) بهجوم على (بني سعيد) ابتداء من (Afrau) دون مقاومة كثيرة مخضعة فخذة Tasaguin وبينها القائد عمرو بوعزة أول قواد ابن عبد الكريم الكبار الذين استسلموا لقواتنا.

وابتداء من هذا التاريخ بدأ رجال من أفخاذ (بني تعبان) من قبيلة (بني توزين)، و(آيت يوسف وعلي) من (بني بوعياش) في قبيلة (بني ورياغل)، يستسلمون.

قامت بمساعي قبول الاستسلام، المراقبات العسكرية المختصة بمساعدة فعّالة في قبيلة (بني ورياغل) من طرف القائد الشهير سليمان الخطابي (ابن عم ابن عبد الكريم)، وفي قبيلة (بني توزين) من طرف الشاب النشيط: محمد علال محند أحد القواد الشجعان لبني توزين الذين قدموا لنا خدمات فائقة في مجال نزع السلاح».

. . . .

«إن الشعار: (رجل ببندقية) المحافظ عليه ابتداء من ذلك التاريخ كمبدأ للمفتشية العامة للمراقبات، كان الشرط الوحيد المفروض لقبول الاستسلام، مع المحافظة من طرف قواتنا في مقابل ذلك على احترام أشخاص وأملاك المستسلمين الذين بعد أن اطمأنوا إلى هذه الضمانات، أخذوا يتوافدون بأعداد هامة صحبة عائلاتهم وماشيتهم، وذلك التواجد بالإضافة إلى تسليم السلاح، أصبح يكون ضمانة ثابتة للاستسلام الحقيقي.

احتلال (تماسنت):

وفي يوم 17 ماي 1926، وعلى أثر زحف من جانب حشود اجدير، أصبحنا سادة (تماسنت) المعسكر العام الثاني لابن عبد الكريم».

. . . .

محبس الريسوني:

«وفي (تماسنت)، وفي المنزل الذي كان الريسوني أسيراً به، أمكننا رؤ ية تلك الحجرة القذرة التي عاش بها ذلك الشريف المنعم الرقيق الذي كان فيما مضى سيداً لمرتفعات (جبالة) وقصور (أصيلة) و (تازروت)».

. . . .

«لقد أخذ كبار القواد يحذون حذو القائد عمرو بوعزة، وهكذا استسلم أحمد الشدي (أحد المندوبين في مؤتمر وجدة) وحدو بن محمد أمزيان، وذو المكانة بتمسمان علال بن الحاج، ولم يبق في المقاومة سوى بعض الخلايا المعزولة التي لم تعد تتمتع بالتنظيم الكامل الذي وحده قوة لجيوش ابن عبد الكريم.

وبقي السيد امحَمد أخ ابن عبد الكريم، وقواد آخرون في مثل قيمة علوش الصديق، وادريس ميمون خويا، وموح حميش، ومُحَنْد أسدات، يقودون بأنفسهم المحاربين الذين تحملوا ثقل هجومنا.

أما ابن عبد الكريم، فبعد أن فقد ملجأه في (تماسنت) وقيمته الشخصية في قيادة المعارك، فقد اختبأ بادىء الأمر في Timerzga جنوب (بني ورياغل)، وأمام هجومات الفرنسيين على هذه الناحية، فقد هرب باحثاً عن ملجأ في (قصبة سنادة) في بيت الشريف سيدي احميدو الوزاني إنه يرى قيادته وقد انهارت، أخذ لا يفكر إلا في إنقاذ حياته وممتلكاته المادية المنقولة التي جمعها في (كمون) Kemmun.

. . . .

«عندما رأى ابن عبد الكريم نفسه محاصراً بكل شراسة في عقر داره بالريف، أمر رئيسي التمرد في المنطقة الغربية القائدين أحمد بودرة (وزير الحربية) واخريرو بالقيام بهجوم في العمق، في اتجاه تطوان بهدف جعل القيادة تصرف بعض القوات من منطقة اجدير، معيداً بتلك المناورة، الدور الذي قام به سنة 1925 عند هجومه على (كدية الطهر).

وقد بدأ الهجوم فعلاً بتاريخ 10 ماي بـ(بني معدان) في منطقة مراكز (بودارع)، بواسطة (حركة) قوية من جبالة وغمارة».

. . . .

«وقد احتاج الأمر لإيقاف هذه الغارة» «لأكثر من 5000 رجل».

. . . .

(وقد أسفرت العملية عن) «21 أسيراً، و78 جثة للعدو».

. . . .

«وفي يوم 22 ماي، قام الجنرال (سانخورخو) صحبة رئيس قيادته العليا الجنرال (كوديد)، والقائد العام لمنطقة مليلية الجنرال Castro Girona ــ في حراسة قليلة ــ بأول جولة كاملة من اجدير إلى مليلية أرضاً، مكرساً بذلك، النصر المحقق، وتوحيد منطقتي مليلية والحسيعة.

وبتاريخ 23، جاء إلى مليلية، السيد Parent أحد معطوبي الحرب الفرنسيين صحبة الدكتور (Gaud) في مهمة صحية تخص أسرى الريف، وبمساعي المقيم العام الفرنسي، سلم للجنرال

(سانخورخو) رسالة من ابن عبد الكريم يطلب فيها هدنة «لتفادي إراقة الدم». وقد حمد السيد Parent رسالة أخرى إلى المقيم العام الفرنسي، كما وضعت رهن تصرفه طائرة لتنفيذ مهمته».

. . . .

«وأثناء ذل، على الجبهة الفرنسية قامت الفرق الست لمجموعتي فاس وتازة، بهجوم عام لتضييق الحصار على الريف الأوسط. تقدمت الفرق الثلاث من مجموعة فاس نحو (بني زروال) غير ملاقية مقاومة تذكر. أما مجموعة تازة، فإن فرقها الثلاث، استطاعت أن تستولي يوم 19 ماي بواسطة الكتيبة المغربية على جبل (بوزينب)، ويوم 21 بواسطة الكتيبة الأولى على جبل (رُكْدِي)، ويوم 23 بواسطة الكتيبة الأولى أيضاً على ممر (Tizi Ifri) وبواسطة الكتيبة الثالثة على قمة (جبل الحمام)، متصلة هناك بالقوات الاسبانية تحت قيادة الجنرال Carrasco وهكذا تحققت «المرحلة الثانية» من هذه العمليات بالاستيلاء على مرتفع (جبل الحمام).

أما «المرحلة الثالثة»: الهجوم العرضي على (ترجيست)، فإنها تبدو أمراً سهلاً بالنسبة للكتيبة المغربية التي لم تجد في طريقها أي عائق».

. . . .

استسلام المجاهد ابن عبد الكريم:

«أصبح مصير ابن عبد الكريم مطروحاً، ونهايته حتماً وقضاء مقررة، ويروي Pierre Khorat في كتابه «نهاية عبد الكريم»،

اللحظات المؤثرة لاستسلامه، وشكوكه وتردده في الآونة الأخيرة لانهيار نفوذه، فبمساعي الشريف سيدي حميدو الوزاني الذي حضر إلى (ترجيست)، بعث ضابطان فرنسيان: القبطان سوفران Suffren، وملازم من البحرية مُونطان Montagne لقصبة (سنادة)، للاتفاق حول التسليم. وبعد تردد قصير، وبضل مهارة وجلد هذين الضابطين، بت ابن عبد الكريم في الأمر. وبتاريخ 27 ماي، وبعد أن أعطى أوامره بتسليم الأسرى الفرنسيين والاسبانيين سلم نفسه للجنرال Ibos قائد الكتيبة المغربية في (تيزمورن) على بعد كيلومترات من (ترجيست). وقد حملت فصيلة من الجيش الفرنسي، وكتيبة من السينيغاليين تحت رئاسة العقيد Giraud في (كمون) السيدين: عبد السلام، ومحمد، الأول عم الزعيم، والثاني أخاه، وأبناءهما وزوجاتهما، وكذلك السادة: محمد أزرقان، ومحمادي، وحدو الوزراء المنكسرين لابن عبد الكريم. وقد حملت ممتلكات ابن عبد الكريم على ظهر 200 بغل. وعندما انخرق صندوقان محملان بالريالات الاسبانية أثناء الطريق، أهديا بسخاء للسينيغاليين من طرف أسرة الثائر.

وفي يوم 26، سلم بترجيست: 162 من الجنود الاسبانيين الأسرى مع بعض المدنيين، وأسرى من الجيش الفرنسي».

. . . .

«أصبح الجنرال (سانخورخو) مقتنعاً بالإستفادة من الوقت، فعزم على متابعة العمليات».

. . . .

آخر معارك الجبهة الريفية:

«لقد لقيت فرقة Gonzalez Carrasco مقاومة في معركة قاسية بسوق أحد (تيزار) حيث أرادت خلية من الثوار تحت رئاسة القواد: علوش الصديق، وادريس ميمون خويا، وابن دادة من وراء المتراس الطبيعي لمرتفعات الحد الفاصل بين (غيس) و(اسيوكين) أرادت هذه الخلية أن تعطي مثالاً لشجاعة محاربي (بني ورياغل) قبل أن تستسلم، فقامت في محاولة يائسة أخيرة، بهجوم عنيف على (حركة مليلية) ومجموعة الجند النظاميين للحسيمة Regulares de Alhucema الذين تحملوا بمساندة كتائب القناصة رقم 16 و18 طيلة يوم كامل، معركة جد قاسية. كانت هذه المحاولة هي آخر معركة بالجبهة الريفية. إذ في يوم 30 تقدمت فرقتا Mola و Dolla بمساندة فرقة Gonzalez Carrasco لاحتلال جميع فرقة بني عبد الله من قبيلة بني ورياغل التي استسلمت بعد مقاومة خفيفة، كما تلقت فرقة Ponte و Castillo و Balmes استسلام فخذة (تيجديت) Tijidet من قبيلة (بقوية) وقبائل (بني يطفت) و(بني بوفراح). وقد استسلم أيضاً القائدان: علوش، وادريس ميمون خويا، اللذان قادا معركة سوق أحد (تيزار) بعد ذلك بأيام قليلة بعد أن أرضوا الشرف العسكري لمحاربي الريف.

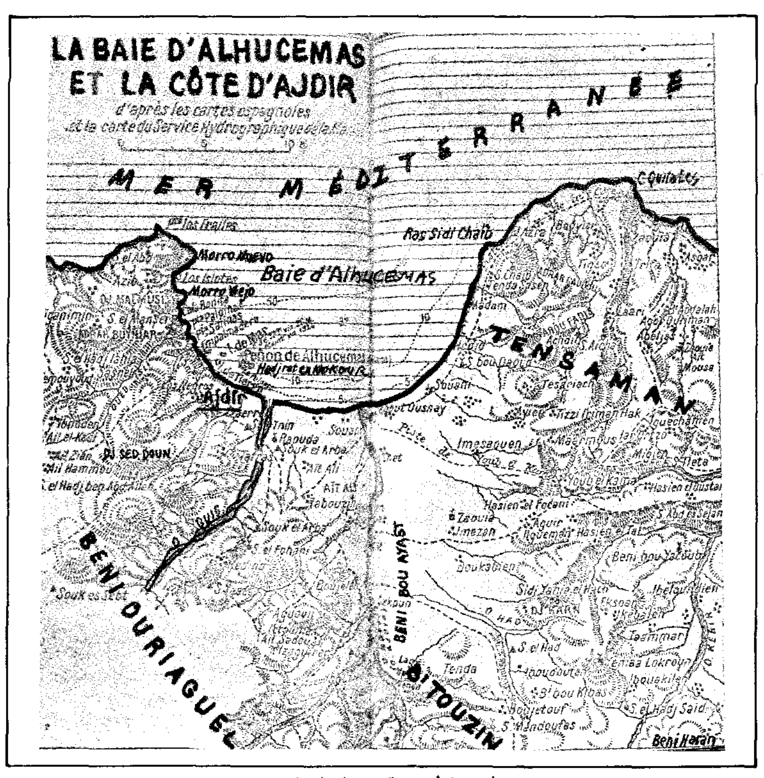
استسلام أحميدو الوزاني:

«وبتاريخ 31 ماي، قدم الشريف سيدي أحميدو الوزاني طاعته للمخزن أمام المقيم العام والمفتش العام للمراقبات وذلك

عند (حجرة بادس)، وقد كان يرافقه: مولاي خالد، ومولاي مصطفى، الأول ابن الشريف الريسوني والثاني أحد أقربائه.

استمرار المقاومة:

«للوصول إلى التهدئة الكاملة، واحتلال منطقة حمايتنا، بقي علينا مواجهة مشاكل غمارة وجبالة حيث تستمر المقاومة».



خليج الحسيمة وساحل اجدير

Escadrille française bombardant le front de l'OUERGHA

الطيران الفرنسي يقصف جبهة وَرْغَا



ناحية تارجيست



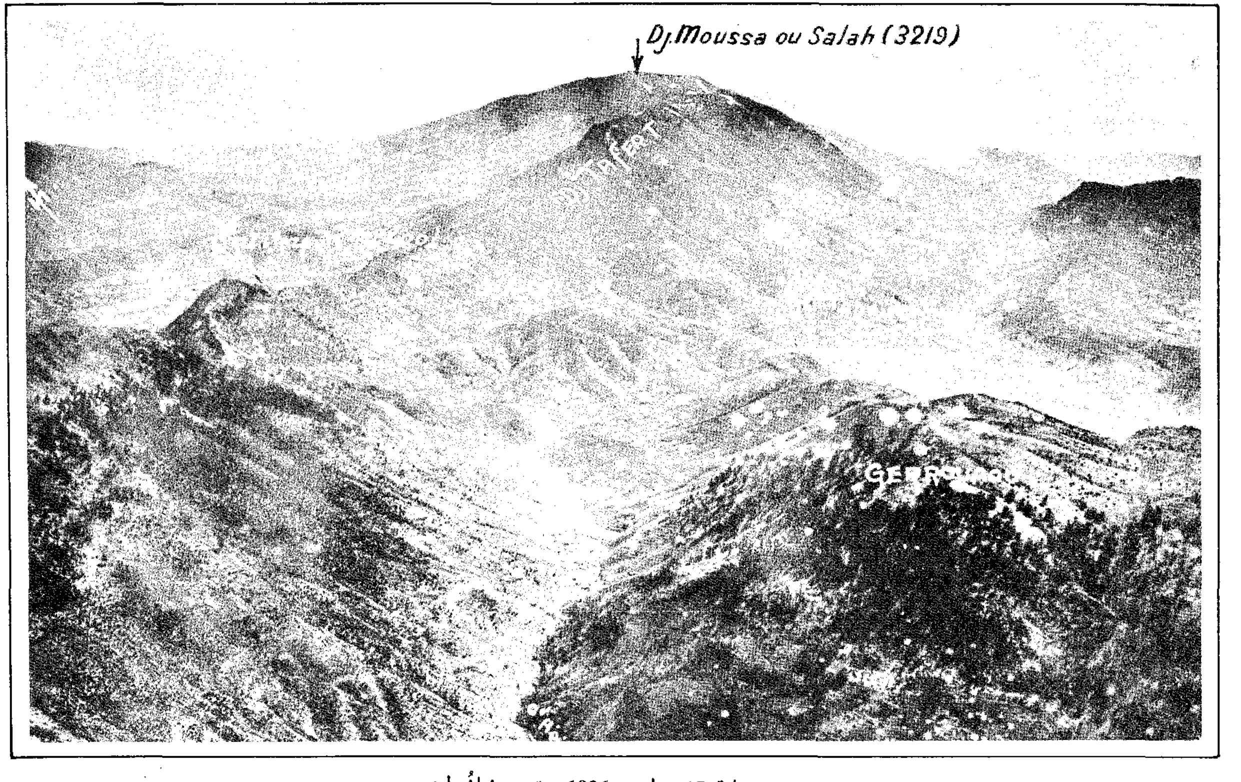
ساحة العملية يوم 21 ماي 1925 على باب الوندر ومولاي عين الجنان

Dj. Hammam. (1948).

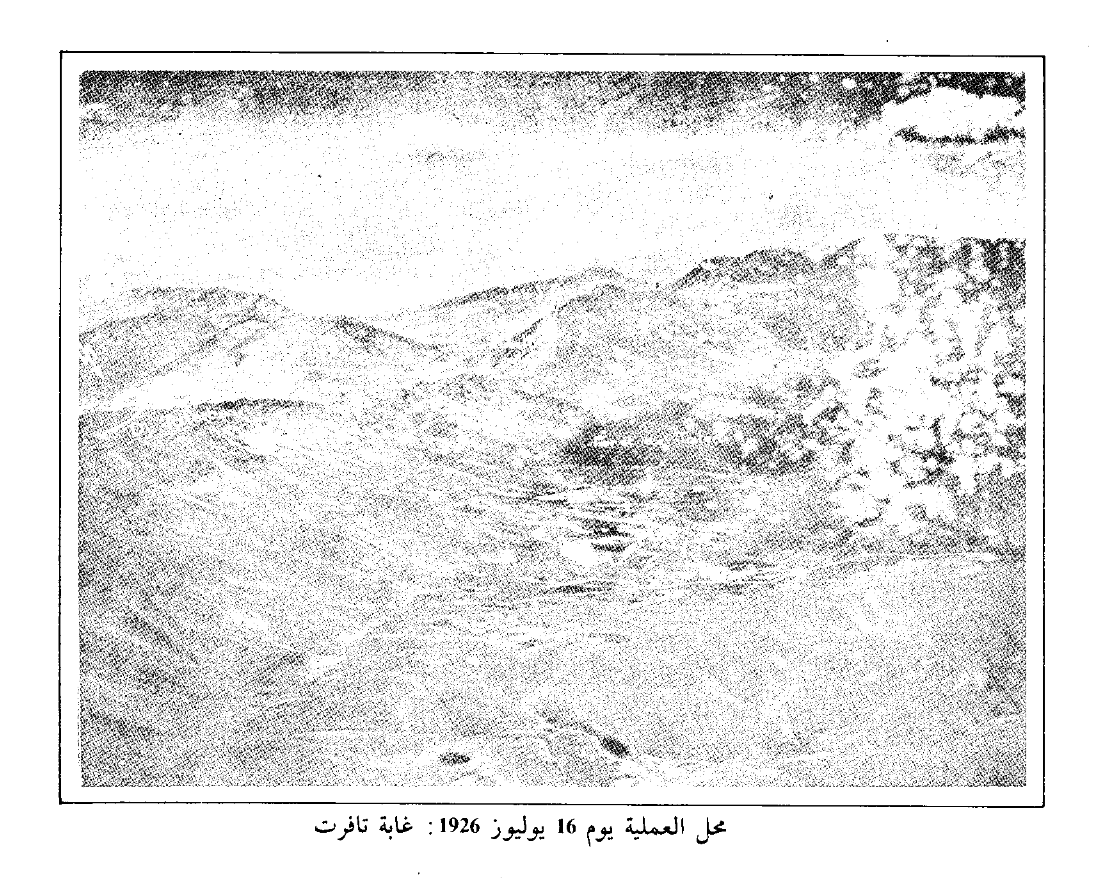
Dj. Bou Zineb.

محلة عملة 19 ماى 1926

مسرح العمليات يوم 19 و 22 ماي 1926



مسرح عملية 15 يوليوز 1926 : تزي نتازُولت



محل العملية يوم 16 يوليوز 1926 : غابة تافرت



الفصل السابع عشر

أسباب الهزيمة الحربية

إن الأمير محمد ابن عبد الكريم ومن جاهدوا معه طوال سنوات ضد اسبانيا ثم ضد فرنسا منفردين، تارة، ومتحالفتين، تارة أخرى، لم تعوزهم إرادة القتال حين اضطروا إلى إلقاء السلاح، فقد رأينا أن الأمير الخطابي وقتما التجأ إلى دار الشريف سيدي حميدو الوزاني أراد أن يستعد لمواصلة الحرب، وكذلك تجلّت إرادته وصلابته كقائد حربي في حديثه مع البعثة العسكرية الفرنسية بتاركيست، كما أنه لم يعوزه السلاح، فقد طلب من سيدي حميدو 350 بغلاً لنقله إلى حيث أراد لمواصلة الجهاد مع رجاله، وايضاحاً لهذا ننقل ما ورد في كتاب فرنسا، واسبانيا، والريف الصادر في 1927 «لوالتيرها ريس»، الصحفي الإنكليزي الخبير في شؤون المغرب عامة، وشؤون ثورة الريف خاصة، من أن الأمير الخطابي قد كان يملك عند استسلامه 135 مدفعاً، وأكثر من 40 ألف بندقية، و240 رشاشة أوتوماتيكية، وكميات كبيرة من القنابل والذخائر كلها غنمها المجاهدون من الاسبانيين والفرنسيين في ساحات القتال.

وبالإضافة إلى هذا كله، لم يعوز الأمير ابن عبد الكريم

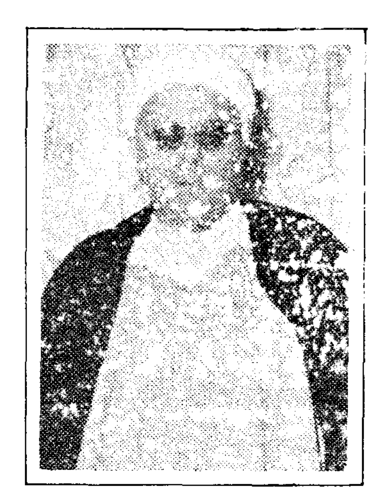
المحاربون الأشداء، فقد رأينا كيف كان بعضهم يندفعون نحوه وهو يغادر تاركيست مقبّلين ركابه، وثيابه، بل كانوا يرتمون على الأرض في طريقه إخلاصاً ووفاء، وتقديراً وإكباراً، وتعلّقاً وانقياداً، وقد أعطى هذا للحاضرين، وكذلك للفرنسيين، خير مثال، وأقوى برهان يقدمها المجاهدون في أحرج الظروف، وأعسر الساعات لقائدهم الأسير.

الحقيقة هي أن ما تسبب في إنهاء الثورة هو شيء خارج عن إرادة أصحابها، قادة ومجاهدين، ولم يكن غير تفوّق الأعداء ـ الاسبان والفرنسيين ومن والاهم وتعاون معهم من القوم طوعاً أو كرهاً ـ في العدد والعدة، فقد عبأت فرنسا، وقد كانت تعد وقتئذ أقوى دولة عسكرية في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى، كل قواتها العسكرية، وطاقاتها القتالية، وإمكانياتها المادية، ليس في فرنسا والمغرب فقط، بل حتى في الجزائر، وتونس، والسنغال، وجميع ممتلكاتها الاستعمارية في افريقيا وآسيا، ولهذا استطاعت أن تجيش في المغرب ما لا يقل عن 325 ألف محارب بقيادة ما يتراوح بين 60 و 80 جنرالاً يرأسهم الماريشال بيتان نفسه، فكانت تلك القوات تمثل 32 فيلقاً معززة بعشرات الآلاف من القوات المساعدة المغربية و 400 ألف من رجال القبائل المغربية المعبئة عسكرياً باسم حركات (بسكون الراء) للقتال إلى جانب الجيوش النظامية العدوة التي فاقت مليون محارب، بينما كان عدد المجاهدين المسلحين نحو عشرين ألفاً فقط، وكانت قوات العدو تتوفر على جميع أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة بذاخائرها، وكانت المصانع الحربية في فرنسا واسبانيا خاصة من وراءها تمدها باستمرار بكل ما تحتاج إليه

من سلاح وعتاد، في حين كان المجاهدون يتسلّحون بما يغتنمونه في ساحات القتال دون أن يكون في إمكانهم التسلّح من الخارج لقلة المال، وللحصار المضروب على الشواطىء من الأسطولين الحربين الاسباني والفرنسي.

يضاف إلى هذا أن جيوش الأعداء الجرارة استطاعت أن تحتل أراضي كثير من القبائل سهولاً وجبالاً، فضيقت رقعة المنطقة المحررة إلى أقصى حد، وحرمت الثورة من أكثرية القوات المحاربة والمناصرة مع ما في أرض القبائل المغلوبة من مواقع حصينة وإمكانيات مادية لا غنى عنها لمواصلة حركة الجهاد.

وأكثر من ذلك كله توفر الأعداء على قوات كثيرة من الطيران الحربي الذي مركزته القيادة العدوة الفرنسية والاسبانية في أهم وأقرب المدن من واجهات القتال كفاس، وتازة، ووزان، بالنسبة للفرنسيين.



الأمير محمد ابن عبد الكريم الخطابي

وقد كان للطيران المجمع من فرنسا، والجزائر، وتونس، والممتلكات الاستعمارية الفرنسية في القارات دور فعّال وحاسم في شد أزر الجيوش البرية، وتمهيد العمليات لها، وإمدادها بكل وسائل وضروريات الحرب ونقلها إلى المراكز الأمامية ونقل الجرحى إلى المراكز الصحية في المدن، واستطلاع تحركات المجاهدين ومواقعهم، وضربها بوحشية متناهية، وبث الرعب والإرهاب في القبائل بقصف مداشرها وأسواقها، ومواشيها، وإلجاءها إلى التشتت والفرار تحت القنابل المتساقطة عليها، إلى غير هذا مما يدخل في مهام الطيران، ولإعطاء نظرة عامة على دور الطيران الفرنسي خاصة نبث هنا بعض المعلومات المستمدة من كتاب الجنرال الطيار «أرملنكو» عن العمليات الجوية خلال 1925 و 1926.

فبعد أن تحدث عن تجميع الطيران الحربي ونقله بشتى الوسائل البرية والجوية من المدن إلى المواقع المعدة له بالواجهة سرد أمثلة، وهي:

في 21 مايو 1925 تجمّعت أسراب الطائرات بالدرادر في ورغة آتية من فاس، وتازة، وقامت بمائة وسبعين (170) قصفاً جوياً، وبثلاثين (30) نقلة للجرحى، وفي الرابعة عشية انعدم الأمن بالنسبة للطيران، فعاد لقواعده بفاس وتازة.

وفي 22 مايو قامت نفس الأسراب بثلاثة وستين (63) قصفاً جوياً وبعدد كثير من المهمات الصحية أي إفراغ الجرحى من

الميدان إلى حيث توجد المستشفيات، وعادت بعد الظهر إلى قواعدها الحضرية حيث الأمن والسلامة.

وفي 23 مايو تولّت نفس الأسراب خمسين (50) قصفاً، وأنجزت كثيراً من المهمات الصحية، وهي نقل الجرحى للعلاج.

وفي 25 مايو قامت الأسراب نفسها بمئة وخمسة عشر (115) قصفاً، وبمهمات صحية كثيرة كالعادة.

ويعلّق الجنرال الطيار على هذا بقوله: «إن هذه اللوحة (طابلو) تكفي لبيان النشاط التناوري الذي استطاع أن ينجزه الطيران الحربي».

ومما قاله: «إن تجمعات الطيران الحربي وأكثرها بفاس، كانت في الواقع أولى قوات الحماية والتغطية للعمليات الحربية، فلولا تدخل الطيران لما توقّف تقدّم الريفيين نحو فاس من عدة جهات حتى إن ليوطي قال: «إن الطيران هو الذي أنقذ مدينة فاس».

ولما كاد يكبده الطيران، أثناء غاراته المتوالية على المناطق المدنية من خسائر في الأرواح، والمواشي، والمزروعات، انتقد عضو لجنة برلمانية فرنسية كان هو نفسه من رجال الطيران في الماضي تلك التدخلات، وذلك أثناء زيارته للمغرب، في يوليوز 1925، طالباً التقليل منها اكتفاء ما أمكن بعمليات القوات البرية، وكذلك الكف أكثر ما يمكن عن التدخل الجوي المباشر في قلب الأرض الريفية،

ولكن ردّ عليه بأن الوضعية الحربية الفرنسية كانت وقتئذ سيئة وحرجة جداً.

وكمثال لسفك دماء الأبرياء، ونشر الدمار والخراب، قال الجنرال (أرمانكو): «كان لا بد من 150 قصفاً جوياً ليتخلف 350 ضحية أثناء المعارك لصالح جيش الجنرال (دوشامبران) يوم 21 مايو 1925، ولكن اثنى عشر (12) قصفاً جوياً استطاع في مولاي عين الجنان، يوم 21 يونيو 1925 أن يخلف في دقيقة واحدة فقط في سوق ببني زروال ثمانمئة (800) ضحية!».

وهكذا كانت الأسواق هدفاً لقنبلة الطيران بالإضافة إلى المداشر، فكان السكان ينقلون أسواقهم داخل الغابات أو يلغونها بالمرة.

وقد تحدث الماريشال بيتان أمام البرلمان، فأكد أن الجيش بلغ خلال 44:1925 فليق (باطايون) و73 طائرة حربية، استعملت 11.307 أطنان من القبائل.

وفي أواخر 1925 أو خلال 1926 تضخمت قوات الطيران، فتمكنت من الإغارة بكثرة على مؤخرات المجاهدين، وهكذا قصفت شفشاون، وتبرانت، وتاركيست، واجدير الخ، وذلك لتبطش بالسكان، وتزرع الخراب بين الديار، وتشيع الإرهاب، وتبعث على هجر الأماكن فراراً من الخطر، وبث السأم والملل من الحرب، والميل للسلم بين سكان القبائل والحواضر في الشمال، وذكر الجنرال «ارمانكو» أنه قبل استسلام ابن عبد الكريم بأيام

تقدم «بيرباران» إلى المقيم العام بتقارير حول كثرة الضحايا التي أحدثها الطيران في الشيوخ، والنساء، والأطفال، فأبدى المقيم العام للجنرال القائد الأعلى رغبته في أن يوقف عمليات الإغارة والقصف الجوي فوق المؤخرات، ولكن الحرب كانت على وشك الانتهاء، وكان الطيران خلال عمليات 1925 و 1926 قد استطاع أن يضرب الرقم القياسي في قصف مواقع المجاهدين ومؤخراتهم نفسها تقتيلاً وتخريباً، ونذكر هنا بأن أسراباً من بلجيكا والولايات المتحدة تطوّعت إذاك للمساهمة في الحرب الفرنسية، لأن الأولى كانت من دولة حليفة عسكرياً، والثانية أرادت أن ترد الجميل الذي كان أسداه الجنيرال لافاييت لقوات الثورة الأمريكية ضد انكلترا قديماً، وقد كان الطيارون الأمريكيون بقيادة كولونيل يقصفون القرى والمداشر كما فعلوا في شفشاون كمدينة مفتوحة حتى إنَّ الصحافة الانكليزية نددت بهذا العمل الهمجي الذي شمل حتى أسواقاً خاصة بالنساء في الريف، وقد أنذر الصحفي الإنكليزي، «والتير هاريس»، مراسل «التايمز» اللندنية، في كتاباته وزارة الخارجية الامريكية التي اضطرت إلى إبلاغ الطيارين الامريكيين المتطوعين أن الولايات المتحدة ليست في حرب مع الريف، فرجعوا إلى بلادهم موبخين وملعونين من الرأي العام الإنساني أجمع. وفي كتاب «كارلطون كون» بعنوان «كارفان» (Caravan) «ان ابن عبد الكريم كان يمكنه أن يقاتل الفرنسيين أثناء فترة لا نهاية لها لو لم يستعمل خصومه الطيران والدبابات»، وقال كذلك مراسل «التاسمس» الإنكليزية «والتير هاريس» في كتابه «فرنسا واسبانيا، والريف». لقد كانت حرباً لم يكن لها مثيل في

التاريخ الاستعماري.

ولكي ندرك أكثر دور الطيران في التعجيل بهزيمة ابن عبد الكريم نشير أن ليوطي كان في حربه ضد الريف يحرص على الانتصار بأسرع ما يمكن وبأقل الخسائر والتضحيات عملاً بمذهب المعبّر عنه «بالحرب الاستعمارية البناءة التي تهدف إلى هزم قوات المجاهدين المحاربة مع تلافي التخريب والتدمير ما أمكن بالنسبة للبلاد والسكان، ولهذا كان للطيران دور محدود في مساعدة القوات الفرنسية المحاربة من حيث الخدمات والإغارات، وجرى الأمر بخلاف هذا لما خلف المريشال بيتان ليوطي في قيادة الجيوش الفرنسية المحاربة في الريف بتعاون مع القوات الاسبانية، فقد كان بيتان مؤيداً بوزارة الحربية وبالقيادة العليا العسكرية في باريس، وكانت كلتاهما صاحبة الأمر في توجيه الحرب ضد الريف، فكانت القرارات الحاسمة في هذا المجال تصدر عن الأوساط ضد القيادية العسكرية في باريس. وتنفذ بواسطة بيتان وهيئة أركانه في المغرب وبعبارة، كانت الكلمة العليا الفاصلة للمجلس الأعلى للدفاع الوطني في تقرير سير ومصير الحرب الفرنسية بالمغرب بعد ما تخلص من ليوطي وعوضه ببيتان الذي وجد فيه ضالته المنشودة أي رجل القوة والحرب التي لا تبقى ولا تذر.

وفي تقرير بتاريخ 11 يونيو 1925، للجنرال سيريني (Serrigny) الذي كان بيده زمام المجلس الحربي نجد التعبير عن نقد خطة الحرب على عهد ليوطي، وهي الاهتمام بالانتصارات المحلية الجزئية لا على الريفيين أنفسهم، ولكن على القبائل التي

ضموها لحركتهم بينما يترك الريفيون «يذوبون» في الجبال لشن حرب العصابات التي لا نهاية لها، وبعكس هذا اقترح صاحب التقرير خطة استراتيجية جديدة تتلخص في القيام بحركة هجومية من المنطقتين الفرنسية والاسبانية في اتجاه اجدير ـ قاعدة الثورة ـ وباستعمال أحدث الوسائل الحربية براً، وجواً، وبحراً، ويجب أن يكون الهجوم جارفاً وساحقاً بكل القوات والأسلحة، وتوفير ما أمكن لقوات المشاة تدبر العمليات باستعمال أقوى سلاح عصري موجود، وهو الطيران المدمر، والدبابات، والمدافع الرشاشة المحمولة، وفرق الرشاشات، الخ.

وفي تقرير آخر للقبطان ماست بتاريخ 12 غشت 1925 ـ وكان عضواً في هيئة أركان الجيش ـ نقد أساليب الحرب في عهد ليوطي، واعتمادها على الفرق المتحركة بحيث كان الجيش فاقداً للاستقرار والنظام، وتعرض التقرير بوجه عام للحالة المادية والمعنوية لجيوش الاحتلال في المغرب، وانتهى التقرير باقتراح إعادة تنظيم أجهزة التجريدة العسكرية الفرنسية في ميدان الحرب وذلك على أساس ألوية (ريجيمان)، وفرق (بريكاد)، وفيالق (ديفيزيون)، وكان التقريران مضادين لنظام الجيش الفرنسي في حربه بالمغرب، ومؤيدين لوجهة نظر (بيتان) Petain ومن على شاكلته. ولهذا دعي بيتان لقيادة الحرب ضد الريف، وعهد إليه بإنهائها بالنصر قبل فصل الشتاء، فكان القرار المتخذ قرار «الحد الأقصى» في الحرب مع إبعاد كل مخابرة أو مفاوضة مع الخصم لأنها تفهم منه أو من غيره كعلامة ضعف، وتساهل، وتنازل، فالحرب أولاً وآخراً،

ولا شيء غير الحرب حتى النصر، وبهذه العقلية المتصلبة والمتطرفة سيطر أصحابها في فرنسا والمغرب على مقاليد الأمور، وتصرفوا في عمليات الحرب تخطيطاً، وإعداداً، وقتالاً، وبظهور بيتان كمكلف أولاً بمهمة تفتيش الجيش المحارب، تم بعد هذا كقائد حربي تحقق الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية حتى لا يبقى بينهما تداخل وتنافس، وبناء على هذا انتهى جمع السلط كلها في يد المقيم العام، واستأثر العسكريون بجميع سلطهم التي تعززت وتضاعفت وقتئذ.

وكان بيتان مؤمناً بالتعاون الحربي مع اسبانيا ضد الريف، ولهذا توجّه لمدريد حيث تحادث مع الديكتاتور بريمودي ريفيرا في 28 يوليوز و 21 غشت 1925، وارتكز تخطيطه الحربي المقترح على أساسين هما:

1 ــ تسوية المسألة الريفية تعتبر بما ليس بعد البيان بيان مشكلة فرنسية اسبانية، ولهذا لا قيام بعمل محلي غير مرتبط بالبرنامج الاسباني.

2 ــ لا إقدام على عمل جزئي دون هدف عام شامل.

واستناداً إلى هذا اقترح بيتان مخططاً ذا مرحلتين إحداهما الوصول إلى «عتبات» الريف (أعالي الأودية والشعاب في مسألة وكرت، والنكور)، ومن هنا يكون التسرب والتوغل في جوف الريف باحتلال بني ورياغل القبلية المتزعمة للحرب بقيادة ابن عبد الكريم، وتم الاتفاق الحربي بين الدولتين في 11 يوليوز 1925، ولكن التطبيق اصطدم بعقلية العسكريين المتأثرين بخطة

ليوطي الحربية، وعدم امتثالهم للتعاون الفرنسي الاسباني، لأنهم بلا شك كانوا يعتبرونه في صالح الاسبان أكثر مما كان في صالح الفرنسيين الذين عبئوا كل قواتهم، وطاقاتهم، وفنونهم الحربية لإنقاذ اسبانيا من المأزق الذي عجزت وحدها عن الإفلات منه.

وهكذا لَمَّا وصل بيتان للمغرب لم يجد القيادات الفرنسية في فاس والواجهة الشمالية طوع يده، وكان الاصطدام وكذلك مع المقيم العام ستيغ الذي اتهمه بالتأثر «بكتلة فاس» العسكرية، واستطاع بيتان أن يبعد بعض الجنرالات المخالفين له، وأن يقنع الحكومة في دسمبر 1925 بصلاحية مخططه الذي تقرر بصفة نهائية، وأخذت الاستعدادات لتنفيذه في فصل الربيع، ولكن نشب الخلاف في يناير 1926 بين بيتان وبين ستيغ حول عزم الأول على إبرام اتفاق دقيق ومكتوب مع الاسبانيين للقيام بعمل مشترك متجه نحو المركز المستهدف، وتحكم رئيس الحكومة في الخلاف، وكان ستيغ يقول بعدم اللجوء إلى عمليات واسعة النطاق لأن الحالة لا تتطلبها (تقرير ستيغ بتاريخ 29 يناير 1926)، ولكن تغلب بيتان آخر الأمر باسم الاتفاق مع اسبانيا، والتعهدات نحو السلطان، وعدم ترك اسبانيا وحدها متورطة في المشاكل حتى تقرر الانسحاب من الشمال الذي يصبح في هذه الحالة منطقة هيجان تهدد الوجود الفرنسي في المغرب وشمال افريقيا، وفي تقرير بيتان إلى بانلو في آخر شتنبر قال بيتان: «لا توجد غير وسيلة واحدة، هي احتلال القبيلة التي يعد ابن عبد الكريم قائدها وذلك لإكراهه على الاستسلام أو على الاختفاء، وبكلمة واحدة، يجب التوصل إلى

السلم دون ابن عبد الكريم». ولكن ستيغ لم يلق السلاح، ولهذا دخل في تسابق مع بيتان بمحاولة الاتصال بابن عبد الكريم بإيفاد كابرييلي المراقب المدني بتاوريرت والجنرال موجان، ونجح ستيغ في عقد مؤتمر وجدة، وبانعقاده اعترض الحل المقرر من قيادة باريس، وهو الهجوم الساحق الماحق المتفق عليه في يونيو 1925، وكان هدف الخلاف والتسابق بين الطرفين هو من يفوز الأول باستسلام ابن عبد الكريم، وفي نهاية الأمر كانت الغلبة لبيتان وأنصار الحرب العصرية بكل وسائلها الحديثة. وذلك بعد فشل مؤتمر وجدة.

وفي شتنبر 1925 بدأ هجوم الخريف بتدخل الطيران بشكل قوي وواسع غير معهود في الحرب الاستعمارية التقليدية في المغرب، فكانت سلسلة كثيفة من القصف تهدف إلى بث الرعب والإرهاب في السكان، وهكذا قصف الطيران شفشاون في 5 شتنبر 1925، واجدير في 6 منه، فأحدث هذا الرعب والفزع في السكان بشكل عظيم، حتى اضطر السكان إلى بيع مواشيهم بأبخس ثمن خوفاً عليها من الدمار، وتوالى قصف الطيران يومياً بوحشية نادرة للمدن والقرى في حرب الإبادة المخططة في باريس ومدريد، والهادفة إلى هلك الحرث والنسل على أوسع نطاق مستعملة أفظع وسائل التخريب والتدمير في العصر، ولم تشمل حرب الإبادة الفرنسية الاسبانية المحاربين فقط، بل حتى المدنيين من الشيوخ، والنساء، والأطفال، وكذلك الموارد والخيرات، وبما أن المساكن كانت مبعثرة فقد تركز قصف الطيران الحربي على الأسواق، والمواسم، وكل التجمعات، فكانت، كما أشرنا إليه سابقاً. وهكذا

اتخذت الحرب أفظع صور الوحشية التي لا يقدر عليها إلا أدعياء الإنسانية والمدنية من الأوروبيين المعتدين على المغرب باسم الاستعمار، وهذا ما يجب على الأجيال المغربية أن لا تنساه أبداً، وأن يسجله المؤرخون المغاربة حتى يبقى ذكره حيّاً في النفوس على تعاقب الأزمان.

وبالإضافة إلى وحشية القصف الجوي طوق الاستعمار المنطقة الثائرة بقيادة ابن عبد الكريم بحصار اقتصادي للتجويع والخنق، وتعزز هذا بتدابير صارمة استيلاءً على الأملاك، ومنعاً للتعامل، ونهب المواشي والمواد الغذائية بالنسبة لمنطقة الجهاد، وأخذ الرهائن، والنفي والترحيل، والإعدام للانتقام والمثال، وممارسة جميع أنواع الضغط، والقهر، والاضطهاد، وباختصار استعمال كل وسائل وأساليب ما يعبر عنه «بالحرب الثورية المضادة»، ولم تتورع كذلك عن ارتكاب جريمة الدفع بالمغاربة إلى التقاتل بينهم لصالح عدوهم المشترك الذي هو المستعمر المعتدي والمحتل.

وتجدر الإشارة إلى أن مجموع الطيران الحربي المستعمل في الريف بلغ 44 سرباً كما صرح بهذا من فوق منبر البرلمان في فاتح يونيو 1926 دون أن ينازع أحد.

والخلاصة، أنه لولا مشاركة طيران العدو ــ كما أشرنا إليها ــ ولولا إشراك مئات الآلاف (400) من «الحركات» القبلية المغربية في عمليات الأعداء لما استطاع المستعمرون المتحالفون أن

يتغلبوا على الثورة التحريرية التي طالما برهنت من قبل، مدة سنوات، على أنها حققت الآية الكريمة: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾، وهكذا سجل التاريخ من هزائم وكوارث الأعداء إلى الأبد ماغطى على خسران المعركة الأخيرة لثورة دخلت هي ورجالها إلى عالم الخلود مكللة بأكاليل النصر والفخار، والإعجاب والإكبار.

الفصل الثامن عشر

في طريق المنفى

لما التأم جمع آل الخطابي بتازة توجهوا ليلاً تحت الحراسة إلى فاس في فاتح يونيو 1926، وهنا نسأل: لماذا أُتي بهم إلى فاس، ولم يتركوا بتازة حتى يتوجهوا إلى المنفى؟ هل خشي على بقائهم بتازة التي شهدت أعنف المعارك بين الفرنسيين والمجاهدين، ولم يستطع الفرنسيون افتكاكها إلا باستعمال الغازات السامة التي سلطوها على خنادق المجاهدين؟ أو هل أريد بنقل آل الخطابي إلى فاس تدبير مكيدة سياسية ضد سكانها ليزدادوا بإقامتهم بينهم نحو ثلاثة أشهر تأكداً من انهزام واستسلام الرجل الذي كان أملهم في تحرير البلاد، والذي كان له فيها أنصار كثيرون، وحاول الاستيلاء عليها ليفكها من سيطرة الاستعمار؟ ولما وصل الأمير ابن عبد الكريم ومن معه لفاس أنزلوا بدار في حي الدوح هي عرست الإدريسيين، وضربت عليها الحراسة المشددة، وأقاموا فيها محاطين بالسرية التامة، فلا يتصلون بأحد، ولا يتصل بهم غير رجال السلطة الفرنسيين المكلفين بهم.

وفي 27 غشت 1926 نقل الأمير محمد بن عبد الكريم وحاشيته البالغ عددها 24 نفراً في مركبة خاصة ملحقة بالقطار

المتوجه إلى الدار البيضاء حيث وصل في الساعة الثامنة ونصف مساء، ودخلت المركبة الخاصة للمحطة البحرية في التاسعة وربع، وركب المنفيون في الباخرة (عبدة) التي أبحرت في الرابعة بعد ظهر اليوم التالي متجهة إلى مرسيليا، ورافق المسافرين الريفيين القبطان الترجمان «ساني» من إدارة الشؤون السياسية (الاستعلامات) بفاس، ووقتما كانت الباخرة تقلع من الميناء وقف في أعلاها الأمير محمد بن عبد الكريم ورفع يده إلى رأسه ليؤدي التحية إلى أرض الوطن، وليودع شعبه الذي جاهد مضحياً بنفسه وبكل عزيز عليه في سبيل خلاصهما وتحريرهما، وضارباً أعلى مثل للأجيال في الجهاد والبطولة.

ومن مرسيليا نقلت الباخرة «أميرال بيير» المنفيين إلى جزيرة لارينيون القريبة من مدغسكار.

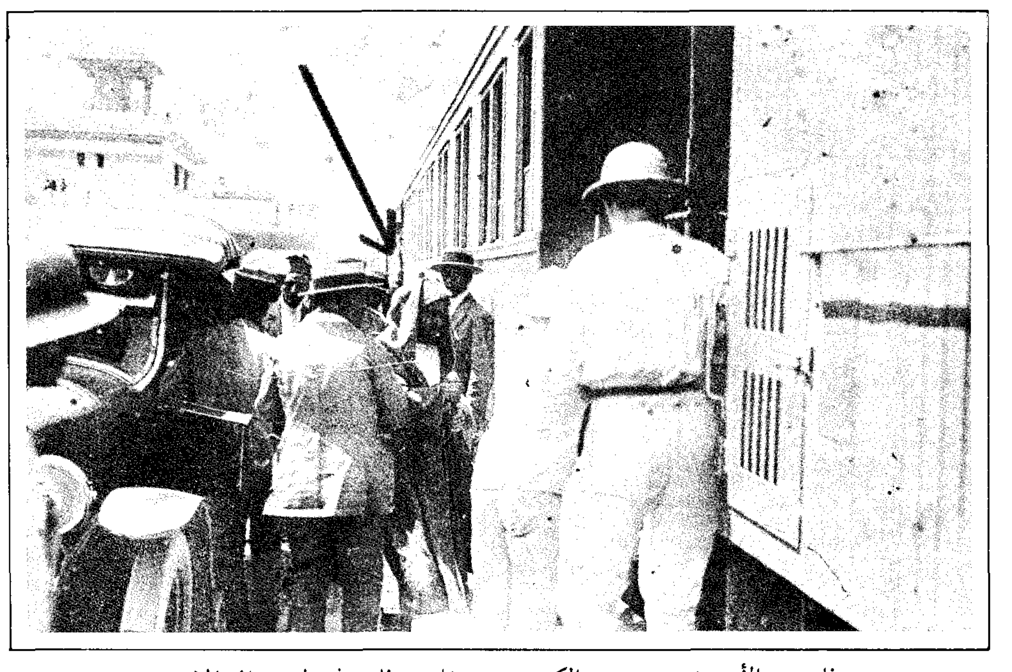
بعد نفي الأمير ابن عبد الكريم لم تتوقف حركة الجهاد ضد الإسبان، فإن عدداً من قادة الأمير استمروا في المقاومة على رأس قوات شجاعة ومستميتة بالرغم عن قلتها بالنسبة لقوات العدو، وقد اعتمدت على إيمانها وثباتها، وروحها البطولية، وكانت حركة الجهاد في هذه المرحلة حرباً يائسة، ولكنها جسمت إرادة الكفاح وقوة المعنوية، وعزيمة الدفاع عن كل شبر من أرض الوطن، وقام البرهان تلو البرهان في هذا المجال على أن المغاربة حققوا الخوارق في معاركهم ضد الأعداء الذين طأطأوا الرؤوس اعترافاً وإعجاباً، وقد ساعدت المجاهدين طبيعة الأرض في تحدي قوة العدو، كما

ساعدتهم خبرتهم الطويلة بحرب الأعداء، وتجربتهم القتالية منذ بدء الاحتلال والعدوان.

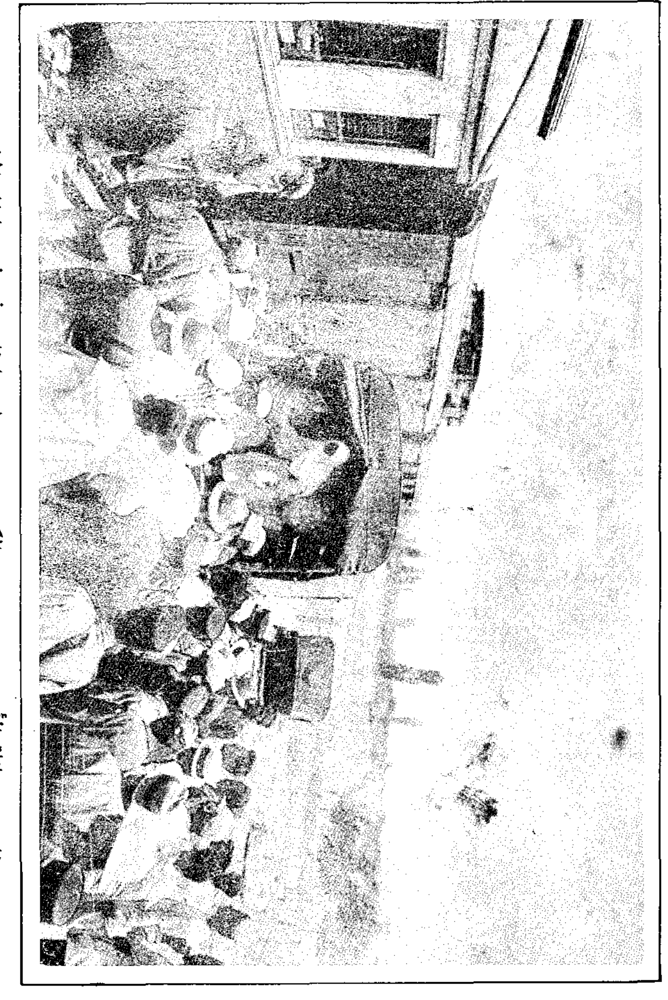
وأكبر قائد واصل المقاومة حتى الاستشهاد البطل أحمد بن محمد الحزمري الملقب بأخريرو، أبى أن يستسلم، فجمع قوة من المجاهدين في ناحية «جباله»، واعتصم بجبال غمارة حيث خاض المعارك مدة ستة أشهر، أي من مايو إلى نوفمبر 1926، وكانت حرب عصابات، وقتل في ساحة الشرف أثناء اشتباك مع الأعداء، فحمل أنصاره جثته إلى جبال بني عروص، حيث دفنوها على مقربة من ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش.

ومن أشهر القواد الذين خاضوا معه المعارك ـ بعد الأمير ابن عبد الكريم ـ الأخوان الحاج عبد السلام والحاج محمد التمسماني، وقد كانت بعض القبائل مستعدة للجهاد في سبيل استقلال البلاد، ولم يفت في عضدها نفي ابن عبد الكريم، ولا تحالف الأعداء، ولا تفوقهم المادي، وإنما كانت في حاجة إلى قادة في مستوى الأحداث، وقد وجدتهم في أولئك الرجال الصناديد وأمثالهم الكثيرين.

وسنترك هنا لمؤلف عسكري إسباني الحديث عن مواصلة حرب التحرير بعد ذهاب الأمير محمد ابن عبد الكريم.



فاس ــ الأمير محمد بن عبد الكريم عند مغادرته فاس في طريقه إلى المنفى



فاس – عائلة الأمير محمد بن عبد الكريم عند مغادرتها فاس في طريقها إلى المنفى

مواصلة الجهاد الوطني
عمليات صيف 1926 في غمارة وجباله والريف
(حركة المهاجرين)

«بقيت بعض قبائل الريف جنوب ترجيست لم تحتل، وهي قبائل (تحالف صنهاجة السراير). وإن التقدم الذي كان مقرراً نحو الغرب لا يمكن تحقيقه في مستقبل قريب دون توطيد الموقف بها.

استمرار مقاومة اخريرو:

وفي (جباله) استمر التمرد نشيطاً، قائمًا تحت رئاسة القائد العنيد: اخريرو، والرئيس الديني المتعصب مولاي أحمد البكّار والقائد الجبار: أحمد بودرة وزير حربية ابن عبد الكريم الـذي أخفى عن القبائل هزيمة واستسلام الريف، وبقي يشجعها على المقاومة.

وبقاء هؤلاء الثوار في حماية جبـال عظيمـة من السلسلة الوسطى بجباله، وهم محاربون أشداء كمحاربي الريف، مكنهم من القيام بمقاومة طويلة الأمد. ولإعـداد الهجوم على هذه المرتفعات الصلبة المهيبة، ذلك الهجوم الذي كان سيضع حداً للمعارك عند ربيع 1927 حسب خطط القيادة العليا، يتعين قبل كل شيء، احتلال وتنظيم القـواعد التي تسمـح لنا بـالاقتراب من هـذه المرتفعات».

. . . .

(في رسالة وجهها الجنرال القائد العام للجيوش الإسبانية إلى رئيس حكومته بتاريخ 24 يونيو 1926) :

«أما الوضع في المنطقة الثالثة (جباله) فهو يكون في هذه اللحظات حالة سياسية مضطربة، إن منطقة (جباله) كانت تكون دائمًا مشكلة تختلف عن مشكلة الريف، إلا أن النفوذ الكبير الذي استطاع أن يحرز عليه ابن عبد الكريم في جميع المناطق المتمردة بالمغرب خلق في نواحي (جباله) حالة من التبعية لهذا الأخير بواسطة مراقبين ورؤساء ريفيين كانوا ينوبون عنه. وقد أحدثت هزيمة ابن عبد الكريم في (جباله) كمظهر أول، حركة تمرد على ضغط الريفيين، إما بطردهم أو قتهلم، وباختفاء القيادة الوحيدة التي يزاولها اخريرو، وأحمد بودرة باسم ابن عبد الكريم، ولكن المساعي السياسية وحدها، لم تكن كافية للوصول إلى حركة استسلام واسعة.

لقد استقلت القبائل عموماً عن سلطة نواب ابن عبد الكريم، ولكن ظهر فيها ميل نحو الاحتفاظ باستقلالها وثورتها تحت قيادة رؤسائها. لقد اختفت الحشود الهامة والحراسة المنظمة، تجاه جبهتنا. ولكن من أجل الحصول على الاستسلام، يجب القيام بضغط عسكري. وقد عرضت للحالة السياسية لكل قبائل الناحية الغربية في تقريري الذي بعثته بتاريخ 17 يونيه، فلا حاجة لإعادة ذلك، غير أن صفوة الحالة عموماً هي كالآتي: اخريرو والبقالي (القرفة) من قبيلة بني سعيد، وأحمد بودرة الوزير الأسبق للحربية في حكومة ابن عبد الكريم، يوجدون في مراكزهم

صحبة قلة من الخارجين على القانون، وهم يرفضون الاستسلام.
وإن القبائل التي تظهر ميلاً نحو ربط علاقات بنا والاستجابة للعمل السياسي هي: بني يدر، وبني حزمار، وبني يسف، وبني زكار، ولكن دون أن تستطيع البت في ذلك ما لم تلحظ قيام حركة في العمق من جانبنا. وفي الأخماس فإن القائد ولد الفار أحد أصدقائنا القدامى الذي كان أسيراً عند ابن عبد الكريم، يظهر أنه يتمتع بنفوذ أكبر، وهو على اتصال بنا، ويؤكد على إمكانية إخضاعه القبيلة، إلا أنه يؤكد أكثر على وجوب القيام باتصال مباشر من جانبنا بالقبيلة».

. . . .

«اختارت القيادة العليا للقيام بهذه العملية (حركة المقدم Capaz) ليس فقط لقواتها وتشكيلها المركب من 1000 رجل، ولكن للمزايا الاستثنائية على الخصوص لقائدها، ولمعرفته الكبرى بمنطقة (غمارة) وعلاقات الصداقة التي تربطه بالقواد الأكثر نفوذاً في هذا التحالف، البقالي القرفة من (واد لاو)، واليزيد بن صالح من (بني رزين)، والبحياوي من (بني سلمان)، وحميدو عبد الوارث من (بني خالد) وابن حمان من (العلو الفوقي) (الأخماس العليا).

. . . .

«وحتى يوم 3 يوليه 1926» فإن الوضع ببني خالد لا زال متردداً نظراً للقتال الداخلي الدائر بها، وللموقف الأقل هدوءاً».

. . . .

«بتاريخ 6 يولية تصل إلى (الكومندان Capaz) أنباء مفادها أن أناساً من (بني حسان) و (بني سعيد) بمساندة هاربين من

القبائل الغمارية التي كانت لغاية وقته، خاضعة. لقد أحرقوا (قاع أسراني) و(ترغة) ـ عند الشاطىء ـ ويحاولون مهاجمة قبيلتي: (بني بوزرة) و (بني منصور) المجردتين تماماً من السلاح. بعد أن ترك الكومندان «كاباس» بخميس (تجكّان) مائتي رجل من (محلة تطوان) التي كانت تعز فرقته لمتابعة ضغطها على بني خالد بمساعدة القائد عبد الوارث، قام في يوم 7 بمسيرة شاقة وسريعة جداً قطع أثناءها مسافة 40 كيلومتراً هبط بعدها على (تيجساس) من أعالي جبال (بني سلمان)، قاطعاً في الوقت المناسب نشاط التمرد الذي أخذ يظهر في قبيلتي: (بني زيات) و (بني سعيد). وقد مكث في (تيجساس) عدة أيام لتدعيم الحالة ونزع السلاح من (بني زيات)، وتهيىء قاعدة صغيرة لمتابعة المسيرة نحو الغرب.

وبتاريخ 10 يوليه كانت نتيجة عمل المقدم/ (كاباس) بغمارة جذابة. لقد اكتسح منطقة فسيحة جداً دون أن يقذف طلقة واحدة. كما استسلمت قبائل: (متيوة)، و(مسطاسة)، و (بني سميح) و (بني جرير)، و (بني بوزرة) و (بني منصور)، و (بني سلمان)، و (بني زيات). وبدأ الاحتكاك ببني خالد القبيلة الأكثر رحابة والأقوى شكيمة في غمارة، نظراً لقربها من القبيلة الثائرة: الأخماس، ولموقعها كلها تقريباً، جنوب الحاجز الجبلي الكبير للخط الفاصل الذي يحميها».

. . . .

وفي يوم 20 يوليه، وصل (المقدم كاباس) لخميس (بني سلمان)، وفي اليوم التالي قام باحتلال (أميادي) ذلك المركز المختار

بكامل البراعة، تحت جبل (تيزيران) العملاق الغماري الذي لا يبعد كثيراً عن (باب برو) الممر الأكثر أهمية في الجبهة الغمارية، والذي يكون باب المدخل الآتي من شمال غمارة نحو الجنوب، أي نحو (بني خالد) و (الأخماس)».

. . . .

«وبفضل موافقة القائد اليزيد بن صالح من (بني رزين) الذي كان أكثر قواد ابن عبد الكريم بروزاً في المنطقة الغربية (وبالأخص أثناء الحملات على قبائل ورغة) والذي أصبح بعد استسلامه، أكثر مساعدينا فعالية، بفضله، أمكن تغيير خط التموين ومده من (رأس الصيادين) (Punta Pescadores) إلى (أميادي) عبر وادي (اورينكة) وجبال (بني رزين)».

. . . .

هجوم اخريرو على (واد لاو):

«ومن جديد يهاجم ثوار (بني حسان) و (بني حزمار)، (واد لاو) تحت قيادة اخريرو، في نفس الوقت الذي حاول ثوار (بني خالد) و (الأخماس)، تطويق (أميادي) واكتساح غمارة».

. . . .

«إن القيادة العامة في تطوان، تبعث على وجه السرعة بتعزيزات إلى (واد لاو)».

. . . .

«بعد أن طردت فرقة «كاباس» ثوار بني خالد عن (أميادي) في معارك صغيرة، قامت بتهدئة هذه المنطقة، وتركت هناك طابوراً

من الجند. ثم شرعت في المسير نحو الغرب في يوم 2 غشت. وبعد أن تجتاز (باب برد)، تسير بمحاذاة جبل (تيزايران) وجبل (العناصر) ثم تقوم بتطويق الربعين الثائرين: ربع (بني دركول) وربع (بني فَلْوَط) من قبيلة الأخماس، ثم تحتل جبل (القلعة)، وتهبط بشكل مفاجىء على شفشاون، داخلة المدينة يوم 10 غشت، ملتقية بذلك ــ كما سنرى بعد ــ بالقوات الآتية من تطوان.

بهذه الصورة تمت (غارة كاباس) على غمارة، تلك الغارة التي تكون أحد الأطوار الأكثر جمالاً في عملياتنا لسنة 1926 و 1927، والتي ستبقى مثالاً يحتذى لمثل هذه العمليات. ففيها تكامل بكامل المهارة، النشاط السياسي مع الضغط العسكري الذي لم يكلف غير بعض المعارك، وغير السرعة والبراعة من جانب الفرقة، وبذلك وقع إخضاع عَشْرٍ من القبائل بحيث لم يبق ثائراً في غمارة غير قبيلة (بني خالد). وقد جمع خلال هذه الغارة 2788 بندقية، كما أقيم الاتصال من جانب الشاطىء بالمنطقتين الغربية والشرقية من محميتنا».

. . . .

«وفي إقليم (جباله)». . . «فإن التمرد أصبح سيد الموقف في الجبال كلها، مرتكزاً في العمود الصخري الذي هو امتداد لجبال غمارة، والذي يتشكل من جبال (تارية) و (تنغاية) و (الخزانة) و (كركر) و (السَّكْنة) و (بو هاشم)، و (جبل العلم). وهذه السلسلة من الجبال تكون في جبالة الحد الفاصل المائي بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي».

. . . .

«وفي تطوان، كان التفكير في التقدم نحو شفشاون، يعتبر أمراً لازماً من طرف القيادة، وذلك قبل قدوم فصل الأمطار».

. . . .

(وفي رسالة موجهة من طرف الجنرال «سانخورخو» إلى رئيس الحكومة الإسبانية بتاريخ 29 يوليه، يشرح فيها خطته على الشكل الآتي):

«. . . وفي شهر غشت تتقدم قوات من العرائش نحو (المشرع) حسب الخطة المذكورة سابقاً، وذلك بقصد الاتصال بالقائد ولد الفار، وبقبيلة الأخماس، مع محاولة استئناف الزحف من هناك على شفشاون. وفي نفس الوقت يقع التقدم من تطوان على شكل وثبات نحو (الزينات) و (الرملة) و (سوق اربعاء بو حسان) إذا كان الوضع مواتياً بشكل محقق. . .».

. . . .

(بتاريخ 31 يوليو، يسهب الجنرال «سانخرخو» في تفاصيل الخطة التي يقترح تنفيذها في رسالة سياسية أخرى على الشكل الآتي:

«عندما وقع حل مشكلة الريف بقيت مطروحة أمامنا من أجل التهدئة الشاملة وإنهاء احتلال منطقتنا، مشاكل ثلاث ذات مظاهر مختلفة: جباله، وغمارة، والقبائل المتوسطة جنوب غمارة (صنهاجة السراير، وكتامة، وبني أحمد. . . الخ).

وطبقاً للمخطط الذي رفعته إلى الحكومة، والذي صودق عليه، فقد بدأت القيام بنشاط سياسي عسكري في نواحي (جباله) و (غمارة) والذي نتج عنه استسلام ونزع سلاح جميع قبائل

التحالف الغماري، و (بني سعيد) و (أهل سـريف)، وبعض «الفخذات» من (بني يسف) و (بني يدر)، و (بني حزمار) في جبالة، مع ربط علاقات بجزء من (الأخماس).

وفي الوقت الراهن، ونظراً للهياج الحاصل في (جباله) من طـرف بعض الثوار ذوي العنـاد، وعـلى الأخص: اخـريـرو، وكورطيطو، ومولاي أحمد البكّار، وفي (بني خالد) و (كتامة) من طرف عصابات الفارين من الـريف والمنطقـة الفرنسيـة، تلك العصابات التي يحاول تنظيمها الشريف المكي الوزاني (أحد أقرباء الشريف الحميدو صاحب سنادة)، نظراً لكل ذلك، فإن العمل السياسي، يلاقي عراقيل كبرى، الأمر الذي يستوجب مساندته بنشاط عسكري إذا كنا نريد تجنب قيام ثورة ضدنا في (جباله) وجنوب (غمارة). . . ويتعين زيادة على ذلك العمل بكامل السرعة والقوة قبل الشتاء الذي يمكن أن يشل حركتنا. وهذا ما دعاني إلى اتخاذ قراري الذي صادقت عليه الحكومة، وهو: البدء في طور من العمليات التي تبدأ بنشـاط مركـز آت من تطوات، و (تيفـر) و (واد لاو)، ينصب على شفشاون طبقاً للمخطط العام الموضح في برقيتي بتاريخ 29 من الشهر الجاري. ولهذا الغرض أقترح القيام بهجوم من تطوان بواسطة ثلاث فرق على: (دار الراعي)، و (دار ابن قريش)، في اتجاه (سوق اربعاء بني حسان)، وذلك في وثبة أولى لغاية (ترانس)، وفي نفس الوقت، التحرك بواسطة قوات (المخزن) على (بني يدر). ومن (تيفر) يقع الزحف نحو (المشرع) من أجل الاتصال المباشر بالأخماس حيث يوجد القائد ولد الفار في

جانبنا على ما يظهر، وأنا أقوم الآن بتركيز (حركة) في (واد لاو) مركبة من 500 ريفي من المحاربين الأشداء الذين جرى تجنيدهم طوعاً في بني ورياغل تحت قيادة الكومندان (LoPez-Bravo)، والذين يساندهم ويقودهم (Capaz) بحركته. . .

. . . .

أما ما يخص (غمارة) و (بني خالد) فإن الجنرال (Castro) سيقوم انطلاقاً من جبهته، بترجيست و (بني كميل) بنشاط سياسي ، وبحركة ريفية أخرى، بهجوم على (بني سدات) وشمال (كتامة)، مدشناً بذلك عملاً مركزاً أقامر فيه بحركتين من رجال الريف. . . حيث أرى أن ذلك من شأنه أن يحدث مفعولاً مادياً ومعنوياً هائلين، إذ أقدّر أنه سيكون من أحد انتصاراتنا السياسية الكبرى، الوصول في ظرف شهرين فقط، إلى مشاهدة الورياغلين، وهم يحاربون في جانبنا، أولئك الذين كانوا يعتبرون لغاية الآن، أعداء لا يمكن إخضاعهم لنا».

. . . .

«بعد إقرار الهجوم على شفشاون بموافقة الحكومة الإسبانية، بدأ الزحف يوم 2 غشت».

«وفي يوم 10 غشت 1926، احتلت فرقة الليوتنان كولونيل (Capaz) مدينة شفشاون، وفي يوم 11 منه، قامت بنفس الدور فرق تطوان، إحدى طلائع فرقة (Asencio) بقيادة (Castello). وفي هذا اليوم، قام الجنرال (Sanjurjo) بدخوله الظافر إلى مدينة شفشاون صحبة معسكره العام، بعد أن استسلمت بصفة كاملة كل من

قبائل (بني حـزمار) و (بنتي حسـان)، وربع (بني جبـارة) من (الأخماس).

وفي الناحية الشرقية بعد إنهاء معارك الربيع من سنة 1926؛ والوصول إلى خط: قلاع بادس ــ ترجيست، بقي في الجنوب والغرب، تحالف قبائل (صنهاجة السراير)، وقبيلة (بني سدات)، و (كتامة) في حالة توقع وتوجس، مكونة بذلك علامة استفهام كبرى. وقد أصبح من اللازم توضيح الموقف لتبيين الحالة.

وقد استطاع الجنرال (Castro Girona) القائد الأعلى لمنطقة مليلية بمهارة، وبواسطة المساعي السياسية لمصلحة المراقبات بالمنطقة الحصول على صداقة أسرة الشرفاء الخمالشة الذين كانوا يمارسون نفوذاً روحياً وسطوة لا ريب فيها بالمنطقة، وعلى الأخص منهم الشريف سيدي محمد الفلاح ابن محمد الكبير».

. . . .

«ابتداء من تاريـخ 22 غشت، أخذ المـوقف يبدو أكـثر صعوبة، إذ رفضت قبيلة (كتامة) تحت ضغط نواة ضخمة من هاربي الريف، الخضوع. وفي (غمارة)، قامت خلية أخرى من الفارين تضم أكثر من 1000 بندقية برئاسة القائد محمد التمسماني، ومسـاندة ثـوار (بني خالـد)، بالهجـوم على فـرقة (Capaz) في (تلاريحان) جنوب (تمروت)، وفي نفس الوقت قامت خلية أخرى من ثوار (الأخماس) وجنوب غمارة، بالهجوم على كوكبة صغيرة من قوات (Capaz) في (بني بو جلو) من (بني سلمان)».

. . . .

«إن الوضع الكومندان (كباس) في جنوب (غمارة) قد أصبح مضغوطاً من جانب عدو يفوقه عدداً، وقد وصل حداً من الصعوبة بحيث أمضى لحظات جد حرجة يومي 10 و 11 من شتنبر عبر عنها في البرقيات المستعجلة التي بعثها إلى القيادة يطلب فيها النجدات والذخيرة».

. . . .

(وابتداء من 15 شتنبر) أصبحت وضعية فرقة «كباس» أشد صعوبة وبرقياته أكثر استعجالاً، وقد استنتجت القيادة بأن مقامرة خطيرة تحدث من جديد في (غمارة) فلجأت بكامل السرعة إلى إغاثته، وبعثت 100000 خرطوش بواسطة الطيران الذي قام بمساعدة الطيران الفرنسي بقنبلة (بني خالد) و (كتامة)... كما عززت فرقة «كباس» بـ 1500 رجل خلال ثمانية وأربعين ساعة».

. . . .

«وفي يوم 12 شتنبر، انجلى موقف الفرقة شيئاً ما».

. . . .

«وتتويجاً للعمل المنجز ابتداء من ماي لغاية شتنبر، قام الجنرال (Sanjurjo) صحبة رئيس القيادة العليا الجنرال (Goded)، وبمرافقة كتيبة واحدة لا غير من اللفيف الأجنبي (Tercio) كحرس، بأول جولة أرضاً من تطوان إلى مليلية، ماراً بجميع المناطق المستسلمة، مدعماً بصفة عملية، الوحدة المحققة بين المنطقة الغربية والمنطقة الشرقية».

. . . .

«في ظرف خمسة أشهر فقط، كسر تكتل القبائل الثائرة التي ساندت نفوذ ابن عبد الكريم، وجرى القضاء على هذا الأخير وإخضاعه. ومن جملة 66 قبيلة التي تشكل منطقة الحماية الإسبانية، والتي لم تكن خاضعة فيها عند بداية العمليات غير 14 قبيلة كاملة، و 11 قبيلة أخرى لم تكن خاضعة إلا في أجزاء منها، أصبح الخاضع منها عند نهاية العمليات 55 قبيلة بصفة كاملة، وسبع بصفة جزئية، أي أنه خلال هذه المدة، وقع احتلال 37 قبيلة احتلالاً كاملاً، واحتلالاً جزئياً لأربع قبائل أخرى. وأخذ من العدو 28488 بندقية، و 135 مدفعاً، و 8 مهاريس (Mortiers) و 240 رشاشة، وكمية هائلة من الذخيرة والمواد الحربية الأخرى. ومن أجل ذلك، لم يقع الإتيان بقوات أخرى من شبه الجزيرة فقط، بل على العكس أعيد إلى الوطن منها خلال العمليات 20 كتيبة و 11 بطارية وبعض الوحدات الأخرى، كما سرحت دفعات الاستبدال لسنة 1923 التي عملت بالمغرب لأول مرة أقل من ثلاث سنوات، كما وقع التهييء لإعادة 20 فرقة أخرى قبل انتهاء السنة».

وقد لقي تنظيم هذه (الحركة) غير واحد من العراقيل في طريقه، لأن البعض بداله أن إعادة تسليح بني ورياغل بعد مرور أشهر قليلة على إخضاعهم ونزع أسلحتهم، يشكل خطراً؛ ولكن هؤلاء لم يكن في حسبانهم الظروف التي كان عليهم أن يعملوا داخلها بعيدين عن قبيلتهم، وتاركين تحت رحمتنا ونفوذنا عائلاتهم وأراضيهم».

. . . .

«في شهر نونبر، وبعد تشكيل (حركة «لويس برافو»، قرر الجنرال «سانخورخو» اكتساح وإخضاع قبيلة (بني يدر)، التي كانت بموقعها القريب جنوب الطريق الذاهبة من تطوان إلى طنجة، تكون خطراً على ضمانة المرور في هذه الطريق، والتي كانت بلاداً للصوص وقطاع الطرق، وللفارين من القبائل الأخرى. هذه القبيلة التي لم تعاقب بعد، والتي كلفت قواتنا خسائر محسوسة عند تقهقرها سنة 1924 عندما فرضت شروطاً قاسية وثقيلة على الجنرال (Prino de Rivera) للسماح بخروج حامية (بوحراث).

ولاكتساح قبيلة (بني يدر) هذه، شكلت ثلاث فرق: اثنتان من القوات العسكرية كان عليها القيام بتطويق القبيلة والهجوم عليها من ناحية الشرق والغرب، وثالثة من القوات الخليفية (الحركة) كان عليها أن تجتاحها وتقطعها من الشمال إلى الجنوب».

. . . .

«كان على رأس الثوار، القائد أحمد اخريرو»...

إستشهاد اخريرو بتاريخ 3 نوفمبر 1926 :

«لقد احتلت فرقة الميسرة (أخياط) بكل سهولة، وعند بلوغ نواحي (كدية السبيت)، وقع صدام عنيف جداً مع إحدى خلايا العدو التي توقفت عن إطلاق النار فجأة، وانسحبت بسرعة فائقة دون سبب ظاهر. وبعد ذلك بقليل، حضر إلى (السبيت) أمام

الجنرال «سانخوخو» والمؤلف، شيخ ربع (بني شراح) الذي أوضح لنا السبب. لقد لقي (اخريرو) مصرعه في ذلك الاشتباك، ونقل جثمانه إلى (جبل العلم) للقيام بدفنه بمثل مايستحقه من الإكرام... وهكذا أنهى حياته بسقوطه بكل بسالة على رأس رجاله الأشداء، ذلك القائد المتحمس العظيم الذي كان فيما مضى راعياً عند الريسوني، بل عند الحرطيطي، والذي بلغ بشجاعته شهرة عظيمة وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره».

. . . .

«لقد كان العقاب المفروض على قبيلة (بني يدر) جد قاس، كما كانت شروط الاستسلام قاسية أيضاً: فقد أحرقت عدة مداشر لمقاومتها، وأغير على القبيلة كلها، بحيث استولت (حركة بني ورياغل) على أكثر من 6.000 رأس من الماشية في قبيلة بني يدر واشترط عليها تسليم 1000 بندقية.

إن الأثر المعنوي الذي أحدثه عقاب قبيلة (بني يدر) بالإضافة إلى موت (اخريرو) كان عظيماً بين القبائل المجاورة. وهكذا دخلت قبيلة بني عروس في مفاوضات».

. . . .

«وفي 17 يناير 1927، قامت القوات الخليفة للعرائش دون مقاومة تذكر، وبواسطة المساعي السياسية لا غير باحتلال مرتفعات (بني كُرفط) وبذلك استسلمت هذه القبيلة، ووقع الشروع في الإعداد لمحاصرة قبيلتي (بني عروس) و(سوماتة)».

شتاء سنة1926 ــ1927 :

«بانتهاء (غارة كباس) على (غمارة)، والنشاط السياسي العسكري بـ(صنهاجة السراير)، وبإخضاع قبائل الحلفين معاً باستثناء قبيلة (بني خالد)، وقعت السيطرة على جميع منطقة (غمارة) شمال الحد الفاصل المرسوم على طول خط: القلعة ــ تيسوكة ــ العناصر ــ تيزيران.

وأن الانسحاب من جديد نحو الشاطىء الغماري، وإهمال قبائل (كتامة) و(صنهاجة) بالرجوع إلى الخط العسكري: قلاع بادس ــ ترجيست، ضيع علينا جزءاً من المزايا التي حققناها بالريف وغمارة؛ إذ أن الفارين من اللاجئين بالأخماس العليا وبني خالد والجنوب الغربي من كتامة برئاسة القائد: الملي من (الأخماس) والقائد محمد التمسماني، والقائد الحياني، والقائد الليل من (كتامة)، وهذا الأخير هو خصم ومنافس للقائد: التُّولُوذ المناصر لقضيتنا. إن هؤلاء الفارين، بالاتحاد مع القبائل الثائرة: (الأخماس) و(بني خالد) و(بني أحمد السراق)، اجتاحوا على وجه السرعة القبائل التي كانت قد استسلمت دون احتلال، وساقوها عن رضى أو بالقوة نحو الثورة».

. . . .

«وفي (جبالة)، وبعد احتلال شفاشاون و(تَنَقُوب)، فإن التمرد بقي محصوراً في جيب مشكل من القبائل الثائرة لبني يدر، وبني عروس، وبني ليت، وبني كَرفط، وبني يسف، والأخماس؛ ولبث الثوار يركنون إلى العمود الفقري الأوسط لأعالي جبالة.

وكمركز لنشاطهم الرئيسي، اختاروا (جبل العلم)، ذلك الجبل المقدس».

. . . .

حركة(Lopez Bravo) :

«عند هذا الحد، أرادت القيادة العليا لتطوان، خلق أداة حربية تمكن من إجراء العمليات الشاقة لفصل الشتاء بأقل وهن ممكن لقواتنا النظامية. ومن أجل هذا الغرض، فكرت في تشكيل (حركة) مساعدة من محاربي بني ورياغل التي ستكون في طليعة جيوشنا كقوة اصطدام لاجتياح وعقاب القبائل المصرة على الثورة، والتي بفضل شهرة وشجاعة محاربي بني ورياغل المكتسبة، ستشكل قوة نافذة لإرغام القبائل المترددة. وفي نفس الوقت، يمكنها أن تمنحنا بمنطقة جبالة نفوذاً هائلاً عندما يشاهد محاربو ابن عبد الكريم وهم يقاتلون بجانبنا، أولئك الذين كانوا أعداء لنا قبل ذلك بأشهر.

ولتنظيم هذه (الحركة)، ثم تعيين المقدم (Lopez bravo) من مراقبة تطوان».

. . . .

«وللقيادة الأهلية لهذه (الحركة)، وكقائد للقواد، اختير قائد بني ورياغل: علوش بن محمد الشدي أحد القواد الأكثر وفاء لابن عبد الكريم حتى آخر لحظة، والذي لم يستسلم إلا بعد معركة 29

يونيه بسوق أحد (تيزار)، تلك المعركة التي كانت آخر حركة للمقاومة ببني ورياغل».

. . . .

«وقد اختير لتشكيل هذه (الحركة) 15 قائداً من قواد المائة لابن عبد الكريم الذين كان على كل واحد منهم أن يجند مائة من جنده كمتطوعين التزموا بالخدمة لمدة ثلاثة أشهر، بحيث يجدد هؤلاء 1500 رجل مرتين خلال هذه العمليات التي خسرت فيها أكثر من 900 رجل».

. . . .

«لقد تطورت في (كتامة) و(صنهاجة) خلال شهري مارس وأبريل من سنة 1927 أحداث مهمة من جراء ارتداد بعض القبائل الخاضعة والمجاورة لخط دفاعنا، والتي بلغت حداً من الخطورة الحقيقية كاد أن يقضي على التطور الطبيعي الذي حصلت عليه الحملة لو لم تقم القيادة العليا بتطوان بإغاثة سريعة. لقد أعطينا شرحاً وافياً عن خاصية المرونة التي اتصفت بها الجبهة الغمارية والصناهاجية نظراً لعدم القيام بالاحتلال العسكري للقبائل الخاضعة من هذين التحالفين خلال فصل الشتاء. وحيث إن القبائل الخاضعة المجاورة لخط دفاعنا، والتي لم تكتسح عسكرياً، لم تكن توجد بها أية حماية ثابتة وراء المراكز المحصنة، بحيث كان عليها أن تتكبد غارات الفارين والثوار من القبائل المجاورة، كان يجب أن يترك لها جزء من السلاح لتنظيم (ايدالات) برئاسة القواد المناصرين لنا، الذين كان عليهم أن يدافعوا عن الجبهات طيلة فصل الشتاء، بالاستناد إلى مجموعات من القوات الخليفية الرابضة

إلى الوراء على نقط مناسبة. وفي غمارة، فإن الحصول على صداقة قواد أكثر نفوذاً وشهرة من طرف اليوتنان كولونيل «كبَّاس»، سمح ببقاء الجبهة سالمة طيلة الشتاء.

وعلى العكس من ذلك في (كتامة)، فإننا لم نستطع الحصول على أكثر من تعاون القائد التولوذ المخلص الشجاع. غير أن نفوذه لم يتجاوز الجزء الشمالي من القبيلة. أما القائدان: الليل، والحياني، فقد رفضا الخضوع، وجرا معهما إلى الثورة جزءاً من هذه القبيلة. وهذا الوضع أُحسن استغلاله من طرف القائدين: التمسماني، وابن نوح اللذين كانا يقودان جماعة (الفارين من الريف) الذين استمروا على تمردهم في (بني خالد) بالاتصال مع القائد الملي من (الأخماس العليا) وهكذا تمكنوا من تشكيل خلية من الفارين ذات عدد متغير حسب المساندة العرضية التي كانت تُمُدُّهُم بها القبائل التي لا تزال ثائرة من غير أن يتجاوزوا 1000 بندقية، يقودهم: المقدم التمسماني، وابن نوح، والملي، والليل، والحياني والقائد مُحَنْد، ازداد فيها بعد، وهو أحد قواد الألف لابن عبد الكريم الذي قاد صحبة بوحوت، الهجوم على (البرانس) و(التسول) المنطقة الفرنسية سنة 1925، والذي بعد أن استسلم لنا استطاع أن يلحق في شهر مارس بالثوار. وأخيراً، تحت رئاسة الشريف سيدي محمد بن علي أخمليش (السليطن) الذي ارتد هو أيضاً، حسداً من ابن عمه، الفلاح أخمليش عندما رأى النفوذ الممنوح له من طرفنا. ونظراً لمكانته كشريف، استطاع الوصول إلى رئاسة هذه الخلية من الفارين. لقد استطاعت هذه الخلية من الثوار التمركز في الجزء

الغربي والجنوبي من (كتامة). وفي ليلة 5 إلى 6 فبراير، قامت بأول استعراض لوجودها بالهجوم على (ايدالة) القائد التولوذ في (وحشيد) غرب (كتامة)...».

. . . .

«كانت القوات المحتلة بـ(كتامة) بقيادة القبطان (Ostariz) في هذا التاريخ مشكلة من جماعة من (ايدالة) صنهاجة السراير بقيادة القبطان (Sanchez Pèrez)، ومن (ايدالة) القائد التولوذ من (كتامة)، وطابور من (حركة مليلية)، وطابورين للمشاة، وآخر للفرسان من (المحلة رقم 5) ومن وحدات ناقصة للخدمات الصحية والإمدادات، والاتصالات (الراديو) والتموين بلغ مجموعها 1947 رجل».

. . . .

«وقد بعث القائد العام بتاريخ 8 مارس البرقية الآتية إلى القائد الأعلى بمليلية:

«ظهور جماعات العدو في الجزء الجنوبي لكتامة، يمكن أن يشكل خطراً على مراكزنا جنوب (صنهاجة السراير) في (بَرَّانْتْ) و(أَدْمَان) و(زِرْقِت). لذلك يجب على سيادتكم أن تضعوا مجموعة لا تقل عن طابور من القوات الحليفية أو القوات الخليفية أو القوات النظامية (Regulares) كإحتياطي لمراقبة هذه الجبهة من مكان يمكنها منه الحضور في أقرب وقت يطلب فيه منها مساندة هذه المراكز».

. . . .

واقعة (وَرْطِيط):

«في الخمسة عشر يوماً الثانية من شهر مارس، بدأت في الظهور من جديد، مجموعات صغيرة من الهاربين جنوب (كتامة) وفي نواحي (تغزوت) وفي يوم 18 منه، استقبل في تطوان نبأ خروج الشريف (السليطن) أخمليش من قبيلته، وانضمامه إلى الثوار صحبة بعض الأنصار من عائلته. وفي يوم 26 منه، استقبلت الأنباء الأولى عن ارتداد قبيلة (تغزوت).

لقد كان قائد (تغزوت) سيدي أحمد، صديق (السليطن)، يعد من غير شك ولمدة طويلة لهذا الغدر باتفاق مع هذا الأخير.

كانت قبيلة (تغزوت) الواقعة على خط جبهتنا لـ زرقت ـ (أدمان) ـ (تبرانت) قد احتفظت بعد استسلامها بجزء من أسلحتها من أجل الدفاع. وبحجة تهدئة النفوس وضمان الاستسلام، وطلبت إقامة مركز عسكري بالقبيلة؛ فلم يكن أمام قائد موقع مليلية إلا أن يبعث بكتيبة من الجند النظاميين (Regulares) من مجموعة مليلية بقيادة الملازمين: (Ortega) و (Diaz De La Serrana) قدمت القبيلة مراسيم الضيافة لهذه الكتيبة في القرية الهادئة الحالمة (ورطيط)، الطبيعة في هذه القبيلة باهرة الجمال: الوادي خصيب، ملء بأشجار البرتقال وأزهار الليمون، غني، مصنع، رجاله فنانون جديرون بالذكر يقومون بصناعة الجلد والخشب. وفي الأعالي على مسافة ساعتين مشياً، توجد القمم المغطاة بالأرز والثلج من جبل (تدغين) وجبل (اغروزن) التي تكون خلفية ساحرة، وصبغة ناعمة خضراء لهذا الوادي.

في هذه الطبيعة الوديعة الباسمة، وقع بتاريخ 26 مارس الهجوم الغادر، لقد قام رجال هذه القبيلة برئاسة قائدهم سيدي أحمد وخلية مركبة من 300 فار بقيادة (السليطن)، والقائد ابن نوح أحد أقرباء التمسماني، بهجوم مباغت على مركز (تغزوت) يحملون قنابل يدوية. قامت قوات الجيوش النظامية (Regulares) بالدفاع بكل بسالة. وفي هذا الدفاع لقي مصرعه الملازم (Ortega) كما سقط الملازم (De La Serrana) جريحاً في حوزة العدو، ولقي حَتفه فيها بعد كما يموت الشهداء، ولم ينج من هذه الغارة، إلا جندي واحد فقط من الأهالي هو الذي أبلغ نبأ الحادث إلى مراقبة (أدمان).

ها هم أولاء 71 من الأعداء يرقدون فيما بين قتيل وجريح أمام المركز، ومن بينهم: ابن نوح. أما المدافعون عن المركز، فقد هلكوا جميعهم، إلا أن كل واحد منهم قبض ثمناً لحياته، حياة أحد أعدائه. لم تكن هذه التضحية عقيمة، كما لم تكن مثيلتها عند استشهاد (Ostariz) بعد ذلك بأيام».

. . . .

موقعة (تَبَرَّانَتْ):

«بتاريخ 28 مارس ركب الجنرال قائد الموقع متن الطائرة إلى الحسيمة رفقة الجنرال رئيس قيادته العليا، للقيام بالإشراف بنفسه على العمليات العسكرية بـ(صنهاجة) و(كتامة) و(غمارة)، بعد أن ترك أعمال التعزيزات للمنطقة الغربية قائمة، وبعد أن أمر

العقيد «كياس» بأخذ طابورين من فرقته للقيام بنشاط في قبيلتي (بني كَثيل) و(بني سدات) اللتين بدأ الاضطراب يسودهما، وذلك بقصد ردعهما، وتأمين مؤخرة كتيبة (Pozas) عند ذهابها من (كتامة) إلى تغزوت).

وعند وصوله لقلعة المحروق Quemado Cala (Villa Sanjurjo) فيما بعد (الحسيمة حالاً)، أحاطه قائد الموقع علماً بالمصيبة التي حلت يوم 27، بالكتيبة الصغيرة للقبطان (Ostariz) عندما حاول إغاثة موقع (تبرانت) لقد خرج من (ترجيست) القبطان (Ostariz) في طابورين من (المحلة) في فجر يوم 27. وعند وصوله إلى (ادمان) دون مشقة، علم بوقوع الهجوم على مركز (تبرانت)، فانقض منساقاً بروحه المتسرعة، وبأحد الطابورين فقط لغوث (تبرانت)، تاركاً الطابور الثاني وراءه صحبة بقية القافلة. وعند وصوله إلى (تبرانت)، وجد المركز مهجوراً لانسحاب حاميته إلى المنطقة الفرنسية أمام ضغط العدو؛ بينما تدخل العدو بين الطابورين وهجم عند فج (أوتيل) على الطابور الثاني. وعند تراجع (Ostariz) لنجدته من (تبرانت)، هجم العدو عليه بصفة مباغتة، فلقي حتفه بشجاعة القبطان (Ostariz) على رأس قواته، وكذلك الملازمون (Cuevas) و (Aleman) و (Castell) و (Primo Ruiz) مع سقوط 245 جندياً من قوات الأهالي. أما بقية الطابورين صحبة القبطان (Valdès) والملازمين (Antonio) و (Alba) ، وهم الضباط الذين بقوا على قيد الحياة، فقد انسحبوا بألم وحسرة إلى (آدمان)».

. . . .

«بعد دراسة الحالة التي خلفها ارتداد قبيلة (تغزوت) ودخول العدو إلى (صنهاجة)، أدركت القيادة خطر الموقف، فقررت منذ ذلك التاريخ ألا تقوم بأي نشاط، قوات قليلة يمكن للعدو المتغطرس من جراء انتصاراته الجزئية الأولى، أن يطاردها، بل يجب التوقف عند (ادمان) لتحصين هذا المركز، والبقاء هناك وبـ(تاينزة) لغاية جمع نجدات مهمة تؤلف منها حشود للعمل بهاتين النقطتين اللتين تسمحان بالقيام بعمل مركز على (تغزوت) بقوة ضاربة كافية ونصر مضمون».

. . . .

(في إحدى المكالمات الهاتفية للمؤلف الجنرال «ڤودِيد» مع الليوتنان كولونيل (Aranda) ليلة 28 مارس، يخاطب الجنرال «ڤوديد» العقيد «أراندا» قائلاً:

«يجب أن يحاط «كباس» علمًا بأن الأمر هنا يصير بكيفية معقدة، إذ ابْتُلِع طابوران من (المحلة)، فيجب عليه أن يحضر في أقرب وقت صحبة طابوريه وقوات من مراقبات متيوة و(بني رزين) وبمساندة سياسية من جانب القائد أكويس... لردع هؤلاء القوم ونزع أسلحتهم بكل ضراوة، وإقامة طابور على وجه السرعة في (إِغْمَاض) لضمان سلامة مؤخرة (Pazas) مع إمكانية استبدال الطابور المقيم هناك الذي أصبح استبداله ضرورياً...

إن السرعة وحدها هي التي يمكنها أن تنقذ الموقف...».

«بتاريخ 31 مارس، وفي ظرف خمسة أيام، تمكنا من التمركز في «ترجيست»، وتوزيع أكثر من 5000 رجل على فرقتي (Mola) في

(ادمان) و(Pozas) في (تايْنَزَة). وبالإضافة إلى ما كان بهذين المركزين من القوى أصبح الكل يشكل حشداً مكوناً من 10.000 رجل من قوات الالتحام، مستعدين للتدخل في أي وقت».

وأثناء ذلك، وبتاريخ 29، استطاع الكولونيل (Mola) أن يحقق الوصول إلى (ادمان) قائداً ببراعة فائقة فرقته عبر ذلك الميدان الصعب أثناء الليل. وفي يوم 31 حاول العدو عند (زرقت) أن يقطع حبل اتصال فرقة (Mola) بترجيست، مغيراً على مركز (سيدي مسكين). ولكن قافلة خفر للتعزيزات، خرجت من (ترجيست) تحت قيادة العقيد (Rada) من فيلق اللفيف الأجنبي (Tercio)، فوصلت إلى (زرقت) في وقت مناسب لإحباط ذلك الهدف».

. . . .

من أجل القضاء على صنهاجة وكتامة:

«بعد أن يتطرق المؤلف للتعاون الفرنسي الاسباني الذي كان موضوع المباحثات التي قام بها الكولونيل (Gendre) رئيس القيادة العليا للقوات الفرنسية بالمغرب في الحسيمة، أتى بنص للأمر العسكري رقم 1 الذي بعث به القائد الأعلى للجيوش الاسبانية بأفريقيا، إلى قائد موقع مليلية يتضمن خطة القضاء على (صنهاجة) و(كتامة) و(تغزوت)، وذلك بتشكيل فرقتين قويتين: الأولى تعمل على خلاص (ادمان ــ زرقت) تحت قيادة الكولونيل (Mola) والثانية في (تانيزة ــ باب ستيكر) تحت قيادة الكولونيل (Pozas):

. . . .

«في يوم 11 أبريل، أصبحت فرقتا (ادمان) و(تامينزة) مشكلتين».

. . . .

«حشد في مجموع قوات هذه العمليات من أجل القضاء على (صنهاجة) و(كتامة)، أكثر من 14.000 نفر أغلبهم من قوات التدخل.

أصبح كل شيء جاهزاً، وأصبح الوضع واضحاً تمام الوضوح، بحيث يسمح ببدء العمليات المخططة، مع ضمان النصر السريع».

. . . .

«إلا أن عناصر الطبيعة، انطلقت من عقالها في عاصفة ثلجية هوجاء، أحالت الخطط نحو وجهة أخرى، وأوقفت العمل، خالقة للقيادة وضعية من أصعب ما مرَّ خلال هذه المعارك التي نروي قصتها.

لم ينقطع المطر عن النزول بشدة في هذه المنطقة ابتداء من منتصف ليلة 11 إلى 12 أبريل، وابتداء من الفجر، أخذ الثلج يتساقط بغزارة في (ترجيست) وسائر الجبال، طامساً معالم الطرق والمسالك، بحيث أصبح من اللازم تعطيل مرور الجيوش والقوافل. وأثناء النهار، ازداد تساقط الثلج حدة، مصحوباً في نفس الوقت بانطلاقة إعصار حول المنطقة، إلا بعض الأخبار التي كان ينقلها بعض الراجلين من الأهالي، والتي مفادها أن بعض

الفرق أصبحت عرضة للهجوم بفضل هذه العاصفة، وعلى الأخص فرقة (Solan) عند (بوشعيب).

. . . .

«واستمرت العاصفة الثلجية بنفس الحدة طيلة يومي: 13 و 14 أبريل».

. . . .

«أصبح 50 في المائة من جنود فرقة (Pozas) في حالة خطيرة جداً بسبب تجمد الأرجل، كما نفقت جل الماشية، وشبيهة بهذه الحالة يجب أن تكون وضعية فرقة (Mola) التي لم يتمكن من معرفة أي شيء عنها، وكذلك فرقة (Solans) بمرتفع (بوشعيب) التي لا يعرف عنها إلا أنها تعرضت للهجوم بكل شراسة، وأنها بعثت تطلب الغوث في ثلاث إعلانات مستعجلة موجهة صحبة بعض الراجلين إلى (تيزي افري)، و(اثنين بني عمارت) و(ادمان) تقول: «الوضع يائس إذا لم يصل الغوث في أقرب وقت». إنها وضعية أشد ما يكون حرجاً بالنسبة لقيادة معزولة تماماً، فاقدة لجميع الاتصال بوحداتها، وبمجموع 10.000 رجل من خيرة قوات التدخل، معزولين في الجبال، شبه مدفونين في الثلج، ومهاجمين في نفس الوقت من طرف عدو شرس وكثير العدد».

. . . .

«في مساء يوم 14 أخذت حدة العاصفة تتناقص، وتوقف الثلج عن النزول، وأصبح الطيران، الوسيلة الوحيدة للحصول على معلومات حول الوضعية».

. . . .

«وخلال يوم 12، وصلت أخبار متأخرة حول الهجوم المفجع في (بوشعيب) على فرقة (Solans) عندما وصل إلى القيادة بلاغ وجه إلى (تيزي ايفري) يوم 13 على الساعة 14.20 س، يذكر فيه الليوتنان كولونيل (Solans) بالنص: «إلى القيادة ـ مرتفع بوشعيب ـ ثابت في هذا الموقع، ومستعد للمقاومة مهما كلف الأمر. في هذا اليوم لم يضايقنا العدو كثيراً اقتناعاً منه من غير شك، بعدم جدوى مقاصده نتيجة الخسائر التي تكبدها في الأرواح. إلا أنه لجأ إلى محاصرتنا انتظاراً منه من غير شك أن تقضي الثلوج علينا. لم يبق من طابور (Regulares) العرائش غير أربعة ضباط و200 رجل. تحي اسبانيا! لويس صولانس».

وفي بيانات لاحقة، علم أن العدو الذي هاجم هذه الفرقة كان يتزعمه (السليطن)، و(محند أسدات)، وقد تكبد خسائر هائلة».

. . . .

«إن (الحركة) المساعدة المشار إليها في هذا الأمر (يقصد المؤلف هنا: الأمر العسكري رقم 2 من القيادة العامة)، كانت في طريق تشكيلها في مليلية تحت قيادة الكومندان (Bueno) والقائد عمروشن، وقد كانت مكونة من رجال (بني سعيد) و(بني توزين) بصفة رئيسية».

. . . .

«وفي فجر اليوم 18 من أبريل بدأت فرقتا (Mola) و (Solans) الهجوم، محرقتين ومغيرتين على قرى (أُوغْرِيدَن)، و(بورمضان)،

و (تَامْرَارِين) و (أَسِنْخُو)، فإنسحبت حشود (السليطن) الثائرة التي كانت في (تَفِرْنُوت) تاركة في حوزتنا 15 قتيلاً. أما الفرقتـان، فلم تتكبدا غير 12 جريحاً».

استشهاد مُوحْ أَزْذَاذْ:

«في نفس هذا اليوم، حاول العدو قطع المواصلات ما بين (ادمان) و (ترجيست)، فهجم بشراسة على مركز (سيدي مسكين) في (زرقت) الذي دافعت عنه بشجاعة الحامية الصغيرة من طابور مليلية بقيادة الليوتنان (Lopez de Haro) إلى أن وصلت نجدات (Regulares) الذين خرجوا من (زرقت). ومن بين 40 مدافعاً عن المركز، لم يسلم غير أربعة. غير أن العدو الذي انقض بعزيمة حقيقية، تكبد عدة خسائر في الأرواح، من بينها: رئيسه الشجاع، العـدو الخطير مُحَنْد أسـدات القـائـد الكبـير فيـما مضى لابن عبد الكريم».

. . . .

«وفي يوم 29، وقع الزحف العام بحيث قضت فرقة (Pozas) على حشود العدو بهضبة (تَالْغُونْت) وإلتقت الكتائب الثلاث: (Pozas) و (Escalera) و (Mola) في جبل (إِغْرُوزَنْ)، أما (حركة) (Bueno) صحبة القائد عمرو شن، فإنها قامت بغزو وتخريب جميع القرى التي لقيتها في طريقها، فأصبحت قبيلة (تغزوت) كلها مقضياً عليها، متكبدة بذلك عقاباً مثالياً على حيانتها».

. . . .

المعارك الربيعية لسنة1927 :

(من الخطة العامة للعمليات التي جرت خلال فصل الربيع من سنة 1927 ـ القيادة العامة):

«التعاون الفرنسي»:

(أ) خلال الطور الأول من معارك (كتامة)، توفر القوات الفرنسية التموينات لفرقنا جنوب (كتامة) و (بني خالد) في المراكز الآتية:

□ **(قلعة بني بربر)**: ما يكفي لثمانية أيام من المواد الغذائية لـ 2000 رجل والعلف لـ 500 رأس من الماشية، و 100000 من خراطيش «الموزر»، و 1000 قنبلة يدوية.

□ **(تاونات)**: ما يكفي لثمانية أيام من المواد الغذائية والعلف لنفس الأعداد السابقة من الرجال والماشية، و 50000 خرطوش، و 500 قنبلة يدوية.

□ **(قلعة بني قاسم)**: ما يكفي لثمانية أيام من المواد الغذائية لنفس العدد من الرجال، والعلف لـ 500 رأس من الماشية، و 50000 خرطوش، و 500 قنبلة يدوية.

□ **(الزهارين)**: ما يكفي لثمانية أيام من المواد الغذائية لـ 2000 رجل، والعلف لـ 500 رأس من الماشية و 100000 خرطوش، و 1000 قنبلة يدوية.

فرقة من (الكُوم)، وكتيبتان، وبطارية تتابع سير فرقنا بموازاة حدود المنطقة الفرنسية من غير أن تدخل منطقتنا.

وخلال معارك (بني أحمد)، و (العلم الفوقي) (الأخماس العليا)، يجب على الفرنسيين أن يقوموا بتطهير المنطقة الكائنة عند جبهتهم من العدو في (غزاوة) ناحية (بني عميل) و (جبل قْشَاقْشة) و (جبل كَوْلِيشْ) من أجل احتلالها بسرعة، وتزويد الحد المائي الفاصل بين نهر (زِبْزار) (حوض زرغة) ونهر (الشريف) (حوض لوكوس) شرقاً، ونهر (الخميس) (حوض ورغة) غرباً، بالمدافع.

(ب) على الطيران (الفرنسي) أن يقوم بضرب (جبل الخزانة)».

. . . .

ومن جملة ما جاء في الخطة العامة المشار إليها أعلاه في باب (التنظيم اللاحق للمنطقة):

(ج) أما ضمان تهدئة المنطقة، فيجب أن يؤمن بواسطة نزع السلاح الكامل من القبائل. ومن أجل هذا الغرض، فإن الوحدات العاملة، هي التي تقوم بنزع السلاح خلال زحفها، ويكون كل منها مصحوباً بضابط من قلم المراقبات تكون مهمته الأساسية قاصرة على القيام بإحصيات نزع السلاح، دون أن يأذن لرجال القبائل البالغين 18 إلى 60 سنة بالعيش في مداشرهم، إلا إذا قام كل واحد منهم بتسليم بندقية في حالة جيدة. وبعد زحف الوحدات، فإن مراقبة كل قبيلة تكون مهمتها الرئيسية التي عليها أن تكرِّس جميع طاقاتها حينما يستتب الأمر للمخزن، أن تتابع بمثابرة ودون ملل، تطهير المنطقة من جميع الأسلحة التي يمكن أن تبقى متسترة، مع وضع إحصائيات عن جميع الأسلحة التي تقوم

بجمعها في قبائلها، اعتماداً على لوائح التسليح التي كانت على عهد الثائر ابن عبد الكريم ـ في (Villa San Jurjo) 28 ابريل 1927».

«وقد أصبح العدو خائر القوى، وخسر زعماءه الرئيسيين: أحمد بودرة الذي أسر من طرف قوات «كباس» واخريرو الذي توفي في معارك نوفمبر في (بني يدر)، لم يعد يعتمد لا على تنظيم ولا على قيادة موحدة لتوجيه مقاومة منظمة، إلا أنه لم يعدم من يُوَجِّهه من رؤساء محليين، فتشكل في الأغلب من أشد الزعماء تعصباً، ومن الفارين من القبائل الخاضعة، وهم ثوار شرسون كنا نعلم أنهم سيتطرفون في المقاومة إلى النهاية. كانت المراكز الرئيسية لمقاومتهم في أعالي الجبال التي تشكل العمود الفقري الأوسط لجباله، ذلك العمود الذي يكون الحد المائي الفاصل ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط. وهو امتداد للحد الجبلي، الأعظم الآخر في غمارة والمحدود في جباله بـ (جبل العلم) و (بو هاشم) و (السكّنة) و (الخزانة)، وعلى الأخص الأول من هذه الأربعة الذي يعتبر جبلاً مقدساً، وحرماً لا ينتهك، لأن به مقبرة مولاي عبد السلام بن مشيش التي هي بمثابة (مكة) لمسلمي الغرب» (هكذا).

. . . .

«وبتاريخ 29 ابريل بدأت أعمال الإغارة على (بني عروس) من طرف ثلاث وحدات كان عليها انطلاقاً من (بوحراث) في (بني يدر) ومن (ركبة الغزال) في (بني عروس) ومن (المنسك) في

(بني كَرفط)، أن تلتقي في سوق (خميس بني عروس)».

. . . .

«كان مجموع القوات المعبأة للإغارة على (بني عروس) يصل نحواً من 14900 رجل تحت رئاسة الجنرال (Berenguer) (Don Federico) قائد موقع سبتة».

قبيلة (سوماتة) ترغب في الاستسلام:

«احتل (خميس بني عروس) يوم 3 ماي 1927، وفي الأيام التالية من 4 إلى 7 ماي، توبعت عملية احتلال القبيلة كلها إلى أن وصلت إلى (ظهر البردع) حيث كان من المقرر إقامة قاعدة انطلاق الغارة على قبيلة (سوماتة).

«وابتداء من اليوم التالي لاحتلال (خميس بني عروس) شرعت قبيلة (سوماتة) في بعث الرسل للقيام بالمساعي الضرورية للاستسلام. هذه القبيلة الجموحة التي خانتنا سنة 1921، والتي بعد أن كانت قد استسلمت، ارتدت بعد وقوع حوادث (انوال)، وأغارت بصفة مباغتة على منهل معسكر (النوادر) متسببة في سقوط 40 قتيلاً. وبذلك اكتسبت في جباله شهرة القبيلة المتمادية في الثورة، والمغلقة على كل محاولة للاستمالة أو التأثير السياسي، والتي لم ترزح قط حتى للشريف الريسوني في عز سطوته على جباله، كان يقود مقاومتها الشريف المتعصب (الشاوني). وعلى أعالي جبالها الوعرة المغطاة بغابات كثيفة، كان الثوار، والهاربون، والمجرمون من القبائل الأخرى، يجدون ملجأ كانت تلك الجبال

تعتبر عائقاً لا يمكن تجاوزه من قبل قواتنا. وكان التفكير في الهجوم عليها، يعتبر بمثابة عمل جدي مليء بالمصاعب».

. . . .

«في يوم 13 ماي، بدا الهجوم على (سوماته)»..

. . . .

«بعد كسر شوكة القبيلة والتغلب على الجزء الشمالي، التجأ الثوار إلى الجبال العالية المقفرة في الناحية الجنوبية. ومن أجل إنهاء السيطرة التامة على جميع القبيلة، قامت بتاريخ 23 يونيه وحدات (Balmes) و (Castello) بقطعها من الشمال إلى الجنوب على المنحدرين الشمالي والجنوبي للقمة الوسطى/ مروراً بـ (الزعرورة) و (عين بيضة) على التوالي حيث التقت عند ضريح سيدي مزوار (الذي تعتبره الأسطورة مكان الوقائع التمهيدية للمعركة الشهيرة بالقرب من القصر الكبير (يقصد: معركة وادي المخازن) التي مات فيها ملك البرتغال San Sebastian».

. . . .

قبيلة (سوماته) تستسلم:

«في ظرف عمليات ثلاثة (أيام 13 و 14 و 23) أصبحت قبيلة (سوماته) العصية المحاربة، خاضعة تماماً. أما العقاب الذي تجشمته، فقد كان قاسياً جداً بحيث جمعت منها 1000 بندقية، وأغارت (حركة بني ورياغل) على أكثر من 3000 رأس من الماشية، وخرجت عدة مداشر، وقد أحدثت المفاجأة مفعولها في رجال القبائل من جراء سرعة وشراسة الهجوم لدرجة أن من لم يستطع

منهم سحب عائلته ـ بالرغم من الإعلام الذي وجهه الجنرال «سانخور» في سوق (الخميس) عند قطع المباحثات يعلمهم فيه عن رغبته في ألا يتألم النساء والأطفال ـ فإن عدداً كبيراً من النساء، عولجن بمستشفياتنا. وكمثال على شتات العائلات الذي وقع على أثر الهروب، نذكر حادثة رئيس القبيلة الثائرة نفسه: الشاوني الذي حضر لدينا يطلب الترخيص له في البحث عن زوجته التي اختفت فرخص له في ذلك».

. . . .

استسلام قبيلة (بني يسف):

«واستغلالاً للموقف من طرف القبطان (Font) مراقب قبيلة (بني يسف)، وبمساندة أحد أنصارنا القائد أحميدو الخمال، استسلمت قبيلة (بني يسف)، في سوق (خميس بني عروس) في اليوم 16 من ماي، أمام القائد الأعلى والمفتش العام للمراقبات، قائمة هي نفسها بمصاحبة القوات وعلى الأخص منها قوات المراقبات التي احتلت ونزعت أسلحة القبيلة».

. . . .

احتلال (تزروت):

«وبتاريخ 3 يونيه، احتلت وحدات (Balmes) (تزروت) دون مقاومة، وهي الإقطاعية السابقة والمقر القديم للريسوني».

. . . .

حتى الأموات يستسلمون
الرجل الذي مات مرتين

«في اليوم 8 من شهر ماي، اصطدمت قوات الكولونيل «كباس» في معركة قاسية في (باب برد) مع عصابة التمسماني، حيث هزم هذا الأخير. وأذكر كنادرة مستملحة، أنه في هذه المعركة، ظن أن القائد محمد التمسماني قد توفي نظراً لأن عدداً من الأهالي أكدوا التعرف على جثمانه من بين أموات العدو المجمعين، وهكذا بُعِثَ الخبر إلى الحكومة. وبعد ذلك بشهرين عندما حلت بالأخماس آخر بقايا الثورة وحضر جميع الرؤساء المتمردين بالجملة: تملكنا الدهشة عندما حضر من بينهم القائد التمسماني نفسه الذي حسبناه قد توفي. أخذتنا الحيرة، ولم ندر كيف نفسر هذا الخطأ للحكومة، وعند ذلك خطر للجنرال «سانخورخو» مخرج ذكي، إذ عندما أنهى المؤلف كرئيس للأركان العامة كتابة البلاغ الرسمي حول العملية النهائية للمعركة الذي ذكر فيه الأعداد الكبيرة من الرؤساء الثائرين الذين استسلموا ومن بينهم التمسماني، أخذ الجنرال «سانخورخو» القلم، وأضاف عند نهايته العبارة الآتية: «حتى الأموات يستسلمون».

. . . .

انتقال (السليطن) إلى (عنقود):

«بعد أن هزم (السليطن) اخمليش في (تغزوت) و (كتامة)، استطاع أن ينشىء مركزاً آخر له بمدشر (عنقود) (قبيلة بني أحمد).

فكان من اللازم العمل بسرعة قبل أن يستحفل أمره، ويشكل مقاومة حقيقية ضد تقدم قواتنا نحو الغرب. كانت المعلومات التي وصلتنا، وكذلك معلومات إدارات الشؤون الأهلية للفرنسيين تفترض أن (السليطن) يهدف إلى التصلب في لمقاومة عند (عنقود) حيث جمع أكثر من 1000 محارب، ومخزن مهم للأسلحة والذخيرة. وعلى أساس ذلك كان يفترض أن الهجوم على (عنقود) سيصبح عملية من الأهمية بمكان. ولتسهيل هذا الهجوم والعمل بكامل الوثوق في النصر، زحفت وحدات الاحتياطي للكولونيل (Mola) بمساعدة وحدات (Capaz). وفي اليوم 22 من ماي ـ وعلى أثر مسيرة ليلية بلغت 30 كيلومتراً، أصبحت بعدها وحدات «كباس»، عند الفجر خلف مواقع العدو ـ انقضت الفرقتان معاً على (عنقود) بصفة مباغتة، فهزم (السليطن) واستولت القوات على جميع مخزن الأسلحة والذخيرة، مع سقوط أربعة فقط من الجند الأوروبيين، و 56 من الجنود الأهالي. هذه المعركة التي كان يظن أنها ستكون دامية، هي التي مهدت لنا الدخول إلى (بني أحمد السراق).

. . . .

«وفي اليوم 29 من شهر ماي، تقدمت فرقة «كباس» من (عنقود) نحو سوق (ثلاثاء بني أحمد) حيث استسلمت (قبيلة بني أحمد السراق) بفضل نفوذ القائد المصلوحي (ينبغي ألا يغيب على البال أن القائد المصلوحي كان من كبار قواد ابن عبد الكريم أثناء هجومه على قبائل ورغت جنوباً) الذي كان «كباس» قد أجرى معه اتصالات سياسية من حين دخوله إلى غمارة الجنوبية.

وفي يوم 7 يونيه، احتل «كباس» سوق (أحد بني دَرْكُول) في (الأخماس العليا) حيث انضمت إليه مجموعة (بني بوحلو).

لقد أصبحت قبيلتا: (بني خالد) و (بني أحمد السراق) من هذا التاريخ محتلتين، منزوعتي السلاح، وتحت رحمة هجمات ثوار (الأخماس).

أما خلايا الثوار: (السليطين) و (التمسماني)، والقائد (الملي) وهذا الأخير من (لأخماس)، فقد تحصنت بغابة (كورت) وبأعالي جبل (تَارْيَة). وبعد ملاحظة تقدم وحدات جباله نحو (باب تازة)، فإن فرق غمارة توقفت عن زحفها لإعطاء الوقت الكافي لاحتلال (الأخماس السفلي)، وللعمل الأكثر تركيزاً فيما بعد على جبل (تارية).

وأما في جباله، فبعد استسلام (بني عروس) و (سوماته) و (بني يسف)، فقد أصبحت نواة التمرد محاطة في المرتفعات الصخرية لجبل (العلم) و (بو هاشم). لقد آن وقت الهجوم على هذه المرتفعات وتمزيقها حسب الخطة المدروسة بدءاً بالهجوم على (جبل العلم). و (جبل العلم) يشكل في نفس الوقت هدفاً عسكرياً وسياسياً ذا أهمية قصوى، وذلك لالتجاء الخلايا الثائرة به، ولصبغته الدينية التي يكسبه إياها وجود مقبرة الولي الصالح مولاي عبد السلام به.

لم يسبق قط لقواتنا أن وضعت أرجلها على هذا الجبل المقدس وأن الإقدام على هذا العمل، يجب أن يبلغ درجة عالية من

المهارة السياسية لتجنب خدش الشعور الديني للقبائل الخاضعة، وحتى شعور جنودنا من الأهالي. ومن أجل ذلك، استشير مسبقاً حول هذا الموضوع الصدر الأعظم ابن عزوز، المستشار العالم الذي عقد اجتماعاً مع شرفاء تطوان، واقترح على أثره على المقيم القائد العام، أن يتجنب دخول القوات الأوروبية إلى فناء الحرم المحيط بمقبرة مولاي عبد السلام، وأن يبعث عدداً من الشرفاء صحبة الوحدات العسكرية ليتقدموها في اللحظة الأخيرة فيلقوا على شرفاء الولي الصالح الرسالة الآتية من الصدر الأعظم:

(لا يمكن اعتبار ما سيأتي من هذه الرسالة أصلاً، لأنها في الأصل مكتوب بالعربية وبأسلوب دار المخزن بلا شك. لذلك سنترجمها عن الإسبانية لنأخذ فكرة عامة عنها فقط).

«الحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه

سلام الله على جميع الشرفاء القاطنين بجبل العلم أبناء مولاي عبد السلام بن مشيش.

ليكن في علمكم أننا قد عينا الأجل الأمجد، الخادم الأمين لمولانا، الباشا سيدي الحاج ادريس بن عبد السلام، والشرفاء: سيدي محمد المرون، وسيدي عبد السلام ولد سيدي الحسن، ومن يصحبها ليقوموا بحمل (هدية) المخزن أعزه الله الذي تفضل بتقديمها لسيدنا مولاي عبد السلام نفعنا الله ببركاته، وباسم مولانا الخليفة واسم المقيم العام لإسبانيا وباسمي الخاص، نمنحكم الأمان جميعاً، تجنباً لإزعاجكم وتكدير هذا المكان المقدس إن أنتم أصختم

السمع لنصائحنا القائمة على تجنب دماركم، أن تدخلوا في طاعة المخزن كباقي القبائل الأخرى المجتمعة هنا. وفي حالة عدم انصياعكم، فإن اللعنة جميعها ستنصب عليكم وعلى أبنائكم، ولن يكون أحد مذنباً غيركم، ونحن نمنحكم مهلة ثلاثة أيام لتروا ما يناسبكم، ولا تنسو أننا نقسم بمولاي عبد السلام، أنكم لن تلقوا إلا الخير والرخاء اللذين نتمناهما لكم. فإذا لم تسمعوا، فأنتم وحدكم المذنبون، إذ أن المخزن أعزه الله، كان دائمًا يفكر في تجنب إراقة الدماء، ومجهوداته في هذا السبيل يستحيل تعدادها.

ألهمكم الله السداد، وألهمنا جميعاً، والسلام.

محمد بن عزوز حفظه الله

دفاع عن آخر شبر من أرض الإسلام:

«أما داخل التنظيمات العسكرية، فقد علم أن لثوار الأكثر تعصباً، قد اجتمعوا في الصخور الجبلية الوعرة، المغطاة بغابات كثيفة تجعل مهمة الدفاع عنها سهلة، وهم: الحرطيطي، والستيتو، وسيدي فضول، وعبد السلام الحريشي، والشاعر، والبغدادي، على استعداد للقيام بمقاومة يائسة حسبما فهم من الجواب الوارد على رسالة من مفتش المراقبات يدعوهم فيها إلى الاستسلام:

«نحن نعلم أننا قد خسرنا الحرب، ولكن، ما دامت هناك قطعة واحدة من أرض الإسلام، ففيها سنقاتل».

. . . .

(فقرة من الأمر بالعمليات الحربية رقم 11).

«**وضعية العدو** ــ أخبار مؤكدة تشير إلى أن العدو قد انقسم إلى ثلاث فئات موثقة العهود: واحدة عند (حافة عايشة) (الجانب الجنوبي لباب عايشة)؛ وأخرى بهضبة (السَّطَحْ) (ما بين باب السطح وباب العروسة)؛ وثالثة في (ظْهَرْ الَخيْط) (المعسكر القديم للريسوني فوق السلالين). ويوجد حرس قوي بمداشر (أَضْيَازْ)، و (لحسن)، و (تَلاَيْمِيْنْ)».

. . . .

«وبتاريخ 16 يونيه ــ وكان يوافق عيد التجسيد المسيحي المقدس Corpus ــ بدأ الهجوم على (جبل العلم).

كانت المقاومة عظيمة جداً، وعلى الأخص ضد فرقة Alvarez coque وطليعته المشكلة من (حركة (Lopez Bravo).

ومن مركز قيادة الموقع المقام في (Timisar) فوق (أربعاء بني حسان) كنا نشاهد المعركة القوية، والزحف العسير لطليعة فرقة الكولونيل Canis التي يقودها الكولونيل (Varela)، كان بجانبنا القائد السيد أحمد رُمَّان الفتوح الذي استسلم قبل ذلك التاريخ بيومين، والذي كان يتابع بكامل الانتباه مسيرة تلك الفرقة، جاهلاً المناورة الممثلة في اختفاء الفرقتين الأخريين وراء الجبل، فكان لا يفتأ يكرر من حين لآخر «لن تصلوا إلى الأعلى». وعند الساعات الأولى من المساء حينما وقع اتصال الفرق الثلاث ببعضها، وظهرت أعلام قوات جنودنا الأهالي الآتين من الشمال ومن الغرب، التفت إلى الفتوح وسألته: «والآن هل تعتقد أننا قد وصلنا؟» فكان جوابه: «بهذه الطريقة طبعاً؛ لأنكم تصعدون من أمكنة عديدة في آن

واحد». الأمر الذي يدل على اعتباره لهذا العمل حيلة كريهة في الحرب، نظراً لعدم تمرسه على المناورة.

وفي يوم واحد، أصبح (جبل العلم) الشهير محتلاً، وكان أثر الهزيمة حاسماً بحيث إن العدو لم يعد يجرؤ على المقاومة في (بوهاشم) الذي احتلت قمته بكامل السهولة يوم 17، في ضربة جريئة من طرف قوات (المحلة) من فرقة Balmes بقيادة الليوتنان كولونيل Villalba.

وفي يوم 21 ماي، صعد المقيم العام صحبة المفتش العام للمراقبات والصدر الأعظم وأعيان وشرفاء تطوان إلى (جبل العلم) لتقديم قربان باسم المخزن لضريح الولي مولاي عبد السلام حيث توافد العدد العديد من أهالي جميع القبائل الخاضعة في مهرجان بهي عجيب بطوائفهم وأعلامهم للحج، وتقديم القرابين لهذا الضريح الذي انقطعوا عن زيارته طيلة المدة التي بقي فيها محتلاً من طرف الثوار».

. . . .

«وفي يوم 24 يونيه، أصبحت بقايا التمرد محاصرة في (الأخماس) وهي آخر قبيلة ثبتت على الثورة، بالإضافة إلى جزء آخر من قبيلة (غزاوة). لقد بقيت هذه القبيلة طيلة مدة الحماية مقسمة بين المنطقة السلطانية والمنطقة الخليفة الذي ينتمي للمنطقة الاسبانية».

. . . .

«وللقيام بعمل في (الأخماس)، شكلت سبع فرق بلغ مجموع جندها 20750 نفراً على هيأة قوس يستند طرفاه على حدود المنطقة الفرنسية عند سوق (أحد غدير الكروش) وسوق (ثلاثاء بني أحمد) بحيث أصبح الثوار محاصرين عند مرتفعات (الخزانة) و(تَنْغَاية) و(تَارْيَة)، وكانت جبهة انتشار هذا القوس تبلغ حوالي 100 كيلومتر».

. . . .

قتال مَلْحَميّ:

«في اليوم 29 من يونيه، استولت قوات Saez de Buruaga و Canis على (جبل تِيسُوكَة) و(باب تازة) متحملة من العدوّ قتالاً عنيفاً تسبب في سقوط 67 نفراً ما بين قتيل وجريح من قواتنا، إلا أنه ترك في الميدان 50 قتيلاً و100 أسيراً، و1000 رأس من الماشية».

. . . .

«أما بقية الثوار، فقد أصبحوا يدافعون باستماتة ويأس في (جبل الخزانة) و(تنغاية) و(تارية)، موفين بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم في الدفاع عن آخر شبر من أرض الاسلام. إنها معركة ملحمية يحاول خلالها حفنة من الأبطال، والمقاتلين المتعصبين الذين أعماهم خطؤهم في رفض قبول الحماية التي أصبح معترفاً بها من طرف جميع القبائل، يحاولون مقاومة هجوم 20.000 رجل يتقدمون بثبات، دون مهادنة ولا استراحة مكهربين بانتصاراتهم المتوالية، وراغبين في إنهاء تلك المقاومة الدموية التي لا جدوى من ورائها، في أقرب وقت».

السليطن يطلب اللجوء:

«وأثناء ذلك، فإن الجيوش الفرنسية طبقاً لخطة التعاون المتفق عليها في محادثات تطوان بتاريخ 15 ماي بين الكولونيل Gendre رئيس الأركان العامة الفرنسي، قامت باحتلال قمة (غزاوة) ابتداء من (أَسِرْدُون) إلى (إِكْلادِن) حيث التقت بفرقتي Mola و Asensio.

وفي يوم 7 يوليه أبلغ الجنرال بيتان الذي كان يقود القوات الفرنسية بـ(غزاوة) أن (السليطن) اخمليش يلتمس قبوله بالمنطقة الفرنسية، وأنه قبل الترخيص له في ذلك، ووفاء منه لفروض التعاون، يسأل هل يمكنه قبول استسلام الزعيم الثائر الذي لم يجرؤ على أن يسلّم نفسه لقواتنا خوفاً منه على نفسه من جزاء خيانته في (تغزوت).

فلم يكن من القائد الأعلى إلاّ أن يبعث بالبرقية الآتية يستشير فيها الحكومة:

«توصلت بهذه البرقية من الجنرال Petain الذي يقيم في (أسردون):

«عند مروري بـ(أسردون) التقيت بأخ (السليطن) اخمليش الذي أبلغني رغبة (السليطن) في اللجوء إلى المنطقة» الفرنسية، وذلك تفادياً لمعركة يائسة. أظن أن موافقتنا على قبوله، تتمشى مع تفكير القيادة الاسبانية وذلك للحيلولة دون معركة غالية التكاليف، بشرط أن يقوم بتسليم جميع الأسلحة. ومع ذلك فإن أخمليش،

لا يقبل الانتقال إلى خطوطنا وتسليم سلاحه، إلّا بعد أن يكون متيقناً من أنه لن يرد فيما بعد للسلطات الاسبانية. أظن أن اتفاقاً حول هذه الشروط شيء مرغوب فيه، ومع ذلك، فإني لا أريد أن أعقد مباحثة مع أخمليش حول هذه الأسس دون موافقة «القيادة الاسبانية» وضعية القوات الاسبانية اليوم ــ نظراً لقيامنا بزحف في هذا الصباح ــ هي: الاحتلال النهائي لـ(جبل تنغاية) وسوق (خميس الحرايق) ومدشر (فيفي) وسوق (ثلاثاء بني أحمد)، في حين أن الثوار الذين يقودهم (السليطن) آخر زعيم ثائر، أصبحوا محاصرين في اتجاه المنطقة الفرنسية، مسيطراً عليهم بصفة كاملة، وتحت شروط القضاء عليهم في معركة واحدة، ومن جهة أخرى فإن استسلام (السليطن)، سيؤدي بكامل التأكيد إلى نهاية الثورة، ومع الوثوق التام في اعتبار هذه الحرب منتهية على أي الوجوه، يمكن القيام بما تأمر به سيادتكم».

بعد إجابة الحكومة على هذه البرقية، تفيد أنه من الأنسب قبول تسليم (السليطن) نفسه في المنطقة الفرنسية، بعث القائد الأعلى بتاريخ 7 يوليه البرقية الآتية إلى القيادة الفرنسية:

«جد شكور لسيادتكم على الاقتراح الرقيق الذي تفضلتم ببعثه من (اسردون) وفاء منكم لاتفاقنا على التعاون واعتباراً مني دائماً بأن جيوشنا أمام العدو، تكون جيشاً واحداً تقوده نفس المصالح والتوجيهات، واستلهاماً مني للعواطف الانسانية بالرغم من وثوقي ــ نظراً لوضعية قواتنا ــ بأن عملية واحدة تكفي وحدها لإبادة الخلية التي يترأسها (السليطن)، فإنني لا أعارض مصلحة

اجتياز (السليطن) إلى الخطوط الفرنسية. ولكن، وحتى لا تحبط النتيجة المعنوية والمادية التي يجب علينا أن ننتظرها من جراء الهزيمة التامة للثورة أرجو من سيادتكم أن يكون هذا الاجتياز هو الوحيد، ليس فقط بواسطة تسليم جميع الأسلحة التي يمكن أن تكون في حوزة الخلية التي يرأسها الثائر المذكور، ولكن زيادة على ذلك، يجب أن يفرض على (السليطن) كشرط أساسي، الابتعاد عن حدودنا».

استسلام السليطن:

«وباستسلام (السليطن) يوم 8 يوليه 1927، يمكن اعتبار الحرب منتهية بصفة عملية، ولكن بقي علينا أن نقوم بآخر عملية لاحتلال آخر ركن من المنطقة، فأخذنا نهيء للقيام بها يوم 9.

(الملي يطلب مهلة للاستسلام)

«وفي ليلة 8 يوليه بعث الملي قائد (العلم الفوقي) (الأخماس العليا) رسولاً إلى مخيم المعسكر العام في (باب تازة) يطلب مهلة 24 ساعة من أجل إقناع رجاله بالاستسلام، وتقديم أسلحتهم دون محاولة القيام بمقاومة لا تجدي. ورغبة من القيادة في حقن الدماء، وافقت على منح هذا الأجل المطلوب تنازلاً، قصد إنهاء العملية الأخيرة لهذه الحرب في يوم 9 من يوليه بالضبط، وهو يوم الذكرى السنوية لاندلاع هذه الحرب التي بدأت فيها قبل ذلك بثمان عشرة سنة عام 1909 م.

وفي الساعات المتأخرة من ليلة 8 يوليه، وبعد انصراف مبعوث الملي، ومن مخيم (باب تازة) آخر معسكر عام للقائد الأعلى، أخذ المؤلف يتأمل بعميق التأثر نيران مُخَيَّمات جميع الوحدات التي حاصرت في دائرة ضيقة وحبست في مجال مصغر بقية الثورة التي أصبحت مختزلة، والتي تسببت خلال 18 سنة كاملة في الكثير من الهُمُوم وتطلبت مجهودات وتضحيات عظمى لاسبانيا. وبفرحة الوثوق المطلق في النصر النهائي الذي أحرزت عليه جيوشنا في المغرب، تذكرت بألم عميق في تلك الليلة الافريقية الهادئة، أسماء الرفقاء، ومجموعة الجنود الشجعان الذين ضحوا بحياتهم وهم في ريعان شبابهم من أجل الوطن والحضارة، دون أن يفوزوا بالرضى العظيم في رؤية بزوغ فجر النصر. وبتأثر بالغ العمق من جراء تذكر هذه التضحيات والمعارك، وآلام هذه الحرب القاسية الطويلة التي انتهت في تلك الليلة بالمهلة المخولة للقائد الملي من أجل التسليم، دخلت خيمتي الحربية، وقد جفا النوم جفوني في حين أنه لم يتنكر لعيني طيلة ليال سابقة في معارك أقسى وأصعب».

آخر معركة:

«وفي يوم 10 يوليه من سنة 1927، جرت آخر عملية في هذه الحرب باحتلال (جبل تارية) وآخر ركن من (غزاوة) فقد قامت فرقة Mola بالزحف من سوق (ثلاثاء بني أحمد) عبر المنحدر الجنوبي من (جبل تارية) نحو (دُكَّالة) وفرقة Capaz من سوق (خميس الولجة) عبر (زاوية الزياتي) نحو (جبل تارية)، و Martinez Monje

من (باب تازة) عبر غابة (كورْت) نحو (زاوية الزياتي)، و Asensio عبر (غزاوة) (خميس الحرايق)؛ وفرقة Canis تتقدمها (حركة Lopez Bravo) عبر قمة (تنغاية) نحو (جبل تارية) حيث التقت جميع الوحدات، وكما سبق بيانه، فإن قبيلة (الأخماس) لم تقاوم، مسلمة أسلحتها لضباط المراقبات الخليفية الذين كانوا على رأس وحدة من أجل هذه الغاية.

لقد وضعت كلمة (النهاية) في آخر فصل من الكـابوس المغربي. وقد كانت اسبانيا كلها تشك في التأكيد اليقيني من القائد الأعلى، حتى إن الحكومة نفسها خوفاً منها دون شك في إمكانية ردود فعل، كانت القيادة في المغرب على علم يقيني بأنها لا يمكن أن تحدث، لم تعلن عن انتهاء الحرب إلّا في فاتح اكتوبر 1927.

ومن بين 66 قبيلة التي تشكل منطقتنا، احتلت بصفة كاملة أو جزئية عند نهاية سنة 1925، 25 قبيلة لا غير، وخلال سنتين من المعارك والهجومات المتوالية في نشاط ودون مهادنة أو استراحة، أخضعت الواحدة والأربعون قبيلة التي كانت متمردة عند بداية 1926 كما احتل باقي مجموع المنطقة. إلّا أنه قد وقعت السيطرة على شيء أهم، إذ أن الاحتلال، ليس هو الحكم والهيمنة، والمغربي لا يعتبر محكوماً ما دام يملك بندقية، لأن فكرة التمرد كامنة في روحه على الدوام. لقد نزع السلاح من جميع القبائل. وقام بهذه المهمة قيادات أهلية بمساعدة وتوجيه مراقباتنا العسكرية».

. . . .

«إن القواد من أنصارنا اقتناعاً منهم بضرورة نزع السلاح كالقائد عبد القادر، والقائد عمروشن، والقائد محمد علال محند

من (بني تـوزين)، وابن علي من (أنجـرة)، وادريس الريفي، والملالي، وآخرين، كانوا هم المساعدين الأكثر فعالية في عملية نزع السلاح نظراً لنفوذهم وسلطتهم على أعيان قبائلهم».

. . . .

فصول من حوادث نزع السلاح:

«مرت فصول في عملية نزع السلاح، تدل على مدى ما يمكن أن يصل إليه حب المغربي وإلفته للبندقية ورغبته في الاحتفاظ بها. ففي عمليات (بني يدر) خلال شهر نوفمبر 1926، عندما سقط في وسط المعركة القائد اخريرو، تقدم إلينا أهالي ربع (بني شراح) للاستسلام وبأيديهم بنادقهم التي لا يزال عليها أثر الدخان. وعند إبلاغهم أنه عليهم أن يسلموا أسلحتهم هناك في نفس الميدان، حدثت في صفوفهم حركة تردد ومقاومة، ولكنهم وقد أصبحوا محاطين من كل جهة بقواتنا، لم يجدوا بداً من تسليمها. وقد أحدث ذلك في نفوسنا نحن الذين كنا نشاهد ذلك المنظر، تأثراً حقيقياً عندما كنا نشاهد أوجه أولئك الرجال الأشداء الذين كانوا قبل ذلك بساعات قلائل يضاربون كالأسود، وقد بدت عليها آثار الحزن العميق.

وعندما قامت فرقة «كباس» بنزع سلاح ربع (بني دركول) في (الأخماس العليا) أواخر يونيه 1927 قبل انتهاء الحرب بأيام قليلة، تقدّم جبلي قوي وهو يذرف الدمع عندما كان يسلّم بندقيته «الموزر»

الجديدة، مصرحاً أنه لم تمر على اقتنائه إياها بخمسمائة بسيطة أكثر من ثمانية أيام».

. . . .

إحصائية:

«إن الإحصائية النهائية لنزع السلاح لغاية شهر ماي 1928 تلخص في الأرقام الآتية:

- من 1921 لغاية شتنبر 1925: 7.719 بندقية.
- من شتنبر 1925 لغاية يوليه 1927 حيث انتهت الحرب ونزع السلاح بالجملة: 47.412.
- البنادق المسحوبة من طرف المراقبات ابتداء من نهاية الحرب سنة 1927 لغاية مارس 1928: 2.785.
- البنادق المسحوبة في المنطقة الفرنسية من الهاربين من منطقتنا: 3.700.

مجموع الأسلحة المسحوبة: 61.616.

الفصل التاسع عشر

بطل الجهاد أحمد اخريرو

لقد تزعم حركة المقاومة المسلحة، والجهاد الوطني ضد دول العدوان والاحتلال كثير من الرجال الشجعان، والمحاربين البواسل، وكانوا إما من سراة ووجهاء القبائل ذوي الشخصيات البارزة، والحيثيات الكبيرة، وإما من بسطاء القوم وعامتهم، وهكذا خرجوا من صفوف الشعب، وارتقوا أريكة القيادة بشجاعتهم، وجهادهم، وبسالتهم، حتى صاروا أبطالاً جديرين بكل تقدير وإعجاب حتى من الأعداء، ودخلوا باستشهادهم التاريخ من بابه الكبرى، فكانوا من العظماء الخالدين على الإطلاق، وما أكثر هؤلاء وأعظمهم في تاريخ المقاومة الوطنية المسلحة، وحركة الجهاد المقدس في المغرب ضد الاحتلال الأجنبي الفرنسي والاسباني منفرداً ومتحالفاً، ومن أشهر أولائك الأبطال الشهيد أحمد بن محمد الحزمري المشهور باخريرو، فقد خاض معارك الثورة الريفية في صف الأمير محمد بن عبد الكريم، فأبلى فيها البلاء الحسن حتى اشتهر اسمه، وذاع ذكره في صحف العدو والعالم أجمع، وكتب عنه الكتاب من الأعداء والمحايدين، وبهذا نال السمعة والاحترام على قدر جهاده، وبطولته، واستحق أن

نخصص له حيزاً من هذا الكتاب مفضلين ترك الحديث عنه لأحد كبار المسؤولين الاسبانيين في تطوان زمن السيطرة الأجنبية، وهو طوماس غارسيافيكيراس، الذي خصص له محاضرة ألقاها بمناسبة دورة تكوينية للمراقبين سنة 1951 ــ 1952 وفيما يلي خلاصة المحاضرة معربة عن الاسبانية:

أحد رؤساء جبالة:
أحمد بن محمد الحزمرى (اخريرو)
محاضرة أُلقيت بمناسبة دورة تكوينية للمراقبين
سنة 51 ــ 1952

يظهر أنه ليس من الضروري الإلحاح على حقيقة معروفة جداً هي: الجهل الأكبر بعملنا في المغرب. وفي بعض المناسبات، يتجاوز هذا الجهل الحد الذي يغتفر فيه لصاحبه هذا النوع من المعرفة حتى يصل إلى أولئك الذين كان يجب عليهم أن يملكوا حداً أدنى على الأقل من معرفة أساسية بالحقيقة المغربية.

وقد أمكنني الوقوف على هذا بكل أسف، في مظهر جد محدود من هذه الحقيقة.

إن الاهتمام الذي تلقاه معرفة التاريخ المعاصر لهذه الامبراطورية أمر بديهي من أجل عملنا الحاضر في المغرب، لأنه إذا كان في التاريخ عبرة، فإنه يكون أكثر عبرة حينما يعرض علينا أفعال غيرنا، وردود أفعالنا نحن الذين علينا أن نسهم في تطوره. وهذا بصرف النظر عن بعض المظاهر التي لا تقل أهمية كالرغبة

الطبيعية في المعرفة ولنص إيضاحها، وتقوية إيماننا بمعرفة سائر الفضائل البطولية لعملية التهدئة، وعثرات السياسة الداخلية والخارجية التي هي غنية بأحداث مغربية، ورؤية الكيفية التي اتخذتها هذه الحقيقة الأخوية الاسبانية المغربية بفضل نكران الذات الذي يتجذر مع أفضل ما في التاريخ الإعماري لإسبانيا، القائم على المفاهمة والكرم والمحبة.

إن التاريخ المعاصر ابتداء من مطلع قرننا هذا، إلى نهاية (التهدئة) ــ وهي فترة تستغرق سبعاً وعشرين سنة ــ لا يمكن كتابته إلا إذا اتخذنا أبطاله الرئيسيين أساساً لذلك: ففي الأقاليم الشرقية: الروكي بوحمارة، امزيان، عبد القادر، وعبد الكريم. أما في الأقاليم الغربية، فمولاي أحد الريسوني. وهذه الحقيقة الواضحة التي هي في متناول الجميع، لم تلق ما تستحقه من الفهم.

وقد أدركت المراقبات أيام عزها وحماستها سنة 1927 هذه الحقيقة، ولكن اقتصر دورها على التلميح فقط إلى هذه الحقيقة ربما لأنه كان هناك اهتمام أضيق حدوداً بمعرفة الأبطال، فالواقع هو أن العمل المتواصل من سنة 1927 إلى سنة 1930 بهذا الصدد، أدى إلى ظهور الكثير من (المذكرات) حول الزعماء الرئيسيين من مختلف القبائل بمنطقتنا، بعضهم أكثر أهمية، وبعضهم لا أهمية له. ثم وقف هذا العمل، وكانت الخسارة في عدم إتمامه وتوسيعه، وإلقاء الظلال عليه، والتمييز بين أولئك الأبطال الذين هم من الدرجة الأولى، وأولئك الذين لم يكونوا سوى توابع في فلك هؤلاء، ذلك

الفلك الذي يؤلف في الحقيقة عصب الحياة في هذا التاريخ الذي نبحث عنه.

لقد حاولت ـ وأحاول ـ كتابة تاريخ ناحية (جبالة) الغربية، ومنطقتها الساحلية على المحيط الأطلسي من خلال الشخصية الفذة لمولاي أحمد الريسوني، في حدود ضيقة جداً أعلم أكثر من غيري أنها ناتجة عن الكثير من الأسباب، بعضها خاص بي، والبعض الآخر راجع إلى نَقص في الوثائق والوقت. . . الخ. إن المربع الواقع بين العرائش، طنجة، سبتة، وشفشاون، يكون في خطوطه العامة حدود المنطقة المدروسة. وفي وسطه يكون مولاي عبد السلام مركز الإشعاع الديني، وتكون طنجة مركز المناورات السياسية، وكمركز لأي حركة من أجل الحركة نفسها أو كرد فعل، يوجد: الريسوني.

وكم من الجهل والكذب، بل ومن الحماقات تلصق بهذه المحاولة! ففي نظر البعض: أن هذه المحاولة ما هي إلا تعظيم لشخصية أحد قطاع الطرق (؟)، وفي نظر الآخرين من الحذرين الذين لا ينتظر منهم أي شيء: إن الكتابة عن شخصيات معاصرة يعد خطراً، ويمكن أن يحدث ردود فعل (؟) أما الكثرة في النهاية، فهم يرون أن هذه الدراسات، هي بمثابة بَكَرَة (كُبَّه) لا تنتهب، ومن خلالها ألحقت ـ حسب رأيهم ـ بالتاريخ جميع الرياسنة الماضية، والذين يمكن أن يأتوا، وعلى أساس هذه الخلفية من الانتقادات الطريفة، وتحت وطأة المحدودية التي أعرفها، والأخطاء التي يمكن أن تلقى على عاتقي، كم أرى بوضوح، أن التاريخ

الحي والإنساني لمنطقتنا، خلال تلك الحقبة التي تستغرق 27 سنة الماضية، لا يمكن كتابته إلا بهذه الطريقة!

وكبرهان على هذه الحقيقة، يبرز أمامي موضوع (اخريرو)، هذا الموضوع الذي عين لي كأحد المواضيع التي علي أن أبسطها في سلسلة هذه المحاضرات بمناسبة تكوين المراقبين أثناء السنة الحالية، وخلال العرض ستدركون بكامل الوضوح صدق نظريتي، سندرس شخصية لها أوجهها الخاصة، وأهميتها التي لا تقبل النقاش، وبإلحاح كبير ستسمعون ترديد اسم: الشريف مولاي أحمد الريسوني، وهو ـ تأييداً لنظريتي ـ الذي يعد نجمًا في الدرجة الأولى، أما (اخريرو) فهو كالكثير من الآخرين، ليس سوى أحد توابعه.

نشأة (اخريرو):

ولد (اخريرو) بمدشر (دار الغازى) جماعة (الواديين)، قبيلة (بني حزمار) حوالي سنة 1868. وكان ينتمي إلى عائلة فقيرة. وكان منذ طفولته راعياً لدى أسرة (الحرطيطي) حيث نشأ، وقد عاصر (اخريرو) منذ نعومة أظفاره اضطراب المغرب وانحلاله، كظهور (الروكي) بوحمارة وانعكاس ذلك على تطوان بهجوم القبائل الجبلية عليها، وسقوط السلطان مولاي عبد العزيز 1908 واستبداله بمولاي عبد الحفيظ، وبالاحتلال الفرنسي للشاوية، وتمرد فاس... الخ، الذي ترك في المغرب كله شعوراً من الكراهية للأجانب، وعداء نحو المسيحيين.

ولم يكن يتجاوز الأربع عشرة سنة عندما احتل الجنرال (ألفو) Alfau مدينة تطوان سلما. وأن استقرار الجيوش الاسبانية بالمدينة، وضع حداً لهيجان القبائل المجاورة، ومن بينها قبيلة (بني حزمار). لقد شارك الحزمريون في معارك السنة على طول المواصلات: تطوان ـ اللوزيين. وكانوا ضمن (الحركة) التي نظمها بدار ابن قريش شريف (تَاكْزَارْتْ) من (بني عروس) سيدي الحسن[1] الذي نصبته قبائل جبالة سلطاناً عليها من أجل الحرب المقدسة.

وبعد ذلك، أي في سنة 1915 حينما جرى الاتفاق مع الريسوني الذي كان فعلاً الشخصية ذات المكانة في جبالة، بقي كأحد أفراد (الحركة) التي كان الشريف يؤلفها في دار ابن قريش.

ومن المنطق الافتراض بأنه حتى هذا التاريخ، أي عندما كانت سنه السادسة عشرة، كان قد أخذ يحكم استعمال الأسلحة، مع عدم إغفال أنه كانت قد نقشت في ذهنه مشاهد الحروب التي رآها في السنوات الأولى من عمره، تلك الحروب التي كانت مرتبطة بالجهاد المقدس ضد المسيحيين.

وعندما توفي المقيم العام (Gomez Jordana) (نوفمبر 1918) وخلفه بعد ذلك بأشهر قلائل الجنرال (Berenguer)، قطعت العلاقات مع الريسوني الذي قام على رأس ثورة جبالة. ومن بين المقاومات الأولى التي كان على (المَخْزَن) أن يتغلب عليها، كانت مقاومة (ابن قريش) على طريق شفشاون، والتي لها أهمية قصوى في

---

(1) اسمه الحقيقي: سيدي محمد بن الحسن العلمي العروسي.

توسيع دائرة أمن تطوان، وفي سنة 1919 احتلت (ابن قريش) فذهب الشريف الريسوني إلى (تزروت).

تبعه أوفياؤه، ومن جملتهم: الطالب محمد الحرطيطي، الموالي المخلص للريسوني، ومع الحرطيطي، ذهب راعيه (اخريرو) الذي كان عمره إذ ذاك عشرين سنة، والذي لا شك أنه كان قد مارس استعمال الأسلحة، وبكل احتمال صحبة أحمد الحرطيطي الأخ الشقيق للطالب محمد.

وقد اجتمع حول الريسوني الذي أطلق عليه بعض الكتاب الاسبان حينئذ (صقر الزنات) و(سلطان الجبل) ثوار بارزون مثل: الطويلب، كورطيطو، والشاوني... الخ. يصحب كلَّ واحد منهم الثوار الرئيسيون من قبائلهم. أما قيادة هؤلاء المجاهدين، فقد عهد بها الريسوني لشخصية ذات صيت واسع: احميدو السكان الذي لقيه مصرعه سنة 1922 وهو يجاهد بشجاعة ضد الفرق التي كانت في طريقها لاحتلال (تزروت) أما (الحرطيطي) ومعه اخريرو فكانا يعيشان في ذلك الوقت بمدشر السُّكّان (بني عروس) وهو مدشر رئيسه المباشر.

لم تُخلد هذه الجماعة من الثوار إلى السكينة، ولئن كانت مهمتها الرئيسية هي حراسة الهجومات المرتقبة للمخزن، ومقاومتها، وإعاقة حركة المراقبين السياسية في استمالة القبائل، فإنها لم تستغن عن الالتجاء إلى وسيلة فعالة بشكل فائق هي: الاعتداءات والغارات التي كانت تعود عليها عادة بربح في الأسلحة والذخائر والأسرى الذين يقع تبادلهم بآخرين، وبالماشية التي

تستعمل للتعبئة، وبالأخص إذا ما نجحت تلك الغـارات ضد مصالح المخزن، والتي كانت بالنسبة للقبائل المترددة سياسياً بمثابة وسيلة فعالة جداً في بقائها مذعورة أمام الخوف من ذلك المشهد المرعب المتمثل في إنهاء البقية من أيامها مثقلة بالسلاسل في أحد السجون المحزنة القذرة.

في هذا الاطار الأخير من النشاطات والاعتداءات والغارات، وبالأخص الاعتداءات نظراً لقلة التجربة، وللمبالغة في الثقة من جانب قوات شبه الجزيرة الأبيربة . . . التي كان من السهل مراقبتها لمعرفة نقط الضعف فيها، وبالأخص من طرف أناس كانوا ينتظرون دائمًا وبكل دقة المناسبة المؤاتية، في هذا الإطار، أخذت تتميز جماعة مركبة من ثمـانية أو عشـرة شبان من نفس السن، من بينهم (اخريرو). وكان أن عهد إليه بعدة هجومات صغيرة لم يبق لها نظراً لتفاهتها أي ذكر، إلا أنه سرعان ما يؤاتيه الحظ، فتسند إليه أعمال أكسبته شهرة واسعة.

النجاحات الأولية
اختطاف السلاوي وابنة الطريس (نوفمبر 1921):

لقد اختطفت الجماعة التي ينتسب إليها اخريرو سنة 1920 ضابطاً من القناصة ينتمي إلى حامية (إيزَرْدُويْ) حملوه إلى (الحصن) وهذه الضربة، أكسبت هذه الجماعة سمعة بين الأهالي، استمرت بارزة في أعمال أخرى من القرصنة، والآن وقد أصبح أكثر جرأة، فقد هيأ للقيام بضربة ذات صفة خارقة. في ليلة الخميس 11نوفمبر

1921، ومن إحدى عرصات الضاحية المعروفة بزيانة قرب باب السعيدة من تطوان حيث كان يقطن الوجيه السيد علي السلاوي الذي كان مديراً عاماً للأحباس أخذ هذا الأخير بصحبة إحدى بنات باشا تطوان المرحوم الحاج أحمد الطريس التي كانت متزوجة بحفيد السلاوى هذا، كان السيد السلاوى مُستدعىً لأحد الأعراس. وحيث إن ضعف حالته الصحية كان يمنعه من تلبية الدعوة، بعث نيابة عنه حفيده، فاقتحمت جماعة (اخريرو) العرصة محجبة بظلام الليل. وبعد تهديد الخدم بالبنادق، أخذوا السلاوي من فراشه حيث كان مريضاً، وابنة الطريس، وحينما رجع الحفيد من حفلة العرس، أخبر بما وقع.

يمكن معرفة مقدار الشعور الذي خلفته جرأة هؤلاء الثوار بتطوان، وكذلك بعد الصيت الذي أدركه اخريرو بهذه الضربة، لقد دبر الريسوني نقل هؤلاء الأسرى إلى (الحِصْن). ومن هناك وقع افتداؤهم في أواخر ماي وأوائل يونيو من سنة 1922؛ لأن صحافة ذلك العهد تخبرنا باحتفال هام سلمت خلاله إلى السيد السلاوى شهادة جامعية تتعلق بالتاريخ في مقر الكاتب العام السيد (Luciano Lopez Ferrer) وخلال حفلة التسليم هذه، أشير إلى الشدائد التي تعرض لها في الأسر.

وإلى هذا التاريخ وهذا العمل يرجع ظهور بوادر الخلاف بين الشريف الريسوني واخريرو، لأن هذا الأخير لم يكن مسروراً من الحصة التي أعطيت له من مبلغ الفدية، وأخذ يشعر بعدم الارتياح

بقربه من الشريف. لقد وجد نفسه مهاناً، وما كان ليمضي كبير وقت ليظهر استياءه، وقد بقيت في نواحي الجبل ذكرى اختطاف السلاوي وابنة الطريس في هذه الأغنية:

الَا لَّا يَلَّالي
بالنوار الغرابي
أعشوشة طرسية
قولهم بلغوا السلام ليها
تدللي الزرابي

ألا لَّا يَلالي
يالا لا يلالي بالمولوعة
طاح الشتا طاح الما
طاح الشتا بالليقة
بلغوا السلام ليها
تدلي لي لرويقة

ألا لَّا يَلالي
يالا يلّالي بالمولوعة
لا مشي ما مشي بالسارح
بلغوا السلام ليها
تدلى لي السارح

ألا لاَّ يلاّلي
ألا لاَّ يلاّلي بالمولوعة
يا عظيم التمارة
مسكين آيالسلاوى
عباوه على الحمارة

ألا لاَّ يلاّلي
ألا لاَّ يلاّلي بالمولوعة
يا عقاد الدعية
أعشوشة طرسية
كتفَّلي نْجَبْلِيه

الاتفاق مع الريسوني(1922-1923) :

في شهر ماي من سنة 1922، استولى المقيم العام القائد الأعلى الجنرال (Berenguer) على (تـزروت) وأرغم الشريف الريسوني على الاعتصام بادغال (بو هاشم). وخلال ذلك فقد الشريف واحداً من أعظم مساعديه: احميدو المعروف أكثر باسم: احْمِيدُودَ السَّكَّان. لقد خضعت معظم القبائل. وقد ظهر في كل مرة، أن إمكانية استمالة القبائل من طرف الزعيم الثائر، أقل احتمالاً وأكثر بعداً. فكان الريسوني مضطراً ــ وقد أقبل فصل الشتاء ــ أن يتخذ قراراً إزاء المخزن.

في هذا الظرف العصيب بالذات، جاءت لمساعدته التقلبات والانقاسماتةالطائفية والسياسية التي وقعت في إسبانيا. لقد حوكم الجنرال بيرنكير (Berenguer) نتيجة سلوكه المؤدي إلى انهيار القيادة العامة بمليلية، وعوض بـ بوركيتي (Burguete). الحكومة الإسبانية تنتقل من الاتجاه الذي كان سائداً إلى اتجاه آخر معاكس، إذ تتخذ كقاعدة للعمل السياسي، الوصول بسرعة إلى اتفاق مع الشريف الريسوني، لأنها ترى أنها بتهدئة الناحية الغربية، تقضي على الثورة هناك، ولا يبقى أمامها إلا ثورة ابن عبد الكريم في الناحية الشرقية، لقد كان هذا المسلك كما سنرى عظيم الخطأ، وقد ظهرت أضراره بالنسبة لإسبانيا بكل وضوح.

وقعت اتصالات إذن بالريسوني، ومن أجل هذه الغاية أصدقاء قدماء، وآخرون جدد: الترجمان (Clemente Cerdeira) الذي كان محل ثقة الريسوني، الكولونيل (Castro Girona) الذي أكسبته شهرة سياسية رئاسته لفرقة (محلة) تطوان، واحتلال مدينة شفشاون، ومولاي الصادق الريسوني ابن عم الشريف...

لقد كانت المباحثات طويلة وشاقة: «الشريف لا يريد أي شيء لنفسه»؛ ولكن عملياً يجب ألا يتحرك أي شيء في المنطقة إلا حسب رغبته ومشيئته. وتمر التدخلات بأزمات شؤم، وبأوقات انباسط وانفتاح. مولاي أحمد الريسوني يضمن لنا السلام في (جباله). الكثير من الناس يحترزون. الجيش ضد هذا التبدّل الحاصل في الاتجاه الذي لا يبرره أي شيء، والذي هو ضار. القبائل الموالية لنا تقوم بردة فعل كانت منتظرة، لأنها ترى أنها بعد

أن قامت بحملة قوية للتغلب على الريوسني، سنسلمها مقيدة بالأغلال، إلى ذلك الذي قاومته، والذي تعرف حق المعرفة أنه لن ينسى الوقائع مهما قل شأنها، ولن يتخلى عن الصغيرة والكبيرة في عملية تصفية الحساب.

كان الجو المحيط بالريسوني عامراً بالمؤامرات والضغوط والدسائس من أجل توزيع المناصب. وفي هذا الإطار يبرز (اخريرو). لقد بقي الانتصاف من الإهانة التي الحقها به الريسوني في نظره عند توزيعه لفدية السلاوي، أمراً مؤجلاً، وهو يقدر الآن أن الفرصة مواتية لمرضاته. وذلك بمنحه قيادة بني حزمار. ولكن، في مواجهته يرتفع مضاد قوي هو: الحرطيطي الذي لا ينسى الريسوني خدماته نحوه، ولا عراقته في هذه القبيلة.

وفي تزروت حيث عاد الشريف، كانت جميع الأشياء التي لا تهمه مباشرة تسير ببطء. ومن جهة ثانية، فإنه كان يعلم حق العلم الأهمية التي كان يمثلها بالنسبة لعجبه اختيار من صبروا على أولئك الذين يريدون التعامل معه، أو على الأقل الذين لا يريدون سوى تقديم الطاعة له. وكم من واحد رجع إلى قبيلته بعد أن انتظر أياماً وأياماً، جالساً تحت ظل جدار مقام الشريف، دون أن يتوصل ــ وفي أحسن الأحوال ــ إلا إلى تقبيل (الركاب) عند مرور بغلته، وأن جميع الاحتياطي من المال الذي جمعه بجده واجتهاده من أجل أن تفتح له الأبواب، قد امتصته فجوات ذلك الحائط البشري الذي يكونه: قائد المشور، والكتاب، والمخازنية وعبيد وخدام الشريف. كم صحائف من أعماق السياسة المغربية يمكن

كتابتها حكاية عن هذه الجدران التي اتكأ إليها في خَدَرٍ عدد لا يحصى من الجلابيب البنية الجبلية!.

لقد أخذ الشريف يفقد صبره وتوازنه. المباحثات مع المسيحيين تسير ببطء، (Cerdeira) ومولاي الصادق ذاهبان راجعان من تطوان إلى تزروت. والتليفون الذي ركب للريسوني في محل إقامته، والذي لا يستغل إلا نادراً ـ يكفي أن يستعمله المنبهي قائد مشورة والحاج امبارك خادمه! ـ يشتغل الآن بصفة متواصلة. الناس في تطوان على الأقل لا يؤمنون بعروض الريسوني الغامضة. إنه يضمن السلام في جباله، ولكن كيف يمكنه ذلك وقد أصبح عليلاً، وفقد زيادة على ذلك نشاطه أيام عزه حيث كان ينزل بكل قواه كالصاعقة وفجأة على أي موقع تظهر به بوادر ضعف أو خيانة.

لقد أصبح الريسوني اليوم غيره بالأمس، وفي مجال السياسة، تكاثرت أطماعه وشكوكه وضغائنه؛ ولكنه أضاع قوته بالمرة، ومغرب سنة 1923، لم يعد يمثل حتى ظل المغرب الذي كان خلال عشر سنوات خلت.

الاعتداء على تطوان:

نعود إلى القول: أن الريسوني قد داخله الملل. يجب العمل على إقناع (رجال تطوان) على هؤلاء أن يتبينوا أنه لا يمكم أن يكون سلام في جباله إلا إذا أراده الريسوني. وعليهم أن يفهموا ان

الاتفاق مع مولاي احمد الريسوني أمر ضروري لا غنى عنه»، ومستعجل. ومن المؤكد أن احتمائه بمظهر الرجل الذي لا يريد شيئاً لنفسه، جعله يطالب ويشترط أكثر، ولكن، ألا يستحق هذا كله، ضمان السلام الفردوسي الذي يعرضه في نواحي جبالة؟

كيف السبيل إلى إقناع مسيحيي تطوان؟ كيف يمكن تكسير إيقاعهم؟ يرى الريسوني بوضوح، أن ذلك ممكن بتهييج الاعتداءات وتهيىء الضربات القاصمة. يجب إنزال إحدى العصابات إلى الميدان وتشجيعها على العمل. ولكن، كيف يمكنه ـ وهو الذي يوجد على علاقة حسنة مع الإسبانيين (وفي نفس الوقت لا يجب سماع الكلام على المخزن) كيف يمكنه القيام بذلك دون أي توريط؟ تأكيداً، أنه لا تعوزه ـ وهو المعروف بكيده ومكره وحسه السياسي ـ وسيلة (الرمي بالحجر، ثم إخفاء اليد). وسيعهد بذلك إلى شخص يثق به، فيقع اختياره على العربي ابن حليمة. يخبر هذا الأخير بذلك الحرطيطي الذي يذهب إلى الشريف لأخذ التعليمات النهائية. يتظاهر الشريف بأنه يجهل الموضوع، ثم يعود ليحذر ابن حليمة بأن الأمر يجب أن ينفذ دون أن يظهر وجه الشريف. حينئذٍ يكلف ابن حليمة اخريرو للقيام بهذه المهمة. ورغم وجود هذا الاخير بتزروت، فإنه لا يزال ينتظر قيادة (بني حزمار)، وهكذا ينزل صحبة جماعته إلى الميدان.

إن الحوادث ـ هي مروية على هذا الشكل ـ تجري داخل تركيب منطقي، غير أنها لم تقع بهذه البساطة، ذلك أنه بات من المؤكد أن اخريرو في ذلك العهد، كان قد أجرى اتصالاً مع

ابن عبد الكريم الخطابي. وأن التواريخ ليست مضبوطة؛ ولكنه من تمام المنطق الافتراض بأن عبد الكريم، كان يؤيد ذلك الذي اكتسب شهرة واسعة كرئيس عصابة، أو بالأخص لاستيائه من الشريف. وأن هذا الاستياء، هو الذي جعل اخريرو يقترب من الزعيم الريفي. وفي إحدى المخابرات لشهر نوفمبر سنة 1923، يشار إلى أن اخريرو في ذلك التاريخ «ذهب مرتين إلى اجدير». يمكن تحديد تاريخ المرة الأولى في أوائل سنة 1923، والمرة الثانية مع كامل الاحتمال بعد الهجوم على تطوان (غشت).

ورغم ذلك، فكل هذا غير واضح، لأنه إذا كان اخريرو مع الريسوني مهما كان سخطه، وأن الشريف يقذف به إلى الميدان في شهر غشت سنة 1923 للضغط لصالحه، كيف يمكن فهم سكوت الريسوني أو عدم معرفته باتصالات اخريرو مع ابن عبد الكريم، وهو الذي لا تفوته دقائق الأخبار؟ وإذا كان على علم بها، كيف يسمح بإجرائها؟ إن التفسير الوحيد الذي يمكن إعطاؤه لهذا الموقف، هو لسان الحال الذي يقول: (دعه يعمل) الذي أصبح ميزة المرحلة الأخيرة من حياة الشريف، وخطؤه الناتج عن الاحتقار الذي كان يحس به نحو الأفراد، والثقة التي لا يزال يحتفظ بها في مخيلته عن سلطته التي لم يعد لها وجود، واعتقاده بأنه لا خطورة للقبائل، ولا لابن عبد الكريم، الذي لم يحاول قط أن يجري معه أي اتصال.

وإذا كان وصف الحالة بهذا المبلغ من التعقيد غير كاف، نشير أيضاً إلى مظهر آخر بقي دائماً يطفو فوق الأحداث: فقد

انقسم الإسبانيون في مسألة إمكانية الوصول إلى اتفاق مع الريسوني أو عدمه. وهذا الانقسام، أحدث شكوكاً وترددات في القيادة. ومع وجوب قبول حسن نية الفئتين من الناحية المنطقية، هل يجوز التفكير بأن الموالين لحسن السياسة مع الريسوني، الذين كانوا يؤمنون بها، وينتظرون منها نتائج حسنة لصالح إسبانيا، قد نظروا بارتياح، إلى خروج اخريرو؟ إنه موضوع جد دقيق بالنسبة لمن تعوزه عناصر الفطنة، ومع ذلك تبقى دائمًا علامة استفهام في التاريخ، تدغدغنا معها ــ نكرر القول ــ فكرة أن الذين استوحوا هذا الموقف كانوا على حسن نية.

ودخولاً في موضوع الاعتداء على تطوان في حد ذاته، نقول باختصار: إنه حوالي التاسعة والنصف من ليلة الأربعاء 22 غشت 1923، وعندما كان النشاط على أشده في شارع الفونس XIII (شارع الجنرال فرانكو الآن)(محمد الخامس فيما بعد) وساحة إسبانيا (الفدان أو ساحة الحسن الثاني) وفي شارع محمد الطريس أيضاً، الموازي لشارع ألفونس XIII، سمعت عيارات نارية موجهة نحو الشارعين آتية من الظلمة التي كانت مخيمة على ما يسمى اليوم ساحة مولاي المهدي أو ساحة الكنيسة، كان مصلىّ العبيدين هناك، وفي تلك الأثناء، كانت الأعمال قد ابتدأت لإقامة الكنيسة الحالية، كانت البلبلة عظيمة، يضاعف منها صرخات الجرحى. ومن جميع نواحي المدينة، تمكنت العصابة من التسلل، كما دخلت ساخرة من مراكز الخفر القائمة بمعسكر الجنرال (Marina). (مارينا) حضرت وبكل سرعة، قوات من (المحلة) لتقوية هذه الأماكن.

ولفهم الموقف أكثر يجب التذكير بأنه ابتداء من شارع سيدي المنظري حالياً إلى ساحة الكنيسة اليوم، ثم لغاية معسكر الجنرال (مارينا) كانت البنايات قليلة ومنعزلة ولم يكن هذا الجزء المنبسط من المتسع القائم اليوم، قد وجد بعد.

كان المقيم العام (سيلفيلا) (Silvela) موجوداً آنئذٍ بمدينة مليلية. وقد كلف بشؤون الإقامة العامة السكرتير العام (Don Diego Saavedra Y Magdalena)، وقد بعث المقيم العام برقية إلى وزير الحربية مشيراً إلى الحوات هكذا:

«أبلغني السكرتير العام، وكولونيل القيادة العليا النائب الثاني لمكتبي الحربي، أنه على الساعة التاسعة والنصف من ليلة أمس، سُمعت في تطوان طلقات متواصلة متجهة نحو جزء من متسع المدينة، محدثة بطبيعة الحال ذعراً. وفي الحين خرجت قوات من (المحلة)، وانتهى الحادث بعد عشر دقائق ولكن بعد وقوع خسائر في الأرواح لم تحدد لغاية هذه اللحظة، وقد طلبت إيضاحاً لها. والسبب يعزى إلى الرغبة في إحداث وقع في النفوس، وبالأخص في اليوم الفارط نفسه. (يشير ومن غير أن يكون لذلك معنى إلى عمليات (Tifarauin) التي كانت قائمة في جهة مليلية، والتي كانت الباعث على سفر المقيم العام. وقد أنهي الحصار في نفس ذلك اليوم 22 غشت 1923 «المؤلف») وأما الطلقات المتعددة، وكذا الخسائر البشرية، فإن كثرتها تعزى طبيعياً إلى الجلبة التي جعلت الكل يطلق النار في الظلام من غير أن يعرف لماذا ولا إلى من. لا أعطي أهمية للموضوع: لأنه ليس سوى ذعر مفتعل. إلا أنني

بالرغم من ذلك، أمرت بتتبع المسؤولين، وبفتح تحقيق، وتعزيز مصلحة الحراسة الليلية».

إن البرقية التي اعتبرت الحادثة مجرد «ذعر مفتعل» والتلميح الخيالي إلى تتبع المسؤولين، كل ذلك ليس إلا مقطوعة شعرية، ونحن نؤكد على هذا الآن. وإن الصحافة (صدى تطوان) (Eco de Tetuan) شاركت هي بدورها في هذا التوجيه المزور لإخفاء الحقيقة، على الرغم من أنها كانت تدعي خدمتها، كتبت تقول: «خدمة للحقيقة، يجب علينا أن نؤكد تحت كل الضمانات، أن الثوار لم يدخلوا إلى المدينة. والذي حدث أن حلفاء (اخريرو) كانوا فعلاً في المدينة، وأنهم جرحوا بعضاً ممن كانوا يتمشون بالقرب من الأماكن التي اختبأوا فيها.

«لم يدخل الثوار إذن إلى المدينة لأن مصلحة الخفر ساندتهم كما يعتقد الكثيرون ويعلقون». لقد انتشر الفزع في تطوان، وأخذت القطارات تخرج «جد ممتلئة بالأسر، متوجهة إلى سبتة كإجراء احتياطي إزاء الأحداث الماضية» (Eco de Tetuan 24 غشت). وكان إقبار الضحايا عبارة عن مظاهرة عاطفية من الحداد شاركت فيها كل المدينة.

وقد عقدت الغرفة التجارية في يوم 23 اجتماعاً للاتفاق على توجيه احتجاج شديد اللهجة إلى الحكومة، وقد أقفلت التجارة أبوابها، وبعد تدخلات عدة، وأحياناً عنيفة، توصل إلى النتائج الآتية: «إن القوى الحية في مدينة تطوان في اجتماعها بالغرفة التجارية، وبحضور جميع الهيئات ذات الصبغة الشعبية، وبالاتفاق

العام حول الاعتراف بالخطورة التي اكتسبتها الأحداث الجارية ليلة البارحة، اتفقوا على أن يوجهوا إلى مجادة المقيم العام المنتدب، راجين منه أن ينقل إلى حكومة صاحب الجلالة (دون الفونسو الثالث عشر) أقوى وأشد احتجاجهم إزاء الحدث الذي لم يسبق له مثيل، الذي شاهدته عاصمة الحماية بعد عشر سنوات من الاحتلال، ممثلاً في أن تصبح جماعة من الأشرار صاحبة الموقف زهاء مدة معينة، محدثة ليس فقط الذعر الطبيعي الذي له ما يبرره، بل ضحايا واعتداءات على المتاجر الواقعة في أكثر أحياء المدينة اكتظاظاً.

«إن تطوان بواسطة قواها الحية، والعناصر الممثلة لجميع الطبقات الاجتماعية دون أي تمييز تعتبر المسؤول عن كل ما وقع، سياسة التردد والحيرة، والنقص في حسن التوجيه، وضعف الطاقة التي أخذت تظهرها الحكومات الإسبانية، لجهلها الحقيقي بالمشاكل المغربية، الأمر الذي يشجع العدو على التغلغل حتى عاصمة المحمية ويتسبب في قتل المدنيين العزل والنساء، دون خوف ولا وجل.

«إن عناصر مختلف الأجناس التي تؤلف الطبقات التجارية لهذه المدينة التي يعيشون في كنف قوانينها، يعتبرون أنفسهم في خطر إذا لم تتخذ الحكومة الإسبانية الإجراءات الضرورية لحماية أموالهم وعقاراتهم المهددة بأعمال كالتي وقعت، والتي يمكن أن تتكرر بمقدار أكبر، إذا ما تأخرت إجراءات الردع القوية. وأمام هذا المنظر فهم يميلون إلى مطالبة الحكومة بأن تمهد لجميع القاطنين سبيل العودة الجماعية إلى الوطن.

«وحيث أن الجيرة قد أدركوا بالأمس تمـام الإدراك، أن القوات التي تؤلف الحامية غير كافية للقيام بجميع الخدمات، ويلاحظون أنه حيث لم يشرع في الزيادة التي تكفل الأمن والهدؤ، يجب على الحكومة أن تأمر باتخاذ الإجراءات الضرورية لتأليف (الحرس المحلي) (Somaten) لمدينة تطوان، مسلحاً بما فيه الكفاية، وفقاً لما سبق أن عبرت عنه العناصر الـوطنية المقيمـة بعاصمـة المحمية.

«وقد اتفق المجلس بالإجماع على أن ينتقل وقد يكون له شرف تمثيل جميع العناصر المتساكنة هنا، إلى (مدريد) ليضع أمام الحكومة والرأي العام الوطني مبلغ الحالة النفسية، وما تراه مدينة تطوان مناسباً حسب تجربتها لمصلحة البلاد ــ تطوان 23 غشت 1923».

إن تقارير مصالح المراقبة لتلك الأيام، وعلى الأقل التي استطعنا مراجعتها، لا تزودنا بإفادة مضبوطة عن تدخل العصابة. وفي أحد التقارير بتاريخ 25، توجد بعض التفاصيل المنفردة التي نثبتها:

«أصبح ثابتاً أن المسؤولين عن العيارات المصوبة إلى تطوان، هم (اخريرو) وشقيقه، وعلي السلميتي (Salmiti)؛ وعلى الفروج (من الواديين) و (Dudo d'hba)[1]. وهناك من يؤكد أنه رافقهم ولد الحاج الصوفي، وخمسة آخرون من بني عروس، وصديقان للسي العربي ابن حليمة من بني يدر فقط. وقد شوهدوا حوالي الثانية عشرة من صبيحة يوم الأربعاء، خارجين من بيت (الفـروج)

---

(1) لعله: ولد هيبة، المترجم.

بالوادين، مارين تحت مدشر (دار الزكيك) بسلاحهم مخبوء تحت جلابيبهم، والأمر الذي جعل الشك يتسرب إلى الناس و (مقدم) الواديين ابن عزوز يعلم القائد الركاب في تطوان، بأن (اخريرو) ينوي القيام بشيء ضد المخزن. وصباح هذا اليوم، بعث باثنين من أهل الواديين لم يعرف إسماهما، إلى تطوان. ولم يعرف سبب ذلك. وقد رجعا مبكرين، وعندما أظلم الليل، حضرا إلى (كوشة ازفان) [أفران الجير الموجود خارج الأسوار، قرب طريق محطة القطار].

«ولا نعدم من يؤكد بأن التسلل، قد وقع من نفس هذه الجهة، على يسار المركز الموجود عند مدخل الطريق المؤدية إلى المعسكر، مطلقين عياراتهم، وهاربين على الأثر إلى الجبل، حيث باتوا ليلتهم، من غير معرفة أكيدة أين كان هذا المبيت».

إن موضوع هذا الاعتداء على تطوان من وجهة نظر التعاليم السياسية، من الأهمية بحيث كان وحده كفيلاً بتقديم درس عامر بالعبرة، وحيث أن مداه البعيد إلى اليوم، يحول دون ذلك، فسنحاول مع ذلك تقديم بعض الملاحظات السريعة حول هاتين النقطتين: لمن أراد (اخريرو) أن يخدم بهذا العمل؟ وما هي الظروف السياسية التي جعلته ممكناً؟

مقابلة سيدي موسى (اكتوبر 1923):

بتاريخ 12 أكتوبر، تقابل في (سيدي موسى) (قرب تزروت) قبيلة بني عروس، كل من المقيم العام (Aizpuru)، والشريف

مولاي أحمد الريسوني بعد سلسلة طويلة من المباحثات المملة، التي ازدادت معها شروط الشريف (كن أنت الحمل، وسأكون أسداً. . .). كانت نتيجتها عقيمة. وجاءت ثورة (واد لاو) وجميع نواحي جباله خلال سنة 1924 لتظهر عقمها بجلاء. إلا أنها على العكس كانت تعني ميلاً خالصاً نحو الذين يؤيدون النظرية التي ترى أن الصداقة مع الشريف، تؤدي إلى هدؤ متصل بجباله، وتترك نتيجة لذلك حرية العمل للالتفات إلى المعضلة الخطيرة للحركة بالريف.

هناك وثيقتان من هذا العهد، هما تقريران ليومي 24 و 25 أكتوبر سنة 1923 للمفتشية العامة للمراقبات والجيوش الخليفية (كان المفتش إذ ذاك الجنرال Castro Girona)، وهما يعرضان تلقائياً كل ما يمكن عرضه لمعرفة الوضع في تلك الأوقات، في التقرير الأول، نقرأ:

«إن حالة القلق التي لوحظت خلال هذه الأيام بعد مقابلة مجادة المقيم العام مع الشريف الريسوني، تخضع من غير شك لأوامر الريسوني، الذي يريد الإبقاء على حالة كبيرة من الاضطراب في جميع القبائل، ليفهمنا قلة فعالية القيادة التي تمارسها السلطات الأهلية، والأداة التي يستعملها لهذا الغرض هي (اخريرو)[1] الذي انضم إليه زيادة على رجال عصابته بعض «ممن كان يتزعمهم

(1) في يوم 23 اكتوبر، اعتدى (اخريرو) وعصابته فيما بين الربوة والمحنش على قطار يحمل عمالاً وفي عربتين منه يحمل بعض القوات. وقد كان الثوار كامنين لهم في خنادق ومقاصب، وقد أحدث الاعتداء سبعة من الموتى، واثني عشر جريحاً.

الثوار: ابن حليمة والفحيلو والحرطيطي وغيرهم. إن هؤلاء الأهالي الذين يكونون نواة تضم أكثر من مائتي رجل، انقسموا إلى عدة جماعات، تنشر الرعب بارتكاب أعمال سيئة موجهة بكل حماس نحو الطريق الذاهبة إلى شفشاون لأهميتها وللانعكاسات التي يمكن أن تحدثها بين صفوفنا.

«وقد أصبح من المؤكد أن المدعو (اخريرو) يتصرف في أموال، ويملك أسلحة، ورغم ما يقال من أنه يستسلم ذلك كله من الريف، فإنه لا يمكن الوثوق من هذا، ويمكن الظن بأن جميع ما يستلمه آت من هذه المنطقة.

«وفي هذه المناسبة، لم يقبل الريسوني أن يتدخل الرؤساء التابعون له، ولم يسمح بالتدخل إلا لأخريرو وحده ليفهمنا دائمًا أنه متمرد عليه. ولكن هذا جد هام ويثير الانتباه بصفة غير عادية، لأن الكل يعلم أن أصحاب اخريرو كانوا حاضرين في مقابلة (سيدي موسى) أثناء المفاوضة، بينما كان اخريرو في (الحصن) ينتظر، وأنه بعد أيام من المقابلة، وفي ليلة الأربعاء 17، حضر بنفسه إلى (تزروت) وتحادث لمدة ساعتين مع الشريف، ثم توجه في نفس الليلة إلى (الحصن) حيث أخذ معه بعضاً من الرجال والمتاع وخرج تواً من هذه المنطقة. وفي الليلة التالية: الخميس 18، أحرق معابر (تَرَانِكْتْ) وقطع الأسلاك التليفونية، وأخذ مؤونة مدشر (أمْطِيلْ).

«وعندما كان اخريرو بمدشر (الحصن)، خوطب المنبهي بواسطة للشريف سيدي المكي هاتفياً ليقول هذا للشريف أن يغتنم فرصة إقامة اخريرو بـ(الحصن) للقبض عليه، فأجابنا بأنه كان يعمل لتنفيذ ذلك بالسياسة، وأنه لا يريد القبض عليه في ذلك

المدشر لقداسته، وقد عرض عليه أن نذهب نحن بقواتنا لتنفيذ ذلك، فأجاب بأنه سيدبر الأمر بنفسه، والحالة أنه تركهم يذهبون. وبعد ليلة من مقابلة الشريف أحرقوا معابر (ترانكت) وقطعوا الخط التليفوني. وبعد يومين، ارتكبوا نفس العمل بالمعابر والخطوط الهاتفية الواقعة وراء (سوق أربعاء بني حسان).

«وبعد إحاطة الريسوني علمًا بهذه الأعمال بواسطة المنبهي أجاب قائلاً: إن مسؤولية ذلك تقع على عاتق القواد الذين يعملون بجانبنا. وكان من الواجب استبدالهم بعد أن أصبحوا غير صالحين وإن لهذه الإجابة مغزى.

«لقد جرت خلال هذه الأيام أحداث تبرر هذه الحالة من القلق، والتي تعزى إلى تعليمات الريسوني».

* * *

«ومن غير شك، فإن تنظيم الشريف لهذه الأمور، لا يزداد مع مرور الأيام إلا وضوحاً. والدليل على ذلك نزول الثوار التابعين لعصابات الرؤساء المنضوين تحت لوائه إلى الميدان، ومبيت اخريرو ببيت القائد حفوظ عند توجهه إلى (الحصن)، هذا القائد الذي هو من أتباع الشريف جسمًا وروحاً كما هو معروف. ولقد توصل القائد ابن سعيد برسالة من اخريرو يهينه فيها ويهدده بسبب تأييده لنا. وفيما يقول بأنه سيقترب الوقت الوقت الذي سيلتقي وإياه وجهاً لوجه، وأنه بعد ذهاب المسيحيين من البلاد، إذ ذاك سيصبح في قبضته وإذ ذاك سيثأر منه لسلوكه الحالي.

«ومع جميع الاحتياطات المتخذة فإنه من الصعب تفادي وقوع أي حادث مفجع، لأنه نظراً لوجود الكثرة من الثوار في جميع القبائل، ونظراً لتجمعهم في عصابات صغيرة كما يفعلون، فإنهم يستطيعون الهرب من كل مكان. وفوق ذلك، فهم يتركزون على طول خط: تطوان ـ شفشاون الذي يعرفون أنه أكثر الخطوط التي يمكنهم منه أن يلحقوا بنا ضرراً، ويتسللوا بكل سهولة، حيث يتاخمون قبيلة (بني عروس) التي بوجودهم فيها يكونون بمنجى من كل خطر، ولغاية (بني يدر) الوعرة والغير مأهولة، بدون حماية، وفي كنف أناس قساة، يصبحون باللجوء إليها في نقطة أقل استحالة للقبض عليهم.

«وزيادة على ذلك يجب ألا نغفل عامل معنويات الموالين لنا، الذين مهما تصرفوا لحد الآن بكل انقياد ويعملون أكثر، فإنهم لا بد سيملون، الأمر الذي يستوجب منا ألا نطالبهم بأكثر، حتى لا نعدهم مسبقاً للاستجابة لأي ضربة جادة تهيأ لنا. ولإجتثاث الشر من الجذور، ينبغي التوجه إلى مصدره: الاقلاع عن سياسة الغموض والحل الوسط، إقرار اتباع مخطط معين دفعة واحدة، أو إعطاء الشريف كل ما يبدو أنه يطالب به، أو تهيىء ضربة مع كامل الاحتياط، بحيث يقبض في يوم معين على سائر الزعماء الذين خرج أصحابهم ثائرين. وإذا لم يقطع الشر في حالة الصحة، فسيكون من الصعب إنهاء هذه الحالة التي إن طال أمدها فستصبح خطيرة جداً، لأنه نظراً لظهور ضعفنا الواضح، فسنفقد باستمرار أنصارنا، وسنصل في أقرب وقت إلى وضعية عصيبة جداً. وفيما

يخص قبيلتي (بني حزمار) و(بني حسان)، فإنه لا زال في إمكاننا عمل ما نريد عمله بكل قوة وفي أي إتجاه: لأن أهالي هاتين القبيلتين يستجيبون على العموم لأي خطة جماعية تتخذ في هذه المنطقة.

«وفي نظرنا، أن لعب الريسوني يظهر بجلاء في كل هذا. وهو يرمي من ورائه أن يظهرنا بكل بساطة، بمظهر العاجزين عن إبقاء المنطقة هادئة، وأنه ضروري، ليبلغ بهذه الطريقة، ما لم يستطع بلوغه لحد الآن.

«يمكن الوثوق من أن هروب اخريرو عند هجومه على تطوان، كان بأمر من الشريف. فقد كلف ابن حليمة أن يبحث عن شخص يلقي به إلى الميدان. فما كان من ابن حليمة إلا أن أخبر بذلك الحرطيطي الذي ذهب لاستشارة الريسوني. عندئذ اختير اخريرو الذي قبل الأمر في الحين.

«إن الوضع من غير شك، جد دقيق، حيث أن تيه الأهالي يزداد يوماً بعد يوم. وهم باطلاعهم على ما يجري، لا يفسرون صداقتنا مع الشريف إلا بضعفنا. وهذا ما يحط من قوة معنوياتنا؛ لأنه زيادة على الضيق الذي يحس به الجميع، فإن الاعتقاد بأن الشريف يستطيع العمل أكثر منا، قد أخذ ينتشر، وعليه فإنه لا أحد يتجرأ على مجابهته.

«إن جميع الأعمال التي تحاول كسب ثقة «الانديجان» تصطدم بواقع الأحداث. وباستطالة هذه الحالة فسنجد أنفسنا ــ وهذا لن

يتأخر كثيراً بفضل مثيري الفتن ـ أننا نفقد كل يوم مساعدة «الانديجان» الموالي، التي هي أمر ضروري».

. . . .

أما تقرير يوم 25، فإنه يقول:

«إن الحالة في هذه المنطقة تزداد كل يوم سوءاً. وإن التردد الذي ميز عملنا في هذه الحقبة المتأخرة، قد بلغ حد القلق العام بالنسبة للموالين لنا حقيقة، أو لغيرهم من الذين هم موالون لنا بدافع الحاجة على السواء. وفي الوقت الراهن، بعد مرور أكثر من سنة من الانتظار، فإن الأمل الذي كان يحلم به الكل في أن تحل المشاكل حسب رغبته، انقلب إلى هلع حقيقي، نظراً لعدم الوصول إلى البت النهائي، لا من طرف هؤلاء ولا أولئك. إن إدارة القبائل من طرف قواد (إلا في حالات نادرة) ضعاف، وفاقدين للاعتبار إذا لم يكونوا خونة مختفين، وللصراع السياسي القائم بينهم من وراء ظهورنا؛ إن ذلك كله أحدث بلبلة جعلت كل واحد لا يرى اليوم غير ضعفنا. وقد نتج عن ذلك هروب اخريرو للمرة الأولى عند هجومه على تطوان، وعلى (بوخلاد) للمرة الثانية. والثورة التي ربما لم تكن في مبدأ الأمر بوحي من الشريف وإن كانت جميع القرائن تدل على أنها كذلك، إلا أنها من غير شك، كانت بموافقة الرؤساء المشهورين: ابن حمان، وابن حليمة، وولد احميدو، والطويلب. بعد هذا ذهب الثائر إلى (غمارة)، ومن هناك إلى الريف، حيث توجه بنفسه حسب رأي جماعة، وحسب ما يراه آخرون، بعث باثنين من خلصائه، والمؤكد أن ابن عبد الكريم

استقبلهم بحفاوة، وأعطاهم مالاً ونصائح ورسائل إلى الريسوني، تلك الرسائل التي سلمت إليه عندما كان اخريرو في (تزروت) أثناء المقابلة التي جرت بين الشريف والمقيم العام، لقد أجيب على هذه الرسائل، وإذا كانت هذه الإجابات غير معروفة، فإنه من السهل الاستدلال عليها. ذلك أنه بعد أيام قلائل، نزل الثائر إلى الميدان، وفي هذه المرة بعصابة وافرة العدد بلغت حد التعبئة الحقيقية، يعطي المال والعتاد إلى جميع من التحق به. وبانكبابه الآن على أعمال التخريب مع اجتنابه الاصطدام بالأهالي بواسطة رجاله المقسمين إلى جماعات صغيرة ترتاد جميع القبائل، حيث نجدهم في (بني حزمار) و(بني حسان) و(بني يدر) و(وادْرَاسْ) و(الحوز)، زيادة على (بني عروس) و(بني ليت) حيث نقط ارتكازهم؛ بانكبابه على هذا العمل، فإنه يعمل على رفع معنويات الأهالي. وهذا عمل جدير بالاعتبار، ويمكن أن يصبح في أقرب الآجال شيئاً مريعاً، وبمجرد نزول فرقة من فرقه على أية قرية، في أية قبيلة كانت، فإنه لا يعترض سبيلها، وتزود بالمؤونة، ويخفى أفرادها إما بدافع التعاطف، أو ــ وهؤلاء هم الكثرة ــ بدافع الخوف. وبهذه الكيفية يستحيل تتبعهم. وفي كل مرة وقعت هذه المحاولة، كانوا يجدون من يخبرهم حتى يتمكنوا من الهرب. ومن جهة أخرى، فزيادة على المساعدات التي يتلقونها من غير شك من (بني عروس) و(غمارة) و(الريف)، فإن أكثر من قائد ميدان، يساعدهم. ومن بينهم يمكن ذكر كل من قائد بني حزمار، وحفوظ وقائد بني حسان، وربما حتى القائد اليزيد. وأخيراً، فإن في تطوان نفسها، يوجد لأخريرو شركاء وأنصار، ذوو خطر ونفوذ حسبما تدل عليه بعض الأخبار.

إن الصدر الأعظم، كانت له فلاحة في هذه السنة مناصفة معه بالواديين.

«وباختصار، فإن معنوياتنا إزاء الأهالي جد منحطة، ومعنويات الثوار في تصاعد مرعب. وأنه إذا لم يقطع الشر من جذوره بسرعة، فإنه يمكن التأكد دون الخوف من اتهامنا بأننا مثيرو الرعب، بأننا نسير في اتجاه فاجعة حقيقية في خلال مدة قصيرة.

«إن الأخبار الأخيرة التي تصل بطرق متعددة معتمدة، والتي حظيت بثقة من قبل جعلتها مبنية على أساس، هي أنه داخل أيام قلائل، ربما داخل ستة أو ثمانية أيام، ستحشد العصابة لتستقر بالقوة في نقطة على خط شفشاون ــ تطوان، التي يمكن أن تكون بكامل التأكيد: (أَمْطِيلْ)، وذلك لقطع الاتصال وإعطاء دفعة قوية لخط وادْ لَاوْ ــ شفشاون. وستثار اضطرابات واعتداءات داخل المنطقة. وإذا نفذ هذا الأمر ووجدنا على الحالة التي نوجد عليها اليوم، فإن المأزق سيكون جد خطير. ويشترط لِتَلَافِي حدوثه اتخاذ قرار سريع، محسوب بدقة، عام، وموجه ليس ضد القرى كجماعات، ولكن ضد أشخاص يمكنهم بطبيعة الحال، نظراً لمناصبهم، شهرتهم، أو تأثيرهم، أن يجعلوا العامة يتخذون أي موقف معين».

. . . .

«إنه لا بداخلنا شك في أن مفتاح هذا كله، والمسؤول عنه، هو الشريف الريسوني، الذي ليس في الإمكان متابعته على هذه الوضعية لأكثر من الآن، والذي يلزم تنبيهه بكل سرعة، إلى

مسلكه، من أجل الوصول إلى حل واضح ونهائي، يكون النهاية للحالة الخطيرة التي تجتازها.

«الحقيقة، أن مظهر القضية في هذه الظروف، يبرهن عن خطورة عظمى، خصوصاً، بعد موت صاحب السمو الخليفة، إلا أن هذه الخطورة نفسها، هي التي تستوجب علينا ــ دون إضاعة للوقت ــ التصدي للقضية مع فرنسا، التي لا تنقطع عن التأييد ما وسعها الأمر لثوارنا.

«وحتى يمكن للسلطات العليا أن تتعرف على سريرة الريسوني بمناسبة وفاة الخليفة، يكفي أن تعلم أنه قد أعطيت الأوامر بالأمس لجميع القواد ليحضروا الجنازة، وعند إعطاء الأمر إلى قائد (بني مصور) من أجل أن يحضر، قالت مراقبة (دار الشاوى) إنه لا نَفْعَ من وراء إعطاء هذا الأمر؛ لأنه قد ضبطت مكالمة مع (تزروت) مع القائد المذكور تقول له إذا نودي عليه من تطوان لأي أمر كان، فليعتذر بأنه لا يستطيع الذهاب. ومع معرفة هذا، فقد وقع الإصرار من طرف هذه التفتيشية على إعطائه الأمر الذي أجاب عنه العياشي الزلال بأنه يأسف شديد الأسف، إذ لا يستطيع الخروج من بيته لأنه كان مريضاً.

«ومن غير الضروري القول بأن حفيد الشريف، مولاي علي، قد أعطي نفس الأمر، حيث إنه أجاب أيضاً بالرفض من أجل العرض.

«هاتان البادرتان، يجب أن تكونا في الحسبان، وفي نظرنا أنه

في اختيار الخليفة، والنظام الجديد الذي سيعطي للمخزن، يكمن الحل لعملنا المقبل في المغرب».

من هذين التقريرين يستنتج بوضوح، أن الوضعية كانت خطيرة، وأن خطورتها كانت تزداد يوماً عن يوم مع ازدياد حيرتنا، كان من اللازم إنهاء تلك الحالة. ولكن كيف؟ بالاتفاق مع الريسوني أو ضده؟ من وسط القبائل، كانت وجهة نظر المراقبين تتجه ضد الريسوني. أما القيادة فكانت تميل إلى سياسة الصداقة مع الشريف، وهذا سبب آخر جعل الحالة التي كانت خطيرة، تزداد خطورة. واختلاف وجهات النظر هذا، ترك الحكم غير معزز بكامل الشدة الضرورية. لقد نسي هؤلاء أن مسؤولية اتخاذ القرار ملقاة على عاتق القيادة، أما المنفذ فهو لا يُعلم القيادة بكامل الإخلاص، مقدماً لها عناصر اتخاذ الحكم المناسب. ومتى اتخذت القيادة الحل، فإن الطاعة يجب أن تكون عامة.

محادثات مع اخريرو (نوفمبر — ديسمبر 1923):

وصلنا إلى مفترق الطرق في حياة اخريرو، فبتعيين (الحرطيطي) قائداً على (بني حزمار) بصفة نهائية، وقف اخريرو في كامل المواجهة ضد الشريف. وهو على اتصال بابن عبد الكريم الذي يرى بوضوح الخدمات التي يمكن أن يقدمها إليه، وهو على استعداد لأن يقدم له كامل المساعدات المطلوبة. ومع ذلك فإن اخريرو يتردد، ويدخل في مفاوضات مع مراقبة (بني حسان). وخلال الشهرين اللذين دامت هذه العلاقات، فإن سيرته تتحسن في حدود ما هو ممكن (نظراً للعناصر من الثوار الذين يكونون

عصابته)، ويخلد إلى الهدوء، ويبين عن حسن نية. ولو أنه إذ ذاك أعطي قيادة (بني حزمار) مع قبيلة أخرى زائدة، واتخذنا منه مضاداً لثقل الشريف، لكنا قد تفادينا الكثير من الآلام! إلا أنه في حدود الإخلاص للصداقة مع الشريف، فإن هذا كان خطأً فادحاً. كيف يشك في قدرته؟ وكيف يمكن معاكسة قراره بخصوص قيادة (بني حزمار)؟ أن الشريف كان في استطاعته ترك الأمور تدور قائلاً لنا مرة أخرى أن نستغني عنه، وأن نتركه بسلام.

وكنتيجة لذلك، فإننا نسلك أقبح المسالك: أن تكون الغاية من المباحثات مع اخريرو من أجل إلهائه، في الوقت الذي يتم فيه إنجاز الاتفاق مع الريسوني. وبعد أن ييأس اخريرو، ويقتنع بأنه لن يصل إلى شيء، يرتمي في أحضان ابن عبد الكريم. وبعد أشهر قلائل، سينهزم خط (لاو) على أثر ضربات قوية، وتهتز قبائل جبالة كلها.

وبخصوص المباحثات مع اخريرو، يوجد الكثير من الوثائق. وقد شارك فيها بصفة رئيسية: أحمد المدني والرايس دودوح الذي سبق له أن عمل برتبة «سرجان» في «ميليشية» سبتة التطوعية، وأصبح فيما بعد ترجماناً مساعداً في (محلة) تطوان. وكان الجنرال «كاسترو خيرونا» يقدره ويستعمله في الخدمات السياسية. كما توجد في الوثائق المتعلقة بهذا الأمر علاقات مع الكومندان (Portillo) و (Lanhenhein) (بُوشَرْطَة)، ومع مراقب (بني حسان)، ومع علي أكريكش الجاسوس الذي سيعدم في سنة 1925 بـ «تَامَسِنْتْ» من طرف عبد الكريم.

ونذكر من بين هذه الوثائق واحدة فقط هي: تقرير القبطان، مراقب (بني حسان): (Ceano Vivas) الذي يروي قصة تلك المباحثات:

«إذا استؤنفت المحادثات مع اخريرو بعد عدة أيام لمحاولة إطالة القضية في انتظار اتخاذ قرار، أو أن تغير الوقائع ذات الصبغة السياسية العامة الحالة في القبيلة في اتجاه أكثر تحديداً. وعندما كانت العصابات في حركة دائبة من أجل استئناف المفاوضات مرة أخرى، صعد (دودوح) إلى (Taranest) لمخاطبة الثائر، ومعرفة الشروط التي تمكن من الوصول إلى اتفاق. إن المحادثات الهامة، تؤكد كل ما قيل من قبل حول الموضوع. وإن الأساس للثورة هو الكراهية الموجودة بين اخريرو، والحرطيطي، والعداء الحالي الذي يكنه اخريرو للريسوني. إنه يقول بأن هذا الأخير (الريسوني) رمى به إلى الميدان بوعود. وقد خدعه الآن. وبعد أن نفذ هو مهمته التي كان من نتائجها، أن منح المخزن امتيازات جديدة إلى الشريف، فإن هذا الأخير يعطي قيادة القبيلة لعدوه.

«وتحت هذه الشروط، فإن عناد الثائر آتٍ من قيادة الحرطيطي التي لا يهضمها كلية. إن اخريرو على اتصال بعبد الكريم الذي يستقبله دائمًا، وهو مكلف عنده بضم رجال يمكن أن يبلغ عددهم إلى الأربعمائة، لنصبح مهددين في هذه المنطقة، حتى لا نستطيع إنقاذ وَلَوْ جندي واحد من هنا.

«إن معه في الوقت الراهن ما يقرب من مائتي رجل. وزيادة على ذلك، فإن له عصابة في (غمارة) وعصابات أخرى في

(الحصن) و (بني يدر) و (وادراس) و (بني ليت) و (الحوز). وينتظر أن يتضاعف هذا العدد عندما يقتنع الجميع بضعف سلطة الشريف. وهذا جعله يشعر بالقوة، ويرى أمامه مستقبلاً زاهراً، لا يستبدله مهما يكن من أمر، بالإذعان للحرطيطي، الذي لن يتركه يعيش في هدوء؛ لأنه لعلى يقين من أن عدوه لو كانت له القدرة على قتله، لما تردد.

«هذه المعنويات تزداد مع اقتناعه بأنه إذا ما استمرت الأحوال على ما هي عليه، فإنه لا الحرطيطي ولا الريسوني يستطيعان مجابهته لأنهما لا يقدران على ذلك، إن المتبرمين من السياسة الريسونية ــ يقول ــ كثيرون بهذه المنطقة، وهم جميعاً أنصار له. ولتقوية هذا الرأي، يقدم برهاناً عليه: أن الحرطيطي لم يصل بعد إلى (بني حزمار)؛ لأنه لا يستطيع ذلك، ولن يأتي ما دام هو ثابتاً في وضعيته الراهنة.

«وإذا وعد بألا يحكم الحرطيطي، فإنه يعد بأن يستجيب لنا من حدود (أمْسَةْ)، وتطوان، إلى (الشنيتة) و (بوهاشم) مع رجاله الذين علينا أن نؤدي لهم مرتبات، وننظم منهم (حركة) صديقة، في حين يقطع هو علاقاته مع ابن عبد الكريم، مضيعاً بذلك الثلاثة ريالات اسبانية يومية، التي يمنحها له كمؤونة، الزعيم الريفي.

«إن الوضع جد عصيب، وإذا لم يتدارك، فإن الاعتداءات الأكثر عنفاً، سرعان ما تستأنف أشد من ذي قبل. يجب النظر إلى هذه الحقيقة بعين الاعتبار: إن لأخريرو اليوم أتباعاً كثيرين في هذه

المنطقة. ويمكن التأكيد على أن تمرده على الريسوني، أكسبه عطف قبيلة (بني حزمار) كلها تقريباً، وأناس غيرهم من القبائل الأخرى. وفوق هذا، فإن علم الأهالي بتعيين الحرطيطي في منصب القائد، وتأخره مع مرور الأيام عن استلام منصبه، يفقد هذا الأخير قوة ونفوذاً، وبالتالي، الأنصار الذين يتحولون عنه إلى الجانب المضاد.

«إن الأمر يستلزم إذن حلاً عاجلاً؛ لأن حيرة الأهالي، والأضرار التي تلحقها بهم هذه الوضعية ينتج عنهما وجود تذمر طبيعي يزيد من خطورة الموقف، ويعقد الأمور بصفة ملحوظة. إن الأيام التي يمكن أن تلهي اخريرو أصبحت معدودة. وعند انتهاء الأجل، فإنه ليس من السهل إدراك المبلغ الذي يمكن أن تصله الأحداث».

(اخريرو) مع ابن عبد الكريم:

كان القبطان (Ceano) على حق عندما قال: «إنه ليس من السهولة إدراك مدى الأحداث، إذا ما قطعت المحادثات مع اخريرو».

فقد ذهب اخريرو إلى (غمارة)، وإلى الريف قائلاً: إنه لن يتأخر في العودة لمحاربتنا. وفعلاً مثل بين يدي ابن عبد الكريم، وأحاطه علماً بالتذمر العظيم السائد في جبالة ضد الريسوني الذي منحناه القيادة، وعرض عليه خدماته. ونتيجة لذلك رجع بعد مدة وجيزة من الريف في (حركة) ريفية كان أول نشاط قامت به: حصار (أمطير).

وأثناء هذا الحصار، قام عملاء له بحشد الناس، وتهييج الأنفس، وتهيء الميدان، لتقوم بؤر الثورة التي أخذت تتفجر في مختلف النقط بمنعنا من إغاثة مراكز خط (لاو) عند حصارها. وكان من النتائج المباشرة لهذا العمل، الوضعية العسكرية الحرجة التي وصلنا إليها في صيف 1924، والتي اضطرت الجنرال (Primo de Rivera) إلى اتخاذ خطة التراجع عن الخطوط.

بـ(حركة) ريفية هامة، وبالجزء الأكبر من جبالة مسلحين، وبالبقية الباقية من السكان الذين يرون قواتنا في تراجع، وقد أصبح الريسوني أعزل من أي شهرة ونفوذ، أضحى اخـريرو بمساندة الثائر الريفي، زعيم التمرد في جبالة وغمارة من غير منازع، إلى نهاية انسحابنا، وإقامتنا خط المؤخرة الذي سمي «خط بريمودي ريفيرا».

ونحن نذكر من أحداث هذه الحقبة التي استمرت إلى أواخر سنة 1924 وبداية 1925 حادثتين اثنتين: الأولى، وقد كان لها صدى بعيد، هي اختطاف راهبين فرانسيسكانيين، وثلاثة من الأطفال الاسبانيين من ضواحي تطوان. لقد أخذوا إلى اخريرو الذي بعث بهم إلى ابن عبد الكريم. وقد وقعت الحادثة في يوم 14 أبريل سنة 1924. توفي الراهبان في الأسر. أما الأطفال، فقد رجعوا إلى تطوان في شهر يونيو من سنة 1926 بعد العمليات التي جعلت الثائر الريفي يهرب إلى المغرب الفرنسي[1].

---

(1) هكذا، المترجم.

أما الحادثة الثانية، فهي مواجهتنا لعمليات قاسية عند انسحابنا من شفشاون. ويعتقد أن النفوذ الشخصي للجنرال «كاسترو خيرونا» لدى الحرطيطي، هو الذي جعل اخريرو لا يضغط بإفراط على مسيرة فرقة (Mola) من (Taranes) إلى (أربعاء بني حسان).

أوج وحضيض (تازروت، يناير 1925):

بعد انسحابنا من شفشاون وقيام سائر قبائل جبالة، وانحباس الشريف في (تزروت) بلا حول ولا نفوذ، رأى اخريرو أن ساعة إرضاء حقده الشخصي الدفين للريسوني قد حلت. ومن أجل ذلك، رتب خطة الهجوم على (تزروت)، ونفذها آخذاً الشريف معه أسيراً إلى (بني ورياغل) حيث قدمه إلى ابن عبد الكريم. هذه هي لحظة الأوج في شهرة اخريرو ونجاحاته.

وأعتقد أنه لا فائدة من إعادة تفاصيل الخطة وتنفيذها هنا، ولا في تكرار الوقائع المتعلقة باقتياد الريسوني إلى (اجدير) حيث ذكرت بكامل التدقيق في كتابي: (Del Marruecos Feudal) (من تاريخ المغرب الاقطاعي) من صفحة 185 إلى ما بعدها، إلا أنني أقتصر هنا على إضافة إحدى الجزئيات التي لم تذكر هناك، والتي لها أهمية.

فاخريرو جبلي وليس من أهل الريف، لقد انتقم من الشريف، ولكن هذا لا يمنعه من الإعجاب به في قرارة نفسه. إنه ليأسف قليلاً إذ يراه مغلوباً ومقوداً إلى ابن عبد الكريم على ظهر

نعش (محفة). وربما حدثته نفسه بأن مجده هذا، لا بد فانٍ. وها هو في طريقه إلى الريف، وقد أخذ يكشف عن باطن أفكاره. كان بمعيته خالد الريسوني نجل الشريف الأكبر، ووارث سره المفضل. لقد أخذ اخريرو يعامله برفق، وعرض عليه العمل معاً، بل وطلب منه يد أخته الكبرى ليتزوجها. ولم يكن من خالد إلا أن يتحاشاه، ولكن اخريرو يلح عليه أن يطلب من ابن عبد الكريم، أن يبقى مقيمًا في شفشاون تحت حضانته ومسؤوليته، وهناك يوحدان عملهما من أجل زعزعة نفوذ ابن عبد الكريم.

إلا أن نجم اخريرو كان قد أخذ في الأفول، وهذا يظهر في مختلف المظاهر التي يمكن تلخيصها هكذا:

ـ ارتياب من جانب ابن عبد الكريم من أن يصل اخريرو إلى أن يكون قوة فعالة في جبالة. وهذا الأرتياب، أخذ ينعكس في بعثه لمراقبين من أهل الريف يقيمون في مختلف جهات جبالة، وكذلك في تعيينه لقواد من مختلف القبائل. وقد ترك لاخريرو قيادة (بني حزمار)، و (بني حسان) و (بني ليت) و (بني سعيد).

ـ القوات الريفية القليلة في جبالة نتيجة هجوم ابن عبد الكريم على ورغة في ابريل سنة 1925.

ـ الجوع والقلق السائدان في القبائل المكبوحة بقوة على طول خط الدفاع الجديد، والمحاصرة من طرف (الحركات) المؤلفة على طول خطوطنا، والتي كانت تحارب بنفس طرق الثوار.

ـ فشل اخريرو في حصاره لـ (كدية الطاهر) (شتنبر 1925) تلك العملية التي كانت أساسية بالنسبة لابن عبد الكريم.

ـ الأثر المحدود الذي تركته علمية رمي تطوان بالمدفع.

لقد كان لهذا المستوى من الحضيض الذي وصل إليه اخريرو ارتفـاع وانخفاض. وفي بعض الأحيان يتوصل من (غمارة) بقوات تسمح له بتعزيز حركته.

هزيمة ابن عبد الكريم:

كان لانهزام ابن عبد الكريم على يد قواتنـا العاملة إزاء المخزن مفعوله القوي السريع في (غمارة) و (جبالة). وكثير من القبائل، أصبحت ترى بوضوح، أنه لا يسعهـا إلا الاستسلام وجاءت حملة (Capaz) على (غمارة) لتؤكد هذا الواقع.

وفي (جبالة الوسطى) لم يبق سوى النفوذ الواضح لاخريرو، إلا أن شهرته هذه المرة، اتخذت مظهراً آخر، إذ أصبحت قائمة على الهاربين من مختلف القبائل، الذين لا يستطيعون الاستسلام إلى المخزن لسيئاتهم السابقة. ولذلك فهم يضغطون على القبائل الأخرى لئلاَّ تستسلم، ولكن الثورة أخذت في الانهيار. احتلت شفشاون من جديد. وأصبحت القبائل تحب هذا الاحتلال، ولم يبق أمام اخريرو ورجاله، إلا مقاومة التقدم أينما كان. وفي إحدى المجابهات مع جيوش المخزن، يلقي اخريرو مصرعه.

مساعي السلام (1925-1926) :

وخلال الحقبة الممتدة على طول سنة 1925-1926 لم تنقطع الاتصالات باخريرو. وقد توسط الكثيرون في هذه المساعي : عبد القادر بن الحسن العرود، مولاي علي اخمليش، الحسن (Ayana)، عبد الكريم بن الحاج علي، الكومندار (Portillo)، القبطان (Miguel)، مراقب بني حسان، و (Langenhein). . . لم يكن اخريرو في أول الأمر ينوي الاستسلام. كانت المباحثات لا تتعدى تبادل عبارات الود، ولكن دون أية فعالية. ومن جهة أخرى، كان لا يزال يتذكر الدرس القاسي الذي أعطته مباحثات سنة 1923.

وربما فكر اخريرو في أن الاستسلام ملائم في يوليوز 1926. أما بعد هزيمة ابن عبد الكريم، فلم يبق هناك وقت للاستسلام. لقد أصبح مصيره مرتبطاً برجال عصابته، وهؤلاء يحولون بينه وبين الاقتراب من المخزن. سيحاول إطالة المباحثات، ولكن دون جدوى.

مصرع اخريرو (3 نوفمبر 1926) :

لإنهاء مرحلة التهدئة في القبائل، أجرت القيادة بعض العمليات في (بني يدر)، وهذه صحافة العهد، تصف وقائع 3 نوفمبر 1926 التي لقي فيها اخريرو مصرعه :

«لقد قتل اخريرو على يد جيوشنا في المعركة التي جرت قبل يومين، عندما كان على رأس (حركته)، وبمساعدة الفارين من القبائل المجاورة، وثوار (بني يدر)، يحاول صد تقدم الفرقة التي تؤلف الجناح الأيسر من قواتنا. لقد تقدمت هذه الفرقة حتى (Semarra) التي كانت مركزاً لنا قبل تمرد جبالة، والتي تقع على إحدى الربوات. وفي المنحدر الجنوبي، كان طابور القوات النظامية لتطوان (Regulares de Tetuan) الذي يقوده الكومندار (Pujalto) و (ايدالة) اليوتنان (Sanchez Zamora) يواجه جماعة كثيرة العدد تطلق النار من غابة صغيرة تسمى غابة بني مسعود. إن ميل هذه الجماعة إلى العربدة في القتال كان فوق العادة، وكان ذلك يبدو جلياً في الضرب المتواصل المشوب بردود فعل دفاعية متكررة لا تتوقف إلّا عند أمتار قليلة من خطوطنا، وعلى حين غرة، خيم الصمت، صمت عجيب، صاعق لم يجد له أصحابنا ما يبرره، إلا بعد معرفة السبب اليوم. لقد اخترقت إحدى الطلقات النارية الفخذ الأيسر لاخريرو حتى وصلت إلى الكلية، توفي على أثرها بعد قليل.

«وقد أخبرنا بذلك أحد الأهالي من مدشر بني (Serah) المجاور، الذي استسلم أخيراً. ويقول بأنه قدم من أثاث بيته فراشاً لنقل اخريرو، ورآه بأم رأسه، مشدداً على هذا النبأ الهائل لإعطائه صبغة الصحة والدقة.

«لقد دفن الثائر الرهيب في مولاي عبد السلام. إن الذي خرج من مهد فقير، يرقد الآن بجوار احميدود الكسان أحد رؤساء الريسوني العسكريين الأذكياء الذي قتلته جيوش تطوان النظامية

(Regulares de Tetuan) أثناء معركة (تزروت)، وبجـوار أكرم الشرفاء العلميين.

«مات اخريرو، واكتسى الجبل حلة الحداد لاختفاء آخر زعيم من زعمائه، وجميع هذه القمم الشاهقة، والوديان العميقة، وهذه الغابات الكثيفة، تعرف ظل هذا الزعيم الجريء. وها هو اليوم يستظل بالأشجار الألفية من جبل العلم، حيث يرقد جثمان أعظم أولياء المغرب.

«بقيت بعض العصابات محافظة عـلى الاضطراب داخـل القبائل التي لا تزال ثائرة على المخزن. إلا أنه لا الحرطيطي، ولا الكورطيطو، ولا غيرهما في استطاعتهم أن يشكلوا تاريخاً حافلاً لمحارب ماهر ولا أن يصنعوا تلك الهالة من المجد والاحترام كالتي توجت هامة هذا البطل الجبلي، الديمقراطي، والشعبي، الذي يؤلف اسمه أحد الأوسمة المعلقة على صدر سائر الثورات، وباعثاً له ما يبرره لانشغال القيادة».

إن حياة اخريرو الوجيزة، وذات الجرأة على محاربة المسيحي، ومصارعة أكبر قوة عرفتها جبالة. وموته البطولي وهو يجاهد بحماس في الوقت الذي كان يعرف، عقم هذه المحاولة، وقبره بمولاي عبد السلام تحت حماية أقدس أولياء الجبـل، بجوار غيـره من المجاهدين ورجال الدين، كل ذلك هو بالنسبة لـ (بني حزمار) تذكار من المجد، ذلك التذكار الذي يتجاوز حدود هذه القبيلة.

لقد أهداه الشعب قصائد تتغنى بأمجاده، وأوجزت الصبايا إعجابهن بالبطل في هذه المقطوعات الصارخة.

أَلَا لَّا يلَّالي
ألَا لَّا يلَّالي
عِينُونِي ياخْواتي
بالجنحين دْلِيمَامة
بالجنحين دليمامة
خوفي من العار
واشكون بك
افاطمة[1]

* * *

أَلَا لَّا يلَّالي
أَلَا لَّا يلَّالي
عينوني يا اخواتي
الحشفة دالواد
خوفي من العار، وْلَمَّنْ
نخلي امَحْمَّد[2]

* * *

أَلَّا لَّا يلَّالي
أَلَا لَّا يلَّالي
عِينُونِي يا اخواتي

---

(1) ابنة الثائر.

(2) ابنه.

يا اخويَّطْ الـْمْشَمَّر[3]
يا خويط الـمْشَـمَّـر
حين نموت لَّمَنْ
نخلي بني حزمر

* * *

أَلا لَّا يلَّالي
أَلَا لَّا يلَّالي
عينوني يا اخواتي
يا خويَّط الدفينة
يا خويَّط الدفينة
خوفي من العار
إذا قبضوني
في المدينة

* * *

أَلَّا لَّا يلَّالي
أَلَّا لَّا يلَّالي
يا طريَّفْ السكر
يا طريف السكر
عينوني يا اخواتي

---

(3) خيط من الصوف يربط به النساء في الجبل أطراف الأكمام، ويضعنه في صدورهن.

خوفي من العار
إذا قتلوني العسكر

* * *

أَلَّا لَّا يلَّالي
أَلَا لَّا يلَّالي
يا السَّبْنيَّة دالرِّيش
يا السَّبْنيَّة د الريش
عينوني يا خواتي
إذا مت، اتَّجْمْعُوا
في ابن قَرِّيشْ

* * *

أَلَّا لَّا يلَّالي
أَلَّا ييلالي
يا الحرير دالسَّلْهَام
ياالحرير د السلهام
عينوني يا اخواتي
إذا مت آبني حزمر
دفنوني في مولاي عبد السَّلام

* * *

الفصل العشرون

لماذا دخل الأمير محمد بن عبد الكريم في حرب مع فرنسا؟

كانت فرنسا تحتل الجزائر (1830)، وتونس (1882)، وفي المغرب الذي وضع كله، ماعدا شماله، تحت «حمايتها»، باسم معاهدات آخرها معاهدة 30 مارس 1912، اشتبكت فرنسا في عمليات حربية مع حركة المقاومة المسلحة المغربية من 1907 إلى 1934، وكانت حربها مع الريف أكبر وأشد محنة اجتازتها لتثبيت وجودها في المغرب كدولة مستعمرة، ولم تكن فرنسا تنظر بعين الرضا والاطمئنان إلى انتصار الثورة الريفية على الاسبان الذين، لكثرة هزائمهم، وفداحة خسائرهم، انسحبوا فعلاً إلى مراكز ساحلية كمليلية، وتطوان، وسبتة، بالمغرب، لهذا بدأوا، خلال 1924، باجتياز نهر ورغة، واتخذوا في سفوح جبال الريف حصوناً عديدة، كما فتحوا طريقاً عسكرياً بين فاس وعين (عيشة) حيث أقاموا معسكراً كبيراً، وتحصنوا بتاونات، وهكذا تمركزوا طول الشمال شرقاً وغرباً، ولم يكن كل هذا ليبعث على الثقة والاطمئنان في الريف، ومما أغرى الفرنسيين على ذلك الاندفاع أن حدود المنطقتين لم تكن واضحة وثابتة حيث كانت مصطنعة بين دولتي الاستعمار.

وبالإضافة إلى ذلك لم يطق الفرنسيون في الشمال قيام دولة مستقلة ذات جيش منظم، ومجهز، ومظفر تمكن من هزم اسبانيا في سائر المعارك التي انتهت بكوارث عسكرية كبرى، وما كتبه ليوطي لحكومته خير برهان على ذلك الموقف الفرنسي القلق.

كل هذه الأسباب والاعتبارات جعلت الفرنسيين يستعدون للحرب، فأخذوا يتحرشون بثورة الريف في تحديات متكررة سافرة.

وإذا كان هذا هو الموقف الفرنسي وقتئذ فإن موقف قادة الريف كان، خلال الحرب مع اسبانيا، هو العمل بكل وسيلة في فاس، والرباط، وباريس لإقناع الفرنسيين بحسن نوايا الثورة الريفية، وبالرغبة في إيجاد صلات تقوم على المسالمة بين الطرفين، ولكن كل المحاولات والمساعي في هذا السبيل باءت بالفشل، لأن نوايا الفرنسيين كانت سيئة تبيت الشر والعدوان، ولهذا كانت الحرب بين الجانبين آتية لا ريب فيها عندما تهيئها الظروف، وتضطر إليها المصلحة، وفعلاً تم هذا بمبادرة الفرنسيين كما أشرنا إليه سابقاً.

وقبل أن تجد الثورة الريفية نفسها بين عدوين، الاسبان شمالاً، والفرنسيين جنوباً، سعى قادتها جهدهم لتلافي الوقوع بين نارين وخوض الحرب في جبهتين، فأوفدوا مبعوثيهم إلى السلطات الفرنسية في فاس والرباط لمحاولة إقناعها بموقف الريف المسالم، وبلزوم جانب الحياد في الخلاف والاصطدام مع الاسبان، ولكن النتائج كانت دائماً سلبية، ولكي تتضح نوايا ومواقف السلطات

الفرنسية نذكر ببعض الحقائق، وهي أن ليوطي كان معارضاً لكل اتفاق وتعاون مع اسبانيا خلافاً لما كان يفكر فيه ويحاوله المسؤولون في وزارة الخارجية الفرنسية في عدة برقيات وخطابات مرسلة إليه، فكان جوابه: «لا أستطيع أن أتولى هزم ابن عبد الكريم بدلاً منهم، فإني أعتقد أنهم عاجزون عن القيام به، فهل بتضامن جد بارز معهم أكون السبب في جعل الريف كله على ظهري، فأخسر بهذا ثمرة السياسة الشريفية المتبعة منذ اثني عشر عاماً (تقرير بتاريخ 22 مارس 1924). وقد اقترح احتلال الضفة الشمالية لنهر ورغة دون اطلاع الاسبان، ومن غير أن تَظْهَرَ العملية بأية صفة كتعاون فعلي ضد ابن عبد الكريم، ولكن ليوطي كان يعتقد أنه من الضرور احتلال تلك الجهة، ولم يفكر في التعاون مع الاسبان إلّا وقتما تجلى له الخطر الذي أصبح يهدد فاساً بالهجوم الريفي البالغ منتهاه في مايو 1925، وأراد أن لا يكون ذلك التعاون رسمياً ومشهوداً. وغني عن البيان أن هجوم الريف في ناحية ورغة جاء نتيجة الاحتلال الفرنسي الذي اعتبر تحدياً وخطراً، وضرب الحصار على الريف حتى تقطع عنه موارد هذه الناحية الضرورية للتموين والتغذية. وكان الحصار بطلب من الاسبان، ولم يسمح الفرنسيون إلّا للأفراد بارتياد الأسواق وكانت لهم في هذا نوايا وأغراض سياسية قريبة وبعيدة.

ويتضح كذلك موقف الريف في مهادنة الفرنسيين من تصريحات الناطقين باسمه، ومنهم ازرقان، وزير الخارجية، الذي صرح لمبعوث فرنسي إلى اجدير بقوله: «إن محاولة الفرنسيين

الآن الاستيلاء على بني زروال سيلحق بنا وكذلك بهم خسارة، إنك لا تجهل أننا فزنا أخيراً أعظم فوز على اسبانيا كأمة أوروبية، ونحن على وشك الاستيلاء على كل منطقتهم، وسواد الريفيين لا يفرقون بين الأجانب، فإذا دخل الفرنسيون لبني زروال فإن القبائل ستطلب منا بكل تأكيد معارضة تقدمهم، ولا يمكن أن نمتنع من هذا، وإلّا اندلعت الثورة عندنا».

«منذ وجد الريف ونحن نحرص دائمًا على حسن العلائق مع الفرنسيين الذين لا نتضايق منهم، والذين نتعاطف معهم، وعلى العكس من هذا تذمرنا كثيراً من تصرفاتهم معنا، وفي بداية السنة المنصرمة هاجموا بدون مبرر ممثلينا في مرنيسة بواسطة القائد المذبوح، وبعد ذلك أثار تقدمهم شمال ورغة تمرداً في غمارة، وتلافياً لعودة أعمال من هذا النوع رأينا من الواجب إقامة مراكز حراسة مقابلة لتنظيماتهم العسكرية». «إننا نعرف قوة فرنسا، ونقدرها حق قدرها، ولكن يلزم أن تعرف السلطات الفرنسية جيداً أنها إن قررت في وقتنا هذا القيام بتقدم في بني زروال أو متيوة أو أي مكان آخر توجد فيه فمن المحقق أنه سيؤدي إلى «البارود» (الحرب) بيننا، ولا يمكننا أن نعمل غير هذا، وكل الريفيين مصممون على الموت إن لزم الأمر للدفاع عن قضيتهم». وهذا موقف صريح ينطق بالتحذير والإنذار، ولكن الفرنسيين استمروا في تحدياتهم وتحرشاتهم حتى خاضوا مع الريف حرباً أعدوا لها كل عدتها، وتعاونوا فيها مع الاسبان للقضاء على الثورة التحريرية بعد عدة سنوات من جهادها البطولي الخالد.

بعد هذا نريد أن نقف وقفة لبحث اعترافات من انتقدوا إقدام الريفيين على الدخول كذلك في حرب مع فرنسا، فقد قالوا إنها (غلطة) عرضت الثورة الريفية إلى سوء المصير بعد الانتصار على اسبانيا، ثم أدت في النهاية إلى اختفاء كل ما حققته، واعادة اسبانيا إلى احتلال الشمال بعد أن انسحبت منه، وكل هذا واقع وصحيح، وبكل أسف، ولكن على من تقع المسؤولية؟ وإجابة على هذا يمكن لكل واحد أن يبني حكمه على اعتبارات واقعية، وحيثيات منطقية يعسر الرد عليها، ونحن لا نريد أن نستعرض كل ما قيل جواباً على ذلك السؤال مما تضاربت فيه الآراء، وتناقضت فيه الأحكام. ولمحاولة توضيح الحقيقة العسكرية والتاريخية نذكر بما قلناه حول الموقف الفرنسي من ثورة الريف، وهو عنصر أساسي في تقدير الوضع وقتئذ بالنسبة لقادتها، فالبادىء أظلم، كما يقال، وقد كان الفرنسيون هم البادئين لا برفضهم للمسالمة من لدن الأمير محمد بن عبد الكريم فحسب، بل بما أقدموا عليه من تقدمات عسكرية داخل أراض تعتبرها ثورة الريف ملحقة بها، وعلى طول المنطقة الشمالية التي أصبحت فيها سيدة مطلقة بحكم الحرب والظفر فيها، فهذه حقيقة تفرض نفسها حتمًا على كل باحث نزيه ومنصف، وحقيقة أخرى لا تقل عنها قيمة وأهمية وهي أن قبيلة بني زروال التي ناصرت الثورة الريفية تلقائياً ضد الاسبان هي التي كانت أوفدت إلى الأمير محمد بن عبد الكريم وفداً طلب منه المساعدة لرد هجومات الفرنسيين على أراضيها، وبما أنها استنجدت به ضد العدوان عليها فهل كان من المعقول، والمقبول، والمصلحة الوطنية رفض طلب النجدة، خصوصاً وأن الوضع فيها، كما أوجده

الفرنسيون على طول حدود منطقة الشمال، أصبح إذاك خطيراً ومهدداً بكل شر بالنسبة للثورة الريفية الظافرة؟ وقد لبّى ابن عبد الكريم ذلك الطلب كرهاً لا طوعاً، وأعلن أنه ارتكب بهذا حماقة لا بد منها.

إن كل هذا يدخل في تقدير الوضع القائم آنئذٍ هناك بسبب تصرفات الفرنسيين، وتحدياتهم، وتحرشاتهم المبنية على خطة مرسومة آخذة في الإنجاز، ويضاف إلى ذلك ما صرح به الأمير ابن عبد الكريم وهو قوله: «لقد خلق تقدم الفرنسيين في وادي ورغة نقمة عظيمة في صفوف القبائل الريفية»، كما أضاف: «كان هذا الشريط من الأرض يقع تحت إشراف الريف المباشر وقتما تقدم الفرنسيون فيه، ولا يهمنا كثيراً أن تعتبر إسبانيا أو فرنسا أن هذا الشريط يقع تحت سلطتها الانتدابية، فحكومة الريف لم تقبل قط أو تعترف بتجزئة المغرب إلى «حمايات» مختلفة تحت السيطرة الأجنبية».

ففي هذا عنصر أساسي آخر، هو الشعور القومي، والواجب الوطني اللذان أمليا على كل ذي ضمير ومسؤولية من قادة الثورة الموقف الوحيد الصحيح، وهو تلبية نداء النجدة من إخوان في الله، والوطن، والمصير. فكيف كان يمكن ـ والحالة هذه ـ أن يتخذ الأمير ابن عبد الكريم غير ما اتخذه من موقف وطني بنجدة إخوانه وحلفائه في حرب التحرير التي قادها من نصر إلى آخر؟ وقد اتخذ موقفه وهو يعلم أنه يرتكب ساعتئذٍ «حماقة» ـ كما قال ـ

ولكن كان لا بد من ارتكابها محافظة على الشرف والنفوذ. ومما دفعه إليها أنه كان موقناً بأن حرب فرنسا آتية لا ريب فيها بعدما استعدت لها، وشرعت في التخطيط والتمهيد لها في انتظار اليوم الموعود، وقد كان قريباً غير بعيد، كما دلت عليه كل القرائن والأحوال وقتئذٍ.

ألم يكتب ليوطي لحكومته: «إن قبائل الريف تخضع لأول مرة في تاريخها الطويل لرجل فرد، وتعيره أذناً صاغية، إن ابن عبد الكريم يرغب، فيما يبدو، في تمثيل دور مصطفى كمال، إن أمير الريف هو بطل الاستقلال المغربي، كما أن صوراً ملونة له تنتشر في شمال أفريقيا، بل آسيا الصغرى، إن الريفيين يهيئون علناً تغيير الجبهة ضدنا، وطالما أننا لم نوطد مواقعنا شمال نهر ورغة فإن سيطرتنا على فاس، وخط مواصلاتنا الرئيسي تازة ـ فاس يظلان تحت رحمة غزو ينهال من الشمال، إننا نواجه حقيقة حية تزداد تطوراً يوماً بعد يوم».

ثم طلب ليوطي إحدى عشرة فرقة جديدة على أقل تقدير للرد على أي هجوم، وليتمكن من القبض على زمام المبادرة في الهجوم المبيت.

فهل بعد هذا يقال إن قرار ابن عبد الكريم الدخول في حرب مع فرنسا غلطة، وليس موقفاً أملاه منطق الأحداث والتطورات، زيادة على الواجب والصالح الوطنيين؟

وقد كانت الشرارة التي أشعلت نار الحرب هي الحملة الفرنسية في ربيع 1924 لاجتياز نهر ورغة، واحتلال الهضاب الموازية له، وقال «والتر هاريس» الصحفي الانكليزي الخبير في شؤون المغرب: «كانت تلك هي المرة الأولى التي توفرت فيها حجة من أجل القتال لدخول الفرنسيين منطقة ينادي ابن عبد الكريم بنفوذه عليها». وبعدما أكد أن ابن عبد الكريم لم يقدم على تنفيذ طلب بني زروال فوراً، قال (هاريس): «لا ريب أن هذه الحركة الفرنسية هي التي أوقدت نار الحرب مع أهل الريف، إن ابن عبد الكريم كان رجلاً لا يتورط في أية مغامرة قبل أن يدرس جميع احتمالاتها، وكانت قوة الأحداث قد جعلت من المستحيل عليه ألا يقاوم خطر الغزو الفرنسي، ولكنه لم يكن متحمساً لذلك».

وقبل الدخول في الحرب، وجّه القائد عمرو حميدو إلى امجوط في بني زروال ليطلب من الدرقاوي استعمال نفوذه لتراجع الفرنسيين عما احتلوه من أراض في ورغة، فوصل في 13 ابريل 1925 ومعه 500 محارب، ولما علم الدرقاوي بالخبر فر إلى الخطوط الفرنسية مدعياً أنه هوجم من لدن الريفيين، فوجد الفرنسيون الفرصة سانحة لبعث طائراتهم لقنبلة الزائرين المسالمين، ورميهم برصاص الرشاشات، فكان الاعتداء على عمرو حميدو مع رجاله في التراب الريفي، واستطاع أن ينجو بنفسه وبرجاله، ويتوجه إلى تافرسيت ليتصل بابن عبد الكريم الذي أعلن أن الإمدادات سترسل في الحين إلى عين المكان لرد الهجوم الفرنسي، والدفاع عن التراب المعتدى عليه.

تلك هي حقيقة نشوب القتال بين الفرنسيين المعتدين وبين المجاهدين المدافعين عن أرضهم وثورتهم التحريرية المشروعة، فليسجلها التاريخ، وليتخذها المؤرخون عنصراً أساسياً في حكمهم بالنسبة للأحداث والرجال الصانعين لها.



الفصل الواحد والعشرون

جهاز الحكم لثورة الريف

1 ـ الهيئة الحاكمة:

(حسب مصدر عسكري إسباني هام):

ـ **الرئيس**: محمد بن عبد الكريم.
ـ **الخليفة**: محمد ولد عبد الكريم (أخ عبد الكريم).
ـ **وزير المالية**: عبد السلام الخطابي (عمهما).
ـ **وزير الخارجية**: محمد ازرقان.
ـ **وزير الحربية**: عبد السلام الحاج مُحَنْدْ، من بني ورياغل، (استبدل بعد فشله في تيزى عزة بأحد بُوَدَرَّة).

ـ **وزير الداخلية**: اليزيد بن الحاج حمو، من بني ورياغل.

ـ **مفتش البحرية**: حدو بن علي لمعلم، من اجدير.

ـ **ناظر الأحباس**: احمد ورود، من بني ورياغل.

ـ **ناظر الضرائب**: عمرو بن محمادي، من بني ورياغل.

ـ **قاضي القضاة**: محمد بن صالح، من بني توزين.

ـ **المتصرف**: مؤدّي المرتبات): محمد بوجيبار، من اجدير.

- **قائد المشور**: عبد الكريم بن السي حدو، من اجدير.

- **دافع مرتبات القوات النظامية الريفية**: السي علي بن محمد (علي ولد فطومة)، من اجدير. اما عم الأمير محمد بن عبد الكريم الأمير عبد السلام، فكان كوزير لمالية المجاهدين، يعتبر الشخصية الأكثر تأثيراً في حكومة الريف، والمستشار الرئيسي لابن عبد الكريم.

وأما أخوه الأمير محَمد فكان بصفته خليفة له هو الذي ينوب عنه في الحكم أثناء غيابه، وبصفته الرئيسية يقوم بجميع الأعمال الحربية، ويعد من هذه الناحية الرئيس الحقيقي للقوات الريفية، أي رئيس هيئة الأركان، يستوي في ذلك الجيش النظامي والقوات التي تنظمها القبائل، والأمير محَمد هو الذي قاد العمليات الهجومية الكبرى لقوات ابن عبد الكريم، والذي كانت له القيادة العليا بشفشاون وغمارة سنة 1924، والذي قاد أكبر هجوم مركز على بني زروال في المنطقة المحتلة من الفرنسيين سنة 1925، فهو المحارب الحقيقي الذي قاتل إلى آخر لحظة دفاعاً عن جبهة اجدير ضد هجوم الإسبان الصاعق سنة 1926.

وقد استسلم كل من الأميرين محَمد وعمه عبد السلام للفرنسيين سنة 1926 في نفس الوقت الذي استسلم فيه الأمير محمد ابن عبد الكريم، وقد شاركاه غربته في جزيرة (رينيون)، كما شاركاه القيادة أيام انتصاراته من غير أن ينشأ بينهم في أي لحظة

خلاف ولا تنافس، كما لو كانوا في الحقيقة يؤلفون إرادة واحدة وعقلاً واحداً.

أما أحمد بودرة، فقد كان وزيراً للحربية ابتداء من سنة 1923، وهو المؤسس الحقيقي للجيش النظامي الريفي، والذي قاد المنظمة العسكرية للقبائل، وهو رجل صلب وقاس، مارس قيادته باستبداد حقيقي، وحقق بذلك سيطرة كبيرة على سير العمليات العسكرية، وكان يعمل بصفة رئيسية في المنطقة الغربية كنائب للسي محمد، وبهذه الصفة كان هو الذي أراد الهجوم المخيف على كدية الطاهر (تطوان) في شتنبر 1925، وقد استقر فيها بعد بمعسكره العام في تغزوت (بني حسان)، ومن هناك، مربوطاً بواسطة الهاتف مع اجدير، وباتصال مباشر مستمر مع اخريرو، قاد الثورة في «جبالة»، وحتى بعد أن استسلم الأمير ابن عبد الكريم، أصرَّ هو على المقاومة كاتماً نبأ الهزيمة على قبائل «جبالة»، ومتظاهراً أمام رؤسائهم بإجراء مكالمات هاتفية مع الذي كان قد أصبح أسيراً لدى الفرنسيين إلى أن أسرته قوات الكومندار كاباص في غمارة في صيف سنة 1926، واعتقل في الجزر الجعفرية (شافارينة).

وكان القائد ابن علي المعروف بالفقيه بولحية، من أوائل المتعاونين مع ابن عبد الكريم منذ اجتماع جب القامة (بتمسمان) من أجل الهجوم على أبران سنة 1921، ومع أن تسميته الرسمية كانت وزير العدل، إلا أنه عمل أكثر ما عمل كرجل حرب، مؤلفاً، بالإضافة إلى القائد ابن حدو المعروف بالقائد علوش، وموح حميش، والقائد بوحوت (هارب قديم من الشرطة الأهلية)،

واخريرو وغيرهم، هيئة الرؤساء العسكريين لابن عبد الكريم، أولئك القواد الذين قادوا (الحركات) العظمى المؤلفة من ألف رجل، والذين كانوا يدعون (كبراء المحلة).

2 ـ الاتصالات الخارجية:

وكعمال سياسيين لاتصالاته بالأجانب، استخدم ابن عبد الكريم بصفة رئيسية أخاه السي محمد، والشريف التيجاني، وعبد الكريم الحاج علي اللوه الممثل العام بطنجة لابن عبد الكريم، والمتعاون فيما بعد مع الإسبان كباشا لمدينة الحسيمة. وكذلك القائد المعروف بحدو الكحل، من بقيوة خادم قديم ببور سعيد والذي كان الواسطة في الاتصالات مع المنطقة الفرنسية بفضل معرفته للغة الفرنسية وصدقاته مع كابريلي (المراقب المدني الفرنسي بتوريرت).

وكمكلف بالتسليح الريف، عين ابن عبد الكريم الفقيه محمد الغماري، وكعميل لشراء الخراطين (القرطاس) والبندقيات، عين شعيب بن عيسى من بني ورياغل (متعاون منذ سقوط ابن عبد الكريم مع الإسبان).

وكمكلف بالمساجين، عين القائد حمو الذي كان يعده الإسبانيون الشخصية الناقمة، ونموذج الشر والحقد، والذي يجب أن يتذكر دائمًا باشمئزاز وهول من طرفهم كقاتل لضباطهم وجنودهم الأساري.

3 ـ الباشـاوات:

أما الباشاوات الرئيسيون لابن عبد الكريم في القبائل، فكانوا: الشريف سيدي احميدو الوزاني بسنادة في بني يطفت، والشريف محمد الفلاح انحليش بن محمد الكبير، في صنهاجة السراير، وعمرو بو عزة في الفخذ المتجرد من قبيلة بني سعيد الريف، وشعيب أومريوش في تمسمان، وعمرو أوكطيو في اجزناية، وعبد السلام البدري في مرنيسة، والهادي مكوح في متيوة، وأحمد المصلوحي شريف زاوية العرب، في غمارة، والقائد اخريرو في جباله.

والقبائل، حتى عندما كانت تعترف بسلطة ابن عبد الكريم، وتدين له بالطاعة في جميع ما يتعلق بالحرب وتكوين (الحركات)، فإنها كانت تأتي مع رؤسائها المحليين، وتستمر في الائتمار حسب أعرافها البربرية القديمة للجماعات أو (مجالس الأعيان)، وابتداء من هذا التاريخ (بعد سنة 1923)، فإن ابن عبد الكريم، بدأ ينظم القيادة الحكومية للقبائل حسب نظام القواد المتبع من قبل السلاطين، ففي بني ورياغل، عين خمسة قواد في آيت يوسف وعلي، وبني عياش، وبني حذيفة، وامرابطن، وبني عبد الله، وبتمسمان، عين قائدين، وفي بني توزين عين ثلاثة قواد، وواحد في بقيوة، وآخر في بني عمارت، وواحداً بجزناية.

وإن عدم تحديد اختصاصات هؤلاء القواد، والخلط بين اختصاصتهم، واختصاصات رؤساء المحاكم والإدارات التي أنشأها

ابن عبد الكريم لأغراض سياسية وعسكرية مع اختصاصات قواد الحركات، كل ذلك أدى إلى نشوء اختلافات أوجبت تعديل هذا النظام المخزني، وإقامة نظام آخر شبيه بنظام «الحماية»، وذلك بتعيين باشاوات أو قواد على القبائل تحت إشراف مراقبين من رجال الريف كلهم تقريباً من بني ورياغل وكانوا هم الممثلين الحقيقيين لابن عبد الكريم، يفرضون باسمه الغرامات والعقوبات.

4 ـ المحاكم:

ومن أجل الإعداد للهجوم والدفاع عن القبائل، أنشأ مصلحة للإعلام والاستخبارات كانت مركزة في المحاكم أو الإدارات التي أنشأها في أرجاء المنطقة التي كان يسيطر عليها، ومن هنا أتى النفوذ والأهمية اللذان كان يتمتع بهما رؤساء هذه الإدارات.

والمحاكم الرئيسية كانت هي:

- المحكمة المركزية في مزماط باجدير.
- المحكمة بآيت قمرة.
- محكمة أكشاب، أو مغار بتمسمان، في مواجهة الخطوط الإسبانية بمنطقة مليلية.
- محكمة تركيست.
- محكمة تغزوت، وهي مركز أخ ابن عبد الكريم في بني حسان (جباله).

ـ محكمة اخريرو، في دار الراعي (بني حزمار).
ـ محكمة بني بربر، وهي مقر أخ ابن عبد الكريم في الجبهة الفرنسية.

5 ـ جهاز التجسس:

وقد كان لابن عبد الكريم الكثير من الجواسيس بين سكان المنطقة المحتلة من إسبانيا، واستمر على علاقاته معهم ومراسلتهم، تلك المراسلة التي سقط أكثرها تحت أيدي الإسبان عندما استولوا على محاكمه بحيث أمكنهم إعادة تكوين نظام الجاسوسية الذي كان يتبعه ابن عبد الكريم بين الخاضعين له.

ومن بين مخبري ابن عبد الكريم يستحق الذكر كشخصية فذة رجل بريده الخاص الشيخ (العجوز) علي بن حموش الذي سماه «روجى ماتيوه» مراسل «لوماتان» الباريسية، «ميشيل استروڤوف الريف» والذي بقي لأمد طويل يجتاز الخطوط الإسبانية من طنجة، حاملاً إلى ابن عبد الكريم البريد والصحافة الإسبانية والأجنبية.

وكذلك كان في خدمته العديد من الأجانب، ويعد من أشهرهم على ما يبدو المدعو جوزي كليمبس المسمى عند المغاربة بالقائد الحاج، ويسميه ابن عبد الكريم «مدفعي العظيم» وهو ألماني هارب من اللفيف الأجنبي الفرنسي، يجله كل من ابن عبد الكريم وأخيه محَمد، وكان يرافق الأخير منهما دائمًا، كما كان من المدربين الرئيسيين لرجال القبائل على استعمال المدافع وآلات الحرب، وفي

أعمال تحصين وتنظيم خطوط الخنادق، وعند استسلام ابن عبد الكريم سنة 1926، حاول كليمبس التستر كخادم بلباس مغربي، إلا أن أحد أفراد اللفيف الأجنبي عرفه عند الوصول إلى مدينة تازة، فأسر، وحكم عليه بالموت من طرف الفرنسيين في محكمة عسكرية.

6 ــ الاتصالات البرقية والهاتفية:

كان من بين مساعديه الرئيسيين في إنشاء شبكة الاتصالات الهاتفية أجنبي آخر اسمه أوطونوجا الذي اختفى عند تقدم الإسبانيين بحيث لم يعثر له على أثر.

وكان المركز الرئيسي للهاتف باجدير، ومنه تتفرع ثلاثة خطوط رئيسية: واحد نحو الشرق موصولاً بمحكمة أكشاب أو مغار بتمسمان في الجبهة بمليلية، وآخر نحو محكمة تركيست، المركز الرئيسي للجبهة الفرنسية، وآخر نحو الغرب عابراً شواطىء بقيوة، وغمارة على امتداد نحو أكثر من 200 كيلومتراً، إلى أن يصل إلى الإدارة الرئيسية بتغزوت (جباله)، ومن هذه الخطوط تتفرع أخرى ثانوية تصل جميع الإدارات في الجبهات الثلاث بلغ عددها نحو 77 مركزاً تليفونياً.

وقد أعد، زيادة على ذلك، مركزاً راديو ــ تيلغرافياً يقول أهل الريف أنه أتى إنه من اليخت (سيلفيا» للقبطان كاردينير الانكليزي.

7 ــ الاقتصاد والمالية:

كانت مداخيل (مالية المسلحين) مـرتبة حسب المعـطيات الآتية:

ــ **الجمارك**، لتصدير المواد وإيرادها، وقد بلغ مجموع هذه المداخيل نحو 5000 بسيطة يومياً.

ــ **ضرائب الأسواق**، (المكوس) على المواد المبيعة فيها.

ــ **الأحباس**، وقد أدخل ابن عبد الكريم كل مداخيلها من القبائل وألحقها (بمالية المسلمين) بحجة استعمالهـا في حرب المسيحيين، وقد بلغ مجموع هذه المداخيل 75000 بسيطة سنوياً.

ــ **ضريبة الترتيب**، موضوعة حسب تعاليم القرآن كضريبة وحيـدة على الأربـاح والأمـلاك من مختلف الأنـواع، الأراضي، ومحـاصيل، ومـاشية، وأمـوال، وقد بلغت مداخيلها نحو 300000 بسيطة سنوياً.

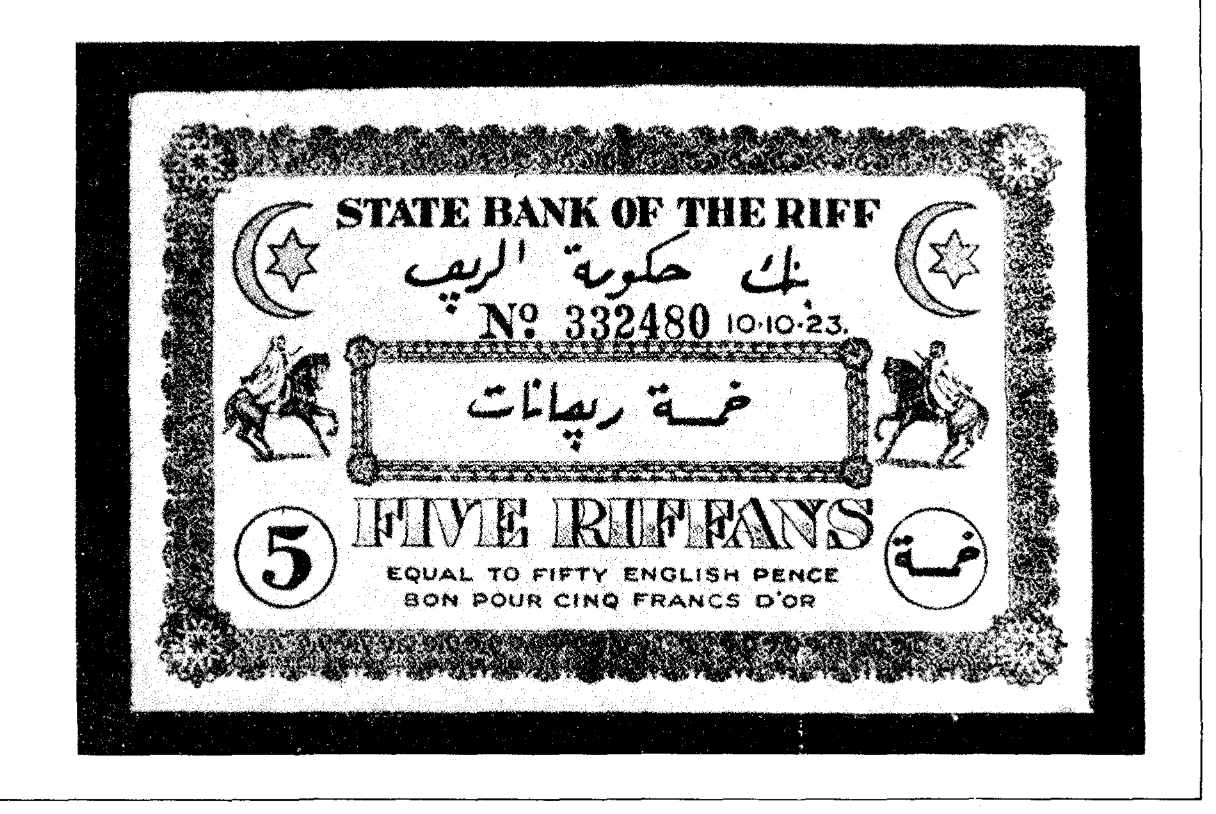
ــ **الغرامات**: موضوعـة حسب جميع المقتضيـات، ولكن بصفـة رئيسية كعقـاب للقبائـل التي قاومت حكمـه، ويشكل أهمها نصف مليون بسيطة المفروضة على بني زروال لمقاومتها إياه سنة 1925، و 20000 بسيطة على قبيلة الأخماس لمحاولتها شق عصا الطاعة في جبل الخزانـة سنة 1924.

ـ **مال المساجين**: مكون من المبالغ التي أرسلت لإغاثة الأسرى، ومن المال المؤدي سنة 1923 لافتدائهم.

وينفي ابن عبد الكريم في مذكراته أنه تلقى أية مساعدة من الخارج، وفعلاً، فإنه ـ ماعدا بعض المبالغ الموجهة من طرف مصر ـ يظهر أن المساعدة التي تلقاها من العناصر الأجنبية كانت في الغالب ذات صبغة أخلاقية، أو من أجل التسليح عن طريق التهريب، وقطعاً لم يعثر في الوثائق التي سقطت في حوزة الإسبان، وكذلك في الميزانيات الخاصة بمالية المسلمين على أي مدخول من المبالغ المستلمة من الخارج.

وفي الأخير، حاول ابن عبد الكريم تنظيم العملة الورقية بواسطة أوراق بنكية صادرة عن (بنك حكومة الريف) من فئة (ريفان) واحد، وخمس ريفانات (الريفان يساوي بسيطة واحدة)، وقد صنعت هذه الأوراق في انكلترا، والأولى منها ذات لون أحمر، أما الثانية فلونها أخضر معلناً أنه يجب تداولها بشكل إجباري، ويظهر أن ترويج هذه الأوراق كان يرتكز على عقد مبرم بين أحد الرعايا الانكليز المعروفين جداً بالمغرب، وبين أخ ابن عبد الكريم، والذي يرخص فيه للأول أن ينشىء بنكاً للحكومة في الريف يكون مركزه اجدير من أجل ترويج هذه الأوراق وإذاعتها، وتقديم القروض، واعداً في مقابل ذلك بأن يعمل على تسهيل الموارد التي تحتاج إليها حكومة الريف.

إن هذا البنك لم ير النور، وحيث لم تكن هناك ضمانة مالية فيمكن بسهولة فهم المقاومة التي أبداها رجال القبائل في عدم قبولهم لهذه الأوراق التي كانت تفتقر إلى قيمة حقيقية.



العملة الورقية الصادرة عن (بنك حكومة الريف)

8 ـ العتاد الحربي:

إن السلاح الذي كان موجوداً في حوزة رجال القبائل قد وضع حسب الترتيب الآتي:

ـ سلاح المخزن.

ـ السلاح الخاص.

فسلاح المخزن، كان مكوناً من بنادق موزر، ولوبيل، وريمانكطون، وشاسبو، وبوحفرة (الذي كان عند المحلات السلطانية القديمة)، وزيادة على البنادق كانت هناك رشاشات فرنسية وإسبانية، وأخرى مصدرها الغنيمة أو التهريب، وكذلك السلاح الذي انتزع من الريسوني، ومن القبائل التي عارضت ابن عبد الكريم، والتي أخضعت بالقوة، ومن هذه الأسلحة كانت تزود الحاميات والحشود المستمرة، ثم تسلم هذه الأسلحة إلى من يخلف هذه التجمعات.

أما السلاح الخاص، فهو الذي كان يقتنيه رجال القبائل ملكاً خاصاً لهم، والذي كانوا يصحبون معهم عند التعبئة العامة لتشكيل (الحركات)، وحتى عندما تطلع ابن عبد الكريم إلى جمع هذه الأسلحة محاولاً تجريد القائل منها، وإبقاء السلاح فقط في يد الحاميات والحشود، فإنه لم يفز بمرامه.

(أ) مرتبات الجند:

بدأ تأليف الجيش النظامي الريفي سنة 1922، وذلك عند تكوين أول فرقة من رجال تطوعوا بصفة دائمة ولأجل غير محدود،

وبمرتب معين، وقد ارتكز التجنيد بادىء ذي بدء على بعض الهاربين من القوات الأهلية الفرنسية والإسبانية، وعلى بعض المسرحين من الفيلق المغربي الفرنسي الذي قام بنشاط باهر في الجبهة الفرنسية خلال الحرب الأوروبية الأولى.

وكان التطوع يعلن عنه في الأسواق حيث يجب على المتطوعين أن يحضروا معهم أسلحتهم، وقد نظمت (المائة) الأولى والثانية سنة 1923، وحاربتا لأول مرة في مجابهة المواقع الإسبانية في مطير وتيكيساش بغمارة، ثم أخذت المئات الأخرى تتوالى إلى أن بلغت سنة 1925 تسع مئات للمشاة مكونة كل واحدة من 120 رجلاً، وموزعة على ثلاثة (طوابير) يحكم كلاً منها (قائد طابور)، وكان على رأس كل (مائة) قائد مائة و (قائدان للخمسين)، وأربعة للخمسة والعشرين.

وكانت أجرة الجند محددة في 150 بسيطة في الشهر لقائد الطابور، و 100 بسيطة لقواد المائة، و 80 بسيطة لقواد الخمسين، و 70 بسيطة لقواد الخمسة والعشرين، و 60 بسيطة للعساكر.

(ب) الخيالة:

لم يكن لابن عبد الكريم غير 25 فارساً يقومون بأعمال (المخازنية) أو كأعوان الاتصال أكثر من أي شيء آخر.

(ج) الرشاشات:

كانت تنتمي إلى سلاح المدفعية، وقد بلغ عددها 200 آلة عاملة، وكان على رأس سلاح الرشاشات: القائد السي أحمد

السوسي، ويحمل رجال هذه الأسلحة كشعار عمامة سوداء بدل الخضراء التي كانت علامة للمشاة.

وكان رجال هذه الأسلحة يتقاضون 17,50 بسيطة زائدة على مرتبات جنود المشاة (أي 77,50 بسيطة في الشهر).

(د) المدفعية:

إن جميع القطع والقذائف التي أُخذت كانت تعتبر ملكاً للدولة الريفية التي كانت تتولى توزيعها واستعمالها وإعادة تركيبها، وكان رجال المدفعية يستعملون نفس البذلة العسكرية لرجال الرشاشات، ويتقاضون مثلهم 77,50 بسيطة في الشهر.

وكان أوّل مدرب على المدفعية مواطن مغربي أسود يعرف بسبوموز الذي خدم قبل ذلك، أي سنة 1923، وقدم لابن عبد الكريم رجلاً من الصرب كلفه بتنظيم قوات المدفعية وتدريبه. ولم يكن يعرف له اسم غير القبطان الصربي. وقد قتل بقذيفة من إحدى طائرات الإسبان في العام التالي، وأما المنظم والمدرب الحقيقي للمدفعية فقد كان الهارب من الفيلق الأجنبي الفرنسي «جوزي كلمبس» المسمى من طرف ابن عبد الكريم (بمدفعي العظيم).

وفي سنة 1925، كانت قطع المدفعية المواجهة للجبهة الإسبانية موضوعة حسب الترتيب الآتي:

- **أذرار ايسداين (الحسيمة)**: مدفع واحد إسباني الصنع، بقيادة محمد بن دادي من بقيوة، ومساعدة أربعة من المغاربة.

- **ظهرامقران** (الحسيمة): مدفعان من صنع إسباني بقيادة امهاروش بن عبد السلام من بقيوة، بمساعدة تسعة من المغاربة.

- **ظهرتاسنون** (الحسيمة): مدفع واحد إسباني بقيادة أحمد بن حمنود، من بقيوة يساعده أربعة من المغاربة.

- **أذرار طرفه** (الحسيمة): مدفع من صنع فرنسي تحت قيادة حدو بن علي، من بني ورياغل، ومساعدة أربعة مغاربة، وهذا الموقع مع المواقع الثلاثة المذكورة آنفاً كان يكون مجموعة تحت قيادة حدو بن علي الذي كان تحت إمرته مدرب هارب من المدفعية الفرنسية.

- **راس الطاف** (الحسيمة): مدفع إسباني بقيادة محمد بن شعيب، من بقيوة، ومساعدة أربعة من المدفعيين المغاربة.

- **أذرار سدون** (الحسيمة): ثلاثة مدافع، إثنان منها إسبانيان، وواحد فرنسي، بقيادة أحد المغاربة المدعو كيجوطي من بني ورياغل، يساعده مدرب ألماني برتبة (سرجان)، هارب من فيلق اللفيف الأجنبي الإسباني وعشرة مدفعيين.

- **الرقوصة**: (الحسيمة): مدفعان من عيار 75 بقيادة علال بن الحاج، وعمر بن علوش، وكلاهما من اجدير، ومساعدة عشرة مدفعيين ماتوا كلهم بجانب قطعهم ما عدا اثنين منهم.

- **جبل الأسرى (الحسيمة)**: مدفعان إسبانيان بقيادة محمد بن علوش، ومحمد بن مسعود، وقد مات هذا الأخير بجانب قطعته.

- **جبل قشوز (الحسيمة)**: مدفع إسباني بقيادة حدو بن عبد السلام، ومساعدة أربعة من المغاربة.

- **أذرار (الحسيمة)**: مدفعان فرنسيان بقيادة سلام الحاج محمادي، ومساعدة مدرب فرنسي هارب.

- **أذرار اوفليوم (الحسيمة)**: مدفع فرنسي تحت قيادة حدو بن عبد السلام ومساعدة أربعة مغاربة.

- **أذرار مرطاح (الحسيمة)**: مدفع فرنسي تحت قيادة محمد بن مسعود، ومساعدة أربعة مدفعيين مغاربة.

- **راس كيلاطس (بتمسمان)**: مدفعان إسبانيان.

- **سيدي سعيد (شاطيء تمسمان)**: مدفع إسباني، وآخر فرنسي.

- **جبل ودية (جبهة مليلية)**: مدفع إسباني.

- **جبل ايفرني (تفرسيت بجبهة مليلية)**: مدفع فرنسي ألغم من طرف جواسيس إسبانيين بواسطة مواد آكلة مجهزة في مختبر المدفعية بمليلية.

- **بني توزين (جبهة مليلية)**: مدفعان إسبانيان وآخر فرنسي.

- **بني بوفراح (في مواجهة حجرة بادس)**: مدفع إسباني وآخر فرنسي.
- **الجبهة (شاطىء متيوة)**: مدفع إسباني.
- **أمطير (شاطىء غمارة)**: مدفع إسباني.
- **تيكّيساس (شاطىء غمارة)**: مدفع إسباني.
- **قاع اسراس (شاطىء غمارة)**: مدفع إسباني.
- **جبل بوزيتون (جبل في بني حزمار مقابل لتطوان)**: مدفع فرنسي.
- **بني يدر (جبالة)**: مدفع فرنسي وآخر إسباني.
- **الشوطة (بني حسان جبالة)**: مدفع فرنسي وآخر إسباني.
- **تزروت (بني عروس ـ جبالة)**: مدفع إسباني.
- **تغزوت (القيادة العامة للسي محمد بن عبد الكريم في الجبهة الغربية)**: أربعة مدافع إسبانية معدة للاستعمال خاصة في الجبال.

وبالإضافة إلى 42 مدفعاً أخرى على الأقل كانت منبثة في الجبهة الفرنسية، وعدد آخر منها كان مخبأ في مخازن خاصة، فإن القطع التي كانت في حوزة ابن عبد الكريم سنة 1925 بلغ عددها أكثر من 100 مدفع عامل.

(هـ) مخازن المواد الحربية:

أنشئت لهذا الغرض بادىء ذي بدء مخازن في بيوت خاصة وبعد ذلك أحكم بناؤها بحيث تستطيع مقاومة الهجمات الجوية، ثم استقرت نهائياً في سراديب كبيرة تحت الأرض.

وكان المخزن الرئيسي للأسلحة والذخائر بازغار في اجدير، ومنه كانت توزع المؤن على مختلف المخازن والمراكز، وقد تولى رئاسته، محمد بوجيبار، وبعد أن نظمت هذه المصلحة بصفة نهائية تولّى رئاسته الفقيه محمد الغماري، رئيس مصلحة التسليح والذخيرة، وكان هذا المخزن يحتوي على معمل لإصلاح الأسلحة وتعبئة الخراطيش (الرصاص)، وكان مدير هذا المعمل المعلم محمد التمسماني، يساعده 26 عاملاً مغربياً من بينهم بعض اليهود من بني بوفراح.

أما المخزن الرئيسي لسلاح المدفعية فقد كان مقره بوحن (بني ورياغل)، كما كان يصنع قذائف الطائرات.

وأما مخزن بوصلاح (بني ورياغل)، فقد كان مخصصاً للقذائف الرشاشة، وزيادة على ما ذكر، فقد كانت هناك مخازن أخرى في تمسنت، وباقين، واقبابن في بني ورياغل، وآخر في بني بوفراح (الريف الأوسط) خاص بالوقود وقطع السيارات، وبمعزل عن هذه المخازن ذات الصبغة الدائمة فقد كان بالمحاكم المنبثة في مختلف الجبهات مخازن أخرى صغيرة للاحتياطي من البنادق والذخيرة، وقد كان دخول الأسلحة إليذ هذه المخازن وخروجها منها خاضعين لأوامر مقننة، يسهر على تنفيذها (مراقبو الأسلحة).

(و) الطيران :

لقد توصل ابن عبد الكريم إلى تملك ثلاث طائرات، وقد وجه كل اهتمامه وولعه من أجل تشغيلها، كما تدل عليه الفقرة الآتية من مذكراته : « . . . كنت أستطيع أن أضحي بأي شيء من أجل أن تحلق طائرة ريفية فوق الخطوط الإسبانية، وكان في مقدوري بهذه الطريقة أن أثبت لقبائلي بأنني مسلح بطريقة حديثة، أما أعدائي فإنهم من جهتهم كانوا يتأثرون من رؤية طائرة ريفية تحلق فوق سماء العرائش، أو تطوان، أو مليلية . . . » .

لم يستطع ابن عبد الكريم إرضاء هذه الرغبة المتأججة، لأن الطيارين الإسبان ـ علمًا منهم بأنه يملك هذه الطائرات ـ جعلوا من قضية عدم السماح لأية طائرة ريفية بأن تحلق في نفس الأجواء التي تحلق فيها أسراب الطائرات الإسبانية العاملة في المغرب مسألة شرف، وإن أدى بهم الحال إلى الانقضاض عليها إذا لزم الأمر، ومحقها، والتردي معها إذا جرؤت على ارتفاع من الأرض، وقد توصل الطيارون إلى هذه الغاية، ذلك إن إحدى الطائرات وهي طائرة القبطان هبرايز، وليوطنان فلوميسطا تحطمت عند ارتطامها برأس كيلاطس، وبذلك لم تستعمل، أما الطائرة الأخرى، فقد ضلت طريقها عندما كان يقودها (كبران) إسباني يجهل التراب المغربي، فتحولت عن خطها، واضطر ربانها إلى الهبوط بها في أرض الريف عند هضبة تركيست حيث أصابها تلف، ولم يستطع الريفيون إصلاحها.

وأما الطائرة الثالثة، وهي الطائرة الريفية الحقيقية، فقد اشتراها في الجزائر محمد ازرقان وحدو الكحل، وقادها فرنسي وعلى ظهرها القائد حدو كمسافر، إلى أن هبطت في توفيست (ببني ورياغل)، ولم تحلق غير مرة واحدة فوق سماء مرنيسة عند الجبهة الجنوبية، لأن الطيارين الإسبان ـ بدافع رغبتهم المحمومة في القضاء على الطيران الريفي، ورغم محاولة إخفائها اكتشفوها ثم قنبلوها وحطموها.

(ز) العربات:

كان في حوزة ابن عبد الكريم ثلاث سيارات: واحدة صنف رينو، وأخرى فورد، وثالثة من صنف قوركاميري، وقد اقتناها كلها حدو الكحل من الجزائر، ووصلت إلى الريف براً مارة بنواحي حسي ونزكة، وكرواو، ثم بوادي كرت، والنكور، فهضبة ازغار باجدير، ولم يكن يستعملها غيره. ولحمايتها بني ثلاثة مرائب (كاراجات)، مدرعة: واحداً بازغار، وثانياً في بوحن، وثالثاً في تاركيست، وقد سقطت جميعاً في أيدي الإسبان سنة 1926، حيث ألحقت بالخدمة ضمن جهاز المحركات العسكرية السريعة.

(ح) العتاد العائم:

وقد استطاع أن يحرز ابن عبد الكريم على (لانشين) اثنين، وستة زوارق، باع اللانش الأول أحد الأميركان حيث أتى به إلى قلعة بنيطو، وأما الثاني، فلم يعرف مصدره، وكرئيس للقوات والعتاد البحري كان حدو بن علي المعلم من اجدير بصفته كومنداراً ومفتشاً للقوات البحرية على شواطىء الريف، وكان

تحت إمرته قائد، وسائق محركات جزائري، وخليفة، وثلاثون من البحارة المغاربة الذين كانوا يتقاضون 60 بسيطة في الشهر مثل جنود المشاة، وقد سقطت جميع هذه القطع العائمة في أيدي الإسبان سنة 1926، وألحقت بالخدمة ضمن فرق البحرية في سبتة ومليلية.

(ط) شهادة الأعداء:

قال أحد الجنرالات الإسبانيين:

«إن التنظيم العسكري، والآلة الحربية التي أحاط بها نفسه ابن عبد الكريم، مستغلاً الخصائص الحربية لدى المغاربة، كل ذلك مكنه من أن يحصل على أداة جد نافعة في الحرب، مكونة من جبليين أشداء وشجعان، ومدربين، كانوا يشكلون في نظر الماريشال بيتان نفسه واحدة من أروع قوات المشاة في العالم».

«ويمكن أن يقدر عدد مجموع المحاربين الذين كانوا تابعين لابن عبد الكريم بحوالي 80000 رجل، وهذا الرقم الذي قدره بعض الكتاب ليس فيه أية مبالغة، ذلك أنه حسب الإحصائيات التي قامت بها قوات التدخلات العسكرية، على أثر احتلال المنطقة سنة 1927، كان مجموع السكان يقدر بـ 500000 نسمة، فإذا فرضنا أن نصف هذا العدد من الرجال، يكون الرقم الناتج 250000 نسمة، وقدرنا أن متوسط العمر 65 سنة، وأن القادرين على حمل السلاح من 20 إلى 45 سنة تكون النتيجة أن نحواً من 100000 نسمة يكونون في هذه السن (أي سن القادرين على حمل السلاح)، وبإسقاط ثلث هذا العدد من الخاضعين بالقوة، أو الذين انضموا إلى صفوف القوات الأهلية التابعة لإسبانيا، أو الذين يعتبرون في

عداد العاجزين عن الحرب لطول المعركة التي خاضها هذا الشعب منذ سنة 1909، يبقى في الحساب 60 أو 65 ألف رجل كرقم تقريبي لمحاربي ابن عبد الكريم، حتى إذا أضفنا إليهم نحو 20000 من قبائل ورغة في المنطقة الفرنسية وصل هذا العدد إلى 80000».

(ي) الوفود المفاوضة:

كان شتاء سنة 1924 حافلاً بالمباحثات والزيارات، والوفود المبعوثة إلى ابن عبد الكريم من أجل مناقشة الوصول إلى اتفاق مع هذا القائد من الجانب الفرنسي، وسبق أن أشرنا إلى وفادة عبد العزيز الحلو ومهمته في اجدير، وذلك، عن طريق القبطان شاستاني في شهر ماي سنة 1925، والمسعى الذي قام به ݣابرييلي الذي تقابل مع ابن عبد الكريم في تمسمان قرب رأس ڤيلاطس من غير أن يتوصل إلى نتيجة، ذلك أن أول شرط وضعه هذا الرئيس كان: الاعتراف باستقلال الريف.

ومن الجانب الإسباني، نذكر مهمة الجنرال خيرونا في اجدير سنة 1923، والتي أتمها بعد ذلك ادريس بن سعيد، وادريس الريفي بدون نتيجة، وكذلك المسعى الذي قام به سابيدرا كنائب عام، وبنفس النتيجة السلبية. وفي شهر نوفمبر من سنة 1924 بعد الجلاء عن شفشاون كانت هناك وفادة أخرى قام بها ايشفا ربيطا الذي وضع مرة أخرى «صداقته» لابن عبد الكريم تحت الخدمة، الأمر الذي لم يستحق عليه بحق من ابن عبد الكريم غير عبارات قاسية في (مذكراته).

وأخيراً، وبعد أن اتفقت كل من إسبانيا وفرنسا في شهر يونيو سنة 1925 بعث كابرييلي، وماران (ترجمان القيادة العامة بمليلية) من طرف فرنسا وإسبانيا كمنتدبين ليقدّما إلى ابن عبد الكريم شروط الصلح المقترحة من جانب الدولتين، تلك الشروط التي كانت ترتكز على «الصداقة» المتبادلة، ومنح القبائل الجبلية والريفية «نظام حكم ذاتي إداري» ملائم للاتفاقات الدولية.

وقد رفض ابن عبد الكريم حتى الدخول في هذه المفاوضات، وهكذا مكث كّابرييلي وماران ينتظران في مليلية من غير فائدة.



الفصل الثاني والعشرون

الثورة الريفية ككيان منظم

١ ــ المجلس الوطني :

بعد ما فازت جيوش المجاهدين على قوات الاسبان التي سارت من هزيمة إلى أخرى، فكرت القيادة العليا الوطنية في تنظيم الشؤون الداخلية بالريف حتى لا تضيع ثمرات النصر المبين، وحتى تقوم حركة التحرير على أساس من النظام متين.

وهكذا، فبالإضافة إلى الجهود المبذولة في سبيل التنظيمات العسكرية التي كانت تقتضيها الانتصارات على الأعداء، كما كانت تتطلبها التخطيطات الجديدة لمواصلة الهجوم أو لرد العدوان، انصرف تفكير قادة الجهاد بالريف، وعلى رأسهم الأميران محمد وشقيقه، إلى تنظيم الشؤون الداخلية سياسياً وادارياً حتى يصبح للثورة الوطنية كيانها البارز، وحتى لا تضيع مكاسبها العظيمة التي نالتها بالجهاد والتضحية، وحتى تبدو حركة قومية، ونهضة وطنية ذات كيان وشأن. وأول ما اهتم به البطلان إبراز الصفة الشعبية الصحيحة للثورة التحريرية، وتحقيقاً لهذا دُعي جميع سكان القبائل المنضوية تحت لواء الجهاد الوطني إلى إيفاد نوابهم والناطقين باسمهم إلى اجتماع عام ينعقد في معسكر الثورة بأجدير، فهرع الجميع إلى

مكان التجمع الشعبي العظيم، وفيه خاطب القائد الأعلى الحاضرين بأن تحدث لهم عن مطامع وخطط الاستعمار الاسباني في المغرب، كما أوضح لهم الأسباب الداعية إلى الثورة، وأهدافها الوطنية، ثم ناشدهم ـ باسم هذا ـ أن يتحدوا، ويتضامنوا، ويتناصروا لإحباط الاستعمار والاستعباد في أرضهم، وتحقيق أمانيهم الوطنية مهما كلفت الجميع من جهاد، وتضحية، ولم يقتصر الخطيب على هذا، بل طلب من الحاضرين أن يتداولوا في الأمر عملاً بمبدأ الشورى، ويوضحوا بكل حرية وصراحة آراءهم ومواقفهم، فما كان من الجميع إلا أن استجابوا بحماس للدعوة معلنين كامل استعدادهم للجهاد حتى آخر قطرة من دمائهم، واتفق رأيهم إذاك على تكوين مجلس شعبي يكون المرجع الأعلى، ويتولى وضع برنامج العمل، وخطة الجهاد، ويؤلف حكومة محلية وطنية تشرف على تدبير شؤون البلاد، ويكون من اختصاصها التنظيم، والتشريع في فترة الحرب.

وفعلاً تشكل المجلس الوطني من نواب القبائل المجاهدة، وأصبح يمثل إرادة سكان الريف المكافح وفي أول اجتماع عقده المجلس الوطني الريفي اتخذ قراره الأول بإعلان استقلال البلاد، وبتشكيل حكومة «دستورية» برئاسة الأمير محمد الخطابي بصفته زعيم الثورة، وقد تم هذا في منتصف محرم 1340 هـ (1921).

ـ أمير الجهاد:

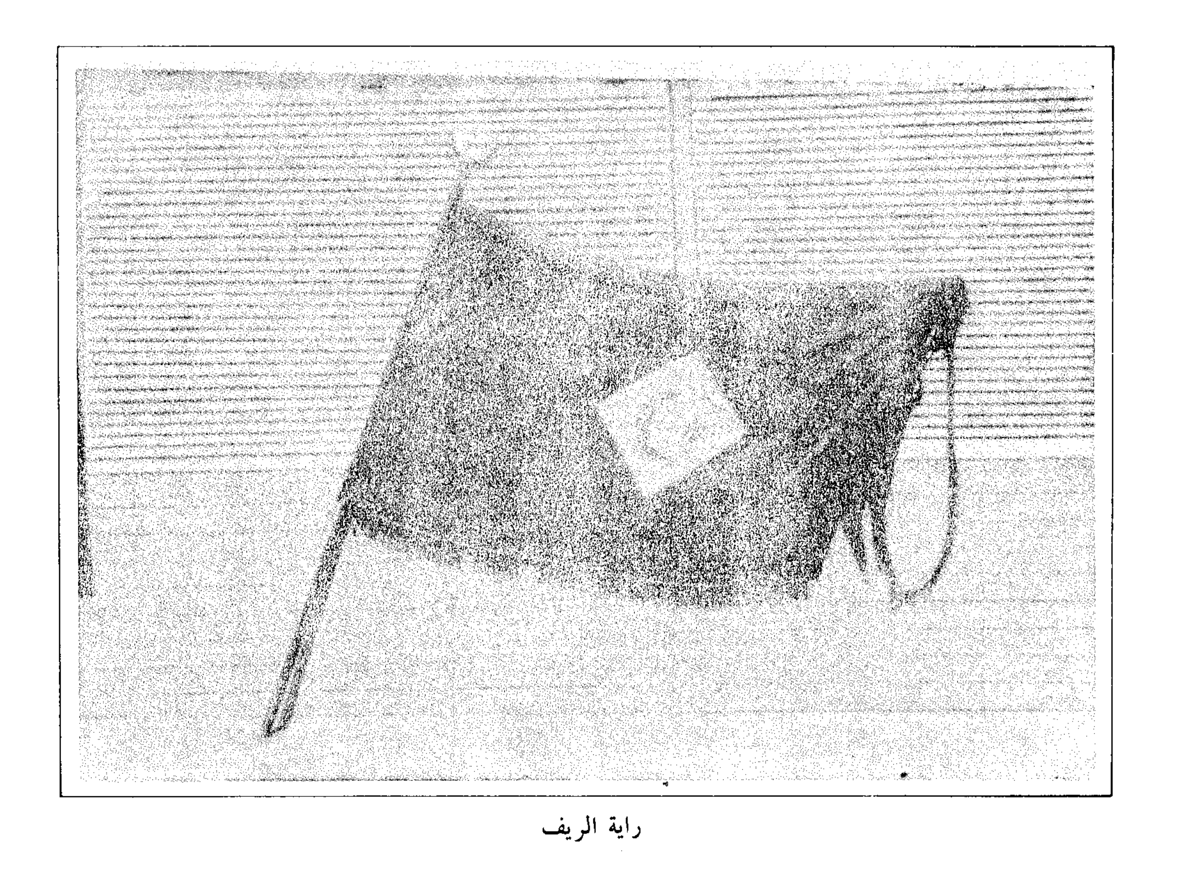
وقد تطلب تنظيم كيان الدولة عامين، ورفض محمد بن عبد الكريم أن يكون له لقب سلطان، بل رضي بلقب أمير

الريف، ولم يكن إلا أمير الجهاد دون مدلول آخر، والقائد الأعلى لقوات المجاهدين، ورئيس الدولة الناشئة وحكومتها معاً، فلم تكن هناك مملكة واسرة ملكية قط، كما لا يمكن أن يورث لقب الإمارة الذي كان خاصاً بالقادة الفعليين والرسميين للثورة الريفية ولحركتها التحررية الوطنية من آل الخطابي وهم محمد ومحمد بن عبد الكريم وعمهما وشريكهما في قيادة الثورة عبد السلام دون سواهم، وقد منع الأمير محمد بن عبد الكريم أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة بمساجد الريف كرئيس لدولته وحكومته، والجدير بالذكر أن الريفيين لم يكونوا يرفضون مبدأ سيادة السلطان على المغرب كله، ولعل من أجل هذا امتنع ابن عبد الكريم من اتخاذ لقب السلطان، وفضل عليه لقب أمير الجهاد، خصوصاً وأنه يرى كسائر المغاربة في منصب السلطنة رمز وضمان استمرار الدولة، والسيادة والوحدة في المغرب المبتلى مؤقتاً بالاحتلال.

ومما يؤكد ذلك أن جميع الذين لزموا الأمير ابن عبد الكريم مدة الثورة أو بعد عودته من المنفى، ـ وكنت منهم ـ أيقنوا بأنه لم يكن له أي طموح إلى الملك، بل كان يفكر في استقلال الوطن بعد أن يتحقق استقلال الريف أخذاً بالمبدأ الذي يقتضي أن يمارس جميع المغاربة حقهم في اختيار حكامهم، وليس معنى هذا أن حكم الريف كان ديمقراطياً عصرياً، ولا شورياً إسلامياً، بل كان استشارياً في نطاق رؤساء القبائل ومندوبيهم أكثر منه شيئاً آخر، وهكذا كان الأمير يجمع السلطة بين يديه، ويدبر الأمور بنفسه مع أخذه آراء المجالس القبلية عند الاقتضاء، ولكن من غير أن يتقيد

لزوماً برأيها سواء في الحرب أو في السياسة، فكان مفهومه للحكم أشبه شيء بما كان عليه الأمر في عهد الخلافة الإسلامية، لهذا لم يتخذ كعادة الملوك (بلاطاً)، وحاشية، وبطانة، وإن قرب أقاربه الذين أسند إلى بعضهم مناصب كبيرة في الجيش والحكومة نظراً لما بينهم من الأواصر العائلية، ولبواعث الثقة فيهم، فقد سئل من الصحفي الانجليزي «وارد برايس» عن نوع الحكم الذي يفكر فيه، بعد استقلال الريف، فاجابه: «ان الدين الإسلامي لا يعترف إلا بشكل واحد من الحكم، وهو حكم الأمير، إن الحكم بمجالس تمثيلية يناقض المبادىء المحمدية، ومع هذا فإن نظامنا ديمقراطي جداً، لأن الأمير ينتخب بحرية من رؤساء القبائل، ويمكن خلعه إذا لم يرض الناس، وينتخب أمير آخر يحلُّ محله، وكذلك فإن خلفه ينتخب بالاقتراع عند الوفاة».

ومع ما أدركه الأمير محمد بن عبد الكريم وشقيقه من رئاسة، وقيادة، ونفوذ، وسطوة فقد بقيا على حالهما لا يميزهما شيء عن أهل الريف، اللذين كانا يتزيان بزيهم التقليدي، ويسكنان في بيت عادي مثل بيوتهم، ويعيشان نفس عيشتهم، ويختلطان بالناس في القبائل والأسواق، ويتحدثان معهم في شؤونهم، فظلاَّ من أفراد الشعب وإن كانا رئيسين، وقائدين، وزعيمين بدون منازع، وتلك هي الشعبية الصحيحة، والديمقراطية الحق، وكلتاهما قائمة على الطبيعة المغربية، وآخذة للأخلاق الإسلامية فرضاً.



راية الريف

3 ــ دستور الريف:

وقد وضع المجلس «دستوراً» للبلاد يقوم على سيادة الأمة، ومّما تميز به هذا «الدستور» أنه جعل السلطتين التشريعية والتنفيذية في يد المجلس الوطني، وذلك من غير أن يفصل بين السلطتين، ويسند السلطة التنفيذية للحكومة مما هو معهود في الدساتير العصرية، كما أن «الدستور» جعل رئيس الحكومة الريفية رئيساً في نفس الوقت للمجلس الوطني ومسؤولاً كذلك أمامه، وحتم على أعضاء هذا المجلس تنفيذ ما يتخذه من قرارات، فجمع الأمير كل الرئاسات نظراً لظروف الريف، وضرورة توحيد سلطة القيادة فيه.

4 ــ الميثاق الوطني:

وبعد ذلك وضع المجلس الوطني ميثاقاً قومياً ليتخذه الشعب مثله الأعلى في الجهاد، وبعد مداولات متوالية جاء الميثاق كما يلي:

1 ــ عدم الاعتراف بكل معاهدة تمس بحقوق البلاد المغربية، وخاصة بمعاهدة «الحماية» المفروضة في 1912.

2 ــ جلاء الأسبان عن الريف الذي لم يكن في حوزتهم قبل إبرام المعاهدة الفرنسية الأسبانية سنة 1912، بحيث لا يبقى لإسبانيا غير سبتة ومليلية.

3 ــ الاعتراف بالاستقلال التام للحكومة الريفية.

4 ــ تشكيل حكومة دستورية بالريف.

5 ــ دفع إسبانيا للريف تعويضات عن الخسائر التي ألحقتها بسكانه من جراء الاحتلال، ولفداء الأسرى الذين وقعوا في يد المجاهدين.

6 ــ إنشاء علائق ودية مع جميع الدول بدون استثناء، وإبرام اتفاقات تجارية معها.

5 ــ راية الريف:

ومما قرره المجلس الوطني اتخاذ راية للحكومة الريفية أرضها حمراء، وفي وسطها نجمة خضراء سداسية ضمن هلال في رقعة بيضاء (الصورة).

6 ــ اجدير عاصمة:

ونص الدستور على اتخاذ أجدير عاصمة الحكومة المحلية الريفية، ومعسكراً عاماً لجيش التحرير، وكان الأمير ابن عبد الكريم يفكر في اقتباس الدستور الانكليزي، فأمر وزير خارجيته لاستحضار نسخة منه، وكان اندهاشه كبيراً لما علم أن انكلترا لا تملك دستوراً مكتوباً، وان دستورها يتكون من تقاليد قومية ورثتها من عهود تاريخها الوطني، وكان البطلان يقيمان بأجدير، ويسكنان منازل لا تختلف عن منازل غيرهم من السكان إلا بشيء واحد هو أنها كانت قبلة المجاهدين والزوار، ومركز النشاط الحربي، والسياسي، والإداري طيلة سنوات الجهاد الوطني بالشمال.

7 ـ التجنيد العام:

ولتوفير القوة للمجاهدين حتى يستطيعوا مواجهة الاعداء في كل حين وفي كل مكان أقر المجلس الوطني التجنيد العام في الريف بالنسبة لجميع القادرين على حمل السلاح، وخوض غمار الحرب، ومما يذكر أن الأطفال، والنساء، والشيوخ كانوا يشاركون كذلك في حركة الجهاد والتضحية بما كانوا يقدمونه إلى الجيش الوطني في الخدمة والمساعدة، ومنها القيام بالحراسة على الحدود أو في الداخل بل كثيراً ما كانت النساء يشاركن في القتال بجانب الرجال كما جرت العادة المغربية بهذا منذ القديم.

8 ـ جيش الريف:

وقد أعطي للجيش نظام محكم ليزداد قوة فيستطيع القيام بمهامه الحربية ضد عدو كثير العدة والعدد، وقد تعين الأمير محمد (فتحا) قائداً للجيش الذي كان أعضاؤه من بني ورياغل عمدته، وكان المجندون هم جميع الرجال الأصحاء البالغ عمـرهم من السادسة عشرة إلى الستين، فكلهم كانوا قابلين للتجنيد ورهن إشارة القيادة في كل وقت ومكان، وكان استدعاؤهم بالقرعة، وبلغ الجيش النظامي 5000 رجل، وكانت تنضم إليه باستمرار أفواج من المجندين الجدد، وفي كل منطقة كانت فرقة الجيش تتمون من نفس المكان، وكانت الفرق الكبرى تسمى «بالمحلة»، وما دونها بالمئة أو الخمسين أو الخمسة وعشرين أو الاثني عشر، وسمي «بالنقباء» المجاهدون الذين خاضوا معارك ابران وانوال،

وكانوا هم قادة «المحلات» وغيرها من كتائب الجهاد، كل حسب عمره وتجربته، وكانت رواتب الجنود والضباط على الحكومة المحلية، وكان محمد بودرة مسؤولاً عن الدفاع، ومحمد الحيتمي مسؤولاً عن التدريب، وهما أقارب الأمير ابن عبد الكريم.

وليس بصحيح ان الفارين من اللفيف الأجنبي الفرنسي والاسباني هم الذين دربوا الجيش، وكان يتسلح بالأسلحة التي غنمها في المعارك أكثر مما كان يتسلح بغيرها كالتي اشتريت من الفرنسيين قبل الحرب معهم، كما اشتريت ثلاث شاحنات من طراز رينو وفورد، وطائرة قديمة بمال افتداء الأسرى الاسبانيين، وقيل إن الريف كان يملك خمس طائرات اشتريت ثلاثة منها من الجزائر، وقادها إلى الريف طيارون فرنسيون ثم بقيت غير مستعملة.

9 ـــ بعض قواد الجيش

وكان الجيش المجاهد يتوفر على قادة أكفاء مجربين نذكر منهم اخريرو الذي كان مساعداً لقائد الجبهة الغربية الأمير محمد (فتحا) ابن عبد الكريم، واليعقوبي، وهو قائد شاب لجبهة مليلية، وكان قد أبلى البلاء الحسن في معركة وادي اقرموس، وحدّوا أمازان، قائد من بني ورياغل بشمال أكنول، وشائب نموح، من تمسمان كان قائداً مكلفاً بمراقبة الخطوط الفرنسية على امتداد نهر ورغة، ومحمد شيدى من بني ورياغل وهو شاب يعمل في قيادة ابن عبد الكريم، وتعين قائداً عاماً في الشرق والجنوب الشرقي، ومحمد البرنوصي، قائد كتيبة مدفعية مستقلة، ويمتاز باقتدار ميكانيكي كبير، والقائد

بحوت كان ضابطاً مع الأسبان قبل أن ينضم إلى الجهاد، وكان مسؤولاً عن المخابرات المضادة في الجيش، وبقيش الذي تولى الهجوم على تافرسيت، وموح أو مزين، وجميع هؤلاء القادة وغيرهم برهنوا على الإخلاص، والاقتدار، وأدوا خدمات كبيرة كان لها أثرها في الانتصارات سنة 1924.

وفي هذه السنة كان الجيش قوة مجهزة أحسن تجهيز، ذات أثر فعال في الميدان، وقادرة على خوض الحرب طبقاً لتخطيط الأمير ابن عبد الكريم، ويقوم على تكتيك الحركة باستمرار، والاختفاء من العدو، وإجادة الرماية، وبهذا كان الريف المبتكر الأول للحرب الشعبية الثورية أو حرب العصابات، وساعدت على هذا طبيعة الأرض، ومعرفة المجاهدين لها.

وكان القائد الأعلى يوصي بإطلاع الجنود المجاهدين على حقائق الوضع حتى يكون المقاتلون على بينة من الخطة العامة ومقتضيات المعركة، وبهذا يستطيعون أن يكونوا في مستوى الحرب التي يخوضونها، وأن يقدموا لها أقصى ما يقدرون عليه أفراداً وجماعات.

وكانت القيادات والمسؤوليات موزعة أحسن وأدق توزيع من الأعلى إلى الأسفل، وكان من نتائج هذا أن كان المقاتلون في جميع القبائل المنضوية تحت لواء الثورة الوطنية ضد الاستعمار على أتم استعداد وأهبة في كل وقت وبكل مكان لخوض المعركة حيثما طلب منهم هذا. ومما كان يفرضه النظام العسكري الثوري التناوب بين المجاهدين في ساحة القتال، فكانت كل فرقة تحارب أسبوعين، ثم تعود إلى أشغالها العادية أو الفلاحية، وبعد تشكيل الجيش الوطني

أصدرت القيادة العليا منشوراً ينذر كل من يعصي أوامرها ويفر من الجندية بمصادرة أملاكه وحرمانه من جميع حقوقه الرعوية، كما أصدرت القيادة الأمر إلى جميع الريفيين الساكنين في المناطق الأخرى بالعودة لينضموا إلى المجاهدين، فيعززوا قوتهم، وقد امتثلوا الأمر ولبوا الدعوة، وهكذا أصبح الجيش الوطني يناهز مئة وثلاثين ألف مقاتل كامل العدة، ولكن القوة المحاربة في الميدان لم تكن تتجاوز من 20 إلى 30 ألف، وكان الجيش يتوفر على كثير من الأسلحة بما فيها بعض الطائرات غنم بعضها في ساحات القتال من الاسبانيين، أما الطائرات فكانت إحداها حربية، والأخرى كانت لنقل المرضى والأدوية، وكانت لحكومة الريف المحلية سفينة مسلحة يخفق فوقها العلم الوطني، وشاركت في الحرب بما كانت تقوم به من قصف لبعض الجزر التي كانت في يد العدو، كما قامت بحراسة الساحل، وكانت كذلك لجيش التحرير مصلحة استعلامات محكمة النظام تعمل لمعرفة أسرار وتحركات العدو، واستعداداته الحربية، وأخبار سياسته الداخلية والخارجية، وكان للجيش الريفي شبكة ميدان من الهاتف (تلفون) كانت تربط بين جميع الجهات وترسل الأخبار إلى القيادات العسكرية، وكان الريفيون مشرفين على تسيير الشبكة وفيهم شبان.

وكانت الراية منصوبة فوق مركز القيادة العامة للأمير محمد، ومركز قيادة شقيقه، ولم تكن ترفع في المعارك حتى تتعرض للوقوع في يد العدو، ولم تدع الحاجة لهذا لأن المجاهدين كانوا أثناء المعركة في غنى عن هذا الرمز.

وأما الخطط الحربية المتبعة في الجيش الوطني فقالت عنها إذاك صحيفة «التايمس» الانكليزية: «انها أظهرت حكمة الريفيين الفائقة في اختيار مواعيد القتال، واتخاذ المراكز الحربية، وإتقان العمل الحربي».

10 ـ حركة الإصلاح

ولم تكن حركة الجهاد لتصرف أنظار الأميرين محمد بن عبد الكريم وشقيقه عن الاهتمام بالتنظيمات المدنية، وبالإصلاحات التي كانت البلاد في حاجة إليها، وكانت كلها ذات صبغة ثورية بالنسبة لحياة وتقاليد الريف، وهكذا ألغى الأعراف، وأقام مقامها أحكام الشريعة الإسلامية، كما أعطى للقضاء حق النظر في الجنائي فضلاً عن المدني، وألغى عادة القسم الجماعي في الإثبات وصيره فردياً في حق المتهم، وأدخل الإصلاح على الملكية، وتوزيع المياه، فأصدر قانون مصادرة الأرض التي يعجز صاحبها عن استثمارها، وإسنادها إلى من يقدر على حسن التصرف فيها، كما سمح للجماعات والأفراد بحق تنظيم توزيع الماء، واختصر حفلات الزواج من سبعة أيام إلى ثلاثة، ومنع المتزوجات من الرقص، وأعتق العبيد، ومنع الإتجار بالحشيش، وشن الحرب على الخرافات والطرق التي تروجها لتضليل العقول واستغلال أصحابها، وبالأخص الطريقة الدرقاوية الموالية للاستعمار، ومنع الرجال من الضفيرة (القطاية)، وأمرهم بحلق الرؤوس، وألغى الدية، واستعمال الرصاص إلا في قتال العدو، وحطم ما بني

بجوار كل دار من مخبأ لرمي الجار بالرصاص كلما نشب خلاف تطلب الانتقام، وهذه أفظع عادة كانت هناك، وكان الأمير يسميها «بلعنة الريف». ومنع كذلك استعمال السوط ضد الانسان، واختطاف البنات في الحواضر لاتخاذهن إماء وجواري كما كانت تفعل صنهاجة، فأعتقهن وزوجهن بالعزاب من رجال الجيش.

وباختصار فإن حكومة الريف حققت كثيراً من الإصلاحات الاجتماعية، والسياسية، والإدارية، والاقتصادية لتحويل حياة الريف إلى حياة عصرية متقدمة. ومما استعملته في هذا نشر التعليم وترغيب الناس فيه بواسطة النداءات في الأسواق، وجميع الأجانب الذين تجولوا إذاك في الريف اندهشوا للتطبيق المنجز، واعترفوا وأشادوا في الصحف والكتب. وكان الأمن والعدل منتشرين في كل مكان بالنسبة للمواطنين، وحتى الأجانب الوافدين من الخارج والحاملين لرخصة التجول من القيادة العليا، وكان من نتيجة تلك التنظيمات والإصلاحات أن حلت الطمأنينة محل الاضطراب، وتحسنت الأحوال الاقتصادية، وسادت أحكام الشريعة في كل الأرجاء، فأصبح بفضل هذا كله للثورة التحريرية الوطنية شأنها العظيم سواء في الداخل أو في الخارج، وهذا ما أقلق الدول الاستعمارية، وأثار فيها الحقد والعداوة، ودفع بها إلى استعمال جميع قواتها ووسائلها براً، وبحراً، وجواً، بما في ذلك أسلحتها الفتاكة كالغازات السامة، للقضاء على الثورة الوطنية التي لا يمكن أن يستقيم بانتصارها أمر الاستعمار المتسلط على المغرب باسم «الحماية» المزورة.

ومما لا شك فيه أن الأمير محمد كان له دور كبير، وعمل حاسم في إقامة تلك الأنظمة، وإدخال تلك الإصلاحات التي أعطت للريف في عهد ثورته الكبرى شكل البلاد المنظمة سياسياً، وإدارياً، وعسكرياً، وهذا ما مكنها من الانتصار على الأعداء، ومن القيام بحركة واسعة النطاق في المجال الديبلوماسي لمحاولة حمل الدول على الاعتراف باستقلال البلاد، وربط علائق المودة معها، وهو ما لم يتحقق بسبب المطامع الاستعمارية التي أحبطت في النهاية كل المساعي المبذولة في هذا السبيل، ولكن بالرغم عن تلك المطامع وما أملته على دولتي الاستعمار، اسبانيا وفرنسا، من خطط حربية، فإن بعض الدول الكبرى أوفدت إلى الريف مبعوثين للاتصال بقادته، ومحاولة التفاهم معهم، وبالرغم عن ظروف الحرب فإن جماعة مالية انكليزية أمضت في يونيو 1923 مع الحكومة الريفية اتفاقاً من أجل قرض مهم لاستثمار المعادن.

وتجدر الإشارة إلى أن الأمير ابن عبد الكريم أسس وزارة للتعليم لمقاومة الجهل، ونشر التعليم الابتدائي العصري، ونشرت بعض الصحف الجزائرية (كلسان الدين) إعلانات لطلب المعلمين، وفتحت مدرسة بأجدير.

الفصل الثالث والعشرون

ما هي حقيقة النظام السياسي في الريف زمن الثورة التحريرية؟

إن هذا الموضوع أثار جدلاً في بعض الكتب المغربية التي صدرت أخيراً عن حرب الريف التحريرية، وكان الجدال سطحياً، وهدف إلى إنكار حقيقة تاريخية لحاجة في نفس الكاتب، مع أن مؤرخ حرب الريف كيفما كان، وخاصة إن كان مغربياً، يجب عليه أن يدونه، بكل نزاهة وأمانة للحقيقة والتاريخ، فلا يلبس فيه الحق بالباطل، ولا يتخذه وسيلة وفرصة لخدمة أغراض شخصية، فيضلل بهذا القراء، ويشكك الباحثين، ويخفي ــ بدافع الانتهازية، والنفاق، والتزلف، والتنكر ــ حقيقة التاريخ الوطني عن الأجيال المغربية خاصة. وكل مؤرخ غير مسؤول عن أحداث وحقائق التاريخ الذي يدونه، لهذا يجب عليه أن يرويها كما كانت في الواقع، وفاء للحقيقة:

نفتح النقاش حولها، ونسأل بادىء ذي بدء: هل أعلنت الجمهورية في الريف زمن الثورة؟

ومن غير تردد، نجيب: نعم، أعلنت في يوليوز 1921 بدليل ما ورد باسم «الدولة»، كنداء إلى جميع الأمم، البيان الذي أصدره

الأمير محمد بن عبد الكريم في يناير 1923 وقتما نادى باستقلال دولة الريف، وبدأ بهذه العبارة: «نحن حكومة جمهورية الريف. . .». وقد حرصنا على التعليق على مضمون البيان لما فيه من قلب الحقائق بدافع اعتبارات سياسية وظرفية أريد التدرع بها لإنكار ما قضت المصلحة إذاك بإنكاره، ومحاولة إثبات ما لا يمكن أولا يصح إثباته.

على أن البيان ــ بالرغم عما ورد فيه من المآخذ ــ أعلن أن إسبانيا فرضت الحرب على الريف متذرعة بمعاهدة الجزيرة 1906 التي أكد البيان أن قادة الريف لا يقبلون فيها إلا ما أعلنته من مبدأ استقلال سلطان المغرب، وسلامة أراضيه، والحرية الاقتصادية على قدم المساواة بين الدول، وهكذا وقفت (حكومة جمهورية الريف) دولياً بجانب سلطان المغرب باسم استقلاله، وسيادته، ووحدة المغرب الترابية، وعلى هذا الأساس، وفي هذا النطاق لم تظهر حكومة «جمهورية» الريف بمظهر الانفصال، والانعزال، والاستقلال عن الوطن ونظامه السياسي ممثلاً في السلطان و «المخزن» وهذا في نفس لوقت الذي يعلن فيه البيان: «ولقد أشعرنا في يوليوز 1921 سفراء انكلترا، وأميركا، وفرنسا وإيطاليا، في طنجة بأننا نعلن جمهورية الريف. . . ونحن نخوض حرباً ضد إسبانيا دفاعاً عن استقلالنا. . . وسوف نثابر على ذلك حتى نحصل على السلام، والحرية، والاعتراف باستقلالنا ضمن أراضي جمهوريتنا الكاملة» التي حدد لها البيان حدوداً من خط جنوب الشمال حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن ملوية حتى المحيط كأن هذه الرقعة كانت كلها من الريف جغرافياً، وبشرياً، وسياسياً، وواقعياً، ولكن النية كانت في الحقيقة هي تحرير منطقة الشمال كلها بصرف النظر عن

الاعتبار الجغرافي والبشري.

وخلاصة القول، أن الجمهورية أعلنت في الريف بما لا جدال فيه، ولا غبار عليه، ولكنها كانت ـ حسب القرائن والأحوال ـ اسمية، وشكلية، ودعائية أكثر مما كانت اسمًا يطابق مسماه نظاماً، وحكمًا. وأقل ما يقال في ذلك البيان «الجمهوري» أنه غريب كل الغرابة في حد ذاته وفي تناقضاته المكشوفة، وأغرب ما فيه أنه صدر أو نشر بإمضاء: عبد الكريم.

ونواصل عرضنا بالتذكير بما ورد في حديث زعيم الثورة كما أجراه أو نسب إليه مع مراسل أكبر صحيفة انكليزية «دايلي هيل» في 1924، وقد نشرت الحديث «هيرالد» الأميركية في 24 و 25 ابريل 1924، وكان أول ما صرح به قائد الثورة قوله: «إن عرب الريف الذين اختاروني أميراً عليهم، يدافعون عن استقلال أراضيهم ضد السيطرة الأجنبية...»، فليست في هذا التصريح إشارة للجمهورية، وإنما فيه أن الريفيين اختاروه أميراً عليهم، فالأمر لم يتجاوز الإمارة، وهي مناقضة للمبدأ الجمهوري، كما هي أنسب لأهل الريف الذين لم تكن لهم دراية كقبائل بالأنظمة السياسية العصرية كالجمهورية التي كانت بعيدة كل البعد عن فهمهم وإدراكهم فضلاً عن واقعهم، وحياتهم الخاصة والعامة. وبالإضافة إلى هذا، فإن طبيعة الثورة ومصلحتها كانتا تقتضيان أن يحمل القائد الأعلى لقباً أقرب إلى مفاهيم وتقاليد الناس حتى يروا فيه صلاحيات القيادة العسكرية والسياسية، وهذا ما يوفره له لقب «الإمارة» دون «الجمهورية» في أعين الجميع.

ويجدر التذكير، كذلك بما صرح به الأمير ابن عبد الكريم في أوائل 1925 ــ لمراسلين صحفيين أميركيين ــ يمثل أحدهما «شيكاكوتريبون»، والآخر «الدايلي نيوز» فلما سأل أحدهما عن الشكل النهائي للحكومة أجاب أنه ينوي الاستمرار في الحكم وفق مبادىء الملكية المطلقة التي ظهر ــ كما قال ــ أنها أفضل نظام يتناسب مع معتقدات الشعب الريفي، ثم زاد: ويمكن تطويرها مع الزمان إلى أسس أكبر حرية.» فهذا كلام صريح في موضوعه، ويستفاد منه:

1 ــ أن شكل الحكم لثورة الريف لم يكن نهائياً سواء كان «جمهورية» أو «إمارة» أو «شبه ملكية مطلقة».

2 ــ أن ابن عبد الكريم اعترف بأنه كان يمارس الحكم المطلق لمصلحة الثورة، وأهل الريف.

3 ــ أن هذا الحكم، مهما كان شكله، واسمه، وعنوانه، كان قابلاً للتطور مع الزمان في اتجاه حرية نسبية لصالح الشعب.

4 ــ أن ابن عبد الكريم كان يرى أن الحكم الممارس من طرفه وفق مبادىء «الملكية المطلقة» أفضل نظام يتفق مع معتقدات أهل الريف، وبهذا نفى ضمنياً أن تكون «الجمهورية» صالحة كنظام للحكم في الريف وقتئذٍ.

ونبحث ــ بعد كل ما تقدم ــ واقع الأحداث والتطورات للثورة الريفية لنبرز الحقيقة المنشودة، ذلك أنه في بداية الثورة، لما أراد بطلاها محمد بن عبد الكريم وشقيقه تنظيم صفوف الجهاد،

وجها الدعوة إلى القبائل المنضوية تحت لواء الحرب التحريرية لإيفاد نوابها إلى مركز القيادة باجدير، فكان التجمع شعبياً عظيماً، وخطب فيه قائد الثورة استنهاضاً واستنفاراً باسم الاتحاد، والتضامن، والتناصر ضد الغزاة الإسبانيين، ثم جعل الأمر شورى بينهم، فتداولوا في الأمر، وأعلنوا أنهم سيقاتلون إلى آخر قطرة من دمائهم، ثم قر رأيهم على تأليف مجلس شعبي يكون المرجع الأعلى، ويتولى تخطيط البرامج، وتحديد سياسة الجهاد، وتأليف حكومة محلية لتدبير الشؤون العامة، ويكون من اختصاصها التنظيم والتشريع مدة الحرب، وقد تشكل المجلس الذي أصبح يمثل إرادة وصوت القبائل المجاهدة في سبيل الاستقلال. وفي أول اجتماع للمجلس اتخذ قرار إعلان استقلال الريف، وتكوين حكومة دستورية برئاسة الأمير ابن عبد الكريم كزعيم الثورة، وقائد الجهاد، وكان هذا في منتصف محرم 1340 هـ 1921.

ودام تطبيق النظام عامين، ورفض ابن عبد الكريم أن يلقب بالسلطان، فاكتفى بلقب أمير الريف، تمشياً مع النظام القائم إذاك في المغرب، وهو السلطنة كما ضمنتها المعاهدات الدولية نفسها.

ويتضح من ذلك أن المجلس لم يعلن «جمهورية» وإنما اهتم بتأليف حكومة دستورية تحت إمارة قائد الثورة، وكانت حكومة محلية اقتضتها التنظيمات الثورية، وضرورات الحرب التحريرية، وشتى الاعتبارات السياسية والديبلوماسية، ومتطلبات الدعاية لقضية التحرير في العالم.

وكل ذلك لم يكن متناقضاً مع نظام السلطنة في المغرب، بدليل أن ابن عبد الكريم رفض لقب السلطان، وآثر عليه لقب

أمير الجهاد في الريف لممارسة الحكم والقيادة حتى يتم تحرير البلاد، وتعود السيادة للأمة، فتقرر بمحض إرادتها، وكامل حريتها أنظمة الدولة وسياستها العامة.

وفيما يخص نظام الحكم في الريف زمن الثورة ليس من شك في أن القيادة أعلنت ما سمي إذاك «بالدولة الجمهورية الريفية» وذلك في 30 جمادي الأولى 1341 وقيل في 14 أو 15 جمادي الثانية من نفس السنة (موافق 18 يناير أو 27-28 فبراير 1923)، وليس من شك كذلك في أن «الجمهورية» المعلنة رسمياً وقتئذٍ لم تكن في حقيقتها ونظامها، ولا في شكلها وجوهرها، شبيهة بالجمهورية كما عرفت في أوروبا، وإنما كانت عنواناً ولقباً لنوع الحكم القائم يومئذٍ في الريف لا أقل ولا أكثر، ولهذا كانت شيئاً محلياً وخاصاً بأوضاع الريف الاجتماعية والسياسية، وكذلك بالعادات والمفاهيم السائدة هناك. وفي الواقع، لم يكن مدلولهم إلا «اتحاداً للقبائل المتكتلة» للجهاد تحت قيادة رؤساء الثورة، وحتى هؤلاء أنفسهم لم يعتبروا «الجمهورية» المعلنة سوى اسم بدون مسمى بدليل أن الاسم الحقيقي المتداول كان هو «حكومة الريف» التي كانت تعبر عن واقع الهيئة الحاكمة بصفتها الكل في الكل سياسياً وإدارياً، وحربياً، كما أن الأمير محمد بن عبد الكريم كان يستعمل في تصريحاته مصطلحات سياسية مختلفة دون أن يتقيد بلفظ «الجمهورية» لأن المهم في نظره، هو واقع الحكم كما كان يفهمه ويمارسه دون اللقب والعنوان، وحتى القبائل نفسها كانت تستعمل عبارة «قيادة ابن عبد الكريم» ـ لا رئاسة الجمهورية ـ كلما أرادت

أن تعبر عن المركز الأعلى للحكم في الريف، ونملك تصريحات للأمير ابن عبد الكريم أدلى بها إلى صحفيين كبار زاروه في مركز قيادته، ومنهم «سكوط موفرير» مراسل «شيكاغودايل نيوز» الأميركية في اكتوبر 1924، و «فانسان شين» مراسل «شيكاكوتريبون» في مارس 1924، والتصريحان ينفيان حقيقة الجمهورية حيث لم يرد ذكر «للدولة الجمهورية الريفية» في التصريح الأول.

وفي التصريح الثاني، تحدث بقوله: «إن عبارة الجمهورية الريفية غلطة كبرى من حيث التسمية، فلن تكون لنا جمهورية أبداً، ولم نفكر أصلاً في أن تكون لنا، فما هي إلا اسم نستعمله للتعبير عن جماعات محلية صغرى، أي أصغر من القبائل، وأشبه بالدوائر (خونطاس) الإسبانية». وقد اندهشت الأوساط السياسية الفرنسية خاصة لهذا التصريح، حتى إن ليوطي حرص على لفت نظر وزارة الحربية إليه في تقرير بتاريخ 8 ابريل 1925، ففي ذلك التصريح أوضح ابن عبد الكريم أن حكومته تعد «ملكية مطلقة»، وأنها ستتطور بعد مرحلة انتقالية لجيل واحد، إلى «ملكية دستورية»، فأين هذا من الجمهورية التي أعلنت، وتبخرت مع الأيام بصفتها غلطة كبرى باعتراف الأمير ابن عبد الكريم؟ وحقيقة الحكم في الريف كانت متمثلة في رئاسة عليا تولاها الأمير ابن عبد الكريم، وفي «الدومة» (المجلس) المنتخبة بالشكل التقليدي من سكان كل قبيلة؛ أما السلطة التنفيذية فكانت لهيئة وزارية مركزها باجدير، وأعضاؤها ثمانون، ويسمون «بالنواب»،

وتنتخبهم القبائل مباشرة، ومقر هذا المجلس باجدير كذلك، وكانت له السلطة إلتشريعية، وقراراته نافذة وملزمة للهيئة الحاكمة، وهذا ما كان يضفي على نظام الحكم نوعاً من الديمقراطية. وعلى رأس كل قبيلة كان يوجد «قائد» وكل فخضة منها كان يتكلف بها «شيخ» بجانبه مجلس محلي بينما كان «القائد» مراقباً من ستة مندوبين مختارين من وزير الداخلية ومسؤولين أمامه، وكانت الشريعة أساس القضاء، وتستأنف الأحكام باجدير فهذا جهاز الحكم في الريف آنذاك، وقد كان أبعد شيء عن الجمهورية بالمفهوم الأوروبي. وفي تصريح للأمير ابن عبد الكريم لصحفي أوروبي ـ بعد نهاية الحرب الريفية بقيادته ـ نقلته جريدة «الشورى» بالقاهرة، ورد قوله: «لقد سمينا بلادنا جمهورية ريفية منذ 1923، وطبعنا في فاس من أجل هذا أوراقاً رسمية كتبت عليها كلمة جمهورية وذلك للتعبير عن الواقع، وهو أننا كنا دولة مكونة من قبائل مستقلة متحدة، لا دولة تمثيلية ذات برلمان منتخب، فكلمة جمهورية لم يكن لها، في فكرنا، أن تصبح ذات مدلول حقيقي إلا بعد مرور زمن ما، لأن سائر الشعوب عندما تنتظم تكون في احتياج إلى حكومة حازمة وسلطة قوية، ونظام محكم»، ثم أضاف: «ولكني كنت غير مفهوم لأن الناس ظنوا أني ـ بعد الانتصار ـ سأمنح القبائل استقلالها الذاتي، ومعنى هذا الرجوع إلى الفوضى والهمجية».

وتتضح من هذا التصريح بكيفية أجلى وأدق حقيقة النظام الحكومي القائم في الريف إبان الثورة، فلم يكن جمهورياً

ولا ملكياً، ولا ديمقراطياً، وإنما كان إمارة سياسية وحربية بإرادة القبائل المتحدة، وتحت قيادة قوية حازمة برئاسة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي والهيئة الوزارية الملتفة حوله، فلم تكن هناك جمهورية حقيقية معنى وتطبيقاً، بل لم تكن هناك حتى دولة بالمعنى القانوني المتعارف، فكل ما كان في الواقع هو اتحاد قبائلي تتولاه حكومة محلية برئاسة محمد بن عبد الكريم كأمير الجهاد المبايع لتحرير البلاد، أما إعلان الجمهورية فكان لبواعث سياسية وديبلوماسية غير خفية، وحدث هذا فكان فلتة أكثر مما كان.

* * *

ومما عرضناه من تصريحات، وذكرنا به من أحداث يتجلى بكل وضوح:

1 ـ أن إعلان «جمهورية» في الريف لم يكن القصد منه إقامة نظام بقدر ما كان يرمي إلى الاستهلاك الخارجي ظناً من قادة الثورة أن من شأن ذلك أن يجلب لها شيئاً من العطف والتأييد ضد الأعداء الإسبانيين الذين كان نظامهم إذاك ملكياً.

2 ـ أن الحكم الثوري كان إمارة محلية كقيادة للجهاد الوطني.

3 ـ أن الحكم كان مطلقاً حيث كان قائماً على تجمع السلطة كلها في يد القائد الأعلى كأمير للريف، ورئيس أعلى للحكومة والجيش.

4 ــ أن المجلس القبلي لم يكن «برلماناً» وإنما كان مجرد هيئة استشارية عند الاقتضاء.

5 ــ أن أهل الريف كانوا لا يهتمون بغير الجهاد وإحراز النصر على الأعداء الغزاة حتى تتطهر من دنسهم البلاد، ويعيش أهلها في ظل الحكم الوطني، والاستقلال السياسي، والسيادة القومية، وغير هذا كان شكلياً وثانوياً في نظر الجميع.

أما اتخاذ الثورة لراية فاستجابة لضرورة سياسية واضحة، كما أنه من عادة الجيوش أن تكون لها ألوية مختلفة عن الراية الوطنية الموحدة. وأما الأوراق البنكية التي اتفق على طبعها فلم يكن لها أي قيمة تُذكر.

الفصل الرابع والعشرون

حكومة الريف والعالم الإسلامي

كان العالم الإسلامي ـ شعوباً، وحركات، وأحزاباً، وحكومات ـ يؤيد ثورة الريف التحريرية بجميع أنواع التأييد المعنوي، وكذلك المادي جهد المستطاع، ولا مبالغة في القول إن المسلمين كافة اعتبروا قضية الريف قضيتهم، فأعاروها من الاهتمام، والرعاية، والمؤازرة ما أقام البرهان على أنها أثارت في أعماق نفوسهم مشاعر العطف، والتقدير، والإعجاب، فكانت في نظرهم مصداقاً للآية الكريمة: ﴿**كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً بِإِذْنِ اللَّـهِ**﴾، ولم تكن هذه الفئة الكثيرة إلا دولتين أوروبيتين هما فرنسا، أكبر دولة حربية في ذلك العهد، وإسبانيا اللتين فاق مجموع جيوشهما المحاربة مليون مقاتل، مزودين بأعظم تسليح حربي حديث براً، وجواً، وبحراً، وقد كبدت الفئة القليلة تلك الفئة الكثيرة من الخسائر والهزائم ما عد من الخوارق والمعجزات في الحرب قديماً وحديثاً، فكان من شأن هذا أن نفخ في عالم الإسلام إذاك روح النهضة، والحماسة، والانبعاث، وقوى فيه عزيمة التوثب، والتحرك، ؛ والانطلاق نحو أقصى الأماني والآمال.

وهكذا كانت الثورة الريفية، وقائدها البطل الأكبر الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ومن معه من القادة والمجاهدين الأبرار، ملء الأسماع والأبصار في الدنيا بأسرها عامة، وفي دنيا الإسلام خاصة، فكان من الطبيعي أن تلقى التأييد من الرأي العام في كل أمة حرة أو متطلعة إلى الحرية، وكان العالم الإسلامي أول وأكبر مؤيد لها على الإطلاق، وتجلى هذا في الصحف، والأندية، والجمعيات، والمنظمات السياسية، وفي المراسلات والبرقيات الصادرة عنها، وعن المؤتمرات والمهرجانات إلى مختلف الحكومات المعنية بالأمر، وإلى هيئة الأمم بجنيف مؤازرة لمطالب الريف في الحرية والاستقلال، ولم تكن هذه الحركة التضامنية معنوية فحسب، بل مادية كذلك بقدر الإمكان، وكان قادة الثورة متصلين بأصحابها، بالرغم عن العراقيل المنصوبة من الأعداء المستعمرين، إما مباشرة، وإما بواسطة مبعوثين أجانب.

المؤتمر الإسلامي بالقاهرة:

لقد دعي الأمير ابن عبد الكريم للمؤتمر الإسلامي المنعقد بالقاهرة في أواخر 1925، وكانت حكومة المغرب مدعوة إليه كذلك، فلما علم الفرنسيون بالدعوة الموجهة إلى أمير الريف سحبوا الوفد الرسمي الممثل للسلطان مولاي يوسف حتى لا يحضر مع وفد الريف الذي اعتبروه ممثلاً للتمرد والعصيان في شمال المغرب، ولم يكتف الفرنسيون بهذا، بل قررت الحكومة الفرنسية وإقامتها العامة بالرباط الحيلولة بالقوة دون توجه الوفد الريفي إلى مصر،

ففرضت تدابير الحصار، بجميع موانىء المغرب، والجزائر، وتونس، وفرنسا من جهة البحر الأبيض المتوسط، وضرب الحصار بشكل أخص في ميناء طنجة حتى لا يتسرب منه ممثل الريف في اتجاه جبل طارق، وأمام هذا اضطر الأمير ابن عبد الكريم إلى انتداب شخصيات مصرية لتمثيله في المؤتمر: الشيخ سيدي الحسين العلوي الكاظمي من الأزهر والسيد محمد خراج المنيوي رئيس جمعية العلماء بالقاهرة.

ويظهر أن وفد الريف حل بالقاهرة، بالرغم عن تدابير العرقلة برئاسة الحيتمي، رئيس مصلحة الإعلام بالريف، ولكن إسبانيا احتجت على حضوره، فلم يتمكن من المشاركة في المؤتمر، كما يظهر أن التعليمات المعطاة للوفد كانت هي عدم ترشيح أحد لمنصب الخلافة بعد أن أُلغيت في تركيا من الحكومة الكمالية، وذلك أن ابن عبد الكريم كان على يقين بأن الطامعين في الخلافة من الرؤساء المسلمين إنما كانوا ذوي أطماع شخصية، وسرعان ما يجعلونها منصب جاه، وأبهة، ويحولونها إلى السيطرة والاستبداد، وقد عرضت الخلافة على الأمير ابن عبد الكريم فرفضها اقتناعاً منه بأن أمرها أصبح إذاك متعذراً على الوجه المطلوب بسبب ما كانت تعانيه شعوب الإسلام من احتلال واستعباد، ومن تسلط واستبداد، وبأن مِصلحة هذه الشعوب كانت تقضي بأن تحكمها ــ في ظل السيادة والاستقلال ــ حكومات عصرية محكمة النظام. وقد رأى بعض العلماء المسلمين في الشرق ــ بحق أو باطل ــ أن موقف الأمير ابن عبد الكريم كان متأثراً بالحركة الكمالية.

والحقيقة أن الرأي العام الإسلامي كان منقسمًا إلى أنصار الخلافة وخصومها، ولكل وجهة نظره، وتغلبت الفئة المعارضة لقيام خلافة جديدة، وقد طمع فيها ملوك مسلمون معروفون لم يكونوا صالحين لها، كما أن العصر كان معاكساً لقيام الخلافة بأي شكل، وفي أي مكان، خصوصاً ولم يعد لها إذاك أي أثر في حياة المسلمين، ولم يبق لها كذلك أي بلد يأويها بعدما ألغتها تركيا الجديدة.

2 ـ المؤتمر الإسلامي بمكة:

دُعي له الأمير محمد بن عبد الكريم من الملك عبد العزيز آل السعود، في حين لم يدع له سلطان المغرب تلافياً لأي تدخل فرنسي في شؤون المؤتمر، فلو وجهت الدعوة إلى حكومة (المخزن) لأوفدت السلطات الفرنسية من يمثل وجهة نظرها، ويخدم سياستها داخل المؤتمر، ولهذا اكتفى الملك السعودي باستدعاء الأمير ابن عبد الكريم لأنه اعتبره أصلح من يمثل المغرب نظراً لشخصيته، ونفوذه، وتأثيره، ونظراً كذلك لما كان يتمتع به من تقدير العالم الإسلامي خاصة، ولما كان يشخصه كرئيس حكومة حرة في منطقة متحررة من كل سيطرة أجنبية، وكان ذلك الاستدعاء الرسمي من الملك العربي اعترافاً بالأمير ابن عبد الكريم كرئيس بلد إسلامي مستقل جدير بتمثيل المغرب الحر على الأقل.

3 ـ حركة التضامن مع الريف:

قد تجلى هذا التضامن في الميدان المالي، فشهدت الأقطار

الإسلامية حركات لجمع التبرعات المالية لمساعدة الريف، وأدركت التبرعات مبالغ مهمة، ومنها* شيكات قيمتها آلاف الجنيهات، وجمع المؤتمر الإسلامي بالقاهرة إعانات باسم الجرحى في الريف، وكانت لجنة الخلافة بوادي النيل من الهيئات العاملة لإسعاف الريف بالمال، وفي الهند تولى الحركة الإخوان محمد علي وشوكت علي باسم اللجنة المركزية للخلافة، وقد كانت المساعدة المالية للريف مستمرة بفضل تلك اللجنة، وفي 1925، وقتها كانت حرب الريف في أوجها، وجهت النداء للتضامن معها، فبلغت التبرعات بسرعة نصف مليون روبية هندية، كما وصلت الأموال المتجمعة في 1926 مليوناً ونصف روبية، وكان معظمها من اكتتابات الجماهير الشعبية، ولكن الصعوبة كانت في إيصالها إلى قادة الثورة في الريف، وكل هذه الحركة التضامنية المتجلية في العالم الإسلامي جاءت برهاناً على ما كان للثورة في نفوس المسلمين كافة من بليغ الأثر، وعميق الصدى، وتعبيراً عن هذه الحركة كتبت مجلة فرنسية بتاريخ فاتح ابريل 1925: «أن ابن عبد الكريم يعتمد على عطف وتضامن الإسلام (العالم الإسلامي) الذي يرى بحق في الحرب الظافرة التي يقودها ابن عبد الكريم ضد الإسبان حرب الاستقلال، وفي المؤتمر الإسلامي المنعقد في بلكوم بالهند اتخذ أكثر من ألفي مندوب مسلم قرار التضامن مع أهل الريف».



قضية الريف والبرلمان الفرنسي

كانت قضية الحرب في الريف شغل فرنسا الشاغل منذ بدأت ثم توالت الأنهزامات الإسبانية التي كانت كوارث حربية هزت كيان إسبانيا، وزعزعت الرأي العام ونظام الحكم فيها بما ليس له مثيل في التاريخ الإسباني؛ وقد كان لهذا كله صداه البعيد، وأثره البليغ لدى الفرنسيين شعباً، وحكومة، وجيشاً، فأخذ الجميع يحسبون ألف حساب لانتصارات الريف الباهرة على جيوش العدو التي سحقت في الميدان بشكل جد فظيع، وباتت الأوساط العسكرية والسياسية في فرنسا، والمغرب، وشمال أفريقيا، تفكر في عواقب تلك الانتصارات على الوجود الفرنسي في المغرب خاصة، وفي الشمال الأفريقي عامة آناً واستقبالاً، فانطلقت العقول تصور المخاوف التي تساورها من جراء ما حدث في شمال المغرب من انتصارات ريفية ساحقة لها ما بعدها، وأخذ الساسة والخبراء العسكريون يخططون لتلافي نفس المصير. أما العسكريون في وزارة الحربية، والمجلس الأعلى للدفاع، وهيئة الأركان، وغيرها، فكانوا يقترحون أخذ المبادرة بالهجوم على الريف في ناحية نهر ورغة أي داخل حدود المنطقة الشمالية، وفعلاً نفذ ليوطي هذا بأمر من وزير الحربية ماجينو.

ولما انهزم الجيش الإسباني شر انهزام وفكر الإسبانيون في التخلي عن الريف، والاكتفاء ببعض نقط ومدن الشاطىء بلغ تخوف الفرنسيين أشده فصمموا على التعاون والتحالف مع إسبانيا لمواجهة القوات الريفية بهجوم مشترك ساحق. وكان العسكريون الفرنسيون، وعلى رأسهم المريشال بيتان، لا يؤمنون إلا بشن حرب مطلقة (Totale) بكل الأسلحة الحديثة لإنهاء القتال بأسرع ما يمكن ولو أدى إلى تخريب الريف، وإبادة معظم سكانه، وهذا ما قامت به الجيوش الفرنسية بتعاون مع الجيوش الإسبانية براً، وجواً، وبحراً، فكانت النتيجة الحتمية آخر الأمر، وهي توقف ابن عبد الكريم عن القتال.

وطالما كان الريف مسرحاً للحرب ضد الإسبان، ثم ضد الفرنسيين، شغلت قضيته الرأي العام، والحكومة والبرلمان في فرنسا بما جعلها قضية الساعة الكبرى التي يرتبط بها مصير الاستعمار لا في المغرب فحسب، بل كذلك في الشمال الافريقي، وربما في غيره من الأقطار الواقعة تحت السيطرة الفرنسية بشكل من الأشكال. ونستعرض بكل اختصار ما أثارته حرب الريف في المحافل الرسمية، والأوساط السياسية في فرنسا من مناقشات ومنازعات كانت تتخذ في كثير من الأحيان صفة زوابع هوجاء.

كانت فرنسا إذاك تحت حكومة اليمين، كما كانت الأغلبية يمينية في البرلمان، وكان اليسار فيه قوة لا يستهان بها، وقد غذت قضية الريف الصراع بينهما أثناء جلسات صاخبة متوالية. أما موقف

الأغلبية اليمينية فكان مؤيداً للحرب ضد الريف بكل الوسائل، وبدون هوادة ولا شفقة، لأن المصالح الاستعمارية الفرنسية كانت تتطلب القضاء على الثورة التحريرية التي تمثل فيها بتصاعد وتفاقم الخطر الجسيم على الوجود الفرنسي في المغرب بالأخص، وفي مجال الدفاع عن تلك المصالح كانت للنواب اليمنيين جولاتهم وصولاتهم تحت قبة البرلمان، فتدفقت سيول كلامهم بما رددت أصدائه صحف اليمين والاستعمار، وسعَّر نيران الصراع خارج البرلمان، وضاعف الخلاف في الرأي العام. وكان في البرلمان «فريق استعماري نيابي»، فتصدَّر للدفاع عن سياسة الاستعمار زاعمًا في بعض ملتمساته إلى الحكومة أن فرنسا إنما تقوم «بدور تمديني وخيري» تجاه السكان المستعمرين، وهو دور جرب هؤلاء السكان في كل مكان حقيقته، وتحملوا كل ما جره عليهم من عدوان، وحرمان، ووبال وشقاء.

وفي الواقع، كان البرلمان ناقص الاطلاع على حقيقة الأوضاع في المغرب: لأن الحكومة المسؤولة أمامه دستورياً كانت تخفي عنه كل ما تريد من الأخبار والمعلومات، وحتى في تدخلات وزرائها كانت نفس الخطة متبعة حتى تظل الأسرار والحقائق خاصة بالمسؤولين العسكريين والمدنيين. وهكذا، بقي البرلمان يجهل المشاكل والصعوبات كما كانت تعانيها فرنسا في المغرب، خصوصاً في الميدان الحربي حيث كانت المقاومة المسلحة المتواصلة بشدة، كما صعدت حرب الريف هذه المقاومة الوطنية بشكل أبرز وأقوى، وكان الباعث الرئيسي للحكومة على كتمان الأخبار خوفها الشديد من ردود الفعل لدى الرأي العام.

وفي 1921 حضر ليوطي أمام لجنة المالية، فشرح خطته القائمة على تقسيم المغرب إلى «مغرب غير مفيد» أي الريف والأطلس الكبير، و «مغرب مفيد» هو الجدير بالاحتلال والاستعمار، ولكن الوضعية تطورت في 1923 نتيجة الانهزامات الإسبانية وانسحابات الجيوش إلى الشواطىء طلباً للأمن والسلامة، وهذا ما أصبح يقلق الفرنسيين في المغرب، ويقض مضاجعهم، ويبعث فيهم المخاوف بشكل قوي ومتزايد، ووقع التعبير عن هذا في تقرير ليوطي إلى الرئيس «بوانكاري»، بتاريخ 27 يبراير 1921، حيث ورد قوله: «تنشأ من جهة ابن عبد الكريم وضعية يمكن أن تصبح ذات يوم من أخطر الأشياء علينا، فهو بطل الاستقلال الإسلامي الذي ينتصب في جبهتنا الشمالية، ولا يوجد خطر عاجلاً، ولكن لا يمكن أن ينشأ بالنسبة لكياننا في المغرب، عامل مضاد ومعاكس أكثر من القيام على مسافة قصيرة من فاس، لجماعة مستقلة، ومنظمة، ومجددة يؤيدها سكان من أشد الناس حرباً، وكثيرو العدد، وشديدو التحمس بسبب انتصاراتهم المستمرة على الإسبانيين».

وفي مارس 1924 طلب ليوطي الإذن باجتياز نهر ورغة فأعطي له، وهكذا سارت الأحداث في غفلة من البرلمان الذي جعله المسؤولون دائمًا أمام الأمر الواقع، ويستفاد من المداولات البرلمانية الخاصة بقضية الحرب في الريف أن الاتجاهات كانت هي محاولة التعرف على حقيقة حركة الجهاد في الريف، ومسؤوليات الحرب، والحلول الملائمة للمشكلة، وقد ظهرت هذه الاتجاهات في

تدخلات النواب الذين خاضوا الصراع كأنصار أو كخصوم لقضية الريف.

أما اليمينيون فاندهشوا وارتاعوا لتغلب بضعة آلاف من المغاربة على جيش إسباني فاق مئة ألف، فاعتبروا قيام دولة مستقلة في الريف تحدياً للديبلوماسية الاستعمارية بما داسته واكتسحته لغير صالحها من معاهدات وأوفاق دولية، وكذلك انهياراً «للمدنية» الأوروبية التي أصبحت تواجه صراعاً مع عالم جديد آخذ في النشؤ والتصاعد.

وأما اليساريون فكانوا شيئاً ما مؤيدين لقضية الريف كقضية شعب معتدى عليه، وثائر يجاهد في سبيل الدفاع المشروع عن الوطن، وتحريره من كل احتلال واستعباد، وقد تغيرت الأجواء في البرلمان بسبب الفريقين المتصارعين، اليمين واليسار، ولكل واحد منهما بواعثه ومصالحه، وكان اليسار ذا شقين: الشيوعي والاشتراكي، فتولى نواب الحزب الشيوعي التنديد في خطبهم بالحرب في المغرب، لأنها حرب استعمارية ورأسمالية لصالح الأبناك والشركات، وهو ما ليس فيه أقل خير لسواد الشعب المتكون من الطبقات العاملة، بل ليس فيه إلا الشر حيث إن الشعب يضحي بأمواله وأرواح أبنائه في سبيل الحرب التي لا يستفيد منها إلا الرأسمال وحلفاؤه وخدامه، ولهذا طالب النواب الشيوعيون بتوقيف الحرب، والجلاء عن المغرب، وكان موقفهم هذا داخلاً في نطاق عداوتهم للرأسمالية، والامبريالية، وتعاطفهم مع ضحاياهما من الشعوب المغلوبة على أمرها. وقد برز هذا الموقف

بشكل أقوى في الخطب التي ألقاها ثلاثة من زعماء الحزب الشيوعي وهم: «دوريو»، «وبيرطون»، و «كاشان»، أيام 27، 28، 29 مايو 1925، وطبعت كتاباً بعنوان: «ضد الحرب في المغرب» في نفس السنة، وكان الموقف الشيوعي منطقياً مع إيديولوجية الحزب، وممثلاً لتطرف أقصى اليسار تجاه قضية الاستعمار بوجه عام.

وفيما يخص موقف الشق الثاني من اليسار البرلماني فقد تولى التعبير عنه الزعيم الاشتراكي «رونوديل» في خطاب، بتاريخ 27 مايو 1925، فبعدما أبدى عدم اندهاشه للتخوفات الناشئة عن حرب الريف ذكر بالمواقف الاشتراكية منذ 1904 حيث لفتت النظر للأخطار التي تعرضت لها فرنسا بالتورط فيما سماه إذاك الزعيم الاشتراكي «جوريس» «بعش الزنبور المغربي»، (كيبي ماروكان) (Guépier Marocain)، وأشار إلى أن نجاح ابن عبد الكريم لا يفسر بقوة شخصيته فقط، بل ذهب الخطيب إلى أنه كانت وراءه «مصالح معدنية»، وكذلك «مصالح ذات صبغة سياسية دولية»، عانياً بهذا ألمانيا وروسيا الشيوعية، ولكنه أضاف أن كل هذا ينبغي أن لا يخفي جوهر المسألة، وهو ابن عبد الكريم يعبر عن حقيقتين اجتماعية وسياسية، وهما أن سكان الريف يؤلفون مجموعة ذات سجية معينة، ولها اهتمام خاص بالاستقلال، ثم إن المسلمين قد أصبحوا على وعي من وضعهم، فصاروا يعملون لطرح نير الأجنبي ومن هذه الحيثية ضاعفت أغلاط السياسة الاستعمارية نفوذ ابن عبد الكريم، حتى عم إذاك في بعض المدن بالمغرب الشعور بانتظار الحدث الهائل وهو الاستيلاء على فاس. والحقيقة أن العقول

لم تخضع للغزو بسبب الوجود الفرنسي الذي لم يكن إلا احتلالاً عسكرياً، وليست الحقوق المخولة للسكان المغاربة بالتي يريدون من الآن الاتجاه إليها، فكلما قيل لهم إنه يراد السير بهم نحو المدنية عدوا هذا التزاماً بالبحث عن الظروف التي تصعد بهم تدريجياً نحو الحرية، وقد تأخر هذا تأخراً مفرطاً، فأولئك الذين كانوا يظهرون أنهم يعيشون في اطمئنان تحت «الحماية» أخذوا يفكرون بغير وضوح في هذا، وهو أنه إذا أمكن إتيانهم بالحرية من الخارج، فإن الاستقلال الذي يطمحون إليه يكون مؤكداً، وهذا ما يفسر الظروف التي استطاعت فيها قوات ابن عبد الكريم الوصول قرب فاس.

وفي نظر النائب الاشتراكي المذكور أن الموقف الفرنسي المتخذ في المغرب، وكذلك الكيفية التي سار عليها الاستيلاء المتزايد على الأراضي المحتلة لم يكونا غريبين عن القرارات التي أقدم عليها ابن عبد الكريم، وأمام احتلال ناحية ورغة التي عدها غلطة لم يكن للقائد الريفي أن يبقى مكتوف اليدين، وغير مهتم بما حدث هناك، وتساءل «رونوديل» بعد هذا عن الحلول الممكنة لوضع حد للحرب، فأشار بثلاثة على الحكومة الفرنسية:

1 ـ الاستيلاء على ابن عبد الكريم في عرينه وهزمه بالقوة،

2 ـ تجميد الوضع الحربي مع استعادة المنطقة المنسحب منها تحت ضغط القبائل الثائرة، والوقوف على أهبة الحرب من غير تسوية المشكلة السياسية،

3 ـ إجراء محادثات للصلح؛

وهذا الحل الأخير هو ــ في رأيه ــ الملائم لمصلحة فرنسا، وعلل هذا بأمرين، هما أن فرنسا قد خرجت قبل قليل من حرب عالمية ضحت فيها بمليون ونصف من الموتى، وتحملت بسببها الخراب في كثير من الجهات التي تحتاج إلى سواعد ما لا يقل عن أربعمائة آلاف من العمال الأجانب لإعادة بنائها وتعميرها، ثم إن الأمهات والزوجات لا يردن أن تتجدد مثل تلك الكوارث ولو بشكل أضعف، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، فإن الوضعية المالية الفرنسية أصبحت إذاك مخيفة، كما أن نظام المغرب يهدد بإثارة صعوبات وارتباكات دولية، فيجب على الحكومة أن تقدم حلاً شريفاً وذلك بمجرد ما يضمن الأمن في المنطقة الفرنسية، وهنا حذر النائب السلطات المدنية من الجهات العسكرية التي لا تفتأ تبحث عن الوسائل لتأخير الوقت الذي يصبح فيه السلم نهائياً ذاهبة إلى أن الضمانات المتوفرة في هذا المجال غير كافية.

أما كيف يتم الإقدام على الصلح فيكون بنداء موجه من فرنسا إلى ابن عبد الكريم وهي شاعرة بمعنويتها وبقوتها الكبيرتين، فلا تخاف من إهداء السلم إلى قائد القبائل المحاربة. أما الاتفاقات الممكن إبرامها فينبغي أن تمنح ابن عبد الكريم الاستقلال السياسي الذي يحتاج إليه، وعند الضرورة تشرك هيئة الأمم في المفاوضات، فإذا رفض ابن عبد الكريم فإنه يعطي البرهان على أنه يريد الحرب. وختم «رونوديل» خطابه، بقوله: «إننا نطلب أن تعلن فرنسا بافتخار، أمام العالم، أنها تقول ما تعمل، وتعمل ما تقول، وهكذا فإن الجمهورية الفرنسية تخدم حقاً الديمقراطية الدولية

والسلام» ثم جاء بعد ذلك دور رئيس الحزب الاشتراكي «بلوم» ليعلن من جهته في 9 يوليوز، أن الاستعمار الحربي الذي يفرض وجوده بالاحتلال والفتح شيء رفضه الاشتراكيون دائمًا، وسيظلون رافضين له.

ونلاحظ على هذه التصريحات والمواقف أنه التبس فيها الحق بالباطل، حيث إن الناطقين باسم حزبهم أعلنوا دائمًا أنهم غير متفقين على الجلاء عن المغرب، بل شرح أحدهم في البرلمان هو «فونطانيي» بتاريخ 5 يبراير 1925، «أن الاستعمار ليس أساسياً شراً وسؤاً»، إذ هناك ضرورات سياسية تبرره أحياناً ولهذا فإن لفرنسا حقوقاً في المغرب بسبب وجودها في الجزائر، وبالإضافة إلى هذا، فإن النظام الاستعماري أسمى من الأنظمة الاستبدادية الأهلية»، وحتى الزعيم الاشتراكي الأكبر «جوريس» تحدث بنفس الشيء حينما أعلن قبل ذلك بسنوات في البرلمان: «بالرغم عن عاهاته ومفاسده فإن النظام الفرنسي في تونس والجزائر يخول المسلمين من ضمانات الأمن، والرفاهية، ومن وسائل النمو ما هو أسمى بكثير من التي يعطيها لهم النظام المغربي المعروف بالغصب، والفوضى، والعنف، والانحراف، والملتهم لجميع موارد البلاد، والمتحرك بتعصب معتل وبهيمي»، وسار على نفس المنوال كذلك «فوطانيي» المذكور، حيث قال: «إن العمل الاستعماري يجد تبريره إذا ما أتى الأهالي بمدنية أسمى، وتقدمت إليهم الأمم المالكة لمستعمرات بصفتها وكيلة الإنسانية جمعاء». فهذه نماذج كافية لإظهار حقيقة آراء ومواقف الاشتراكيين بما لا مزيد عليه من الوضوح والتدقيق،

ولتبيان ما تقوم عليه من أخطاء، وترهات، وتناقضات، وحتى العبارات المعسولة الواردة في تلك التصريحات إنما قيلت للحاجة؛ ولا تعدو أن تكون حقاً أريد به باطل، وهكذا نلاحظ أن تصريحات الاشتراكيين لم تختلف بوجه عام عما اعتاد المستعمرون التعبير عنه لتبرير السيطرة الاستعمارية بمصلحة الضحايا، وباسم التمدين المزعوم.

ويتضح لنا هذا من تصريحات نواب اليمين «كليون باريطي» الذي أنشأ في يناير 1921 «الفريق البرلماني للمغرب» لتكتيل نواب الاستعمار أنصار الوجود الفرنسي في الشمال الأفريقي خاصة، ولمحاربة «عدوى» السياسة التحريرية التي قال إنها ظهرت، بعد الحرب العالمية الأولى باسم المبادىء الإنسانية، والتي اتخذتها دعاية الشيوعية أداة لمقاومة الرأسمالية والأمبريالية حليفتها. وهكذا كانت الفكرة المهيمنة على نواب اليمين هي الفكرة الأمبريالية خادمة الرأسمال وحامية الاستعمار، ولهذا رأوا في ثورة الريف التحريرية بقيادة الأمير ابن عبد الكريم الخصم المخيف، بل العدو الألد الذي يتحتم بأسرع ما يمكن القضاء عليه، وإبادته، وكمثال لموقف اليمين في البرلمان من قضية الريف نشير إلى خطاب نائب وهران الشهير بتعصبه الاستعماري والمسمى «روكس ــ فريسينانغ» السيىء الذكر لدى الشعوب في الشمال الأفريقي بالأخص، ففي خطاب له بتاريخ 9 يوليوز 1925، قال: «أن ابن عبد الكريم نتاج المجتمع الريفي، ولم تنشأ عن هذا المجتمع أبداً أية أمة، وإنما كان مؤلفاً من قبائل صغيرة مستقلة لا ترتبط فيما بينها بنظام أساسي،

فالقاسم المشترك بينها هو رباط الخضوع للسلطان، وهو رباط مزدوج: ديني باعتبار السلطان أمير المؤمنين، ودنيوي ناشىء عن أداء الجباية كلما سمحت القوة المادية بالذهاب لاستخلاصها، وفي 1921، ثارت تلك القبائل على الإسبان، فاختارت حسب العادة قائد حرب، وكان لابن عبد الكريم من الذكاء والمهارة ما مكّنه من الفوز بالمنصب، فتسمى بالأمير بعد معركة أنوال، وتمرد على رئيسه الديني الذي هو السلطان، كما أعلن الحرب المقدسة لا ضد الإسبان فقط، بل كذلك ضد جميع النصارى (الأروام)، ونظراً لاحتكاكه السطحي بالمدنية الأوروبية فقد أخفى النداء بالمبادىء القرآنية وراء واجهة ديمقراطية، ثم صار رئيس جمهورية الريف المستقلة، وهي جمهورية غريبة لا يدعى فيها رؤساء القبائل إلا لإعطائهم الأوامر المطاعة ولا يعاقب فيها على عدم تنفيذها إلا بالإعدام الناجز»، ثم بعد هذه الترهات والأباطيل تحدث النائب الأهوس عن الأمير ابن عبد الكريم، فنال من شخصه بما لا يقدر عليه إلا خصم مجنون مثله، واتهمه كذلك بكونه «حليف الرأسمالية الدولية الكبرى»، و«رجل أعمال» متصلاً بالمنقبين الدوليين عن المعادن، وبالأخص منهم الانكليز والألمان. وهكذا أطلق النائب الطائش العنان للكلام بالطعن، والشتم، والبهتان، ومن هذا قوله: «أن ابن عبد الكريم مهدد بالسلم الذي يستعد الإسبان لعرضه عليه»، ومعناه أن الأمير سيفقد منصبه كقائد حربي بمجرد ما تضع الحرب أوزارها، وتمادى النائب الأخرق في إرسال الكلام على عواهنه، وعرض أباطيله وخزعبلاته، وفي الأمثال: كل إناء يرشح بما فيه، وكلام المرء دال على عقله. وقد كان لخطاب

النائب المتعصب تأثير كبير في نفوس الأغلبية اليمينية التي قررت نشره وتعليقه على جدران البرلمان إعجاباً وتنويهاً، فجاء هـذا برهاناً على عقلية القوم التي بلغت من الخسة والسخافة حد المنتهى.

تلك هي الصفة التي كانت تعرض بها قضية الريف في البرلمان الفرنسي من مختلف تيارات اليسار واليمين، ومهما قيل فيها من حق نادر، وباطل وافر، فقد كانت إحدى قضايا الساعة الكبرى التي شغلت الأفكار، وتضاربت فيها الآراء، وتباينت فيها المواقف مما أثار حولها حرب كلام سارت بها في متاهات الضلال أكثر مما اتجهت بها في نهجات الحق والهدى، ومن خلال خطب الريف والافتراء لأصحاب اليمين من النواب كانت تبرز مخاوفهم على مصير فرنسا المستعمرة، خصوصاً في شمال أفريقيا، فطالبوا الحكومة بوضع حد لما سموه «بقوة الدماء» و «بقوة الفناء والدمار» المواجهتين للمدنية الفرنسية في الشمال الأفريقي، وهذا اعتراف بغزارة الدماء، وبكثرة الهلاك والخراب كما كانت تعانيهما جيوش الاستعمار في المغرب، وأمام التيارات المختلفة داخل البرلمان اختارت الحكومة جانب الأغلبية اليمينية التي فرضت على السياسة وجهات نظرها المليئة بالأخطار والأوهام والمعبرة عن الأغراض والأطماع، فتغلب في السياسة المستخلصةو من اتجاهات البرلمان جانب القوة والحرب على سواه، ويتضح من جميع المداولات البرلمانية، خلال عدة سنوات، أن القضية المغربية عامة، والريفية خاصة كانتا تعالجان في الخطب بأكثر ما أمكن من التحريف

والتشويه، والتعصب والتطرف من أنصار الاستعمار الذين كانوا يمسخون الحقائق، ويروجون السفاسف، ويفترون الأكاذيب إما جهلاً منهم، وإما لحاجة في أنفسهم، فخاصموا الحق من حيث ناصروا الباطل، وأساؤوا إلى القضية الوطنية المغربية التي كانت قضية دفاع مشروع عن الكيان القومي، وقضية جهاد في سبيل الحرية والاستقلال، وهو ما تعمد تجاهله الخصوم المستعمرون ومن حالفهم أو تواطأ معهم من الأشياع المغرضين في فرنسا.



الفصل السادس والعشرون

قضية الريف
وأحزاب اليسار الفرنسي

1 ــ الحزب الشيوعي:

أشرنا في الفصل السابق إلى موقف النواب الشيوعيين في البرلمان من حرب الريف، وهو موقف مطابق لخطة الحزب الشيوعي القائمة على عدم الفصل بين مقاومة الرأسمالية وبين معارضة السياسة الاستعمارية باعتبارهما متحالفتين ومتضامنين في المطامع والمصالح، ولهذا كان العمل الشيوعي مضاداً للاستعمار كما كان ثورياً على الرأسمال، وظهر هذا في قضية الريف زمن الحرب ضد دولتي الاستعمار، وكانت الخطة الشيوعية متأثرة بنظريات المذهب في المسألة الاستعمارية، والنزعة السلمية، (باسيفيسم) (Pacifisme) ومقاومة الروح العسكرية (ميليطاريسم) (Militarisme)، وبايديولوجية «الدولة الثالثة» التي عبر عنها نداء مكتبها الشرقي في بداية 1925 بقوله: «إن حرب المغرب ستكون طويلة ومبيدة للأرواح، وستثير خلافات وارتباكات جديدة على الصعيد الدولي بين الأمبراليات المتنازعة»، واتهم المكتب كتلة اليسار في البرلمان بعدم اختلافها مع كتلة اليمين في سياسة

الاستعمار، وشن الحرب لصالحها، ونادى باستقلال الشعوب المستعمرة.

ومما اهتم به الشيوعيون في صحفهم ونشراتهم فضح أسرار التدخل الفرنسي بالمغرب باسم حماية الوجود في الجزائر، والاستيلاء على الاقتصاد المغربي، وخدمة مصالح الأبناك والشركات الطامعة في المعادن والثروات، والتشهير بأسماء رجال الأعمال والوزراء وغيرهم الذين لهم صلة بالرأسمالية، وكان الشيوعيون يبثون دعايتهم في الجماهير بكل الوسائل موجهين النداءات المتوالية إلى الجنود في فرنسا وإسبانيا للتآخي مع ابن عبد الكريم كنداء 30 شتنبر 1925 بإمضاء الشبيبة الشيوعية الفرنسية والإسبانية الذي وزع حتى في المغرب، وقبل دخول فرنسا في الحرب ضد الريف وجهت برقية إلى ابن عبد الكريم، باسم الفريق الشيوعي البرلماني والهيئة القيادية للحزب، واللجنة الوطنية للشبيبة الشيوعية، لتهنئته بانتصار الشعب المغربي على المستعمرين الإسبان، والإعراب عن الأمل في الانتصار النهائي على الامبرالية الإسبانية، وفي مواصلة الكفاح مع الطبقة العاملة الفرنسية والأوروبية ضد جميع الأمبراليات بما فيها الفرنسية حتى التحرير النهائي للتراب المغربي، وختمت البرقية بالنداء، بحياة استقلال المغرب والشعوب المستعمرة، وقد أحدثت البرقية ضجة في الصحافة الاستعمارية، كما كان لها صداها لدى الشعوب المستعمرة.

ومنذ 14 مايو 1925، عندما هجمت فرنسا على الريف، وجهت المنظمات الشيوعية السياسية والنقابية نداء يطالب بإبرام السلم حالاً مع ابن عبد الكريم، والاعتراف بجمهورية الريف، والجلاء عن المغرب، ونسقت هذه المنظمات عملها داخل لجنة موحدة، ونظمت مئات المهرجانات التي كانت تحضرها عشرات الآلاف، وتأسست كذلك لجان الوحدة العمالية لتكتيل الشيوعيين وغيرهم حول القضية المغربية، وكان العمل مرتكزاً على مقاومة الحرب في المغرب، والمطالبة بالسلم، والجلاء، والاستقلال، وكل الفرص كانت تنتهز في سبيل المغرب، كما كانت تستعمل كل المناسبات كالحملات الانتخابية لترويج القضية المغربية، وكل الأماكن كانت صالحة للدعاية ضد الحرب حتى الثكنات العسكرية للاتصال بالجنود، وقد توجه وفد أمهات وأرملات الجنود عند رئيس الحكومة للاحتجاج على الحرب، وأحيط هذا بدعاية واسعة النطاق، وكانت الصحافة اليمينية تندد بهذا مشيرة إلى أن الشيوعيين هم ألد الأعداء، وأشد المغامرين، وضد حرب الريف دعا الشيوعيون في 12 اكتوبر 1925 إلى شن الإضراب لمدة 24 ساعة في معامل سيطروين، وتصاعد الإضراب حتى بلغ مليون عامل في فرنسا بالقطاعات المعدنية والبنائية، وكانت بعض النشرات الشيوعية الموجهة إلى العمال العرب عامة، والشمال الأفريقيين خاصة في فرنسا توزع بالعربية الدارجة (الصورة)، ولما تأسست «جمعية نجم الشمال الأفريقي» في باريس نشطت في مجال الدعاية ضد الحرب في المغرب، وكانت ذات اتصال وثيق بالحزب الشيوعي.

إيها المسلمين

عبد الكريم غلب الجنرال پريمو دي ريبيرا

الى بعثوه رأس الماليين يسرق اراضي المسلمين

لتطلبوا خروج قتالين اخوانكم من المروك

عليكم بالحضور

يوم ٢٧ سبتنبر على الساعة ثمانية ونصف مع العشية

الى دار السنديكا في رود ولاكرانج اوبيل نمرو ٣٣

ميطروا: (كومبا) أو ميطرو: (لانكري)

وتسمعوا خطبة

من ديپوتي پاريز مارسيل كاشان

ومن اخوانكم الحاج علي عبد القادر ومحمود بن الاكحل

والسلام

« O Musulmans, Abd el Kerim a vaincu le général Primo de Rivera, qui a été envoyé par les capitalistes pour voler les terres des Musulmans. Il faut que vous demandiez le départ des assassins de vos frères du Maroc. Soyez présents le 27 septembre, à 8 heures et demie du soir à la Maison des Syndicats, 33, rue Grange-aux-Belles (métro Combat ou Lancry), et vous entendrez les discours du député de Paris Marcel Cachin et de vos frères Hadj Ali ben Abd el Kader et Mahmoud ben Lekhal, Et le Salut! »

النداء المنشور في جريدة «لُومَنِيتي» الفرنسية (L'Humanité)

2 ـ الحزب الاشتراكي:

وضحنا بإيجاز في فصل سابق موقف النواب الاشتراكيين من قضية المغرب عامة، ومن حرب الريف خاصة، وهو موقف متناقض حيث أنه كان يعبر عن المعارضة للحرب في المغرب، ويدعي رفض الاستعمار، ولكنه يرفض في نفس الوقت الجلاء عن البلاد، وهذا مخالف للقرار الذي اتخذه الاتحاد الاشتراكي في مقاطعة «لاسين» في 1908 للمطالبة «بجلاء الجيوش الفرنسية عن فاس في أقرب أجل، وذلك للمحافظة على وحدة المغرب»، كما هو مخالف لجدول الأعمال الذي وضعه الزعيم الاشتراكي «جوريس» بمجلس النواب، في 16 يونيو 1911، ونصه: «نطلب من الحكومة أن تحترم كل الاحترام استقلال ووحدة المغرب، وأن تضع حداً لاحتلال التراب المغربي».

وقد تطور الموقف الاشتراكي بعد ذلك، فصار يطالب بالهدنة والسلم في المغرب، ولكن مع استمرار الوجود الفرنسي مدعياً أن المعاهدات الدولية عهدت إلى فرنسا بحماية الأراضي وقبائلها، ومؤيداً الحكومة بمنحها الثقة لتحقيق السلم في المغرب على هذا الأساس (جدول الأعمال البرلماني في 10 مايو 1925)، وفي 9 يونيو خصص البرلمان جلسة لمناقشة الاعتمادات المالية ـ 183 مليون فرنك ـ التي قررتها الحكومة للمصاريف العسكرية، وبهذه المناسبة أبدى زعماء الحزب الاشتراكي تخوفاتهم من تقرير هذه الاعتمادات من الحكومة قبل معرفة نتائج المفاوضات الجارية إذاك مع إسبانيا

للتعاون الحربي ضد الريف، ولفرض شروط السلم المشتركة على ابن عبد الكريم.

وتكلف «بلوم» رئيس الحزب بتوضيح الموقف الاشتراكي فأعلن أن حزبه لا يمكنه ولا يريد أن يصوت ضد الاعتمادات لسببين، هما: أن التصويت ضد الاعتمادات يعني التوقف العاجل للحرب أي الجلاء الناجز عن المغرب لا أقل ولا أكثر، في حين أن الاشتراكيين ليسوا أنصار الجلاء عن المغرب، هذا هو السبب الأول، والسبب الثاني، أن التصويت المضاد يمكن أن يعني كذلك أن الاشتراكيين لا يثقون بالحكومة من أجل أن تحسن استعمال الاعتمادات على أفضل وجه خدمة لمصالح فرنسا، وهذا ليس مطابقاً لمزاج الاشتراكيين، وقد تمادى «بلوم» في شرح الموقف الاشتراكي بما عهد فيه واعتاده، من تفنن في التفكير والتعبير، فتلخص من تدخله أن هذا الموقف ليس ضد ولا مع الاعتمادات، أي ليس بأسود ولا بأبيض، بل خليط من السواد والبياض معاً، وبعبارة أخرى، أن الاشتراكيين كانوا يعدون أنفسهم خصوم الاستعمار قولاً، وأنصار الاحتلال فعلاً؛ وهذا ما انتقده عليهم الشيوعيون الذين حاولوا توحيد الموقف معهم تجاه الحرب والاستعمار في المغرب بدون جدوى.

وحقيقة الحزب الاشتراكي الفرنسي أو ما كان يسمى بالفريق الفرنسي للدولية العمالية (س. ف. ي. و.)(S.F.I.O.) أنه كان يلعب على الحبال، ويعيش في تناقض بالنسبة لقضية الاستعمار باستثناء بعض قادته الذين لم يبلغوا عدد أصابيع اليد الواحدة،

ومنهم صديقنا جان لونكي النائب. ومن الملاحظ أن القاعدة كانت غير مؤيدة لموقف القيادة تجاه المشكلة المغربية حتى أنها ضغطت عليها في 1925، فاضطرتها إلى دعوة لجنة مؤلفة من الاشتراكيين الفرنسيين، والإسبانيين، والانكليز لتجتمع في باريس بتاريخ 29 يوليوز، وفي البلاغ الصادر عنها طالبت بإعلان شروط السلم كما اتفقت عليها فرنسا وإسبانيا وتوقيف العمليات الحربية أثناء المفاوضات مع ابن عبد الكريم، وتدخل هيئة الأمم؛ وهذا موقف مساير لخطة الحكومتين المحاربتين أكثر من أي شيء آخر، وحتى تدخل هيئة الأمم لم يكن من شأنه إلا مسايرة دول الاستعمار المسيطرة عليها.

وطالما حاول قادة الريف ـ عبثاً ـ اللجؤ إليها طيلة سنوات، لأنها لم توجد لخدمة سائر الشعوب إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، وبعد ذلك انعقد المؤتمر العام للحزب الاشتراكي بباريس في 18 غشت، فأبدى أسفه على إعلان برنامج التعاون الحربي بين فرنسا وإسبانيا للرأي العام قبل إطلاعه على مقترحات السلم. وبعدما ذكر بالإمساك عن التصويت في البرلمان على الاعتمادات العسكرية لمواصلة الحرب في المغرب، أعلن أنه يظهر له من المستحيل تأييد الحكومة في سياستها المغربية العديمة التبصر.

ولما اجتمع مؤتمر «الدولية الثانية» بمرسيليا في آخر الشهر المذكور تبنى قرارات اللجنة الاشتراكية الثلاثية، وطالب باستقلال الريف، وكان الداعي لتطور الموقف الاشتراكي هو تصاعد الدعاية الشيوعية. وفي 26 غشت، عقد مؤتمر الاتحاد العام

للعمال فندد بسياسة الحرب كما تنهجها الحكومة معلناً تضامنه مع جميع الشعوب المستعمرة من الأمبرالية الفرنسية المعتدية، ومصرحاً بأن الحرب في المغرب جريمة ضد الجنود المرسلين للموت لصالح رجال الأبناك والرأسماليين، كما هي جريمة ضد الطبقة العاملة المتحملة للنفقات، وقرر المؤتمر الخروج إلى ميدان العمل بمقاطعة صنع الأسلحة والذخائر، وبشن إضراب لمدة 24 ساعة إنذاراً للحكومة.

وفي 3 اكتوبر، أعلنت الحكومة شروط السلم الفرنسية الإسبانية، ولم تتضمن منح الاستقلال للريف، ولكن «تخويل القبائل الريفية والجبلية كل الاستقلال الذاتي المطابق للمعاهدات الدولية المؤلفة لنظام المغرب»، ومعنى هذا لا شيء غير «استقلال ذاتي» وهي تحت الاحتلال والاستعمار، لأن المعاهدات المعينة أفقدت المغرب استقلاله، وسيادته، ووحدته، وفرضت عليه نظاماً أجنبياً متستراً بالأوهام والخيالات القانونية والسياسية لترسيخ وجوده، وضمان واستمراره.

ومما زاد في ارتباك الاشتراكيين الدعاية الشيوعية ضد الحرب في المغرب ومن أجل الجلاء عنه، حتى إنهم شعروا بالخطر في صفوفهم، فأخذوا يحذرون أعضاء حزبهم من التأثير الشيوعي، وحتى من الحركة الوطنية التحريرية التي اتهموا رجالها بالبدائية وكراهة الأجنبي، والتعصب الديني، وبهذا حاولوا أن يظهروا المجاهدين بمظهر غير لائق بالعطف والتأييد حتى تخف عنهم وطأة الضغط الممارس عليهم من القاعدة الحزبية، ومع أن الحزب

الشيوعي كان أقلية في البرلمان (26 نائباً)، بعد انتخابات مايو 1924، فقد كان يهدد بعمله ضد الحرب في المغرب منافسه اليساري الاشتراكي الذي توفر في نفس الوقت على 101 نائب. ثم طرأت تحولات على الحزب الاشتراكي الذي كان يؤيد الحكومة منذ بدء العمليات الحربية، فانتقل من هذا إلى موقف الإمساك عن التصويت في شأنها، وانتهى به التطور إلى المعارضة كالحزب الشيوعي في 1926.

ومن عوامل التحول الاشتراكي ماوجهه الشيوعيون إلى الاشتراكيين من نقد لاذع لمواقفهم المتناقضة، ومن تشهير عنيف بمسايرتهم للحكومة في سياستها الحربية بالمغرب، فكانوا ينعتون هذه المواقف بالاستعمارية المتقلبة على نهج الـ «سوسيال ــ ديمقراس»، ويتهمون أصحابها بكونهم «شرطة البورجوازية»، ويسمون نوابهم في البرلمان «بحفنة الخونة الاجتماعيين» (سوسيال طريطر)، وتبادل الطرفان الاتهامات والمناوشات بالكلام القاسي حتى أحرج الاشتراكيون، فأكرهوا على تغيير موقفهم عجزاً عن الاستمرار في تفسيره وتبريره بما لم يكن تأييداً، ولا معارضة، أي «بين بين» حسب الظروف والمناسبات، وحتى لا يكون الاشتراكيون ــ بعد تطورهم ــ دون منافسيهم الشيوعيين صلابة في الموقف من قضية المغرب تولى نائبهم «فونطانيي»، في 5 يبراير 1925، تحديد سياستهم في طورها الجديد، فأوضح أن الاشتراكيين لا زالوا أوفياء «جوريس» ولهذا لا يريدون أن ينقادوا إلى «مغامرة مغربية جديدة»، وعملاً بهذا فهم يعارضون

غزو الريف كما يحبذه بعض العسكريين الذين قد يعدون قليلي النفوذ، أما المفاوضة مع ابن عبد الكريم الذي يتحتم عدم اعتباره كمغامر فأصبحت تفرض نفسها، خصوصاً وأن هذا الأخير لا يمتنع منها، وأخيراً يرجع إلى هيئة الأمم للتحكيم في المشكلة الدولية وهي جلاء إسبانيا عن الريف»، ولكن هذا الموقف نفسه كان دون الموقف الشيوعي الذي كانت تعلن عنه صحف الحزب بشعار: المغرب للمغاربة، كما أن الموقف الاشتراكي كان يقتصر على السعي للسلم، ويعارض كل جلاء عن المغرب، أما المطالبة بتحكيم هيئة الأمم في مشكلة الريف، في حالة جلاء إسبانيا، فمعناه عدم تمكين أهل الريف من حق تقرير مصيرهم دون أي تدخل دولي، ومن شأن تحكيم هيئة الأمم أن يؤدي إلى وضع وصاية أو انتداب ــ بناء على ميثاقها ــ وإسناد أمر الحجر الجديد إلى نكلترا التي لم تكن تسمح بوجود نفوذ أية دولة أخرى كفرنسا في شمال المغرب قبالة مدينتها المحصنة، جبل طارق، وعلى الشاطىء الجنوبي للمضيق الفاصل بين المغرب وإسبانيا، والرابط بين البحرين كمنفذ لأساطيل انكلترا سيدة البحار وقتئذٍ.

ولم يكن الموقف الاشتراكي مرضياً لجميع الاشتراكيين الذين وجدت فيهم أقلية هددت بتكوين «يسار اشتراكي» حول فريق جريدة «الشرارة» (إيطانسيل)، وفعلاً تكونت «لجنة العمل الاشتراكي والثوري قبيل مؤتمر الحزب في مايو 1926، وبسبب الحملات الشيوعية والنقابية ضد الحرب في الريف تضاعفت معارضتها داخل الحزب الاشتراكي، ومما كانت تنتقده الحكومة على

الشيوعيين أنهم بدعايتهم أوهموا المغاربة بتأييد الرأي العام الفرنسي لهم، كما أن الاشتراكيين كانوا يتهمون كذلك منافسيهم بأنهم يشجعون ويحرضون الوطنيين المغاربة، وكان الاشتراكيون يعارضون الجلاء زاعمين أنه خلق صعوبات دولية أخطر من بقاء الوضع على حاله، وهو الاحتلال والاستعمار باسم الحماية والمعاهدات.



الفصل السابع والعشرون

قضية الريف والدول الكبرى

1 ــ فرنسا:

كانت انكلترا السبب في إسناد منطقة شمال المغرب ــ دون طنجة ــ إلى نفوذ إسبانيا إبعاداً لفرنسا، وتطبيقاً لتقسيم المغرب بالرغم عن معاهدة الجزيرة الدولية 1906 التي ضمنت للمغرب استقلاله، وسيادته، ووحدته باسم السلطان، ولكن فرنسا ظلت تسلك خطة التنافس مع إسبانيا ساعية لتسرب نفوذها في الشمال بشتى الوسائل والأساليب، ومنها استعمال بعض رجال الطرق والزوايا، وفسح المجال في الجزائر للعمال الريفيين للخدمة في ضيعات المستوطنين الفرنسيين، يتراوح عدد هؤلاء العمال سنوياً بين 40 و 50 ألف، والعمل لجلب المتطوعين الريفيين إلى التجنيد في الجيش، وحاولت إسبانيا ما استطاعت مقاومة ذلك التسرب دون أن تتمكن من إيقافه.

ولما ظهر خطر الحرب الريفية على حدود المنطقتين انتهزت فرنسا هذه الفرصة لاجتياز نهر ورغة واحتلال مراكز داخل الحدود المصطنعة بين المنطقتين، الأمر الذي اعتبره قادة الريف عدواناً لا يمكن السكوت عنه، وطالما تورطت إسبانيا في حرب الريف كان

الفرنسيون في المغرب يرفضون كل تعاون مع الإسبانيين لمساعدتهم وإنقاذهم من ورطة الهزائم والكوارث الحربية المتوالية وذلك عملاً بالمثل: لم آمر بها ولم تَسُؤْني، ولكن فرنسا كانت متأكدة من أن انكلترا كانت لها دائمًا بالمَرصاد حتى لا تتدخل مباشرة في الريف لتضمه إلى سيطرتها طمعاً في الاستيلاء بعدما تتخلى إسبانيا نتيجة انهزامها النهائي في الحرب ضد الريف.

ومما لوحظ على السياسة الفرنسية إذاك عبثها بالمعاهدات التي كانت تئولها وفق هواها، وتطبقها حسب مصلحتها، وكانت سيطرتها مقيدة بجميع الامتيازات المخولة للدول بشتى المعاهدات الدولية، ولهذا ظلت تسعى لمناهضتها، والحد من آثارها، وعرقلة تطبيقها مستغلة اسم السلطان الذي كانت تدعي أنها تعمل باتفاق معه ولمصلحته، كما كانت تستغل كونها «الدولة الحامية» للمغرب بينما لا تملك إسبانيا غير منطقة نفوذ باتفاق مع فرنسا، ولهذا فإن هذه المنطقة اعتبرت تحت نفوذ السلطان الذي أناب عنه فيها «خليفة»، كما أناب عنه «مندوباً» في طنجة وضاحيتها كمنطقة دولية.

وكان المنطق السياسي والاستعماري الفرنسي يريد أن يكون لفرنسا في المنطقة الشمالية نفس النفوذ الذي كان لها في المنطقة الدولية كدولة «الحماية» العامة على المغرب، ولكن هذا الطمع لم يتحقق بسبب معارضة إسبانيا التي كانت تعتبر أنها هي كذلك صاحبة «حماية» مثل فرنسا، وأنه لا نفوذ للسلطان على الخليفة، وفعلاً ظل الوضع هكذا في الشمال مدة الاحتلال الإسباني،

فاستقلت فرنسا وإسبانيا بالمنطقة الخاضعة لسيطرة كل واحدة منهما، إلى أن انقرض الاستعمار سنة 1956، بل شاهدنا إسبانيا تمانع بقوة وعناد في استقلال الشمال، وعودته إلى التراب الوطني كما كان الأمر قبل التدخل الأجنبي الرسمي سنة 1912، محاولة بهذا الاحتفاظ فيه بسيطرتها من وراء ستار «حكومة» محلية لفقتها وأوشكت أن تعلنها برئاسة الخليفة كملك. وبهذا أرادت إسبانيا ـ عبثاً ـ أن تفصل الشمال نهائياً لتجعل منه دويلة خاضعة لنفوذها متجاهلة ما حدث في المغرب إذاك من استقلال، ومتهاونة بإرادة السكان الشماليين، وغيرتهم الوطنية المغربية، وعزيمتهم على استرجاع الوحدة الترابية والقومية، وضاربة عرض الحائط بالمعاهدات الدولية التي ضمنت هذه الوحدة، في نطاق السيادة والاستقلال باسم السلطان.

وبالرغم عن تقسيم البلاد إلى مناطق نفوذ مختلفة، ولا غرابة فيما حاولته إسبانيا في عهد الديكتاتورية التي سبق لها أن ضمت إليها أجزاء مغربية في الجنوب، وكذلك ما يسمى بالصحراء الغربية التي أصبحت تلقن «بالصحراء الإسبانية» إلى أن حالت فيها أدلة الاحتلال سنة 1976 بفضل المسيرة الخضراء.

2 ـ انكلترا:

من المعلوم أن انكلترا تدخلت لوقف العدوان الفرنسي على المغرب في معركة إيسلي سنة 1844، ولولاه لتابعت الجيوش الفرنسية تقدمها في التراب المغربي طمعاً في احتلاله، وفرض سيطرتها الاستعمارية عليه كما كان الأمر في الجزائر، ولكن انكلترا كانت

تعارض هذا بكل قواها حتى لا يمتد النفوذ الفرنسي إلى المغرب الواقع جغرافياً واستراتيجياً في غرب البحر الأبيض المتوسط حيث تملك انكلترا جبل طارق الحارس للمضيق وللطريق البحري الذي تمر منه البواخر الانكليزية نحو الشرق الأقصى والذي كان يُعرف «بطريق الهند».

ووقفت انكلترا نفس الموقف إبان الأزمة المغربية الأوروبية التي تعرض فيها المغرب للمطامع الأجنبية الاستعمارية، واستهدف إذاك للتقسيم إلى مناطق نفوذ بين الدول، وتجلى هذا الموقف في إقصاء فرنسا عن بسط نفوذها وسيطرتها على شمال المغرب، وكانت إسبانيا أهون في نظر الانكليز من فرنسا، ولهذا فضلوا عليها إسبانيا فأعانوها على حيازة الشمال كمنطقة نفوذ لهم عندما يحين وقت التقسيم المتفق عليه سراً بين دول الاستعمار. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى أصبح النفوذ الانكليزي في غرب البحر الأبيض المتوسط سائداً، فاصطدم حتمًا بأطماع السياسة الفرنسية التي كانت تنازع في الزعامة الانكليزية الحريصة أشد الحرص على ترسيخ وجودها ضد كل منافس للاحتفاظ بالحرية المطلقة في علائقها البحرية باعتبارها سيدة البحار، وصاحبة امبراطورية عالمية لا تغيب عنها الشمس. وكانت سياسة انكلترا ترتكز على ثلاثة أسس، هي: توازن وضع الدول في البحر، ومراقبة هذا البحر من الانكليز، وضمان الأمن في مضيق جبل طارق.

وقد تحكمت هذه المبادىء السياسية في الموقف الانكليزي أثناء الحرب في الريف، وورد في وثيقة انكليزية حول هذا: «لسنا

مستعدين لرؤية شاطىء المغرب على البحر الأبيض المتوسط وبالأخص الضفة الجنوبية لمضيق جبل طارق، بين أيدي دولة من الصف الأول. . . فإذا أدت الانتصارات الريفية إلى طرد الإسبانيين من المنطقة الريفية بالمغرب فإنه ينتج عن هذا وضع مرتبك، كما أننا لسنا مستعدين لمراقبة شاطىء الريف بأنفسنا، وأخيراً لسنا مستعدين لرؤية الفرنسيين أو الإيطاليين متركزين بين سبتة ومليلية.

وبهذا تتضح حقيقة الديبلوماسية الانلكيزية في غرب البحر الأبيض المتوسط، ولكن الأطماع الفرنسية كانت مستمرة بالنسبة لشمالالمغرب حتى إن فرنسا استغلت مؤتمر الصلح في 1919 فألغت امتيازات ألمانيا في فصول من معاهدة فرساي، الأمر الذي عزز مركزها في المغرب، كما أن «كليمانصو» أبدى رسمياً رغبة الحكومة الفرنسية في إلغاء فصول عقد الجزيرة الخضراء 1906 ليزداد نفوذ فرنسا قوة ورسوخاً في المغرب، بل إن ناطقاً آخر باسم فرنسا في المؤتمر ندد بموقف إسبانيا أثناء الحرب، فطالب بضم طنجة، وبانسحاب إسبانيا جزئياً أو كلياً من شمال المغرب، وهنا ثارت ثائرة انكلترا وإسبانيا معاً، وقد ظلت فرنسا تتمنع من كل اتفاق دولي حول طنجة طمعاً في الاستيلاء عليها لتجعل منها مدينة محصنة، وميناء حربياً ينافس جبل طارق، ويحطم التفوق الانكليزي في البحر الأبيض المتوسط، فأدى هذا في 1923 و 1924 إلى تقارب أقوى بين انكلترا، وإسبانيا، وإيطاليا في شكل عصبة بالنسبة لهذا البحر من أجل معارضة المطامع الفرنسية، وتطورت الأوضاع بعد ذلك بمناسبة الهجوم الريفي (1924 و 1925) في اتجاه الجنوب

الشمال، ثم هدأت الأحوال بين تلك الدول بما فيها فرنسا بعد أن سويت مسائل خلافية بينها في أوروبا (الروهر) وفي طنجة، ولكن التهدئة الديبلوماسية لم تدم طويلاً بسبب انبعاث التوتر في 1926 بمنطقة البحر الأبيض المتوسط.

ويلاحظ، بوجه عام، أن انكلترا تظاهرت، أثناء حرب الريف، بالحياد الذي لا يخلو من حيطة وحذر، ومن تبصر واحتراس، وباسم الحياد امتنعت من أن تراقب بواخرها البحر خارج المياه الاقليمية لجبل طارق. ومن المعلوم أن انكلترا مارست الضغط بقضية الريف على فرنسا في مسألة التعويضات الحربية، وقضية طنجة سنة 1923، ومشكلة مقاطعة الروهر في أوروبا.

وقد اقتضت المصلحة المشتركة بين الريف وانكلترا أن أعطت حكومة لندرة للقادة الريفيين الوعد بعدم السماح لفرنسا باحتلال الشمال، فدعا هذا المسؤولين الفرنسيين في الرباط إلى توجيه تقارير سرية للحكومة الفرنسية حول الأطماع المحتملة للانكليز في الريف، وفي تقرير وردت هذه العبارة: «هل نخشى أن نرى انكلترا تضع قدمها ذات يوم في الريف، وتحاول إحلال حمايتها محل إسبانيا المنسحبة؟ من الراجح أن هذه الفكرة قد أغرت عقل عدد من رجال الدولة الانكليز»، وبالرغم عن الحياد الذي كانت تبديه انكلترا فقد كان بعض الانكليز متصلين شخصياً بقادة الريف الذين كانوا يستخدمونهم في الاتصال بالخارج، وترويج الدعاية لقضية الريف التحريرية، والوساطة لمحاولة إقرار السلم على أساس مطالب الريف الوطنية، وأشهرهم «كودون كانينغ» الذي انتدب

لباريس وغيرها لبسط وجهة نظر حكومة الريف من أجل صلح شريف، كما أنه تأسس في لندرة «ريف كوميطي» أي لجنة الريف التي كانت تنشط بتعاون مع لجنة أميركية غير رسمية من أجل قضية الريف في الخارج، وكانت كذلك للريف وكالة رسمية (ذوريف ديليكيش) تتولى النطق باسم قادة الثورة، وتوجه خطاباتهم إلى الجهات الرسمية الأوروبية، وهيئة الأمم بجنيف، وكان المكلف بها انكليزي هو «جوهن ارنول» بصفته وزيراً مفوضاً لحكومة اجدير، وكان عدد من الصحفيين الانكليز يتوافدون على الريف، وينشرون تصريحات قادته المجاهدين، وأخبار حركة الجهاد في سبيل التحرير، ولا شك أن أغلب الانكليز الذين كانوا في خدمة الثورة الريفية ليسوا بمأجورين ولا بمجرد عاطفين، بل كانوا ينتمون إلى منظمات سرية انكليزية تعمل في الخفاء لصالح بلادهم، وزاولوا نشاطهم دون أن يتجاهروا بانتمائهم لأية منظمة خفية، بل باعتبارهم «أصدقاء» أوفياء للريف، وقادته، وقضيته الوطنية.

ومما لا شك فيه أن مدينة جبل طارق استعملت من قيادة الريف كمركز للاتصال بالخارج بواسطة طنجة حيث كان يوجد تمثيل خفي للثورة يتولاه رجال ثقاة من المغاربة، ومما ساعد على ذلك الاتصال وجود بريد انكليزي في طنجة متصل مباشرة بجبل طارق.

ومن المعروف أن الأمير ابن عبد الكريم كان يستعمل في بريده شيخاً ريفياً كان دائم التردد بين اجدير وطنجة مدة حرب الريف، وكان يسميه «بمدفعي المفضل»، وهكذا نرى أن عدداً من

الانكليز لعبوا بصفة شخصية أدواراً مهمة أثناء الثورة، وأدوا لها خدمات لا يستهان بها، ولم يفعلوا هذا طبعاً بمجرد العطف والصداقة، بل كانت لهم مصالح، وبواعث سياسية، ولا شك أن قادة الريف كانوا أدرى بهذا، فاستخدموا أولئك الأجانب الأكفاء بما عهد فيهم من ذكاء، وفطنة، وتبصر، وخصوصاً وأنهم وجدوا فيهم أطراً سياسية صالحة، كما أنهم كانوا مطمئنين إلى نوايا انكلترا تجاه الريف، وذلك بصفتها الدولة التي تقف سداً منيعاً في وجه فرنسا حتى لا تتسرب إلى الريف في حالة انسحاب إسبانيا المهزومة منه، وقد لا يبعد أن قادة الريف كانوا يفكرون في التعاون، وربما في التحالف مع انكلترا لحماية الريف من العدوان الفرنسي فيما إذا تحقق الانسحاب النهائي الإسباني، ومن المعلوم أن قيادة الريف حاولت الفوز من انكلترا بالاعتراف بهذا الاستقلال غداة الهزائم العسكرية الإسبانية، ولكن الظروف لم تسمح بهذا، فاقتصر القادة الريفيون على ما حصلوا عليه من تطمينات وضمانات ضد المطامع التوسعية بشمال المغرب في المستقبل.

3 ـ الولايات المتحدة الأميركية:

لم يكن الرأي العام الأميركي يجهل أخبار الثورة الريفية بعدما خرجت الولايات المتحدة من عزلتها وصمتها، ودخلت الحرب مع الحلفاء ضد المانيا.

وفي نفس الوقت أعلن الرئيس الأميركي «ويلنسون» مبادئه الأربعة عشر لتحديد أهداف الحرب، ونظام العالم الجديد بعدها،

وقد تأثرت الشعوب المستعمرة بهذه المبادىء التي ظنتها صالحة لأن تتدرع بها لنيل حقوقها الضائعة، وتقرير مصيرها على أساس الحرية والسيادة. وبقيام هيئة الأمم في جنيف، تطبيقاً لتلك المبادىء، اتجهت الشعوب المستضعفة بأمانيها ومطالبها نحو المنظمة الدولية من أجل إنصافها من الدول المسيطرة، وكان قادة الريف من ضمن رجال التحرير في العالم الذين توافدوا على الهيئة الأممية للمطالبة بمساعدتها على الظفر بالسلم والحقوق المغتصبة من الإسبان، وتقاطرت كذلك عليها نداءاتهم استنجاداً واستنصاراً، وكان كل هذا بدافع الأخذ بالمبادىء الويلسونية، وبما نشرته إذاك في عالم الشعوب المضطهدة من روح الإنسانية، والعدالة والاخوة البشرية.

وكان الاعتماد بالأخص في تحقيق الآمال، ونيل الأماني على مساعدة الولايات المتحدة ورئيسها ويلسون، ولكن سرعان ما انهارت الآمال، وتقهقرت الأماني، لأن الأميركيين لم يحركوا ساكناً، ولم يهتموا بإحقاق حق، وإبطال باطل. وفي الريف لم يكن قادته ليغفلوا عن هذا الواقع المؤلم، بل كانوا يواصلون الحرب على أشدها، ويحققون الانتصارات تلو الأخرى لانتزاع الحق، وطرد الغاصب، وإجلاء المحتل، وفي نفس الوقت كانت ديبلوماسيتهم تعمل عملها، ودعايتهم في الخارج تسير سيرها.

وكان الرأي العام العالمي، وبالأخص الأميركي، يتتبع حرب الريف وتطوراتها بواسطة الصحافة التي كانت توفد مراسليها لتزويدها بالأخبار، وتعريفها بمواقف قادة الثورة. وفي اكتوبر 1924 وفد على الريف مراسلون لأهم الصحف الأميركية، فنقلوا إلى

الرأي العام الأميركي خاصة أبناء الريف، وتصريحات قادة الجهاد فيه، وهكذا كانت قضية الريف معروفة لدى الأميركيين عامة، بل أصبح بعض هؤلاء الصحفيين من أشد أنصار هذه القضية إعجاباً برجالها، واقتناعاً بصوابها وباستحقاقها لكل اهتمام وإنصاف.

وإذا كانت قضية الريف قد تمتعت بعطف شطر كبير من الرأي العام الأميركي، فإن بعض الأميركيين من الطيارين التحقوا بالجيش الفرنسي ليحاربوا الريف، وكونوا لهذا سرباً كاملاً أطلقوا عليه إسم «لافييط» الجنرال الفرنسي الذي حارب قديماً في صف الثورة الأميركية على الانكليز بأميركا الشمالية، وكان على رأس السرب ضابط برتبة كولونيل واسمه «سويني»، وسبق له أن تجند في اللفيف الأجنبي.

وقد حارب الطيارون الأميركيون في الريف بوحشية بلغت أقصى الفظاعة، فكانوا يقنبلون بهمجية نادرة القرى، والمداشر، والأسواق، والمزارع، والمواشي لنشر الدمار، والخراب، والشقاء، والإرهاب، وقد سجل عليهم التاريخ ما تلطخوا به ولطخوا به كذلك سمعة بلادهم من وصمة وعار، ومن فضيحة وشنار، كما ثارت الصحافة العالمية على جريمتهم الشنعاء، وفضحت ما ارتكبوه من فظائع كأنهم وحوش ضارية كالتي تعيش في الغاب، وكانت ثورة الصحف الأميركية لا تقل عن غيرها، إن لم تكن أشد منها، وكان أولئك الطيارون من شجعان الحرب العالمية الأولى، ولهذا وجدت فيهم القيادة الفرنسية ضالتها المنشودة، فعوضت بهؤلاء المرتزقة نقصها في الأطر المجربة في التدمير، والتخريب، والتقتيل،

وقد أفادوا الجيش الفرنسي ضد الريف بما أطلق لسان الماريشال بيتان بالإعجاب والتنويه، ونشرت جريدة «الطان» (الزمان) الفرنسية الكبرى بتاريخ 14 نوفمبر 1925، نص التنويه العسكري الذي سجل أن الطيارين الأميركيين قاموا خلال ثلاثة أسابيع بـ 350 عملية حربية استعملوا فيها 40 طناً من القنابل، فليشهد التاريخ!

وأمام هذه العمليات الوحشية هاج الرأي العام، خصوصاً في عالم الإسلام الذي تكاثرت فيه الاحتجاجات على الأميركيين السفاحين، وفي القاهرة قدمت العرائض الاستنكارية إلى المفوضية الأميركية، أما في الولايات المتحدة فقامت كذلك ثورة الرأي العام المناصر للريف، ومن أكبر المناوئين، لحركة الطيارين عضو مجلس الشيوخ «فياط اندرو» الذي وجه خطاباً إلى وزارة الخارجية يتهم فيه الحكومة بتشجيع أعمالهم المنكرة.

وتحت ضغط الرأي العام الساخط المحتج تحركت الحكومة الأميركية آخراً ساعية لإقناع الطيارين باختيار العودة إلى بلادهم تلافياً لتدابير الزجر والعقاب، لأن القانون الأميركي يسحب الجنسية لكل مواطن ملتحق بجيش أجنبي، ولم تطبق الحكومة ــ طبعاً ــ القانون على أولئك المخالفين، كما سعت واشنطون لدى الحكومة الفرنسية لحل السرب الأميركي في نوفمبر 1925 ولاحظ المهتمون بهذه المسألة أن الرأي العام الأميركي المتعاطف مع الريف لم يقم لصالحه بدور إيجابي فضلاً عن أن يكون حاسمًا، ومثله كان كذلك دور الرأي العام الدولي، كما لاحظوا أنه لم تؤسس في أميركا

الشمالية أية هيئة لمساعدة الريف، وهذا صحيح. ولكن هيئة الريف بلندرة كانت تنشط بتعاون مع فريق أميركي لم يتخذ له اسمًا يعرف به، ولاحظوا أخيراً أنه لم يوجد أي دليل على أن الحكومة الأميركية اتخذت موقفاً في صالح أي طرف محارب، وأن معارضتها للحصار البحري، وسعيها لإرجاع الطيارين الأميركيين كانا احتراماً للحياد بين المتحاربين.

والحقيقة أن حيادها لم يكن سليمًا من الطعن بدليل سكوتها عن الطيارين مدة ثلاثة أسابيع، وعدم تحركها إلا تحت ضغط ثورة الرأي العام في العالم، وعدم اتخاذها لموقف صارم ملهم بتطبيق القانون عليهم بدل الموقف اللين المتخذ في شأنهم. ونلاحظ من جهتنا أن مشكلة الطيارين الأميركيين لم تقف حجر عثرة في سبيل مواصلة القادة الريفيين لمساعيهم الهادفة للتأثير على الرأي العام الأميركي، ذلك أنهم اعتبروا هؤلاء مجرد مرتزقة في جيش العدو لا يؤاخذ عليهم الرأي العام في بلادهم، وربما حتى الحكومة بالرغم عن تغاضيها عنهم إلى أن اضطرت، تحت ضغط الاحتجاجات في الداخل والخارج، إلى العمل لانسحابهم من خدمة الجيش الفرنسي المحارب لأهل الريف مجاهدين ومدنيين من الشيوخ، والنساء، والأطفال، في حرب الإبادة بواسطة الطيران.

ولذلك كان قادة الريف لا يتركون فرصة دون انتهازها لمخاطبة الرأي العام الأميركي على لسان الصحف السيارة، وهكذا وجه الأمير ابن عبد الكريم، بواسطة الصحفي «بول سكوط موفرير»، مراسل «شيكاغو دايلي نيوز»، خطاباً إلى الشعب

الأميركي هذا تعريبه: «أحييك؛ أيها الشعب الفاضل، باسم الشعب الريفي الفتي الذي ما فتئ يتألم من ويلات الحرب في سبيل الحرية، إن الشعب الريفي يؤمل الحصول في يوم ما على وضع شبيه بوضعكم الذي نلتموه بجهودكم وبالتضحيات الضرورية لمطامحكم في وقت كنتم فيه ـ مثل أهل الريف ـ في عنفوان النمو والترعرع، إن شعبي الملهم بمبدئكم السليم يعارك منذ أربع سنوات للفوز باستقلاله، وهو مستعد لعمل كل ما في الإمكان من التضحيات، فكل من صمم على السير في الطريق الذي رسمه لنفسه متأكد من الوصول إلى غايته، أيها الشعب الأميركي، إني أنتهز الفرصة السانحة لي باستقبال أحد صحفييكم ـ وقد كان لي رمزاً لعزة نفسك، وعلو همتك، وكذلك شعاراً لكرامتك ونبلك ـ لأبعث إليك بتحياتي الخالصة».

ومع هذا كله خاب أمل الريف ـ كما خابت آمال الشعوب المضطهدة ـ في حكومة الولايات المتحدة التي تناست المثل العليا التي أعلنها رئيسها ويلسون للعالم، وتجاهلت نداءات الحرية من الأمم المحرومة. ولو كان للولايات المتحدة أن تنصف إذاك ضحايا الاستعمار في العالم لبدأت بإنصاف الأمم التي تسيطر عليها في المحيطين الأطلسي والهادي.



الفصل الثامن والعشرون

لماذا توقفت حرب الريف؟

لقد حققت حرب الريف من الانتصارات الباهرة على جيوش اسبانيا ما اعتبر من الخوارق والمعجزات، وبعدما توالت المجازر والكوارث على هذه الجيوش الجرارة اضطر الجنرال «بريمودى ريفيرا» إلى إعلان عجز اسبانيا عن الاستمرار في حرب أفنت قوات وطاقات بلاده بما لا مزيد عليه، فقرر الانسحاب من الريف إلى مليلية ذاكراً أن اسبانيا لم تستفد من وجودها هناك شيئاً غير الأكدار والأحزان، والمشاكل والصعاب، وشرع في سحب بقايا الجيوش المنهزمة وفق خطة مرسومة، وأوشك الريف وقتئذ أن يحقق مطمحه في الحرية والاستقلال.

ولكن فرنسا لم تنظر إلى كل ما جرى بعين الاطمئنان والارتياح، لأنها خشيت أن تتعرض لنفس المصير في المغرب الذي كانت المقاومة المسلحة مستمرة فيه على أشدها في كثير من الجهات جبالها وسهولها، والذي تكبدت فيه جيوش الاحتلال شر الهزائم حتى أصبحت تازة وفاس مهددتين باستيلاء المجاهدين عليهما. وفي هذه الفترة واجه الريف قوات محاربة فاقت بكثير القوات الاسبانية.

وأمام تقهقر الجيوش الفرنسية نشأت فكرة التعاون الحربي مع اسبانيا، وتمت المؤامرة بين الطرفين نتيجة زيارة الماريشال بيتان لمدريد، وإبرام الاتفاق العسكري بين الدولتين ضد ثورة الريف، وتمكنت فرنسا من حشد قوة محاربة قدرت بنحو المليون، شارك فيها كذلك أربعمائة ألف من رجال القبائل المغربية، وقادت الدولتان حربهما ضد الريف بما فاق أشد المعارك في الحرب العالمية الأولى التي استفاد منها المحاربون مدة سنوات ما طبقوه وجربوه في الريف من حيث الفنون الحربية، والأسلحة الفتاكة. وحاربت قوات المجاهدين وهي مطوقة، براً وبحراً، ومعرضة لفتك الطيران الذي سلط كذلك عشرات الاطنان من قنابله على السكان المدنيين في المداشر، والقرى والأسواق؛ كما أهلك الحرث والنسل في أرض الريف التي اعتبرها كلها ميداناً لحرب الإبادة الدائرة بوحشية متناهية، ومع هذا صمدت قوات المجاهدين الريفيين، وحاربت بضراوة وبطولة جيوش الدولتين زمناً غير قصير، وذلك في أعسر وأحرج الظروف، وبأعداد وأسلحة غير متكافئة مع الأعداء. وقد توقف القتال آخر الأمر لتعذر مواصلته بما يضمن نصر المجاهدين على عدو متفوق في العدد والعدة، ومتوغل في قلب الريف من كل جهة.

ذلك هو السبب الأساسي والحاسم في إنهاء الحرب الريفية بقيادة الأمير البطل ابن عبد الكريم، ولكن المجاهدين واصلوا من بعده المعركة ضد الاسبان بقيادة صفوة من الرجال الأبطال.

ولو شئنا أن نبحث غير ذلك من الأسباب لوجدنا أنها راجعة إلى حقيقة الوضع في الريف، وإلى الظروف العسيرة التي اجتازتها حرب التحرير فيه، فكان كل هذا خارجا عن إرادة المجاهدين وقادتهم الذين حققوا ـ بالرغم عن كل ذلك ـ ما قل نظيره في تاريخ البشرية على الإطلاق قديماً وحديثاً.

ولقد سئل الأمير ابن عبد الكريم من صحفي أوروبي عن سبب توقيفه للقتال فأجاب: «مما تسبب في هزيمتي التعصب الديني... وأعترف بأني استعملت كذلك من جهتي الشعور الديني في بعض الأوقات، أي لما استولى الاسبان على أجدير، ولكن الإسلام الحق بعيد عن التعصب، ويمكنني أن أؤكد ـ حسب ما أعلم ـ أنه لا علاقة له بما يسير عليه الجزائريون والمغاربة». وبعد أن انتقد بشدة الطرقية التي يعتبرها شركاً ووثنية أضاف: «أن الطرقيين لم يساهموا في الجهاد لأنهم كانوا يقولون إن الكفاح في سبيل الوطن أمر لا يهمهم، حيث إن مهمتهم تنحصر في الدفاع عن الإيمان، وقد عملت كل شيء لتطهير الوطن من نفوذهم الذي هو عرقلة كبرى في سبيل الحرية والاستقلال».

وكان موقف الأمير ابن عبد الكريم من الطرقية هو موقف الحركة السلفية الإصلاحية في المشرق والمغرب، ومما دفع به إلى مقاومة أصحاب الطرق موقفهم الموالي في الريف خاصة لسلطات الاستعمار الذي هادنوه وصانعوه، بل أعانوه على المجاهدين في سبيل الله والوطن، فكانوا بهذا خصوم الثورة التحريرية، وأولياء أعداء الله والبلاد. فلو كانوا مؤمنين حقاً ـ لا أصحاب مصالح ـ

لانضموا إلى المجاهدين لمحاربة الغزاة الأجانب باسم الحرب الصليبية في أرض الإسلام. وحتى إن لم يخض الطرقيون المعارك مع الأعداء الأجانب فإنهم كانوا يمثلون في القبائل دعاة الانهزامية لفائدة المستعمرين، بل إن بعض مشايخهم كانوا ينزعون البنادق من مؤيديهم، ويقلدونهم بدلها السبحات ملزمين إياهم بالالتجا ء إلى الزوايا لتلاوة الأذكار.

وأفظع من هذا رأينا اتباع عبد الرحمان الدرقاوي في زاوية أمجوط ببني زروال يستقبلون بالرصاص المجاهدين الريفيين وقتما وصلوا زائرين في مهمة سلمية لصالح القبيلة وحركة الجهاد، ورأينا الدرقاوي نفسه يفر من المجاهدين ويلتجىء لفاس تحت حماية الأعداء، وهذا قليل من كثير، فكيف لا يقف الأمير ابن عبد الكريم من أولئك المناوئين الموقف الذي فرضه الواجب والجهاد فضلاً عن الدين والإصلاح؟

وتابع الأمير ابن عبد الكريم حديثه بقوله: «لقد أعجبت بالسياسة المتبعة في تركيا، فإن البلاد الإسلامية لا يمكنها أن تصير مستقلة دون أن تتحرر، سلفاً، من التعصب الديني، وتسير على أثر الشعوب الأوروبية، ولكن أهل الريف لم يفهموني، وعارضني المشايخ حينما رأوني مرة مرتدياً بذلة ضابط، فكل بلاد يحتفظ فيها هؤلاء المشايخ بنفوذ كبير لا يمكنها أن تتقدم إلا ببطء ما لم تلجأ إلى القوة والعنف، ويجب علي أن أصرح بكل وضوح وتدقيق أني لم أجد في الريف أي تشجيع على مشروعاتي الإصلاحية، ولم تفهمني إلا جماعات صغرى بفاس والجزائر، فأيدتني لأنها كانت

مطلعة على ما يجري في الخارج. وبكلمة واحدة، لقد جئت قبل إباني، ولكني مقتنع بأن آمالي ستتحقق عاجلاً أو آجلاً، بطبيعة الأشياء، وتطور الأحداث».

وقد ذهب الأمير ابن عبد الكريم ــ في تفسيره لأسباب الهزيمة الحربية ــ إلى عمق الأشياء، فكان صريحاً مع نفسه ومع قومه، كما كان واضحاً مع الحقيقة والتاريخ، وبهذا كله حدد المسؤوليات حتى لا تبقى قيادة الثورة، وقوات الجهاد وحدها متحملة للمسؤولية في أعين الأجيال، بل إن هذه المسؤولية ترجع إلى جميع أهل الريف الذين لم يفهموا ما أراده القائد والصفوة المجاهدة التي شدت أزره، وقادت معه، ببسالة نادرة، وبطولة خارقة، معركة التحرير طوال سنين عديدة سائرة من نصر إلى نصر، ومضحية بكل رخيص وغال.

وإن ما حز في نفوس أولئك القادة الميامين لهو عدم التجاوب من سكان الريف مع أهداف الثورة الوطنية التي لم تكن تحريرية للأرض من الاحتلال فحسب، بل كانت كذلك تحريرية ــ في نفس الوقت ــ للعقول المتخلفة فكرياً وروحياً ومادياً، بالنسبة لعصرها، ولما كان يفرضه عليها من تطور وتقدم لتصبح أجدر بالطموح إلى أسمى الأماني، وأقصى الغايات في حياة العزة والحرية.

وهذه كانت إحدى المهام العظمى لثورة التحرير في الريف، وهي مهمة التجديد والإصلاح، والتطهير والتصحيح للمجتمع الريفي الذي كان ــ وهو في غمرة الجهاد مضحياً بالأرواح ــ في

أمس الحاجة إلى التضحية قبل كل شيء بعقلية التخلف، وبمزاجية التقليد (**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون**)، وإذا كان الأمير ابن عبد الكريم قد حقق كثيراً من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية لصالح المجتمع المحلي فإنه لم يتمكن بكل أسف من تنفيذ كل ما تضمنه برنامجه من مشروعات إصلاحية جذرية تجدد حياة الأسرة والمجتمع، وتوفر لسكان الريف ما كانوا مفتقرين إليه للارتقاء إلى المستوى اللائق بعهد الحرية والاستقلال.

أما استمرار الحياة البدائية فكانت تعرقل حركة الإصلاح، وتخدم دعاية الاستعمار التي كانت تروج أن أهل الريف قوم متأخرون وهمج، فهم محتاجون إلى من يصلحهم «ويمدنهم»، وهذه في زعمها، مهمة «الحماية» الاسبانية. ورداً على هذا حاولت الثورة أن تضطلع برسالة الإصلاح في نفس الوقت الذي كانت تخوض فيه غمار الحرب لتحرير التراب، وكان هذا الإصلاح ضرورياً لإخراج الحياة الريفية من البداوة إلى الحضارة، ولإيجاد الأنظمة الملائمة لما بعد حرب التحرير، وبهذا تتهيأ البلاد لمفارقة العزلة والانطواء، وتستعد للانفتاح على العالم المتحضر، وبغير هذا لم يكن لأهل الريف أن يضمنوا مكاسب حركة الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال.

ولهذا تحتم عليهم أن يدركوا ويحققوا ـ في أنفسهم وفي أرضهم ـ أهداف الثورة التي لم تكن حربية فقط، بل كانت كذلك إصلاحية، وتنظيمية، وتجديدية، وتمدينية في نفس الوقت، وبهذه الصفة لم تقتصر، في أذهان ومخططات القادة الريفيين، على

محاربة التدخل الأجنبي، وطرد العدو المحتل، بل كانت أيضاً ثورة على كل أنواع الانحراف والفساد، وحرباً على الطابع البدائي والتقليدي الذي كان يسود المجتمع الريفي والذي أصبح يتنافى مع حياة العصر الجديد، ولهذا كان قادة الثورة يتطلعون إلى الاقتداء بما هو صالح، ونافع، وملائم في حضارة أوروبا لاقتباسه، وتزويد أهل الريف بما يخلق فيهم روحاً جديدة لا غنى لهم عنها ليعيشوا في مستوى أرفع وأفضل.

وإذا كان الأمير ابن عبد الكريم معجباً بتركيا الجديدة على عهد الغازي مصطفى كمال فليس معناه أنه كان متفقاً مع جميع منجزات السياسة «الكمالية» وإنما كان يريد أن يتخذ تركيا قدوة فيما هو سليم ومجد للسير بأهل الريف إلى الأمام في سائر ميادين الحياة، وهذا، بكل أسف، ما لم يدركه عامة الريفيين الذين اعتبروا الثورة مجرد جهاد لتحرير الأرض من الأجنبي، وليس كذلك مجهوداً جباراً لتحرير المجتمع من رواسب الماضي في التخلف والانحطاط. وهو ما عده الأمير آفة الريف الكبرى، وسبباً من أسباب الهزيمة الحربية، فلو ساعده أهل الريف على إنجاز برنامج الإصلاحات والتنظيمات لتحقق التحول المنشود. ولم تسمح له ضرورات الحرب باستعمال الوسائل الفعالة لفرض سائر الإصلاحات كما فرض، في المجال الحربي، كل ما رأى فيه المصلحة من التقنيات العسكرية الحديثة. ولا شك أنه اضطر إلى التريث بالإصلاحات الجذرية غير التي أمكنه إدخالها فوراً على الأسرة والمجتمع منتظراً النصر النهائي على العدو لتطبيق المشروعات المرجأة.

وبالإضافة إلى ما لقيه الأمير ابن عبد الكريم مما سماه «بعدم تفهم» أهل الريف للحركة الإصلاحية، تجدر الإشارة إلى أنه تعرض كذلك «لعدم تفهم» بعض علماء الإصلاح السلفي في المشرق، فإذا أيدوه في الحرب على الطرق الضالة، وعلى الخرافات والتقاليد الفاسدة، فإنهم عارضوه في اتجاهاته التجديدية، وميوله إلى اقتباس ما هو صالح وسليم في الحضارة العصرية. وقد تكفلت مجلة «المنار» المصرية لصاحبها محمد رشيد رضا بالتعبير عن اتجاه وموقف من كانت تنطق باسمهم، فعلقت على تصريحات قائد الثورة الريفية، في 5 نوفمبر 1926، بما برهن على سوء الفهم لنظريات الأمير ابن عبد الكريم، في مجال الإصلاح، وهذا جهل من معلق المجلة بأوضاع الريف، وبحقائق الثورة وأهدافها السياسية والاجتماعية الرامية إلى تطوير المجتمع المحلي ليصبح متحضراً وراقياً بالشكل المرغوب فيه من قادة التحرير، وبالصفة الملائمة لمصلحة الشعب في شمال المغرب[1].

---

(١) راجع مجلة **المنار** . ــ لهذا التاريخ ــ وكتاب **عبد الكريم وجمهورية الريف**، ص 480 ــ 483.

الفصل التاسع والعشرون

الاتصال بين ثورة الريف والنخبة الواعية في المغرب

لقد كان الأمير ابن عبد الكريم يفكر في تحرير شمال المغرب كله حتى الجهة الكائنة جنوب أنهار ملوية، وورغة، وسبو، بما فيها من مدن كوازن، وتازة، وفاس التي ربما كان يتمنى اتخاذها عاصمة المنطقة المحررة، ومما لا شك فيه أن فاساً كانت تجتذبه عاطفياً، ومعنوياً، وروحياً، وسياسياً، فقد مكث فيها عدة سنوات كطالب علم، فعرفها حق المعرفة، وربط الصلة بكثير من علمائها وأعيانها بما فيهم كبار موظفي الدولة أي «المخزن». وكان يعلم وهو قائد الثورة أن امتلاك فاس كسب معنوي عظيم في الداخل والخارج. وتمهيداً لهذا عمل أثناء الثورة لإحياء صلاته فيها، فكان يبعث الرسائل السرية إلى ذوي الثقة فيها، ويوجه دعاته السريين ليبثوا بين أهلها أخبار الثورة، ويعملوا لكسب الأنصار، بل ربما كانت لقادة الثورة فيها خلايا تخدم قضية التحرير. وقد تنبه الفرنسيين إلى شيء من هذا، فتوجسوا منه خيفة، واتخذوا الاحتياطات الملائمة، واستدعوا عدداً من الشبان المشبوهين في نظرهم، ليستنطقوهم مستعملين معهم كل وسائل الضغط والترهيب للحصول على اعترافات تدلهم على مكامن الدعوة الثورية الريفية، فكانوا لا يظفرون بأية معلومات.

ومن كانوا متهمين، في نظر الإدارة الفرنسية، أعضاء جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية الأدريسية، وللكومندان «شاستانيي» أدوار قام بها في هذا المجال دون جدوى. وإن ما كان يقلق الفرنسيين عثورهم على مناشير ملصقة بجدران المدينة، وأخرى كانت توزع في الدور والدكاكين، من غير أن يعرفوا أصحابها، كما كانت تصلهم أخبار المراسلات السرية الواردة من الريف بطرق غير معروفة لديهم. وكل هذا كان شغلهم الشاغل، لأنه كان ينشر دعوة الثورة بين سكان فاس دون أن يتمكنوا من الكشف عن أصحابها، ومن إيقاف سيلها. وكان نفس الأمر في غيرها من المدن، والقرى، والقبائل، ولم يكن الأمير ابن عبد الكريم يُخفي أهدافه التحريرية التي كانت تخدمها دعوته بواسطة شبكاتها السرية، وبشتى الوسائل المجدية، ومن المعلوم أنه كان يملك مركزاً للمخابرات بطنجة، وفي الدار البيضاء كان له كذلك مركز يتولى نشر الدعوة الثورية، وقد افتضح أمره في 1924 فاعتقل عدد من المسؤولين عنه، واستولي على ما فيه من أدوات ووسائل النشر والدعاية، ولم يكن هذا إلا ليزيد الفرنسيين قلقاً وخوفاً، واهتماماً بالبحث والاستطلاع.

وأثناء الحرب مع الفرنسيين كانت الصحف الفرنسية، في المغرب وفرنسا، طافحة بأخبارها ووقائعها، وانتصارات المجاهدين فيها على الأعداء، فكان الشباب المغربي يتتبع حقائق الثورة وتطوراتها في تلك الصحف التي كان لها مراسلون حربيون يقيمون في فاس، القاعدة العسكرية الكبرى بالنسبة للفرنسيين زمن حرب الريف.

ومن تأثروا بالدعوة الريفية الوطني المجاهد عبد القادر التازي الذي التحق بالأمير ابن عبد الكريم رفقة أخوين له أحمد والحسن، فكان يتجول في القبائل لنشر الدعوة، وتحذير أهل الريف من الوقوع تحت السيطرة الفرنسية التي كان يفضحها بينهم عن خبرة ودراية بصفته من أسرة كبيرة، ومن النخبة الواعية المعارضة والمتطلعة إلى ساعة الخلاص من النير الأجنبي.

وأما المصادر الرسمية الفرنسية فذكرت أن عبد القادر التازي ألف مع بعض أبناء الأعيان بفاس «وفد المغرب المضطهد» لدى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وهذا ما أثار المخاوف في نفوس الفرنسيين حتى أن هيئة أركان الحرب للجيش الفرنسي في المغرب بعثت في الموضوع، بواسطة «المكتب الثاني» المكلف بالمخابرات والاستعلامات، إلى الجهات المسؤولة في باريس برقية رقم 5429 بتاريخ 20 شتنبر 1925 تبدي فيها ملاحظاتها وتخوفاتها من أن يجرف التيار «الشبيبة المغربية»، كما أخذ هذا التعبير إذاك في الرواج والانتشار على نسق التعبيرات المماثلة في بلاد النهضة الجديدة بالشرق أي «جون ماروكان»، وكان يعني الشباب الواعي المتحمس كطليعة الوطنية والتحرير. وكان الأمير ابن عبد الكريم متصلاً بأوساط فاس، وخاصة بالعلماء، ويظهر أنه وجدت وثائق تثبت هذه الاتصالات من جهة قائد الريف على الأقل، ويكاد يكون محققاً أن المرسل إليهم لم يقدروا على التراسل معه خوفاً على أنفسهم، فكانوا يكتفون بالأجوبة الشفوية بواسطة المبعوثين السريين من الريف. وقيل إن المراسلات الريفية كانت تتضمن

نداءات إلى الثورة على الاستعمار، وهذا ما لم يجد آذاناً صاغية لعجز المعنيين بالأمر عن كل تحرك ثوري لم يكونوا رجاله، ولم يملكوا وسائله، ولو حاولوه لكان مجرد انتحار يحترق فيه الأخضر واليابس. ولكن تلك المراسلات لم تكن خالية من كل أثر وجدوى، فقد كان من شأنها أن تبعث في النفوس روحاً، ويقظة، ونهضة، وتزرع فيها بذور الأمل والتفاؤل بالمستقبل.

وبالإضافة إلى هذا كانت أقوى دليل على أن الأمير ابن عبد الكريم استطاع أن يحقق الاتصال بمن أراد من أهل فاس شباناً وكهولاً، وأن السلطات الفرنسية عجزت عن عرقلة هذا الاتصال، وإحباط المساعي المبذولة لجلب الأنصار والدعاة، وتكوين الخلايا السرية العاملة لصالح الثورة الريفية التي كانت مؤيدة من الجميع بصفتها حركة جهاد مغربية عامة، حتى أن الأطفال كانوا يتغنون في الشوارع بما فيه الشماتة بجيش الأعداء. ومما كانوا يترنمون به قولهم: «أَعْسكر بَطاطَه ما فيكم كُوارَجْ الخ». أما صلات الأمير ابن عبد الكريم بعلماء فاس الذين عرفهم ودرس عليهم عدة سنوات لما كان طالباً بالقرويين، في عهد السلطان عبد العزيز، فقد كان من بينهم عبد العزيز بناني، والعراقي قاضي العاصمة.

وتذكر المصادر الفرنسية أنه مما ورد في مراسلته معهما قوله: «إننا نعتمد عليكم لمناصرة الجهاد الذي ندعو إليه، ولا تنسوا، إن كنتم سجناء، أننا لسنا مثلكم، وأننا نملك القوات الضرورية لطرد الكُفَّار من البلاد». وورد في رسالة إلى القاضي عبد الرحمان بن

القرشي، قوله: «لن نخلد إلى الراحة ما دمنا لم نطرد الفرنسيين والإسبانيين من المغرب، فإذا بقوا فيه فعلوا ما أرادوا بالمغاربة، وسلبوهم كل شيء: فلا غابة، ولا بستان، ولا أرض، ولا دكان، ولا دار» وفي رسالة لأحمد ابن الجيلالي ورد قوله: «ولكن هؤلاء الكفار سيستولون ذات يوم على جميع المغاربة الأغنياء والرؤساء كمولاي يوسف وغيره، وسينقلونهم إلى قارة أخرى في البحار البعيدة، وهذا ما فعلته انكلترا مع ملك وحاكم الهند لما احتلت البلاد عسكرياً».

فهذه فقرات عربناها عن الترجمة الفرنسية لتلك المراسلات التي لا شك أنها سقطت بوسيلة ما في أيدي السلطات الاستعمارية، ولولا هذا لما عرفت أصلاً، وقد حرصنا على تعريبها عن الترجمة الفرنسية لبيان ما اشتملت عليه من بعض الأفكار والتوجيهات لا غير. أما الأصول العربية فربما توجد في السجلات السرية الفرنسية[1]. ويتضح من تلك الفقرات أن الأمير ابن عبد الكريم استعمل في مخاطبة العلماء لهجة دينية لإفهامهم أن حركته ليست تمرداً وعصياناً كما اتهمها المستعمرون كذباً وزوراً، بل هي «حرب مقدسة» أي جهاد في سبيل الله لاخراج النصارى المعتدين باسم الصليب انتقاماً من المسلمين في أرضهم التي هي «دار الإسلام»، وكان هذا صحيحاً بالنسبة للإسبانيين، وكذلك للفرنسيين الذين تحالفوا كمستعمرين مع رجال الكنيسة في حركة

---

(1) ذكرت النصوص في كتاب:
Hubert Jacques, L'Aventure Rifaine, 1927.

ضد الإسلام والعربية كلغة القرآن والشريعة. وقد تجلى كل هذا فيما لفقوه وحاولوا فرضه باسم السياسة البربرية التي صدر بها التشريع منذ 1914 أي عقب فرض «الحماية» بعامين، فطرد المستعمرين بصفتهم غزاة وكفاراً من المغرب، أرض الإسلام والعربية، وكان وسيلة للخلاص من خطر التبشير، والتنصير، والفرنسة، وهذا مما هدفت إليه ثورة الريف عاجلاً أو آجلاً.

ومع أن العلماء كانوا في أنفسهم من أكبر أنصار الجهاد ضد الاستعمار والنصرانية في المغرب فإنهم كانوا عاجزين عن التجاهر بنصر الثورة الريفية لما في هذا من أخطار تهيبوها واتقوها عملاً بالآية: **﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾** ولم يقتصر الأمير ابن عبد الكريم على مراسلة بعض العلماء والأعيان في فاس، وربما في غيرها، بل اهتم كذلك بالاتصال بعدد من القواد في القبائل، فقد اتصل بقادة المقاومة المسلحة في جبال الأطلس وغيرها، وبقواد قبائل زايان، وحتى بكبار القادة في الجنوب، وتذكر مصادر فرنسية أن هؤلاء أصبحوا يتوقعون ثورة عامة فاستقبلوا سراً مبعوثي الأمير ابن عبد الكريم. ولوحظ في ناحية مراكش أن العمال المغاربة في ضيعات الاستعمار كانوا يتجاهرون بأقوال عدائية لأصحابها، مثل قولهم: «نحن الذين سنأكل قمحكم هذا العام». وفي المصادر الفرنسية أيضاً أن الاتصال بقواد الجنوب كان بواسطة شخص متردد باستمرار راجلاً بين الريف والجنوب، فكانت الاتصالات على مراحل.

وجواباً على نداء الثورة الموجه لهم، كان القواد يطلبون من الأمير ابن عبد الكريم بعض الريفيين للتدريب على حرب العصابات، واستعمال الأسلحة، وكان الفرنسيون يعتبرون المجاهدين الريفيين «معتدين وغزاة» كأن أرض المغرب قطعة من فرنسا حتى إن هذا أثار الاستغراب والسخرية في الخارج. ومما ذكر أن صحيفة أسيوية هي «الصدى الأنامي» كتبت ذات يوم هازئة وساخرة: «لقد اعتبر مسيو «بانلوفي» (رئيس الحكومة الفرنسية) أن طريق فاس قطع على الغزاة، فالمغاربة إذاً غزاة في المغرب! وعليه متى يغزو الأناميون الأنام، والفرنسيون فرنسا؟». وفي المثل السائر: الجنون فنون، وفي قول الشاعر: إِنَّ الحماقَة أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيها. وقد كان المستعمرون الفرنسيون حقاً مجانين وحمقى بترهاتهم وسخافاتهم لم يشذ عنهم ساستهم وقادتهم أمثال «بانلوفي»، فكانوا يرمون الكلام على عواهنه، ويسمون الأشياء بغير أسمائها، متعرضين للهزء والسخرية في كل مكان.

ومن القبائل التي اهتم قادة الريف بالاتصال بها قبائل ناحية تازة، لأنها شجاعة وشديدة المراس، وتتحكم كذلك فيما كان يسميه الفرنسيون «بمنفذ أو مجاز تازة» أي الفرجة بين الجبال التي يمر منها الطريق الرئيسي المتجه إلى وجدة والجزائر. وكان حرص الفرنسيين على بقاء هذا الممر تحت سيطرتهم أشد ما يكون، بينما كان قادة الريف كذلك شديدي الاهتمام بالاستيلاء على هذه النقطة الستراتيجية الكبرى لقطع طريق الجزائر على الأعداء، ولتحقيق الاتصال والتعاون بين ثورة الريف وبين المقاومة المسلحة الدائرة

إذاك بضراوة في سلسلة جبال الأطلس الصغير والكبير، وبهذا يتسع الخرق على الفرنسيين، وتتوزع قواتهم، وتتأيد جيوش المجاهدين ضد العدو المشترك. ولما اشتدَّت وطأة المجاهدين الريفيين على الجيوش الفرنسية المدافعة حربياً عن تازة نفسها المهددة بالسقوط في أيديهم، استعملت الغازات السامة لرفع الضغط على المدينة وما كان يعرف عند الفرنسيين «ببقعة تازة». وأكد لي هذا جندي سابق من قبيلة تسول لما كنت معتقلاً في السجن الحربي بتازة سنة 1930 بسبب الحركة ضد الظهير البربري، وكان قد مرت على هذه الأحداث نحو الخمس سنوات.

وكانت القبائل التي اهتم بها خاصة قادة الريف هي تسول، والبرانص، وغياثة المحيطة بتازة، وقد كان الوطني الغيور عبد العزيز بن علال الوزاني (المشهور بسيدي العزيز) الرجل الذي يتمتع بنفوذ كبير في هذه القبائل التي كان له فيها مريدون كثيرون جداً بصفته رجل دين، وتصوف، ومما كان يمتاز به الشهامة، والوطنية، وروح الجهاد في سبيل الله والوطن، وكل هذا جعل منه أكبر داعية لثورة الريف في قبائل تازة خاصة، وكان له تأثير ودالة على الوجهاء والرؤساء فيها، ومن بينهم الخلادي، قائد قبيلة البرانص، الذي «كان على جانب من المعرفة، ومطلعاً على الاتجاهات المتقدمة للنخبة الإسلامية»، كما ورد في تقرير للقبطان شميد: «صحيفة 14-15) وأذكر أن سيدي العزيز حدثني عن الحركة التي اضطلع بها في تلك القبائل لإعدادها للانضمام إلى الثورة الريفية في الوقت الملائم، وكان الخلادي متفقاً معه على أن يكون أول من يلتحق على

رأس قبيلته بقوات المجاهدين، وما فتىء سيدي العزيز ينشر إذاك الدعوة إلى التعليم بين القبائل المذكورة، ويبث الوعي الوطني فيها، ومرة زارني ومعه عدة كتب دينية وعصرية قال إنه اشتراها لفتاة متعلمة في إحدى هذه القبائل، مما عد وقتئذٍ عملاً نادر المثال. ومما حدثني به أن السلطات الفرنسية اقترحت عليه لوجاهته، ونفوذه وسمعته، أن يذهب في مهمة سياسية لدى الأمير ابن عبد الكريم، فرفض معتذراً بكونه رجل ديانة وتصوف لا علاقة له بالسياسة، ولا يستطيع أن يتدخل في شؤونها ومشاكلها. وقد أغضب هذا الرفض المسؤولين الفرنسيين الذين لم يقتنعوا بالعذر فعدّوه تمنعاً وتملصاً باسم الدين والصوفية. ومنذ ذلك الوقت وهم واقفون منه موقفاً مضاداً إلى أن منعوه، إبان الحركة الوطنية التي كان يعمل جهاراً فيها، من الاستقرار بقبيلة تسول، ومن التردد إلى بيته وزاويته الرئيسية فيها، وكل هذا انتقاماً منه، ومنعاً له من الإقامة في قبائل متأثرة بشخصيته، ونشاطه الوطني.

ويتضح مما ذكر، مقتضباً، أن قادة الريف كانوا وطنيين مغاربة غيورين على بلادهم وأمتهم، فتولوا الجهاد في سبيلهما بادئين بشمال البلاد حتى إذا حرروه من الاحتلال واصلوا الجهاد والتحرير في سبيل ما تبقى من المغرب تحت السيطرة الأجنبية. واستعداداً لهذا كانوا يتصلون في القبائل والمدن بذوي الحيثية والنفوذ لكسب تأييدهم ومساعدتهم، واستنهاض همم غيرهم حتى لا تستسلم إلى روح الانهزامية ضعفاً ورهبة. وكانت أنباء الجهاد والانتصار تعمل كذلك عملها في النفوس جميعاً، وتملؤها أملاً وبشرى، وتعدها

لتلقى الإيحاءات، والتأثر بالنداءات المنبعثة من قيادة الثورة الوطنية التحريرية في الريف حتى إن سياسة الأعداء، ودعايتهم فشلتا في الحيلولة دون التيار الجارف للدعوة الجهادية والتحريرية المتغلغلة في سائر الأوساط البدوية والحضرية على السواء، كما كانت أخبار النهضة والإصلاح، والوطنية والكفاح في الشرق تتسرب إلى جميع الجهات في المغرب بالرغم عن الموانع والحواجز المقامة لضرب الحصار على المغاربة حتى لا يطلعوا على ما في الخارج، ويتأثروا به معنوياً وسياسياً.

وهكذا تعاونت الأحداث في المشرق والمغرب ضد خطط وتدابير الاستعمار لإبعاد الآفات والأخطار عن سيطرته المفروضة بالقوة والاضطهاد، وواصلت الشعوب الناهضة تحركها ومسيرتها نحو الحرية والاستقلال إلى أن ظفرت، بـالكفاح والتضحية، بالحق المنشود، وما ضاع حق وراء طالب.

الفصل الثلاثون

الأمير محمد بن عبد الكريم يصرح

من المعلوم أن الأمير محمد بن عبد الكريم استقبل أثناء الثورة الريفية عدداً من الصحفيين من أوروبا وأميركا، وتحادث معهم في شؤون حركته التحريرية، وأجاب عن أسئلتهم معرفاً بكل ما يهم الرأي العام في الخارج من الحقائق، والمواقف، والأحداث، وكان في أحاديثه قائد حرب بقدر ما كان داعية إصلاح. وبفضل هذه الأحاديث لم تبق دعاية الأعداء رائجة وحدها للتمويه والتضليل، وكان في هذا كسب معنوي وسياسي لثورة الريف التي تمكن قادتها من خرق الحجب، وفك الحصار، وإيصال صوت الحق، ونداء الحرية إلى جميع آفاق الدنيا. وهكذا خاض قادة الثورة بنجاح حرب الكلام لتعزيز حرب السيف، وتناقلت كثير من الصحف أحاديث وتصريحات الأمير ابن عبد الكريم مما قوى الدعوة لصالح الثورة التي حاولت دعاية الأعداء المغرضة تحريف حقيقتها، والنيل من قادتها وجنودها الأبطال بكل الوسائل والأساليب حتى يسود في شأنها الباطل، وتسؤ سمعتها في الخارج.

كما توافدت على الأمير شخصيات سياسية ورسيمة للبحث والتحقيق معه في شؤون الثورة الوطنية، ومن بين هذه الشخصيات

المراقبالمدني بتاوريرت (المغرب الشرقي) «كابرييلي» الـذي أوفده ليوطي في 1925 للتباحث مع الأمير ابن عبد الكريم، وقد وردت في كتابه بعنوان «عبد الكريم» خلاصة محادثته مع القائد الريفي، ونقتطف منها الفقرات التالية معربة عن الفرنسية:

«نعم، أعرف أنه يستشهد بمعاهدات 1904 و 1912، ولكن هذا خطر، فإن هذه المعاهدات يتحتم أن تعتبر متلاشية، وفي ذلك الوقت لم يطمح أي شعب في المغرب إلى الاستقلال، أما اليوم فإن الريفيين يعلنون هذه الرغبة الملحة في الاستقلال، فهم يريدون أن يعيشوا أحراراً، فهل من الغرابة رؤية شعب يطالب باستقلاله؟ وهل من الظلم رؤية شعب يطمح إلى الحرية؟ ويظل حراً في ربط علائق مع الدول، واحترام المعاهدات؟ ولكن الحزب الاستعماري يريد أن يستعبدنا من غير اعتبار حق كل شعب في تقرير مصيره، وفي نفس الوقت الذي يدعي فيه بلوغ أوج الحضارة يتعين على هذه الحضارة أن تتجه إلى تحرير الشعوب بدل استعبادها، ومن أجل إضفاء المشروعية على مطامعه في الفتح والغزو بالنسبة لبلد ما يتقول الحزب الاستعماري على هذا البلد فينعته بكونه شعب همج يتقاتلون، ويذبحون النصارى، ويحـرمون التجـارة العالميـة من الثروات المعدنية والفلاحية، إلى غير هذا؛ وهذا غـير صحيح بالنسبة لريف اليوم الذي هو بلد منظم، يسود فيه الأمن، ويمكن للأوروبيين أن يتجولوا فيه بحرية، ويستقبلون فيه بعطف، ولكي يبلغ درجة الحضارة كما هي في البلاد الأخرى يصمم الريف على توجيه الدعوة إلى الأجنبي من أجل ما هو في احتياج إليه، فيتبادل

منتوجاته بالمنتوجات الأوروبية التي لا غنى له عنها، ويعيش كما تعيش الشعوب الأخرى المؤلفة للبشرية. وكل مرة تتكلمون فيها عن معاهدات 1904 و 1912 تنقص وتضعف ثقتي في إمكانية الاتفاق، فإذا أردتم تحقيق سلم نهائي يلزم وضع أسس اتفاق نهائي، والأساس الوحيد هو الاعتراف باستقلال الريف، ووضع حدود بين المنطقتين، ولست أملك شخصياً أي طمع، فلا أطمح إلى السلطنة، ولا إلى الحكم المطلق، وإذا كنت عرقلة فإني مستعد للاختفاء، وترك المكان لسواي». وهكذا عرف المسؤولون الفرنسيون في المغرب وباريس نوايا واستعدادات الأمير ابن عبد الكريم كقائد حرب التحرير وثورة الإصلاح في الريف، فكان ما أفضى به إلى المبعوث الفرنسي تأكيداً جديداً كما سبق أن اطلع عليه الفرنسيون مراراً وتكراراً.

وقد جاء حديثه دليلاً آخر على أنه لم يكن كما كان يتهمه المستعمرون رجل تعصب وعناد، وعنف وحرب لا غير، بل كان يبرهن دائمًا على أنه ـ كقائد ثورة وجهاد ـ مستعد كل الاستعداد للحوار، والتفاهم، وبهذا كان يظهر كرجل سياسة وديبلوماسية، وكداعية للسلم والطمأنينة في نطاق تحقيق المطامح المشروعة، والتمتع بالحقوق الوطنية، ولهذا لسنا متفقين مع من قال في قيادة الريف، باعتبارها «صفوة رجال فريدة بصلاحياتها وشجاعتها، وفارضة الإعجاب بها على العالم أجمع، أنها لم يوجد فيها فكر قادر على إجادة تمييز اللعبة العويصة للسياسة العالمية، والاستفادة من المنازعات بين الدول الأوروبية، فلو وجد هذا الفكر لربما تمكن من

إقناع لندرة، وربما اقتدت بها كذلك واشينطون». فصاحب هذا القول يجهل كل ما بذله قادة الريف من جهود ومساع سياسية للتوصل إلى السلم مع لأعداء، ويغفل ما برهنوا عليه بهذا من حسن الإرادة، وطيب الاستعداد للتفاهم دون التضحية بالأساس والجوهر في قضية الريف الوطنية، وينسى ما طمحوا إليه وحاولوه بكل قواهم دون نتيجة إيجابية بكل أسف، وهو الاعتراف باستقلالهم من دولة أوروبية كبرى على الأقل، وهي انكلترا التي همتهم أكثر من غيرها للمكانة التي كانت تحتلها في غرب البحر الأبيض المتوسط بفضل جبل طارق، وللمعارضة التي كانت تبديها للمطامع الفرنسية في شمال المغرب، فهي الدولة التي كان يمكن لحكومة الريف أن تتفق معها باسم المصلحة المشتركة، وتنشد عونها وسندها لضمان استقلال الريف بعد انسحاب الإسبان منه.

ولكن انكلترا لم تذهب في موقفها من الريف إلى حد الاعتراف به ككيان مستقل، ولعل الأمر كان سابقاً لأوانه حيث إن الانسحاب الإسباني لم يتخذ إذاك صفة نهائية بالرغم عن الهزائم الكبرى، والانسحابات الستراتيجية التي أكرهت عليها الجيوش المحاربة، فلم تكن المسألة ــ كما قيل ــ مسألة عدم وجود فكر سياسي قادر بدهائه على انتزاع الاعتراف من أية دولة بالاستقلال، ولكنها كانت مسألة مصالح خاصة بانكلترا، وكذلك مسألة ظروف دولية غير مواتية للإقدام على هذا الاعتراف، وفي الواقع كان الريف المجاهد في سبيل حقوقه يحارب في عزلة شبه تامة عن العالم بما فيه دنيا الإسلام، وفي رقعة ضيقة محاصرة براً، وبحراً، وجواً

من الأعداء، فلم يكن مثلاً محمي الظهر بحدود مشتركة مع دولة عاطفة ومؤيدة كما كان الأمر بالنسبة للفيتنام والجزائر، ولم يكن كذلك مثلهما معاناً بالأموال، والأسلحة، والمؤن، والأدوية وغيرها من أي مكان، ولم تكن له أيضاً في الخارج دعاية منظمة تتولى الحرب النفسية التي لا غنى عنها للحرب الساخنة. وقد كان «كوبلز» وزير الدعاية في حكومة هيتلر، بمثابة جيش يخوض الحرب النفسية ضد الأعداء، ومع ذلك كله دامت حرب الريف بأقل القوات، وأضعف الوسائل، وفي أصعب الظروف ـ ما لا يقل عن سبع سنوات تكبد فيها الأعداء المتفوقون من الهزائم والكوارث ما هو معروف، وأوشكت على النصر النهائي لولا التحالف الحربي الفرنسي الإسباني الذي طور الحرب إلى ما جعلها حرباً ضروساً وعواناً، أي ما يسمى في الاصطلاح «بالحرب المطلقة» التي لا تُبقي ولا تذر.

وإذا خسر الريف هذه الحرب في النهاية فلم يخسر إلا معركة «دون أن يفت هذا في عضد الرجال، ويفنى قوتهم النفسية، كما قال الأمير محمد بن عبد الكريم سنة 1954 أي بعد مضي ثلاث وثلاثين سنة على الثورة الريفية ـ فإن الطموح إلى الحرية، وتصميم شعبي سيمتدان أبعد من قوة المضطهدين لنا».

الفصل الواحد والثلاثون

ثورة الريف وأدب الملحمة

كان من أثر الثورة الريفية أنها ـ بوقائعها، وبطولاتها، وانتصاراتها ـ حركت همم المفكرين والمثقفين، وغذت مواهب الكتاب والشعراء في المغرب والمشرق، فأطلقوا العنان للقرائح، وتباروا في النظم والنثر إعجاباً وإشادة بالثورة، وتنويهاً برجالها المجاهدين، وتخليداً للمفاخر وذكريات الأمجاد التي حققوها، وتركوها من بعدهم تراثاً قومياً لا يفنى.

وطالما دامت الثورة الوطنية تفتقت قرائح الشعراء بجيد النظم، وتفننت ملكاتهم في استنباط روائع الشعر، فتكوّن من هذا أدب وطني تغنى بملاحم الحركة الثورية التحريرية مشيداً بوقائعها، ومفتخراً بقادتها، وممجداً لأبطالها، وناشراً دعوتها، ونافخاً روحها في الجيل المعاصر لها. وهكذا عاركت الثورة بالأقلام، كما حاربت بالسيوف. ومن المؤسف أن هذا الأدب الغزير والرائع لم يعرف منه إلا القليل لفقدان وسائل النشر في المغرب وقتئذٍ، وما قدر له الظهور والرواج نشر في بعض الصحف التونسية خاصة التي كانت رائجة عندنا «كالزهرة»، و «الصواب»، و «لسان الشعب». وربما تناقلت صحف أخرى في تونس، والجزائر، وبلاد الشرق ما جادت

به قرائح الشعراء المغاربة، وحظي بالنشر على صفحات الجرائد العربية. .وإن ما لم ينشر لم يبق كله مجهولاً، بل شاع في الأوساط المغربية عامة، وبين الشبيبة خاصة بوسيلة النسخ والحفظ. وكان كثير من الشعراء يعملون كل ما في وسعهم لترويج قصائدهم بين الناس، ويكتمون أسماءهم حتى لا تعرف من سلطات الاستعمار التي كانت تعتبر هذا تأييداً للثورة، ونصراً لدعوتها، بل كانت الأشعار تنطق بالعداء الصريح للمستعمرين، وبالإهانة لجيوشهم، وبالشماتة بقادتهم، كما كانت تطفح ببطولات المجاهدين وانتصاراتهم الساحقة في أشهر المعارك التي انتهت بشر الهزائم، وأعظم الخسائر، فكانت أفظع الكوارث للعدو الغاشم، وقد كان الناس يترنمون بالقصائد الملحمية ويتخذونها أناشيد يتغنون بها في كل مكان، فتقوى فيهم وفي سائر الذين يستمعون إليها روح النهضة والوطنية والكفاح، ولا مغالاة في القول أن «أدب الثورة التحريرية» في الريف ألف «ديوان الحماسة» المغربي في القرن العشرين، وما أحوجه لأن تجمع روائعه، فيغتني بها الأدب العربي في المغرب خاصة، وتحفظ من تراثنا القومي الخالد.

ومن روائع الشعر في ثورة الريف ما عرف «بنشيد ابن عبد الكريم»، وينسب للشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان، ويظهر أنه اتخذ نشيداً رسمياً في الريف زمن الثورة، وكان شائعاً جداً بين الشباب الوطني الذي ظل يترنم به في المجالس والاجتماعات حتى أصبح فعلاً نشيداً مغربياً عاماً، وذكرت بعض المصادر الفرنسية أن النشيد الرسمي للريف كان هو المعروف

بمطلعه: «من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادي بالاستقلال»، وهو النشيد اقتبسه الثورة الجزائرية في جبال الأوراس، والذي اتخذ رسمياً للجزائر المستقلة، ونثبت فيما يلي النص الكامل للنشيد الأول بصرف النظر عن صاحبه الحقيقي، وعن كونه اتخذ أو لم يتخذ نشيداً رسمياً لثورة الريف:

نشيد ابن عبد الكريم

في ثنايا الْعَجَاجْ — والتحام السيوفْ
بَيْنَمَا الْجَوُّ داجْ — والمنايَا تَطُوفْ
يتهادَى نسيمْ — فيه أزكى سلامْ
نحوَ عبد الكريم — الأمير الهُمَامْ
ريفُنا كَالْعَرِينْ — نحنُ فيهِ الْأُسُودْ
رِيفُنَا — نَحْمِيهْ

كُلُّنَا نَطْرَبُ — لانتصارِ الْأَبِيّ
كلُّنَا يُعْجَبُ — بالفتى الْمَغْرِبِيّ
أينَ جيشُ العِدَا — إذْ دَعَا لِلْجِهَادْ
أصبحُوا أَعْبُدَا — للسُّيوفِ الحِدَادْ
ريفُنَا — نَحْمِيهْ

طـالـمـا اسْتَعْبَـدُوا وأَذَلُّـوا الـرِّقَـابْ
أيـهـا الأَيِّـدُ جـاءَ يَـوْمُ الحِسـابْ
فليـذوقُـوا الـزُّعـافْ بِـالـظُّبَـى والأَسَـلْ
ولْنُـغَـلِّ الـهْتَـافْ لـلأمـيـرِ الـبَـطَلْ
ريـفُنَـا كـالـعـريـنْ نـحنُ فـيـه الأُسـودْ
ريـفُـنَـا نَـحْـمِـيـهْ

عن كتاب جمعت فيه أشعار بالعربية مع ترجمتها الانجليزية ويعتبر ضمن ما يعرف بـ (Cambridige Oriental) (Series No. 1)، صفحة 57.

ولهذا الكتاب عنوانان: بالعربية والانجليزية.

1 ـ العنوان بالعربية:

(**أزهار الأشعار**)، جمع ونقل: أرثور جون أربري، لندن، مطبعة تيلورس للكتب الأجنبية.

2 ـ العنوان بالأنجليزية:

Modern Arabic Poetry, A;J. Arberry.

First published by Taylors Foreign Press, 1950.

Reprinted by the Cambridge University Press, 1967, 1975.

* * *

ويوجد نشيد آخر ذكرت المصادر الفرنسية أن الجيش الريفي لما أصبح منظمًا اتخذه نشيداً وطنياً وأنشده بمناسبة تحرير مدينة شفشاون، ثم صار الشباب الوطني يتغنى به في فاس وغيرها أثناء الاجتماعات الوطنية، وهذا نصه:

الْيَوْمَ هَيُّوا للحروب هَيُّوا
وَنَرْجِعُ للبلادِ ظَافِرِينَا
أَقَائلاً سَلِ التاريخَ يُمْلِي
بِأَنَّنَا نحنُ خيرُ الثَّائِرِينَا
كم صيرنا من بُحورٍ ودِمَاءْ
وَتَرَكْنَا الْأَعَادِيَ حَائِرِينَا
كَمْ تَرَكُوا مِنْ قُصُورٍ وبِنَاءْ
وانْقَلَبُوا خاسِئِينَ خاسِرِينَا
واليومَ الرايةُ الحمراءُ تَسْمُو
وتُرَفْرِفُ على الفَائِزِينَا
والحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين
ولَعْنَةُ اللَّهِ علَى الْخَائِنِينَا

* * *

ومن أشهر الأناشيد الوطنية الكثيرة الرواج إذاك بين الشباب المغربي نشيد جادت به قريحة الوطني الغيور، والأديب الشاعر

أبو بكر بناني من أعيان الرباط وعضو الجمعية السرية الأولى زمن ثورة الريف وبعدها، ومما ورد فيه:

يَا بَنِي الْمَغْرِبِ، مَا هَذَا الرُّقَادْ؟
مَا لَكُمْ صِرْتُمْ كَأَمْثَالِ الْجَمَادْ؟
فَدَعُوا النَّوْمَ وقُومُوا لِلْجِهَادْ
وَاسْأَلُوا اللَّهَ نَصْرَ الْمُسْلِمِينَ
يا بَنِي المغربِ إنْ الْوَطَنَا
تَقْتَضِي سمعتُهُ تَرْكَ الْوَنَا
فاحمِلُوا الصَّمْصَامَ مَعْ حُمْرِ الْقَنَا
واسْأَلُوا اللَّهَ انْتِصَارَ الرِّيفِيِّينَ

* * *

ومن أشهر ما قيل في الثورة القصيدة التي نظمها الوطني الغيور الحاج محمد بن اليمني الناصري، عضو الجمعية الوطنية السرية الأولى في ذلك العهد، وقيلت بمناسبة المولد النبوي، ومطلعها:

شهرُ النبِيِّ محمدٍ قَدْ وَافَى
يُفْشِي السَّلامَ ويَحْمِلُ الأَلْطَافَا

ومما ورد فيها قولُه إشادة بالأمير ابن عبد الكريم:

أُنْــظُرْ لِـمَــا تَلْقَى فَــرَنْسَــا مِنْــهُ إذْ
قَصَــدَتْ بشامِــخِ مَجْـدِهِ اسْتِخْفَــافَــا
جــاءتْ بِمُعْــظَمِ جيشِهَــا وعَتَــادِهــا
فــاسْتَنْــزَفَتْــهُ رجــالُــهُ اسْتِنْــزَافَــا
وأَدَالَ دَوْلَــتَــهَــا بِــفَــرْطِ دَهَــائِــهِ
وَتَــمَــزَّقَــتْ أحــزابُــهَــا أَطْــرَافَــا
حــتَّــى أَثَــار بِــمَـجْـلِسَــيْــهَــا ثَــوْرَةً
شَعْــوَاءَ تَــرْجُــو الهُــدْنَــةَ اسْتِعْــطَافَــا

وإذا لِــيُــوطِــي قَــدْ تَــرَدَّى سَــاقِــطاً
مُــتَــحَــمِّــلاً مِــمَّــا جــنــاهُ إكَــافَــا

وحــليفُــهُ ذِي ريــفيــرَا قَــدْ فَــرَّ لاَ
يَــلْوِي عَــلَى شَــيْءٍ بِــهِ يَــتَــلاَفَــى

وتَــنــافَــرَتْ آراءُ دولَــتِــهِ فَــمَــا
أضــحــتْ رؤوسُ مُــجَــنَّــدِيــهِ قِــطَافَــا

سَــل عَــنهــمُ بَــابَ الْمُــرُوجِ، وتَــازَةً
وسَــلاَسَ، والــبِــيــبَــانَ، والْأَجْــرَافَــا
وســلِ الْبَــرانِصَ، والتَّسُــولَ، وجَــايَــةً
والــسَّــبْــتَ، والْــكِــيــفَــانَ، والْأَكْــنَــافَ

تِـلْكَ الـمـواقِـعُ رَوَّعَـتْ أَبْـطالَـهُـمْ
وَجَـلَتْ بِنَـا عَـنْ روعِـهِـمْ أَسْـجَـافَـا
تـلك المـواقِـعُ حَـطَّمَـتْ أَبْـطَالَـهُـمْ
وأَرَتْـهُـمُـو مِـنْ وَيْـلِـهَـا أَصْـنَـافَـا

* * *

ومن أشهر الأشعار في إبان الثورة القصيدة الملحمية للمؤرخ الشاعر الفقيه محمد بن الأعرج السليماني من علماء القرويين، وأحد أدباء وشعراء فاس في ذلك العهد، وقد نشرت بإمضائه في الجريدة التونسية «العصر الجديد»، ومطلعها:

دَعِ الـفَتَيَـاتِ تَمْـرَحْ فـي الـقُصُـورِ
ويَـمِّـمْ مُـسْـعِـفَـاً وَادِي الـنَّـكُـورِ

ولكن «ديوان الحماسة» المغربي تحول في النهاية إلى «ديوان المأساة» لما حلت الفاجعة الكبرى بالريف خاصة، وبالمغرب عامة نتيجة التحالف الحربي بين دولتي العدوان والاستعمار ـ فرنسا وإسبانيا ـ اللتين اعتدتا بجيوشهما الجرارة، وأسلحتهما الفتاكة، وأساطيلهما المخربة ـ براً، وجواً، وبحراً ـ فتمكنتا، بعد سنة من حربهما الطاحنة، ومن مقاومة المجاهدين البطولية، من التغلب على قوات الثورة، وأسر قادتها، وكان في هذا أعظم الكوارث، وأشد النكبات، لا في المغرب فحسب، بل كذلك في عالمي العروبة والإسلام، وفي شتى جهات المعمور.

وقد أطلقت المصيبة الحربية ألسنة الشعراء بما يحزن النفوس، ويكدر الأرواح، ويُدمي القلوب، فكان هذا تعبيراً عن المأساة الوطنية المغربية التي حلت مع هزيمة حركة الجهاد بقيادة الأمير ابن عبد الكريم ورفقائه الأبطال، ومن الشعراء الذين تأثروا بالمأساة، فأطلقت لسانهم بالشعر الحزين الذي تنفطر له الأكباد الوطني الغيور، وأحد رجال الحركة الوطنية، محمد المختار السوسي حيث قال في مطلع قصيدته:

قُضِي الْقَضَاءُ، وحُقِّقَ الأمْرُ
وَعَرَا الذي ما خِلْتُهُ يَعْرُو

ومما ختمت به قوله:

عَبْد الكريمِ فنحنُ نعلمُ والورى
واللَّهُ أَنَّكَ مُسْلِمٌ حُرُّ
اذْهَبْ فَقَدْ أَدَّيْتَ لِلأَوْطَانِ ما
تَرْجُو وإن أخْنَى بِكل الدهْرُ

وخلاصة القول، أن الأدب الوطني المغربي ـ في عهد الثورة الريفية ـ عبَّر أحسن وأبلغ تعبير، سواء منه الحماسي زمن الانتصار، أو المأسوي وقت الانكسار، عما كان لدعوة الحركة التحريرية الريفية في الشعب من أعمق الآثار، فكان بهذا كله

عاملاً قوياً في بث الشعور، ونشر الوعي في النفوس المغربية التواقة إلى الحرية، وبالأخص في الشبيبة الناهضة المتطلعة إلى أخذ الرسالة التحريرية من أيدي المجاهدين لمواصلة النضال من أجلها حتى الظفر بالنصر المبين.

الفصل الثاني والثلاثون

آراء وشهادات
في الأمير محمد بن عبد الكريم

كتبت صحف العالم في ثورة الريف وبطلها العظيم، وكانت كبريات الصحف الانكليزية من أبرزها وأنصفها، ففي افتتاحية «الدايلي اكبريس» ورد:

«إن عبد الكريم يعد من بين الكثيرين من مشاهير رجال العالم الذين لا تعرف سيرهم إلا في الروايات، فهو شديد الحذر والانتباه، لا يبوح بخطته إلا عند تنفيذها...»، وقال مراسل «الدايلي ميل»:

«عبد الكريم في العقد الخامس من عمره، وسيم الوجه، براق النظرات، له نظرات كالنسر، مليح كأغلبية بني جنسه، مهيب الطلعة وديع المحيا، وقد حادثته طويلاً فوجدته رجلاً ذكياً، هادئاً، حذراً، غامضاً».

وقال مراسل «المورنين بوسط».

«إن من يعرفه، يعلم أنه ذو شخصية عظيمة، فهو أحد أولئك الذين يولدون زعماء في أزمنة مختلفة بين الأمم ليكوّنوا

مصيرها، ويتركوا أثرهم في تاريخ العالم، وليس هو زعيمًا فحسب، بل هو مصلح أيضاً».

وقال مراسل «التايمس»:

«إن الأمير ابن عبد الكريم قائد مقتدر».

وقال ميستر «كنورتي»، عضو مجلس الشيوخ البريطاني:

«إن ابن عبد الكريم رجل حرب وجلاد، وزعيم يعرف كيف يجعل الجماهير تنقاد إليه».

خــاتمــة

تلك هي، باختصار، الخطوط العريضة، والأحداث البارزة لثورة الريف الوطنية التحريرية بقيادة أبطالها أمراء الجهاد محمد، وشقيقه محَمد بن عبد الكريم، وعمهما عبد السلام الذين ألّفوا النواة أو الثالـوث ـ كما قيـل ـ لتلك الحرب المشـروعة بـاسم الشرف، والوحدة، والاستقلال في المغرب.

وقد اعتمدنا في عملنا على كتابات مخطوطة لبعض رجال الريف المجاهدين، وكذلـك بعض المصادر الأجنبيـة المهمة في الموضوع، وما تشتمل عليه سجلاتنا الخاصة من وثائق ومعلومات. وليس قصدنا تقديم تاريخ حرب الريف بالمعنى الكامل، فهـو ما يزال يحتاج إلى البحث والتدوين، وإنما هو رسم لمحة، وإعطاء نظرة عن تلك الحركة التحريرية المسلحة في شمال المغرب، وذلك لسببين، هما: أن حرب الريف شغلت فترة سبع سنوات من المرحلة التاريخية المغربية التي هي موضوع هذا الكتاب، فلها فيه محلها البارز، وأنها كانت أعظم ملحمة في تاريخ المقاومة المسلحة

المغربية دفاعاً عن الوطن ووحدته، وسيادته واستقلاله ضد دولتي العدوان والاستعمار، فرنسا وإسبانيا. فالحركة الريفية كانت بهذه الصفة رد فعل ثوري قومي ضد الغزاة الأجانب، كما كانت انطلاقة وطنية كبرى تجاوبت وقتئذٍ في المغرب مع انطلاقات وطنية معاصرة في المشرق بقيادة الغازي مصطفى كمال في تركيا الجديدة، وسلطان الأطرش في جبل الدروز بسوريا زمن ثورتها على الاحتلال الفرنسي باسم (الانتداب)، بل أكثر من ذلك كانت حركة الريف الثورية انفجاراً جهادياً أيقظ الشعور القومي، وألهم الحماس الوطني في الأمة المغربية، وقوّى ما كان في معظم جبالها، وسهولها، وصحاريها من مقاومة مسلحة ضد العدو المحتل. وكل هذا حفز الشباب المغربي أكثر إلى أن يتهيأ للوثوب السياسي، ويتأهب للنضال التحريري، وقد تسلم الراية من يد المجاهدين الذين طالما أبلوا في ميدان القتال بلاء حسناً، فأدوا الواجب أحسن الأداء شهداء وأحياء، وخلفوا للشباب الوطني رسالة سامية مقدسة هي رفع مشعل النهضة الوطنية في المغرب، أرض الأحرار، والأبطال.

إن ثورة الريف التحريرية قد نفخت الروح في النفوس، وأحيت الضمائر، ومهدت السبل، ورسمت الاتجاهات للجيل الناهض، فالشعب مدين لها بما أحدثته من أثر فعال في نهضته الوطنية، وحركته السياسية، ووثبته التحريرية، وذلك في فترة المخاض، ومرحلة التكوين اللتين لم تطولا سوى بضع سنين، ثم كان الانطلاق المنبعث من إرادة الشعب الذي صنع الأمجاد، وأتى بالمفاخر عبر التاريخ.